المسألة الطائفية

قراءة في خطاب الشيخ الصفار

السَّيِّد إبراهيم الزّاكي

المسألة الطائفية

قراءة في خطاب الشيخ الصفار

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ-٢٠١٢م

مدخل

الطائفية شرٌّ مطلق

الطائفية من الأمراض المزمنة التي تنخر في جسد الأمة، وتفتك بنسيجها الداخلي، وتدمر وجودها الكياني، حيث لا يلبث هذا الوباء الفتاك والمتوحش أن يخبو، أو يكاد يخفت، حتى يعاود الظهور مرة أخرى، وبشكل أشرس وأفظع مما سبق، نتيجة لأسباب ذاتية، أو لأسباب موضوعية، مما يؤدي إلى إنهاك جسد الأمة وضعضعته، واستنزاف طاقات الأمة وهدر إمكاناتها، وإعاقة إرادتها في النهوض والتنمية والتقدم، وتكبيلها بالقيود المانعة عن السير على طريق المستقبل.

ومع كل هذا الإنهاك والضعف والتضعضع، ما زالت هذه الأمة تتعرض باستمرار إلى المزيد من عمليات الضرب والفتك والإبادة والنحر والدمار والتشويه، بسبب ضعف الإيمان، وقلة التقوى، وعدم الورع عن استعمال سلاح الطائفية المدمر، والاستعمال السيئ والمفرط لهذا السلاح ضد الذات، من خلال التحريض والتجييش المذهبي والطائفي، إلى العمل على تغذية حالات الإقصاء والنبذ والتخويف والتشكيك، وغيرها من ممارسات فتاكة مزقت حاضر الأمة وضيعت مستقبلها.

إن المتابع لخطاب الشيخ حسن بن موسى الصفار، يلحظ أن مسألة الطائفية ومشكلاتها وقضاياها، تحتل مساحة أساس من مجمل خطابه، وكأنها همٌّ يؤرقه ويشغل تفكيره، ويقضّ من مضجعه، فهو يرصد الكثير من المظاهر التي تتجلى فيها أمراض الطائفية، ويسلط الضوء عليها ويبرزها، ومن ثم توجيه النقد إليها، وتقديم الرؤى والحلول التي تساهم في

تنفيس هذه المشكلة وحلها.

ومع أنه يتحدث بصراحة، حين يشير إلى الخلفيات والأسباب التاريخية التي تكمن خلف هذه المشكلة، ومسؤولية التراث في ترسيخ ثقافة الطائفية، حيث يحاول إخضاعه للنقد والمراجعة، إلا أنه لا يذهب إلى الحدود القصوى في مساءلة هذا التراث، أو العمل على تفكيك بناه المؤسسة جذريًا، فخطاب الشيخ الصفار، في هذه المسألة، على ما يبدو، غير منشغل كثيرًا بتشريح النصوص المؤسِّسة لتراث الماضي وتحليله وتفسيره، بقدر ما هو معني أكثر بالحاضر وقضاياه وتبعاته، والتعاطي مع إشكالاته ومشكلاته وأحداثه التي تثقل كاهل الأمة، وذلك من أجل بناء حاضر مختلف، ومستقبل متطور.

المسألة الطائفية في خطاب الشيخ الصفار، وما يرد حولها من موضوعات وأفكار، يمكن رصدها ومتابعتها في مجمل أحاديثه وكلماته وخطبه وحواراته، وفيما يكتبه أو يلقيه في مناسبات حوارية وطنية أو دينية أو تقريبية، حيث ازداد اهتمامه بهذه المسألة بعد ما مرّ على الأمة من ظروف صعبة وحساسة ودقيقة من تاريخها، خصوصًا بعد احتلال العراق، وانفجار المسألة الطائفية فيه وتفاقمها، وخطر انفلاتها وانتقالها إلى مناطق أخرى، وتفشّيها في بيئات مجاورة، إن لم يتم حصارها ووأدها في مكانها وفي مهدها، مع العمل على تحصين البيئات الوطنية الأخرى من الانجرار إلى متاهاتها المظلمة والسوداوية، والسقوط في مهاويها، من خلال رفع مستوى المناعة الدينية والأخلاقية والقانونية، التي تمنع جميع فئات الأمة وقواها وأطيافها من الانجرار إلى مصيدتها والوقوع في شراكها البغيضة.

طريق الخلاص

إن ما يمكن فهمه واستخلاصه واستنتاجه من خلال مضمون خطاب الشيخ الصفار، أن العمل على تحصين البيئات الوطنية، ورفع مستوى المناعة لديها، يتطلب رفع مستوى وعي الإنسان فيها، وخلق وعي اجتماعي مسؤول، وذلك من خلال التغيير الجذري والعميق لمنظومة الأفكار الاجتماعية التقليدية السائدة والمتوارثة منذ قرون، وخلق نماذج بديلة ومتطورة في الإدارة والاجتماع السياسي، تتجاوز النماذج الأبوية والقبلية والبطريركية

التسلطية، حيث ما زالت الأمة تعاني من حالة الاستبداد والتعصب، واستمرار الركود الفكري والاجتماعي والانسداد السياسي، وظاهرة الصراع الدموي بين بعض أطيافها، وبينها والسلطة، الذي ساد خلال تاريخ الأمة الطويل.

ولن يتحقق هذا التغيير والإصلاح المنشود، كما لن تتجاوز الأمة إشكالات الماضي ومعضلات الحاضر، إلا بإيجاد إصلاح فكري واجتماعي وسياسي عميق، تتطور معه منظومة الحكم والسلطة والإدارة، ليكون ذلك القاعدة التي يقام عليها البناء التأسيسي لإقامة دولة مؤسسات عصرية حديثة متطورة، وليس مجرد إصلاحات فوقية وسطحية وشكلية، لا تسمن ولا تغني من جوع.

ولعلّ ما يمكن ملاحظته من خلال متابعة خطاب الشيخ الصفار، هو اهتمامه العالي بالمفاهيم والقيم والأخلاقيات، وتسليطه الضوء المركز عليها، والإعلاء من قيمتها في حياتنا العملية والعامة، وتأكيده على بث ونشر معانيها والتبشير بها، وترسيخ مضامينها بيننا، والعمل بإخلاص على تمثلها في واقعنا وحياتنا اليومية المعيشة، حيث لا قيمة ولا معنى لها إن لم نتمثلها، أو إن ظلت مجرد مفاهيم طوباوية، وتعابير رومانسية، ترد وتتكرر على ألسنتنا، وفي أحاديثنا وخطاباتنا مجردة من مضامينها.

ويمكن لقارئ نصوص الشيخ الصفار والمتابع لها، التقاط ورصد ما يرد ويتكرر في خطابه من مفاهيم كثيرة، يؤمن بها ويدعو إليها، من مثل مفاهيم الحرية، وحرية إبداء الرأي والتفكير والاعتقاد، والإيمان بالديمقراطية والتعددية والاختلاف والتنوع، ونشر روح التسامح والمساواة بكل معانيها، وتكافؤ الفرص والعدالة، والعدالة الاجتماعية، وحقوق الإنسان والمواطنة والأخوة، والتقريب والتقارب والوحدة والحوار والتعايش واللاعنف، والتعليم القويم والتنشئة السليمة والتربية الحسنة، ورفض الظلم والخنوع والاستبداد، وإلى غير ذلك من مفاهيم ومصطلحات كثيرة ترد في خطاب الشيخ الصفار، حيث يؤكد على ضرورة فهمها وتطبيق معانيها في الحراك الفكري والثقافي والاجتماعي والسياسي على أرض واقع مجتمعاتنا، وفي سلوكنا اليومي والحياتي، من أجل الدخول في العصر الحديث،

القائم على الحريات، وإلغاء الامتيازات القائمة على المحسوبيات، بالإضافة إلى إعلان المساواة القانونية والسياسية للمواطنين كلهم.

والشيخ الصفار يرجو أن تأخذ هذه المفاهيم كلّها حظها في الرواج والانتشار والتغلغل في ثقافة الإنسان المسلم وسلوكه، كي تؤدي مع الزمن إلى تكوين واقع جديد ومختلف عمّا هو سائد من ثقافة طائفية مصحوبة بمعاني التفرقة والتعصب والاستبداد والإقصاء باسم الدين وقيمه، حيث يُغلِّف البعض قناعاته بقناع ديني زائف لتبرير تجاوزاته البغيضة وأعماله الشريرة، في الوقت الذي لا ينفك الشيخ الصفار عن الالتزام بإبراز القيم الدينية الأصيلة، وبتأصيل القيم الإيجابية مهما كان مصدرها، والمواءمة بين المفاهيم الحديثة والمعاصرة والتراث، والدعوة إلى تبيئتها وتثبيتها قيمًا أصيلة وراسخة، على أساس أنها جزء من قيم الدين الأساس المعتبرة، أو أنها لا تتعارض مع مقاصد الدين.

التغيير بالحوار

إن مشكلة الطائفية وما يرافقها من أذى وضرر يصيب الإنسان والمجتمع، لن يتم فهمها ومعرفة أبعادها وانعكاساتها، بالإضافة إلى مصادر نشأتها، ومن ثم السعي إلى اجتثاث جذورها والتخلص منها، إلا من خلال إعادة صياغة عقلية الإنسان المسلم وثقافته بالتربية والتثقيف والتعليم، ومن خلال طرق وأساليب الحوار المختلفة، التي يشترك ويساهم فيها جميع مكونات المجتمع، بدون إقصاء أو استثناء لأحد، لنفض الأفكار البالية القابعة في الرؤوس منذ زمن طويل، وسعيًا إلى تجاوز الركود الفكري والاجتماعي، الذي ساد قرونًا ماضية، وورثنا الكوارث والأزمات والتخلف، من أجل إحداث تحولات فكرية عميقة، وتحديث فكري متين، تتطور معه منظومة الحكم والسلطة والإدارة.

إلا أن المعضلة هنا، التي دائمًا ما نشكو ونعاني منها، ونضجر بسببها، وخصوصًا حينما نتحدث عن موضوع الحوار، تكمن في أن أهل الحوار والمؤمنين به، والمنتسبين إلى مدرسة الحوار، والمنتمين إلى ثقافتها، هم قلة، على الرغم من دعوة الدين وحثّه الدائم على التمسك بهذا النهج والاقتداء به، لما يختزنه مفهوم الحوار من ثروة هائلة لا تنضب، حيث

تحتاج إلى من يكتشفها ويستثمرها الاستثمار الأمثل، ليس فقط من أجل حاضر هذه الأمة ومستقبلها، وإنما أيضًا من أجل ماضيها، ماضيها الذي يحتاج منا إلى المراجعة والتقييم والنقد واستخراج العبر، وكل ذلك بالطبع من خلال التفكير والتفكر، والحوار النقدي الخلّاق.

من الممكن أن يختلف أي أحد مع الشيخ الصفار وأفكاره ورؤاه، وهو أمر طبيعي ولا ضير فيه، بل هو أمر مستحسن ومطلوب ومرغوب فيه، لما في الاختلاف والتعدد من فوائد جمة لا تحصى. وإذا كان هناك اليوم من يعارض نهج الشيخ الصفار وأفكاره، فإنه لمن المؤكد أن هناك على الطرف الآخر من هو مقتنع بنهجه وراضٍ عن أفكاره، حيث تحول هذا النهج إلى حالة وتيار له شعبيته وثقله وموقعه، ويضم عددًا كبيرًا من العلماء والخطباء والمثقفين والناشطين اجتماعيًّا.

وما يميّز الشيخ الصفار، ضمن هذا الإطار، أنه شخصية حوارية، ويمارس نهجًا استيعابيًا يشجع على التقارب والتعاون، والقبول بالتعددية والاختلاف في الرأي، فهو متمرّس في هذا الشأن، وذو خبرة عالية في الحوار، تجيد أصوله وفصوله، نتيجة ما راكمته من تجربة وممارسة امتدت على مدى سنين طويلة، تحولت إلى خبرة عريقة، قلّ أن تجدها عند غيره ممن لم يخوضوا مثل هذه التجارب الحوارية، أو لم يطوروا إمكانات وأدوات الحوار في ذواتهم وشخصياتهم.

ولعل التجارب الكثيرة التي انخرط وشارك فيها الشيخ الصفار عمّقت تجربته الحوارية، وأكسبته خبرة واسعة في معرفة أساليب الحوار وطرقه المتنوعة، فالتراكم المعرفي الذي لا يصاحبه ويتبعه الانخراط في تجارب حوارية عملية، غالبًا لا تضيف إلى صاحبها خبرة وتراكمًا نوعيًّا في مجال الحوار والجدل والسجال؛ لأن تعدد التجارب الحوارية وتكرارها يصقل هذه القدرة عند الفرد، وتتحول مع الزمن إلى خصلة وسجية من مكوناته الشخصية وعاداته الطبيعية، التي يمارسها برتابة وبدون تكلف.

من الأشياء الأخرى التي يتميَّز بها الشيخ الصفار أيضًا، أنه صاحب رؤية ومشروع

واضح المعالم والخطوط، ولا يصعب على أيّ متابع لخطابه إمكان معرفة هذه الرؤية ومعاينتها وتلمسها، من خلال أقواله وكتاباته وممارساته وأفعاله، وهو الأمر الذي يمكن للجميع رصده ومتابعته، ومن ثم تمكِّنهم هذه المتابعة من نقده ومحاسبته، عندما يحين موعد الحساب، والوقوف للتحاسب والاحتساب، سواء كان ذلك بالكلمة والقول والكتابة، أو بالحوار المباشر والصريح، فالذين يتصدّون للشأن العام وقيادة المجتمع وتوجيهه ليسوا ملائكة، ولا ينبغي لهم أن يكونوا كذلك، بل هم بشر يصيبون ويخطئون، وما علينا إلا أن نراقب ونرى وننتقد ونحاسب، بعيدًا عن لغة القوة والشتيمة والتجريح والتسفيه، بل من خلال الكلمة الطيبة والقول الحسن وقوة المنطق، لا بمنطق القوة.

والشيخ الصفار يُسلِّم بأن كل من يعمل في الشأن العام عليه أن يتوقع وجود معارضين له، يخالفونه في الرأي، أو يثيرهم بروز دوره وتصدّيه، وعلى الإنسان ألا يطمع في رضا الناس كلّهم عن شخصه ودوره، أو موافقتهم جميعًا على آرائه وتوجهاته كلّها، فكما لديه رأي، للآخرين آراؤهم ومن حقّهم التعبير عنها، وليس هناك صاحب رأي وموقف محقًّا كان أو مبطلًا لم تواجهه معارضة في مجتمعه، إلا أن ما يتمناه الشيخ الصفار هو ترشيد أسلوب الخلاف، بأن يتجه إلى مناقشة الرأي والموقف، بدل التجريح والتسقيط الشخصي، حيث يطرح كل طرف مشروعه ورؤيته البديلة، بدل أن ينشغل بنقد الآخرين فقط والعمل ضدهم.

ومن خلال وحي تجربته الشخصية، يشير الشيخ الصفار إلى أنه استفاد من وجود المعارضين له لاكتشاف الثغرات ومواضع الخلل في طروحاته ومشاريعه، فالإنسان ليس معصومًا، وقد يفيده مخالفه في تشخيص نقاط ضعفه، لذلك من المهم الابتعاد عن المكابرة، والمبادرة إلى الإصلاح والتصحيح، فوجود المعارضين يستثير همة الإنسان وتحديه على الصعيد الشخصي، وعلى مستوى التيار الذي معه، فيذكي حالة التنافس في سياقها الإيجابي.[1]

---

(١) من كتاب المذهب والوطن. ص ١٦١ ـ الطبعة الثانية ٢٠٠٨ الكتاب صادر عن أطياف للنشر والتوزيع، القطيف ـ المملكة العربية السعودية.

جرأة نقدية وسبق زمني

إن خطاب الشيخ الصفار حول المسألة الطائفية، يتوزع على عدد من المحاور الرئيسة المهمة، ويتعرض للعديد من القضايا والمسائل، ويثير الكثير من المشكلات والإشكالات، التي يمرّ بها واقع الأمة، بالإضافة إلى ما يتضمنه خطابه من اقتراحات وأفكار تساهم في حلّ مشكلة الطائفية ومعضلاتها، إلا أن الملاحظ أن كل تلك الأفكار والرؤى قد توزعت وتناثرت على مجمل خطابه، وغير محصورة ضمن كتاب واحد وبشكل تفصيلي ومبوّب.

وهذا الكتاب محاولة في رصد وتحديد الخطوط العريضة، والملامح العامة لرؤية الشيخ الصفار في هذه المسألة والتوقف عند مفاصلها، وأبرز الأفكار حولها، ومن ثم التعريف بها، وإلقاء مزيد من الضوء عليها، من خلال حصرها ووضعها ضمن محاور أساس، وخطوط عريضة، مصنفة ومبوّبة ضمن وحدة موضوعية، وذلك حسب تنوع الأفكار الواردة في الخطاب، مع إمكان التعقيب عليها، وإثارة ما يمكن من تساؤلات عنها وفيها وحولها.

وعلى الرغم من أن رؤية الشيخ الصفار حول المسألة الطائفية مبثوثة وموزّعة في مجمل خطابه، إلا أنه مع ذلك، يمكن القارئ أن يلحظ دقة توصيفه للمشكلة الطائفية ومنابع جذورها، ومكامن الخلل في واقع الأمة اليوم، وعمق الأزمة التي تعيشها، حيث يتحدث الشيخ الصفار حول هذه المشكلة بشكل واضح ومباشر، ولا يخلو كلامه من الجرأة، والكلام الصريح، على الرغم من تكلِفة هذه الصراحة، وتكلِفة مواجهة المدّ الطائفي المتوحش، وتكلِفة الوقوف أمام موجاته العاتية، بالإضافة إلى الثمن الباهظ الذي يمكن أن يدفعه من يجاهر بكلمة حقّ في الدعوة إلى مواجهة الطائفية وصدّ تمدّدها، والدعوة إلى الوحدة والتقارب والتآلف، ومجابهة باطل التفرقة والتمزق والانقسام.

إن خطاب الشيخ الصفار النقدي والصريح للأوضاع السياسية والدينية والاجتماعية والثقافية القائمة، ودعوته إلى تجاوز نمط التفكير السائد، وتحديث مجتمعاتنا بالأفكار الجديدة، وتبنّيه الدعوة إليها، والتزامه التبشير بها، ليس وليد لحظة الانفجار الذي عصف بالمجتمعات العربية عندما أقدم الشاب التونسي محمد البوعزيزي على إضرام النار في

جسده في ١٧ كانون الأول (ديسمبر) ٢٠١٠، احتجاجًا على الظروف الاجتماعية والمعيشية الصعبة التي كان يمر بها في مجتمعه، حيث شكل عمله هذا نقطة انطلاق لتحرك شعبي واسع عمّ العديد من البلاد العربية، بدا وكأنه إيذانًا ببدء حدوث تداعيات وتحولات وانقلابات كبرى في المنطقة.

لذلك يمكن الجزم بأن خطاب الشيخ الصفار الإصلاحي يعدّ سابقًا على لحظة الاحتراق بزمن ليس بالقصير، ففي الوقت الذي كانت فيه الجماهير العربية تنادي بأعلى أصواتها، مطالبة بالحرية والكرامة والعدالة والمشاركة، ورافعة شعارات التغيير والإصلاح، وداعية إلى تحرير الإنسان/ المواطن من قيود الاستبداد والظلم والقهر والتخلف، كانت هذه المطالب والقضايا والأفكار والمفاهيم والقيم تشكل عصب خطاب الشيخ الصفار الإصلاحي، حيث يمكن للقارئ ملاحظة أن جميع الكتب التي اتخذتها مرجعًا ومستندًا في تأليف هذا الكتاب، هي مطبوعة وصادرة قبل تلك الشرارة التي أشعلها وأطلقها البوعزيزي فأحرق بها جسده.

كما يمكن الإشارة أيضًا إلى أن نبتة مشروع وفكرة هذا الكتاب بُذرت حين بدأت قراءة كتاب الشيخ الصفار «الطائفية بين السياسة والدين» الصادر عام ٢٠٠٩ عن المركز الثقافي العربي، وذلك في إطار التحضير والإعداد لحلقة نقاشية حول الكتاب مع المؤلف، التي أقيمت في مركز آفاق للدراسات والبحوث بتاريخ ١٣/ ٠٧/ ٢٠١٠، وهو التاريخ الذي يسبق لحظة إحراق البوعزيزي لنفسه بنحو خمسة أشهر تقريبًا.

لا يمكن الشك بوجود رؤية إصلاحية عند الشيخ الصفار، يمكن رصدها وتحديدها من خلال متابعة خطابه، إلا أن السؤال عن نتيجة وحصيلة هذا المشروع، ومقدار ما تحقق وتجسد منه على أرض الواقع، يبقى أمرًا مشروعًا وخاضعًا للتقييم، على أن ما يمكن إضافته هنا، هو أن الأفكار والمفاهيم والقيم الجديدة، والسعي إلى تغيير نمط التفكير السائد، يحتاج إلى زمن وعمل تراكمي، قد يطول وقد يقصر، بناءً على ظروف كلّ مجتمع، حيث يمكن أن تتراوح نتيجة هذا الحراك بين النجاح والفشل.

إنه لمن المؤكد أن الأزمات والنزاعات والقلاقل والتحديات التي يمر بها أي مجتمع، تساهم بدون أدنى شك في تسريع اختمار الأفكار الجديدة، واستيعابها وتمثلها، فالمجتمعات الحية التي تكافح من أجل التغيير والانعتاق من جور الظلم والاستبداد، وقيود عصر السياسات التقليدية، وتسعى إلى إعادة صياغة حياتها بما يتفق والتطور الحضاري السائد في هذا الزمن، تشهد في العادة حوارات ونقاشات وجدالات واختلافات حادة وصاخبة بين أطرافها وأطيافها وقواها المختلفة، تساهم في تفكيك البنية الثقافية التقليدية السائدة، وتخلق أرضية خصبة ومناسبة لعمليات التغيير والتحول، وتتهيأ معها، أو نتيجة لها، ثقافة مرنة قادرة على استيعاب وإدماج المفاهيم الجديدة وتقبلها وإعادة إنتاجها بصورة تستوعب المتغيرات الواقعة والحادثة.

خلاصة القول: إن تزايد الحديث اليوم عن المسألة الطائفية، يشير إلى تفاقمها المتوسّع والمطّرد، وانتشارها المتزايد والمتعاظم في حياتنا المعاصرة، وتداعياتها السلبية وانعكاساتها المدمرة على حياة البشر، حيث أخذت الكثير من المجتمعات والدول تعاني من تداعيات ومفاعيل هذا الأمر، وما ينتج عنه من سلبيات خطيرة ومكلفة، تهدد كيان الأمة وشعوبها بالتفكك والضعف والانهيار، ومن ثم ما ينعكس سلبًا على سلامة وقوة هذه الأمة ومنعتها.

والسؤال: ما حجم وكبر المسألة الطائفية في مجتمعاتنا؟ وإلى أي مدى بلغ مستوى تفشّيها بيننا؟ وما هي المظاهر والأشكال التي تتجلى فيها هذه المسألة؟ وأين تكمن جذور هذه المشكلة ومسبّباتها؟ وما هي البيئة والظروف التي تساعد على نموها واستفحالها وانتشارها؟ وما هي آثارها وانعكاساتها وتداعيات وأضرارها على الفرد والمجتمع والدول والأمة؟ ما هي الحلول التي يقترحها الشيخ الصفار لحل هذه الإشكالية؟

هذا ما نحاول الإجابة عنه في هذا العمل.

الفصل الأول

مقدمات أولية

أولًا:

ملامح من سيرة الشيخ الصفار ومسيرته

للشيخ الصفار مكانة دينية مؤثرة وسط البيئة التي يعيش فيها، حيث يحظى باحترام الكثير من مكوناتها وأطيافها وطبقاتها وفئاتها المختلفة، فالرجل صاحب شخصية منفتحة على الطرف الآخر، من قوى وتيارات اجتماعية وسياسية، وفعاليات وشرائح شبابية، أيًّا تكن هوياتهم وانتماءاتهم وتوجهاتهم، أو المنظومة الدينية والأيدلوجية والفكرية التي ينتمون إليها، وهو لا يشعر بالانقباض والتشنج من لقاء الآخر والاستماع له ولنقده، ولأفكاره وهواجسه وطموحاته وتطلّعاته، وهو دائمًا ما يهيئ الظروف والأجواء التي تساعد في تمهيد الطريق التي تفتح المجال للولوج إلى الحوارات الجادة، والانطلاق في رحاب الآفاق الأوسع والأرحب من مجالات النقاش والحوار.

وعلى الرغم من أن البعض ممن ينتمون للحالة الدينية كرَّسوا لأنفسهم في نفوس أتباعهم ومريديهم موقعية وهالة من الهيبة، تمنع الكثيرين من أبناء المجتمع أن يتكاشفوا معهم، وأن يكونوا صريحين وجريئين في مخاطبتهم، إلا أن الشيخ الصفار يقول إنه وفي مجلسه حاول أن يكرس عادة المكاشفة والمصارحة، «من خلال إتاحة الفرصة للناقد، حتى الناقد لي والمعترض على بعض آرائي ومواقفي وأفكاري، بأن يتحدث بكل صراحة، حتى وإن أدى ذلك في بعض الأحيان إلى تحسّس بعض الحاضرين ممن يرى أن مثل هذه الطريقة في التخاطب لا تجوز في مجلسي، ولكني أُطبّع الحالة وأُهوّن من الأمر».

ويعتقد الشيخ الصفار أن هذه الهيبة والهالة التي يمارسها الأتباع والمريدون مع مشايخهم

ينبغي أن تزول، فالنبي صلى اللّٰه عليه وعلى آله وسلم حينما وقف أمامه إعرابي وكان يرتعد قال له: **هوّن عليك، فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد في مكة.** فكلما كان عالم الدين أكثر تواضعًا مع الناس، استطاع أن يدخل إلى قلوبهم أكثر، وأن يؤثر عليهم ويستقطبهم أكثر، خصوصًا ونحن نعيش في عصر نجد فيه كبار القادة وكبار الساسة ممن بيدهم مصادر أزمة القوة والسلطة، تتقبل حالة النقد، والناس لديهم الجرأة في انتقادهم والاعتراض عليهم ومخالفتهم، لذلك لا ينبغي للعالم ولرجل الدين أن يتلذذ أو يرتاح بأن تكون له هيبة مانعة من الانفتاح عليه أو مصارحته، بل يجب عليه تقبل المصارحة والمكاشفة؛ لأن ذلك هو الأسلوب الأمثل والمناسب لمعالجة الملفات المزمنة والحساسة.(١)

يمتلك الشيخ الصفار الكثير من السجايا النفسية والخصال الشخصية، ما يتيح له فرص بناء علاقات ودّ وصداقة إنسانية، تساعد على توثيق عرى الروابط والعلاقات الحميدة والحميمة مع من يلتقيهم ويقابلهم، بعيدًا عن الشعور بالتكبر والتفوق أو التعالي عليهم، أو الانكفاء على الذات، والتقوقع داخل الأطر الضيقة. فهو يؤكد أنه وجد من خلال تجربته في العلاقة مع الآخر، أن للانفتاح والتواصل مع الآخرين عظيم الأثر في تجاوز الحواجز النفسية، وتصحيح الانطباعات والتصورات الفكرية، والتجاوب مع دعوة الحوار والتقريب، لذلك فهو دائمًا ما يدعو ويشجّع على المبادرة والجرأة في موضوع التواصل والوحدة والتقارب، حيث يرى أن الأجواء العامة في الأمة تصب في خدمة هذا الهدف، وتدفع باتجاهه، إلا أن المشكلة كما يرى، أن القلة هم من يسلك هذا الطريق بيننا، بما لا يتناسب وأهمية القضية وخطورة التحدي، فالذين يحضرون المؤتمرات، ويقومون بالزيارات، وينشئون العلاقات والصداقات مع أمثالهم ونظرائهم في الضفة الأخرى، هم دائمًا القلة القليلة.(٢)

إن هذه الروح الإنسانية، والسجايا والخصال النفسية، التي تنطوي عليها شخصية

---

(١) من كتاب المذهب والوطن. ص ٣٢

(٢) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٢٧ ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٩ ـ المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.

الشيخ الصفار، هي وليدة التكوين النفسي، وصفة راسخة من سماته الروحية الذي نشأ عليها، وربى نفسه على تمثلها، حيث تتبدى في أخلاقه الرفيعة والسمحة، وتتجلى في تواضع سلوكه، على الرغم من كل المشكلات والضغوطات الاجتماعية والسياسية التي تواجهه وتثقل كاهله، حيث ظل كما هو على هدوء طبعه وطيبته ورقي أخلاقه في التعامل مع الآخرين كلّهم بروح التسامح والسمو والتجاوز، حيث لا تزيده كثرة المشاكلات والمصاعب، إلا مزيدًا من العمل والنشاط والعطاء، في عملية تحدٍّ للواقع الصعب، وتعبيرًا عما يختزنه في نفسه من تطلّعات وأهداف ومشاريع، لا تتحقق إلا بوجود أصحاب الهمم العالية، والإرادات الصلبة المقدامة، من الذين يحدوهم الأمل دائمًا بالتغيير في غدٍ أفضل ومستقبل واعد.

بين مرحلتين

تُعَدُّ مرحلة ما بعد منتصف سبعينيات القرن الماضي أحد أهم الفترات الزمنية الصعبة التي واجهة الشيخ الصفار، وشكلت التحدي الأبرز في مسيرته النضالية، حيث عُدّت هذه الفترة الزمنية فاصلًا بين مرحلتين وزمنين مختلفتين، احتدم فيها الصراع بين خط تقليدي محافظ، وآخر كان يتطلع إلى التجديد والتطوير، نتيجة اختلاف البيئة الاجتماعية والثقافية التي كونت خلفية كلا الطرفين، في تعبير واضح عن صراع للأجيال، حرص فيه الخط التقليدي على الاحتفاظ بمواقعه والتمسك بها.

لقد كانت الحالة الدينية في بيئة الشيخ الصفار ومجتمعه تتسم بالتقليدية والركود، والخطاب الديني السائد فيها ذا طبيعة وعظية، يقتصر على تبيين الأحكام الشرعية، وسرد السير التاريخية، وإذا وجد أحد من العلماء والخطباء ممن يتوسّم فيه التطوير والتجديد، فإنه غالبًا ما كان يراعي الأجواء العامة التقليدية أو يستسلم لها، ولا يستطيع تجاوزها وتخطيها.

وفي ظلّ هذه الأجواء التقليدية الراسخة، عمل الشيخ الصفار باندفاع كبير واهتمام جاد على تقديم رؤية أخرى وممارسة دور مختلف وأداء غير تقليدي، يقوم أساسًا على التركيز

والاهتمام بالأجيال الشابة والناشئة لتطوير مستوى وعيها الثقافي والديني، فجيل الشباب، كما يقول الشيخ الصفار، كان حينها يعاني من الضياع، وجلُّهم يعيشون اللامبالاة، والجهل الثقافي، وقسم منهم تأثر بالتيارات غير الإسلامية، وأما الفئة المتدينة فقد كانت تقليدية، وتشعر بالعجز واليأس تجاه المشاكلات والتحديات.

ونتيجة لهذا التخلف والجهل والعجز الذي كانت تعيشه بيئته الاجتماعية، عمل الشيخ الصفار جاهدًا على وضع البرامج التثقيفية المناسبة التي تساهم في تطوير العمل التربوي والتوجيهي في أوساط الشباب، وتنشر الثقافة والوعي الديني في المجتمع، وتساهم في تحريك النشاط الثقافي العام في الوسط الاجتماعي، حيث كان من أبرز الأنشطة التي عمل وأشرف على إنجازها، تتمثل كما يقول **أولًا**: في تشجيع الشباب للتوجه لدراسة العلوم الدينية، **وثانيًا**: نشر الكتب والتسجيلات الدينية بقدر المستطاع، **وثالثًا**: تشكيل حلقات لدراسة القرآن الكريم والتدبر في آياته، **ورابعًا**: إقامة الندوات والمحاضرات والاحتفالات في المناسبات الدينية، وتشجيع الشباب على إدارتها وكتابة وإلقاء المواضيع فيها، إضافة إلى إلقاء الخطابات الدينية والتثقيفية التوعوية في المناسبات الدينية بلغة تتجاوز الطرح التقليدي.

لقد انصبّ اهتمام الشيخ الصفار وتركيزه في هذه المرحلة على صنع الشخصية الإسلامية، وتحصين الناشئة والشباب من الانحرافات الفكرية والسلوكية، وتشجيع المجتمع على النهوض والتطور في واقعه الديني والثقافي والاجتماعي، لافتًا إلى «أننا في الأصل كنّا مهتمين بتحفيز الشباب نحو الثقافة والوعي، وتوجيههم نحو التدين؛ لأن أكثر الشباب آنذاك ما كانوا يهتمون بحضور صلاة الجماعة في المساجد، ولا تعلم المسائل الشرعية، وكانت تنتشر في أجواء بعضهم الانحرافات الفكرية والسلوكية، فكان تركيزنا بهذا الاتجاه لاستقطاب الشباب نحو الحالة الدينية».[1]

---

(١) من كتاب المذهب والوطن. ص ١٥٧

حضور ثقافي دائم ومتجدد

لقد ساهم الشيخ الصفار في إثراء المشهد الثقافي بإنتاجه الفكري المتنوع، حيث تعدّدت اهتماماته وموضوعات اشتغالاته وانشغالاته، من خلال مواكبته للمتغيرات الحياتية المعاصرة، ولمتطلبات الواقع المعيش وتحولاته، والسعي إلى تجاوز مشكلات هذا الواقع من خلال طرح الحلول لها، حيث غالبًا ما تتسم مقارباته للأمور بالصراحة والجرأة في الطرح، والشجاعة في مناقشة القضايا والإشكالات، حيث غالبًا ما يسبق فيها غيره، من الذين لا يلبثون أن يلحقوا به، ويتبنون أطروحاته بشكل صريح ومباشر، أو بشكل غير مباشر.

إنه يتبنى خط الانفتاح والتواصل والوحدة، ومشروعه الثقافي والاجتماعي والسياسي مبني على أساس الانفتاح السياسي والفكري، من خلال أفكاره التأصيلية، وأطروحاته التنظيرية، واحتضانه ودعمه للتوجهات الوحدوية والتقريبية، وتشجيعه للحوارات الوطنية وتوجهات المصارحة والشفافية، لإدراكه بخطورة المرحلة ومخاطر الاستقطاب الطائفي وأثره السيئ على وحدة الأوطان وتماسكها، والخوف من تصوير ما يقع ويحدث من أحداث وتطورات وكأنها صراع بين الطوائف والمذاهب، حيث يرفض الدخول في أي جدل أو سجال مذهبي؛ لأنه لا يراه مفيدًا ولا مجديًا، بل يعتقد أنه يضر بوحدتنا الإسلامية والوطنية، وخاصة في هذه الظروف العصيبة التي تمر بها الأمة.

يشير عبد الجبار الرفاعي في مقدمة كتاب الشيخ الصفار «**الحوار والانفتاح على الآخر**» إلى أن مساهمات الشيخ الصفار الفكرية والثقافية، تمثل خلاصة تجارب علمية متنوعة في التفاهم، والحلقات النقاشية، وغرف الحوار، والمنتديات الثقافية، والمؤسسات الاجتماعية، مع أطياف عديدة. وتكمن أهمية هذه التجارب كما يضيف الرفاعي، في أنها حاولت أن تقتحم الممنوع، وتتجاوز النزعات التكفيرية لدى بعض الجماعات الأصولية والسلفية، المنغلقة والمنكفئة على نفسها، فلم يجد فهم الشيخ الصفار للإسلام ما يحظر عليه الإصغاء إلى أي إنسان ومحاورته؛ لأن اللَّه تعالى أصغى للشيطان وحاوره، مثلما وجد ذلك

الفهم الإنساني للإسلام أن التسامح واحترام الآخر والانفتاح على البشرية بأسرها، هي من أجلى خصائص هذا الدين وسماته، تلك السمات التي طمستها ثقافة الكراهية، وما تفضي إليه من تعميم لحالات البغضاء والعدوانية وغيرها من القيم الرديئة، والعاهات الأخلاقية.(١)

يوصف الشيخ الصفار بأنه شعلة من النشاط الدائم والحركة الدؤوبة في مجالات العلم والدعوة والخطابة والكتابة والتواصل، والمشاركة الدائمة في المحافل والمنتديات واللقاءات والمؤتمرات، وله حضور في مجال العمل الاجتماعي والثقافي والسياسي والإعلامي، ويعيش حياة مليئة بالجدّ والاجتهاد والمثابرة الدائمة، من أجل تحقيق ما يصبو إليه وما يرجوه من تطلّعات، على الرغم من صعوبة الجمع والتوفيق بين كل هذه الانشغالات المتعددة والنشاطات المتنوعة، مع تحمل ضغط العمل وأعبائه، والقيام بأدائه بطريقة مرضية وخلّاقة في وقت واحد، وهو الأمر الذي لا يتحقق إلا للأشخاص من ذوي الهمم العالية والتطلعات الرفيعة.

لقد اشتهر الشيخ الصفار وعرف خطيبًا منخرطًا في سلك الخطابة منذ نعومة أظافره، حيث ولد ونشأ وترعرع في عائلة مهتمة بالشأن الديني والاجتماعي، وهو الأمر الذي ساهم في بلورة الرغبة لديه لتقمص دور الخطيب الذي يخطب في الحاضرين، نتيجة حضوره المناسبات الدينية، فبدأ يمارس دور الخطيب مع الأطفال منذ الصغر، من خلال التقاط ما يسمع من الخطباء والعلماء وإعادة طرحه، وهو ما لفت نظر وانتباه الكبار الذين أخذوا يحضرون ليستمعوا له، ويدعونه ليخطب في مجالسهم، «فصرت وعمري آنذاك في الثانية عشرة أمارس الخطابة كأيّ خطيب من الخطباء الموجودين في البلد، ولصغر سني كان ذلك لافتًا، وكانت هناك حفاوة من أبناء مجتمعي وتشجيع لي على هذا المسار، ثم عندما سمع الأهالي في الإحساء أن هناك صغيرًا في السن يقرأ ويحفظ ويخطب دعيت للخطابة في مناطقهم، وبعدها دعيت للخطابة في الكويت والبحرين، وقد شفع لي صغر سني في

---

(١) كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ٦ ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٤ ـ دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

الاندفاع أكثر للتخصص في دراسة العلوم الشرعية، بعد أن أنهيت المرحلة الابتدائية».[١]

تثقيف ذاتي مستمر ومتواصل

كما عرف عن الشيخ الصفار انشغاله بالكتابة والتأليف والخطابة منذ وقت مبكر، وله العديد من المؤلفات في مجالات متنوعة، حيث يعتبر هو نفسه هذا النشاط جزءًا من حياته وسيرته، وميدانًا من ميادين العمل المكرّسة لخدمة الدين والأمة، فالكتابة والتأليف، كما يقول، ميدان من ميادين الدعوة إلى اللّٰه تعالى، وكما يجاهد الإنسان المؤمن بلسانه، عليه أن يشهر سلاح القلم للدفاع عن المبادئ والقيم، ومن أجل نشرها وبثها في أوساط الأمة، وهو حريص على الالتزام وتبني الأفكار الرسالية الأصيلة، التي تستنهض جماهير الأمة، وتدعوها للوحدة والتطلع إلى تفعيل الجانب الثقافي والمعرفي، وتؤكد على اجتناب العنف، وعلى الالتزام الأخلاقي في الدعوة إلى اللّٰه سبحانه وتعالى.[٢]

ويغلب على مؤلفات الشيخ الصفار، كما يشرح هو ذلك، بأنها «تعالج ما يشعر به من مشاكل في ساحة العمل، وفي وسط المجتمع، فهي ليست كتابات تنظيرية أو فكرية مجردة، وإنما هي من وحي هموم العمل، وتحمل المسؤولية، فكما أخطب وألقي في محاضراتي ما أراه مناسبًا، وما أراه مفيدًا لساحة العمل، ولأوضاع المجتمع، كذلك الشأن بالنسبة للكتابة، أنجزت عددًا من الكتب والكتيبات، وغالبًا ما تكون هذه الكتابات من وحي اهتماماتي العملية، ومنبثقة من معايشتي للقضايا والمشكلات في الوسط الاجتماعي، فتكون تارة محورًا للخطابة، وتارة أخرى محورًا للكتابة».[٣]

إنه ليس من العبث أن يقترن الكفاح من أجل التغيير، ببذل الجهد من أجل تطوير الذات وتنمية قدراتها ورفع مستواها العلمي والثقافي. وضمن هذا الإطار يتحدث الشيخ

(١) من كتاب المذهب والوطن. ص ٣٧

(٢) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني. من حوار مع مجلة المنبر الحسيني الفصلية. الطبعة الأولى ٢٠٠٩، دار الصفوة ـ بيروت، لبنان.

(٣) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني. من حوار مع شبكة المعصومين الأربعة عشر الإلكترونية.

الصفار عن مشوار تجربته في مجال الخطابة قائلًا: «إنه بالإضافة إلى الجرأة وعدم التهيب، فإن الإبداع في هذا الشأن يحتاج من الخطيب إلى الاهتمام بالتثقيف الذاتي، فمع أهمية الدراسة العلمية للخطيب، إلا أن سعة المعرفة والاطّلاع هي التي تمكنه من حسن العرض لأفكاره، وتقديم الخطاب المتميز، والتأثير في المستمعين، مضيفًا، لقد استفدت كثيرًا من القراءة والمطالعة الدائمة للكتب والمجلات والجرائد».

بالإضافة إلى ذلك، يعتبر الشيخ الصفار أن العلاقة والانفتاح والتواصل مع ذوي الرأي والفكر والعلماء والمهتمين بالشأن العام، يساعد على بلورة الأفكار وإنضاجها، أما الانعزال والتقوقع على الذات، فإنه يحرم الخطيب من مواكبة التطورات الفكرية والاطّلاع على القضايا الاجتماعية.(١)

تجسير الفجوة بين القول والعمل

إن الانشغال بالعمل الميداني، والممارسة الميدانية، دائمًا ما ترفد العمل النظري بقوة الأفكار وعمق الرؤية وبعد النظر، كما أن الجهد النظري له دوره البنّاء وبعده المهم في تحسين طرق العمل وبلورته ونضجه، وتطوير أبعاده، وفتح آفاقه نحو مجالات غير مطروقة، أو غير واضحة المعالم، فالعمل النظري والاجتهاد فيه، يساهم في تفكيك الواقع ونقده، واستخراج أحكامه وقوانينه، مثل ما هو العمل الميداني والتطبيقي يساهم في تطوير العمل النظري.

ويلخص الشيخ الصفار برنامجه العملي والميداني، الذي يعمل من خلاله على تجسيد رؤاه وأفكاره، في أربعة محاور رئيسة، هي كالعناوين التي تشكل الخطوط العريضة لمشروعه الإصلاحي، حيث يعمل جاهدًا على تجسيدها عمليًّا على أرض الواقع، حيث يتضمن هذا البرنامج، **أولا: الإصلاح داخل المجتمع**، بنشر الوعي والثقافة السليمة، عبر الوسائل المتاحة، ودعم المؤسسات الخيرية الاجتماعية، وتشجيع كل ما من شأنه

---

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني. من حوار مع مجلة المنبر الحسيني الفصلية.

نفع المجتمع وخدمة تقدمه. **والثاني: الانفتاح على المحيط الوطني**، بإقامة جسور العلاقة مع بقية المواطنين، لتجاوز حالة القطيعة المذهبية، والانغلاق الطائفي، وإنتاج الخطاب والثقافة المؤصلة والداعمة لهذا الاتجاه. **والثالث: التواصل مع المسؤولين وقيادات الدولة**، لمعالجة القضايا العالقة، والمشاكل القائمة، بما يخدم التلاحم بين القيادة وشرائح المواطنين. **والرابع: الإسهام في الشأن الوطني العام** على مختلف الصُّعد.[١]

إن من الإشكالات التي دائمًا ما تثار حول خطابات التغيير، هو الفجوة بين القول والعمل، والتناقض بين النظرية والتطبيق، حيث لا تنفك هذه الإشكالية تلازم رافعي هذا الشعار، إلى أن يثبتوا أنهم غير ذلك، إلا أن ما يمكن ملاحظته، ونحن نتحدث عن الشيخ الصفار، أنه يحاول جاهدًا إلى تجسير الفجوة بين قوله وعمله، وتقليص الفارق وتضيق المسافة بين النظرية والتطبيق، على أن السؤال هنا، هو: إلى أيّ مدى استطاع الشيخ الصفار تحقيق هذا الهدف وتجسيده عمليًا على أرض الواقع، من خلال إقرانه القول بالعمل، والعمل بالقول، وتجسيره للفجوة بينهما؟ طبعًا هذا ما سوف تجيب عنه الأيام والزمن والتاريخ.

إلا أننا يمكن أن نشهد أنه وفي إطار سعيه إلى تغيير واقع مجتمعه وتطويره، والرقي بأهله وناسه، تراه في شغل دائم باحثًا عن العمل المناسب لطبيعة المرحلة، وقول الكلمة الجريئة حولها، ليس فقط من أجل المشاركة في التعبير عن رأيه وموقفه، وإنما من أجل المساهمة في صنع الحدث وتفعيله، والانخراط في العمل وتوجيهه، خصوصًا ونحن نمرّ في عصر يموج بالأحداث والتطورات المتسارعة والمتغيرة، وشديدة التعقيد والحساسية، حيث تفرض تحولات هذا الزمن الكثير من الأسئلة الجديدة والطارئة، التي تؤرّق كل الباحثين عن التغيير، وتحتاج منهم إلى إجابات تتناسب وهذه المرحلة من الزمن الحديث والحاضر.

---

(١) من كتاب المذهب والوطن. ص ١٨٦

ثانياً:

في أولوية معرفة الواقع وتشخيصه

إن الإجابة عن أسئلة الواقع المتغير والمتحول، واقتراح الحلول لمشكلات الحياة المعاصرة، يحتاج إلى معرفة هذا الواقع بتفاصيله، وفهمه فهمًا صحيحًا، والإلمام بأحداثه وتطوراته. فليس من المجدي الانعزال والانكفاء على الذات، أو مجرد الانكباب النظري على دراسة النظريات الاجتماعية والثقافية والسياسية، بمعزل عن حركة الواقع، وذلك سعيًا لاستنباط الحلول وإخراجها إلى حيز الوجود، بعيدًا عن الاهتمام بمجريات الأحداث والتطورات وتشريحها، والانخراط في معايشة الواقع ومعرفة مصاعبه وتحدياته وتطوراته.

ولن يكون مجديًّا أيضًا من أجل الإجابة عن أسئلة الواقع المتحول، الاكتفاء بما هو متوارث من طرق وأساليب في الفهم والمعالجة، لربما كانت مفيدة وفعالة في أزمان وأوقات سابقة، حيث كانت حينها مبنية على معطيات وحسابات مناسبة لزمانها، لكنها اليوم أصبحت قديمة وقد تجاوزها الزمن.

إن مسيرة التقدم الإنساني والتطور في حياتنا المعاصرة، كما يشرح الشيخ الصفار، تجري بوتيرة متسارعة على مختلف الصُّعد، وفي مجال التكنولوجيا ووسائل المعرفة والإعلام والإدارة، والإصرار على التمسك بالأساليب والأدوات والمناهج الموروثة ذاتها داخل أطرنا العلمية والثقافية، فإنه سوف يؤدي إلى أن تكون المسافة الفاصلة بيننا وبين ركب التقدم المعاصر كبيرة وواسعة، فإذا كانت القيم والمبادئ ثابتة لا تتغير، فإنه من المهم والضروري

أن تتغير وتتطور البرامج والأساليب والوسائل تبعًا لمستجدات الواقع المتحرك.

وإذا كان من المهم والضروري تغيير وتطوير البرامج والأساليب والوسائل تبعًا لمستجدات الواقع المتحرك، فإن الأهم من ذلك هو التشخيص الصحيح للواقع المعيش ومجريات الأوضاع من حولنا، وقراءة هذا الواقع بطريقة علمية سليمة، ومستقاة من معلومات موثقة، تم جمعها بشكل دقيق، تعكس الواقع كما هو بشكله الصحيح، غير المسلوخ من سياقاته الطبيعية، ولا المجتزأ من محيطه الفعلي، ودون إهمال تأثيرات الأوضاع من حوله، وانعكاسات مسارات الأحداث عليها.

إن أهمية معرفة الواقع ومعطياته وتشريحه وتفكيكه، تساهم في تشخيص عيوبه ومشكلاته، ومن ثم توفير الرؤية الواضحة من أجل صياغة خطة عمل مناسبة لبناء واقع جديد ذي مضمون يتوافق مع حاجات المرحلة. ومثل هذا التحليل والفهم والتفسير للواقع، يساعد المشتغلين على تغييره، ويرفدهم بالعدة المناسبة على وضع تصور مستقبلي، وبرنامج عمل مناسب حول ما يجب القيام به، والعمل على تحقيقه والأهداف التي يجب إنجازها.

أما حين يغيب التحليل الصحيح للواقع، ويبنى على قراءة رغائبية عاطفية منفعلة، فإن النتيجة لن تخلو من مخاطرة الوقوع في تحليلات خاطئة، تكون نتيجتها تشخيصًا مجانبًا للصواب، ومن ثم تؤدي إلى استنتاجات خاطئة، ينتج عنها خطة علاج غير سليمة، تؤدي إلى أعمال وأفعال تفاقم المرض وتزيده استفحالًا، لا يتحقق معها المطلوب، أو العلاج للمشكلة، إن لم تزيدها تفاقمًا واستفحالًا وتفشيًا.

يقرّ الشيخ الصفار بأن الإنسان يتكامل ويتطور من خلال التجربة والمعرفة، كما أن المراجعة والنقد الذاتي أمر ضروري لسدّ الثغرات وتجاوز الأخطاء، مشيرًا إلى أن تغيّر الظروف والأوضاع يستدعي تغيرًا في الخطاب والنهج، فقد كان نهج النبوة في العهد المدني يختلف عنه في العهد المكي، في بعض الخصائص والجوانب، وعلى هذا الأساس ينصح الشيخ الصفار أبناء الأمة بأن لا ينطلقوا في مواقفهم من الاندفاع والحماسة وحدهما، بل

يُعملوا عقولهم ويأخذوا خصائص بلدانهم ومجتمعاتهم بعين الاعتبار، فالأسلوب الناجح في بلد ما قد لا يكون صالحًا لبلد آخر.(١)

ومن الضروري لمن يريد فهم الواقع وتحليله، والبحث عن مكامن خلله وأسباب الإخفاق فيه، ويفكر في كيفية الخروج منه ومن تداعياته السلبية، الابتعاد عن الإسقاطات الذاتية، أو المسبقات العقدية، أو الحتميات الأيدلوجية، وعدم الإصرار على التشبث بها، بعيدًا عن التحليل الواقعي والموضوعي المجرد من الأوهام المضللة، الذي يؤدي الإصرار على التمسك بها وتبنيها إلى منزلقات خطيرة، قد لا تحتمل تبعاتها وتداعياتها.

لقد آن الأوان، كما يشدّد الشيخ الصفار، لأن يكون موضوع تقييم الواقع ودراسته مدار بحث ونقاش جادّ ضمن لجان مهتمة أو مؤتمرات هادفة، من أجل تبادل الرأي والخبرات والتجارب، أو ضمن حوارات بناءة، من خلال المنابر الثقافية والإعلامية، فالمسؤولية تفرض على أبناء هذه الأمة التصدي للمعوقات والعقبات التي تضعف قدرتهم على التحدي والمواجهة. وإذا كانت التحديات الكبيرة المعاصرة تفرض المواجهة، فإن على الأمة الاستجابة لهذه التحديات بكل قوه وعزيمة وإرادة لا تنكسر.

والسؤال، هو: كيف تكون هذه الاستجابة، وما هي السبيل لمواجهة تحديات الواقع، واستحقاقات المرحلة الزمنية الحاضرة، هل يكون هذا الاستعداد، وهذه المواجهة مبنية على أسس قديمة، وعدة شغل تجاوزها الزمن، أم التفكير في إبداع أدوات بديلة ومتطورة، وعدة شغل جديدة، تكون مناسبة للظروف الجديدة والحادثة، وتستجيب للتحديات المعاصرة؟

---

(١) من كتاب المذهب والوطن. ص ١٨٥

ثالثاً:

إشكالية العقلية الأحادية وإلغاء الآخر

لعل أحد الإشكالات المزمنة التي يعاني منها العقل المسلم وتكبل حركته وتمنعه من إثارة الأسئلة التي تحتاج إلى إجابات معاصرة تتناسب وهذا الزمن المتحول، هي في ادّعاء كل فرقة من فرق الأمة امتلاكها الحقيقة المطلقة، وانفرادها بها دون غيرها من باقي الفرق. وهذه العقلية الأحادية التي تدعي احتكار الحقيقة، وتلغي الآخر وتهمشه، لا يقتصر أمر استفحالها على العلاقة بين الفرق المختلفة، بل هو صراع مستفحل وسائد حتى داخل الفرقة الواحدة أيضًا، مما فاقم في وقوع الكوارث التي أهلكت الحرث والنسل، وفاقمت من المشكلات الحضارية في مجتمعاتنا، وأدت بها إلى التراجع والتخلف عن ركب الحضارة الإنسانية.

والشيخ الصفار يلفت إلى أن المشكلة في الصراع والتنافس المذهبي «يتمثل في الموقف من وجود رأي آخر، فهناك من يرفض ذلك، ويرى أنه وحده له الحق في تكوين رأي، وفي تفسير النص الشرعي، وفهم الدين، وعلى الآخرين أن يأخذوا برأيه ويذعنوا له، ولا يجوز لهم أن يخالفوه فيما رآه وذهب إليه، فإن فعلوا ذلك تصدى لهم بالمواجهة والإساءة والعداء»، ويضيف الشيخ الصفار «أن صاحب هذه العقلية يصارع من يخالفه في الدين، ثم من يخالفه في المذهب، ثم من يخالفه في الرأي داخل المذهب»[1]، حيث يرى في نفسه الأهلية والمكانة وامتلاك الحق وحده في فهم الدين وتفسير نصوصه، وأن على الآخرين

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٧٦

الانقياد له، والإذعان لأمره، والأخذ برأيه، وإلا فإنهم مخالفون وخارجون عن الدين والعقيدة والملة، ويجوز التصدي لهم ومواجهتهم بشتى الوسائل والطرق.

يتلمّس دعاة نفي الآخر، كما يقول عبد الجبار الرفاعي، مختلف الذرائع، من أجل بلوغ أهدافهم، فهم تارة يعودون إلى النص، ويسلخون المتشابهات من المحكمات، ويقدمون تأويلًا لها، يفرغون فيه كل الإكراهات التاريخية، والمواقف الأيدلوجية المتعسفة، التي تفشت في حياة المسلمين في عصور الانحطاط، وازدهار لاهوت الطائفية، وتارة أخرى ينقبون في التراث، ويغرقون فيما تراكم من أقوالٍ وحواشٍ وشروحٍ، في علم الكلام، والفقه، والتفسير، ليكدسوا مادة وفيرة من الآراء والمقولات، التي تصوغ ميثولوجيا التمرد والثورة، وتنزع إلى تهشيم السلم الأهلي، وزجّ المجتمعات في احتراب داخلي، يستنزف إمكانات نهوضها، ويبدّد طاقاتها، ويفتت مقومات حياتها.(١)

ومن أجل تجاوز هذه الحالة من عقلية الاستئثار ونفي الآخر واستئصاله، والخلاص من ادعاءات امتلاك الحقيقة المطلقة في الساحة الدينية بمختلف مذاهبها، فإننا، كما يشرح الشيخ الصفار، بحاجة إلى «إقرار مبدأ التعددية، والاعتراف بالرأي الآخر واحترامه، واعتماد نهج الحوار ومقارعة الحجة بالحجة دون إساءة أو عدوان، بل كما يأمر القرآن الكريم: ﴿**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾».(٢)

والسؤال: إذا كانت هذه هي العقلية الأحادية السائدة والمهيمنة والمتغلغلة في النسيج الديني والفكري والثقافي، وفي الوعي العام في مجتمعاتنا، فما هو السبيل للخروج من هذه المشكلة، وكيف يمكن تصور سبل الدعوة إلى تغيير هذا النمط من التفكير، وما هي طريق إقرار هذه المفاهيم الجديدة وترسيخها في مجتمعاتنا، وهو الأمر الذي يعني تغييرًا شاملًا في بنية الثقافة السائدة، ويستبدل بها أخرى تتواءم والتطورات الفكرية والثقافية الحادثة في عالم اليوم، على أن السؤال الأكثر أهمية هو، كم من الوقت نحتاجه من أجل الوصول إلى ثقافة كهذه مختلفة وجديدة؟

---

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ٥

(٢) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٧٨

رابعاً:

في أهمية نقد الذات ومراجعتها

ما زالت مجتمعاتنا تخشى ثقافة النقد والمساءلة، وتعتبرها هجومًا عدائيًّا، وتتعامل مع الناقد بخصومة شديدة، فالجميع يتحسّس من النقد، على الرغم من أن النص القرآني يتضمن العديد من الآيات والشواهد التاريخية التي تؤكد على ضرورة مراجعة الذات ومحاسبتها ونقد ممارساتها من أجل تقويمها، كي ترتقي إلى المستوى المثالي في التعامل مع ما يحيط بها من قضايا وأمور.

والتحسّس من نقد الذات، كما يشير الشيخ الصفار، حال مرضية سلبية، تنتج عن غرور زائف، أو شعور بالضعف يجري التستر عليه، وتؤدي هذه الحال إلى تكريس الأخطاء والثغرات، وتفويت فرص معالجتها وتجاوزها، حيث حذّر القرآن الكريم من هذا المرض الخطير ونهى عن تبرئة الذات وتزكيتها، يقول تعالى: ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِي**﴾، كما يقول تعالى: ﴿**فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ**﴾، ويقول تعالى أيضًا: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلْ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ**﴾.

وكما يصيب هذا المرض الذات الفردية، فإنه يصيب أيضًا الذات الجماعية، عندما تتحسّس الأمة من نقد ذاتها وأوضاعها الراهنة، أو على مستوى التاريخ، إلا أن الأصالة والحرص على هويّة الأمة وتقدير تاريخها وإنجازاتها الحضارية، لا يعني تجاهل الأخطاء والثغرات ونقاط الضعف، فالقرآن الكريم الذي ينص على الخيريّة المشروطة لهذه الأمة، ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ**﴾ هو ذاته يسجل

النقد اللاذع لطليعة هذه الأمة، أصحاب رسول اللَّهِ ﷺ، في مواقع الضعف والخطأ كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾.[1]

إن مسألة النقد الذاتي من المسائل المهمة التي يقاربها الشيخ الصفار في خطابه الإصلاحي، داعيًا إلى مراجعة الذات واكتشاف شوائبها، ونقاط الضعف والثغرات فيها، وأن يكون هناك جرأة في مناقشة الثقافة المذهبية، والتراث الذي تنهل منه وتستند عليه، خصوصًا بما يرتبط بمسألة التحريض على الآخر والعلاقة معه، لأن «ثقافتنا الدينية السائدة مشبعة في طرحها المذهبي بما يدعو إلى التباعد والتنافر بين أتباع المذاهب الإسلامية. وهنا يجب أن نعترف بأننا نواجه صعوبة في النقد الذاتي لثقافتنا المذهبية، إذ ليس هناك مشكلة في أن ينتقد أعلام وأتباع كلّ مذهب ثقافة المذهب الآخر، بل إن من يقوم بذلك يعتبر بطلًا، ومدافعًا عن الدين، فالعالم أو المفكر السني حينما ينتقد شيئًا في الثقافة الشيعية، فإن أتباعه وجمهوره يمجّدونه، وكذلك بالنسبة للعالم الشيعي عند انتقاده للفكر السني فإن جمهوره يعتبرونه بطلًا، ومدافعًا عن مذهبهم، ولكن المشكلة في الاقتراب من خط النقد الذاتي، مع أنه لا يستطيع أتباع أي مذهب من المذاهب أن يبرئوا تراثهم وثقافتهم من وجود الشوائب، ومن وجود نقاط الضعف والثغرات، إلا أن النقد الذاتي يكاد أن يكون خطًا أحمر في الغالب عند أتباع المذاهب، وفي الثقافات المذهبية.»[2]

ومع أن نقد الآخر وإبراز عيوبه وأخطائه والتشهير بها يعتبره البعض عملًا بطوليًا وفتحًا مبينًا ودفاعًا عن الدين والعقيدة، إلا إنهم من جانب آخر يتجنبون عن نقد ذواتهم ولا يجرؤون على مساءلة ومراجعة تراثهم، حيث يكاد يكون ذلك خطًا أحمر لا يمكن تجاوزه، ويصل الأمر إلى حد «تجريم النقد الذاتي، وحرية التعبير عن الرأي داخل كل

---

(١) من كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. ص ٨٣ ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٨ ـ الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت.

(٢) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٣١

مذهب، فيما يخص قضايا الخلاف المذهبي، واعتباره نوعًا من التنازل للطرف الآخر، والمساومة على العقيدة والمبدأ.»[١] وإذا ما تجرأ أحد على التصريح برأيه ووجهة نظره، عد ذلك نوعًا من التنازل للطرف الآخر، ومساومة على العقيدة والمبدأ.

والشيخ الصفار لا يدعو إلى الاكتفاء بممارسة النقد الذاتي فقط، بل هو يؤكد على أهمية الاستماع إلى أقوال الآخرين وملاحظاتهم، لعلّ فيما يقولونه ما يرشد إلى طريق الخير والهداية والرشاد، حيث يلفت الشيخ الصفار إلى أننا لن نجد في أي ثقافة من الثقافات دعوة إلى الانفتاح المعرفي أوسع مما دعت إليه الآية الكريمة: ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾، فهي تزف البشارة من اللّه تعالى لمن يتصفون بالانفتاح على المعرفة، وممارسة النقد والتقويم الموضوعي، فهم يبحثون عن الآراء والأفكار، حيث ﴿**يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ**﴾، والاستماع درجةٌ متقدمة على السماع، لأن الاستماع يدل على قصد واهتمام، بينما السماع قد لا يكون كذلك. وبعد الاستماع والاطلاع على مختلف الآراء، تأتي مهمة النقد والتقويم، لاختيار الرأي الأصوب والفكرة الأصح، ﴿**فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾.[٢]

بين نقد الذات ونقد الآخرين

لن يكون مناسبًا إلقاء التهم على الآخرين ولومهم على ما نحن فيه من ضعف ومشاكل متراكمة، أو وضع اللائمة كلها على العنصر الخارجي وعلى مؤامرات الأعداء وخطط الاستكبار والاستعمار، بل من الضروري إذا أردنا تجاوز مناطق الضعف والإعياء فينا، أن نلوم ذواتنا أولًا، ونناقش ونعالج ونركز على مشاكلنا الذاتية والداخلية، لكي نكون على قدر كافٍ من القوة والاستعداد لمواجهة الفتن الداخلية، وما يحاك ضدنا من مؤامرات خارجية.

لذلك تشتد حاجة الأمة اليوم، وأكثر من أي وقت مضى، لممارسة النقد الذاتي والمراجعة

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٧
(٢) من كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. ص ٤٦

الداخلية على مستوى الأفكار وصيغ العلاقات السائدة بين قواها وشرائحها، فالظروف الصعبة التي تعيشها الأمة ليست ناتجة كلها عن الضغوط الخارجية، بل إنها محصلة ونتيجة طبيعية لحالة ذاتية، ولخلل ذاتي، حيث لا بد من تغيير ذاتي داخلي يمهد الطريق لتطوير واقع الأمة، لتأخذ مكانتها اللائقة على المستوى العالمي، وبين الأمم، وهو الأمر الذي أكد عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾.

يتساءل الشيخ الصفار أنه في حال كانت الأمة لا يحترم بعضها بعضًا، فكيف تتوقع الاحترام من المجتمع الدولي؟ وإذا كانت حقوق الأفراد والفئات غير مصونة على المستوى الداخلي، فكيف نأمل احترام حقوق الأمة على الصعيد العالمي؟ وإذا عجزت الأمة عن إدارة الحوار بين شرائحها واتجاهاتها المتنوعة، فهل يرجى لها النجاح في إدارة الحوار مع الحضارات والأمم الأخرى؟[1]

هذه التساؤلات وأمثالها وغيرها مما يثيره الشيخ الصفار، تجعل التحديات الداخلية هي الأولى والأجدر بالاهتمام من قبلنا جميعًا، وخصوصًا قادة الأمة وذوي الرأي فيها، فلا ينبغي لنا أن نكابر ونرفض الاعتراف بوجود الخطأ والنقص فينا، أو التستر على اتجاهات التعصب الخاطئة التي تعشش في أوساط أمتنا، بل لا ينبغي الحرج حتى من نقد الآخرين لنا، والاستفادة من برامج الأعداء في تشويه سمعتنا، كما يرى الشيخ الصفار، تأكيدًا منه على قيمة النقد وأهميته، حتى وإن كان جارحًا أو كان مصدره الخصم والعدو؛ لأن ذلك ينبهنا للالتفات إلى نقاط الضعف التي نعاني منها، والثغرات التي ينفذ إلينا الوهن من خلالها، لنتجه إلى معالجتها، والتخلص من أعبائها.

إن التزكية المطلقة للذات، كما يضيف الشيخ الصفار، وتجاهل نقد الآخرين، مهما كانت أغراضهم منه، تحرمنا من التقدم والتطور، وتفوّت علينا فرص الإصلاح والتغيير، فالتعصب داء وبيل، ومرض فتاك خطير، يمنع الفكر من اكتشاف الحقائق، ويفقد الإنسان القدرة على التعايش والانسجام مع الآخرين، إنه يجعل الإنسان مستمتعًا بجهله، محرومًا

---

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ١٧١

من استثمار قدرات عقله، رافضًا للتكامل والتعاطي مع أنداده، من أبناء جنسه ومجتمعه.

فإذا ما رأينا الأعداء يتهموننا بهذه الصفة السيئة، فلا يصح أن نقف عند حدود إدانة الاتهام ورفضه، بل ينبغي لنا إلى جانب ذلك، المزيد من مراجعة الذات ونقدها، والقيام بعملية مسح فكري اجتماعي، لاكتشاف ما قد تعانيه الأمة وثقافاتها من حالات إصابة بهذا المرض الخطير، أي التعصب، ومن ثم السعي لمعالجتها والانتصار عليها، فنمو اتجاهات تعصبية في الأمة يكشف عن خلل فكري، وعن مشكل اجتماعي، لابد وأن يتداركه قادة الأمة المخلصون، ومفكروها الواعون، قبل أن يستشري المرض أكثر في أوصال الأمة، وتزداد أخطاره ومضاعفاته، وحتى لا تبقى مظاهر هذه الاتجاهات مستمسكات بيد أعداء الأمة، يستغلونها لتشويه سمعة الإسلام والمسلمين.[١]

إن النقد المصحوب بإعمال الفكر واسترشاد العقل، لا خوف منه ولا ضير فيه، بل هو طريق الهداية إلى الحق والخير، ومن المهم أن نمارس النقد الذاتي لأنفسنا ونحن نبحث في إشكاليات المسألة الطائفية، ماضيًا وحاضرًا، لربما نكتشف أننا نتحمل جزءًا من مسؤولية ما يقع علينا من ضرر، نتيجة ما نعانيه من تقصير وقصور في التعاطي مع هذه المسألة، «إننا بحاجة إلى شجاعة أدبية، وجرأة موضوعية، لتشخيص مواقع الخطأ، كما نشيد بمواقع القوة ونفخر بها في تاريخنا المجيد. ولا يعني ذلك أن نستغرق في مشاكل التاريخ الماضي، ولا أن ننشغل بالخلاف حول أحداثها، ولا أن نمعن في جلد الذات، ولكن تقديس الذات وتبرئتها، وتمجيد كل ما سلف وسبق، هو حالة سلبية خاطئة».[٢]

إنه لمن المؤكد أن مسألة المراجعة الذاتية ونقد الذات ومحاسبتها، من القضايا الحساسة والأمور الصعبة، التي تحتاج إلى الجرأة والشجاعة حتى يمكن سلوك هذا الطريق المحفوف بالمكاره، خصوصًا إذا كانت هذه المراجعة تعني العودة إلى الماضي واستدعاء أحداثه ونبش مخلفاته، وهو الأمر الذي يستدعي السؤال عن قيمة هذه العودة، والمردود المرجو من

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ٦٢

(٢) من كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. ص ٨٧

مراجعه كهذه، قد تكلف الكثير من الوقت والجهد، وتكلف أثمان غالية يمكن أن يدفعها من يتجرأ على دخول عش الدبابير؟

فهل الناتج والمردود المرجو من نقد كهذا، يستحق الثمن كلّه الذي يمكن أن يدفع؟

خامساً:

حول ظروف انبثاق خطاب الشيخ الصفار

لا يمكن النظر إلى المسألة الطائفية في خطاب الشيخ الصفار خارج السياق التاريخي للأحداث والتطورات التي مرت بها الأمة خلال السنين الماضية، أو من دون الالتفات إلى الخلفيات والأجواء والأوضاع العامة التي طغت على المشهد في المنطقة سياسيًّا وثقافيًّا وإعلاميًّا واجتماعيًّا، ودراسة الظروف الذاتية والموضوعية التي أدت إلى تصاعد مشكلة الطائفية، وتعرّف أبعادها وجوانبها المختلفة، وما تركته من تداعيات، وخلفته من آثار سلبية، وحال تردٍّ على صعيد كيان الأمة السياسيّ والثقافيّ والاجتماعيّ.

لقد شهدت بعض أوطان هذه الأمة خلال هذه السنين الماضية، مشكلات وتوترات داخلية، وتمزقات وانشقاقات أهلية، نتيجة للتباينات والاختلافات بين مكونات اجتماعها الأهلي، المختلِفة التنوع والتعدد والانتماء، والمتكونة من فئات وجماعات مذهبية وطائفية وعرقية، وإلى ما غير ذلك من تكوينات وانتماءات، حيث تصاعدت حِدّة الاختلافات والتباينات والصراعات بين هذه الأطياف والمكونات الأهلية، وتحولت إلى أعمال عنف دامية هددت أمن واستقرار ووحدة الأوطان، وأدت إلى الخراب والانهيار والتفكك والتمزق، واستنزفت فيها مقدرات الأمة وطاقاتها ومدخراتها، وسالت على أثرها دماء الفرقاء والأبرياء، وذهب ضحيتها الآلاف من القتلى والجرحى، وتزايدت معها الكوارث الإنسانية لشعوب هذه البلدان بشكل غير معقول، ويندى له الجبين.

لقد تفشت ثقافة العنف للأسف الشديد، وأصبحت ظاهرة طاغية في الاجتماع

العربي الإسلامي، على حدّ قول عبد الجبار الرفاعي في تقديمه لكتاب الشيخ الصفار **الحوار والانفتاح على الآخر**، فلا صوت يعلو على صوت دعاة نفي الآخر واستئصاله، وكل يوم يتعزّز وجود هؤلاء، وتتسع دائرة تأثيرهم، وتتمدّد مساحة نفوذهم، وتتسع باستمرار هيمنتهم على حقول متنوعة، تطاول مؤسسات التربية والتعليم، ووسائل الإعلام، والمنتديات الثقافية، ومرافق الخدمة الاجتماعية، والمحترفات والمشاغل المهتمة بتأهيل وإعداد الناشئة.[١]

الاختلافات المعاصرة وجذورها التاريخية

إن ما مرّ على بعض أوطاننا من توتر مذهبي خلال هذه السنين الماضية، ما هو إلا مفردةً من مفردات التوترات العديدة التي تشهدها وتعيشها مجتمعاتنا، على ما قال الشيخ الصفار، مشيرًا إلى أن هناك أيضًا توترات عرقية، قومية، قبلية، سياسية وفكرية بين مختلف التيارات. ومشكلتنا أن مجتمعاتنا لم تصل بعد إلى مستوىً من النضج والتقدم يُمكنها أن تقبل حالة التعددية في المجالات المختلفة، والتوتر المذهبي هو مظهرٌ من مظاهر هذه الحال التي تعيشها مجتمعاتنا، وليس هي حالًا وحيدة، فإلى جانبها توتراتٌ أخرى، إلا أن التوتر حينما ينبعث من حالة دينية تكون خطورته وتأثيره أكبر، وإلا فهي مظهرٌ من مظاهر عدم النضج والاستقرار الذي تعيشها مجتمعاتنا.

ويلفت الشيخ الصفار إلى أن التعدد المذهبي ليس أمرًا جديدًا أو طارئًا في تاريخ الأمة، ما مرَّ قرن من الزمان على الأمة الإسلامية كانت منصهرة فيه ضمن مذهبٍ واحد أو اتجاهٍ واحد، فمنذ القرن الأول للإسلام بدأت بذور هذه التعددية، وهذا التنوع المذهبي، على المستوى الفكري والسياسي أو على المستوى الفقهي. المذاهب الإسلامية الموجودة ليست وليدة هذا القرن أو هذا العصر، فالسنة والشيعة موجودان منذ القرن الأول بناءً على مسألة الخلاف حول الخلافة والإمامة، وما انجرّ إليه من أحداثٍ طوال تاريخ الأمة في الفترات الماضية، وكذلك وجود الخوارج - أيضًا - بمذاهبهم المتعددة، والمدارس التي كانت

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ٥

موجودة من أشاعرة ومعتزلة وقدرية ومرجئة، ومختلف التوجهات، كلها كانت موجودة منذ القرون السابقة. فهي حالةٌ قديمة، قدم تاريخ الأمة، وهي واقعٌ قائم تعيشه الأمة في هذا العصر، وسيبقى إلى أن يشاء اللّه سبحانه وتعالى.(١)

لذلك فالمشكلة الطائفية والمذهبية التي تعيشها بعض مجتمعاتنا ليست وليدة الزمن الحديث والمعاصر، بل هي أمر تاريخي متجذر ومزمن في جسد هذه الأمة، حيث غالبًا ما يكون للعوامل السياسية والمصلحية دور في نشوء التعددية المذهبية ضمن الدين الواحد على حد قول الشيخ الصفار، فإذا ما فارق القائد المؤسس الحياة، فإن المجال يصبح مفتوحًا لتعدد الآراء، واختلاف الإرادات بين أتباعه، حيث تتأطر وتتبلور على شكل مذاهب وطوائف وفرق بمرور الزمن، «فالفراغ القيادي الذي يتركه المؤسس يخلق حالة من التنافس على السلطة، وباستمرار فإن التطلع للحكم وجاذبية السلطة والرغبة في المصالح كل ذلك يشجّع على حدوث الانشقاقات والخلافات، وقد يستعار لها غطاء عقائدي لتبريرها وكسب المؤيدين، وكما أن الخلاف الفكري قد ينتج عنه خلاف سياسي، فإن الصراع السياسي والخلافات المصلحية قد تتحول إلى قناعات فكرية مذهبية. وفي تاريخ المسلمين فإن العامل السياسي والمصلحي لعب دورًا أساسيًّا في تمزيق الأمة وتعدد طوائفها ومذاهبها، حتى قيل ما سلّ سيف في الإسلام على شيء مثلما سلّ على الإمامة والخلافة».(٢)

إن المشكلة التي نشكو منها اليوم ونعاني من غلوائها هي أن هذه التوترات والصدامات الأهلية لا تكاد تخفت أو تهدأ، إلا ونراها تشتعل من جديد بقدرة قادر، وتطفو على السطح بين فترة وأخرى، وكأنه قدر محتوم ندفع ثمنه غاليًا إلى يوم القيامة. فها نحن نرى إلى هذا اليوم، كيف يستثمر الفرقاء المشاعر الدينية الجياشة والفوارة في الخطاب السياسي والديني، والاستقواء بالدين للزَجِّ بالأتباع في مواجهة المنافسين والخصوم، لما للشعارات الدينية

(١) من كتاب رؤية حول السجال المذهبي. ص ٧٠ الطبعة الثانية ٢٠٠٥، مؤسسة العارف للمطبوعات، بيروت.

(٢) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ٢١٤ ـ الطبعة الثانية ١٩٩٦، دار المنهل، بيروت.

والأهداف السياسية الممزوجة بمسحة دينية تأثير قوي في التجييش والدعاية ضد الآخر، حيث إن للمشاعر الدينية مفعولًا يبقى منيعًا وذا دلالات لدى الأتباع، من خلال التسليم للحالة الرمزية، وللقضية التي يُؤمنون بها، بشكل لا إرادي، ويجعلهم من أهل البأس وفي تحمّل الشدائد الجِسام.

لقد ذهب ضحية هذا الاستثمار السيئ للدين أو الانتماء للّهويات والتكوينات المختلفة الكثير من الناس، عندما زُجوا في صراعات سياسة ودينية كانوا هم فيها مجرّد وقود زادت النار أوارًا واشتعالًا، في حروب عبثية مفتوحة وقذرة لم يكن فيها أدنى مستوى من الورع والأخلاق والمسؤولية، حيث أهلكت الحرث والنسل، وانتهى فيها الحال بمجتمعاتنا وقد أنهكت قواها، ودمر فيها نسيجها الاجتماعي، وتعايشها الأهلي.

الإعلام المذهبي وإثارة روح التعصب والكراهية

يمكن القول إن الظرف التي مرّت على الأمة الإسلامية خلال السنوات الماضية، كانت من أشد الظروف حساسية وخطورة، فلم يحدث أن واجهت الأمة تحدّيات في عمق وخطورة ما تواجهه في الزمن الحاضر. ومع أنه مرت على الأمة في تاريخها أوقات صعبة كانت تعيش فيها نكسات وهزائم، لكن ما يقع ويجري على الأمة من مآسي في زمننا المعاصر هو الأشدّ خطورة وحساسية، حيث تواجه الأمة تحدّيات مختلفة ومتنوعة، خارجية عنيفة، و تحديات داخلية عميقة.

لقد شاهدنا جميعًا، مع بداية توسّع البث الفضائي، وبداية انتشار إعلام الفضائيات المذهبية، كيف سعت هذه القنوات إلى الاستحواذ والسيطرة على عقول أعداد كبيرة من جمهور المشاهدين، وذلك من خلال خطاب ديني لا يقوم في كثير من الأحيان على الموضوعية أو المنطقية أو القواعد المهنية التي يستلزمها العمل الإعلامي، بل أصبح هذا الخطاب الديني في القنوات الفضائية الدينية قائمًا على نشر التعصّب والتشدّد والإثارة ودعم الفتن والكراهية بين أبناء الدين الواحد.

وفي ظل هذه الأجواء المسمومة، وتصاعد نبرة الخطاب المذهبي المتطرف، عبر فتاوى التكفير وبيانات التخوين، كان للشيخ الصفار موقف ناقد للمنحى الذي سلكه هذا الإعلام الفضائي المذهبي، الذي ساهم في صبّ الزيت على نار الفتنة الطائفية وزادها أوارًا واشتعالًا، حيث أخذت تحرق الأخضر واليابس، وتستنزف من الرصيد القيمي والأخلاقي لهذه الأمة، من خلال جولات الجدل والسجال التلفزيونية التي كانت تبث على الهواء مباشرة، حين انزلقت فيها الأمور إلى ما لم يكن يحمد عقباه، فكان للشيخ الصفار حينها عدد من المشاركات والمداخلات في بعض هذه البرامج، أعرب فيها عن أسفه لوقوعها في المحظور، واتخاذها منحى إثارة الضغائن والحساسيات، ونشر الغسيل المسيء لما ورد في تراث السنة والشيعة، من روايات ومواقف متطرفة حادة، بفعل العوامل السياسية، والاتجاهات التعصبية عند الطرفين.[١]

وقد طالب الشيخ الصفار حينها بالتوقف عن هذا الجدل المذهبي العقيم؛ لأنه لن يأتي السُنة بإشكالات جديدة على الشيعة، ولن يأتي الشيعة بإجابات جديدة على إجاباتهم السابقة التي أجابوا بها على إشكالات السُنة، وكذلك العكس، مضيفًا أن كتبًا كثيرة ملأناها بهذا الجدل، حتى إن أحد العلماء قال: إنه أحصى الكتب التي كُتِبت في الجدل المذهبي بين المذاهب الإسلامية وقارنها بالكتب التي كُتِبت في الجدل بين الإسلام وغيره من الأديان فوجد أن مكتبة الجدل المذهبي أكبر بكثير من مكتبة الجدل بين الإسلام وبقية الأديان الأخرى، فإلى متى نستمر في هذا الجدل؟ وإلى متى نستمر في هذه النقاشات؟ فقد آن لنا أن تحترم كل جهة اجتهادات الأخرى، فهي اجتهادات تخصها ولها أدلة عليها، أهل السُنة بمدارسهم المختلفة لهم أدلتهم، والشيعة أيضًا بمدارسهم المختلفة لهم أدلتهم.[٢]

وفي ظل تلك الأجواء المشحونة، ارتفع مستوى الاحتقان إلى درجات عالية من التوتر، وساد التأزم المذهبي والطائفي بين أبناء هذه الأمة، وبلغت فيها الأمور إلى مرحلة بائسة

(١) من كتاب رؤية حول السجال المذهبي. ص ٢٨

(٢) من كتاب رؤية حول السجال المذهبي. ص ٧٨

من التعصب والتفرق والمذهبية والطائفية المتشنجة، حيث أصبح المشهد مؤرقًا لكثير من العلماء والدعاة والمصلحين، الذين نادوا ودعوا إلى وقف هذه المهاترات، والتلاقي والحوار لتضييق الفجوة ومجال الفرقة، وتجسيد مبدأ الوحدة الإسلامية.

وفي دعوته إلى نبذ الطائفية ووقف استنزاف طاقات الأمة، أشار الشيخ الصفار إلى أنه بدلًا من أن تنشغل الأمة في مواجهة همومها ومشاكلها الرئيسة، تصرف طاقاتها في جدل مذهبي طائفي، يجذب إليه اهتمام الكثير من أبناء الأمة، والذين هم سريعو الاستجابة لمثل هذه الأمور، ذلك لأن الاهتمامات الأخرى غير واضحة المعالم في أذهانهم. وإذا بك ترى المجالس والمنتديات تنشغل بالخلافات المذهبية العقيمة، وهي ليست برامج تتحدث عن سبل مواجهة التحديات التي تواجهها الأمة في هذا العصر، ليست برامج تتحدث عن خطط التنمية، وكيف تتجاوز الأمة الفشل والعجز الذي تعيشه؟ ليست برامج تخطط وتستثير الآراء والأفكار حول توحيد طاقات الأمة وجهودها، وإنما هي برامج تعيد الأمة إلى الوراء حتى تنشغل بالخلافات الماضية، وحتى تنشغل بالجدل المذهبي العقيم. فما هذا الذي يجري؟ ولماذا نجد في هذا الوقت تصعيدًا للنشاط الطائفي؟[1]

الاستثمار الخارجي في الخلاف الداخلي

عندما يطّلع الغربيون، وهم مطّلعون بالتأكيد، كما يقول الشيخ الصفار، على مثل هذه البرامج التي تُبث حول الجدل المذهبي، وكيف أن الواحد يقول للآخر أنت كافر، أنت زنديق، أنت رافضي، أنت كذا.. أنت كذا؟ فإن في هذا مصداقية للدعايات وللكلام الذي يقولونه في الغرب ضد الإسلام والمسلمين، لذلك أليس من حق الغربيين أن يقولوا: انظروا، فالمسلمون ليس فقط يعبئون ضد من يختلف معهم في الدين، وإنما أيضًا في داخلهم، لا يستطيعون أن يتعايشوا مع بعضهم بعضًا، إنهم يربون في أبنائهم الحقد على بعضهم بعضًا.

(١) من كتاب رؤية حول السجال المذهبي. ص ١٤

وعندما يخطط أعداء هذه الأمة ويتآمرون على تقسيم وتفتيت أوطاننا، فمن الطبيعي أن يخلقوا الأرضية المناسبة وأن يهيئوا الأجواء المواتية لهذا العمل الإجرامي، وذلك من خلال إثارة الصراعات القومية والعرقية والمذهبية الطائفية، وتشويه صورة الإسلام لدى الرأي العام الغربي. خصوصًا وأن الإسلام متهم في الغرب بأنه يحرّض على الكراهية، ويربي على الحقد، و يربي أبناءه على أن لا يتعايشوا مع الآخر، ولا يقبلوا الرأي الآخر.

إن هذا الواقع المتشنج، والصراع الداخلي بين الجهات والقوى والمذاهب داخل أوطاننا، قدم المبرر للآخرين على اتهام الثقافة الإسلامية بالتعصب ودعم الإرهاب والتطرف، على ما حذر منه الشيخ الصفار، متسائلًا: كيف يمكن إقناع الآخرين من غير المسلمين باستعدادنا للتعايش معهم واحترام حقوقهم مع عجزنا عن التعايش فيما بيننا؟ وكيف نقنع الآخرين بأننا مستعدون لقبول الرأي الآخر، وللتعايش مع الأديان الأخرى، والبشرية جمعاء، مع هذا الصراع والعنف الذي تعيشه بعض فئات الأمة؟

لقد نبّه الشيخ الصفار مما كان يجري من مهاترات طائفية، لكونها تخدم دعاية الأعداء ضد الإسلام، وتؤكد ما يقال في الغرب عن أن الإسلام يربي أبناءه على الحقد والكراهية، وأن هؤلاء الطائفيين الذين يتسيّدون الخطاب الديني والسياسي يعطون هذه الدعاية مصداقية وإثباتًا من خلال شحن الأجواء والتجييش بالخطابات المتطرفة والمنفعلة والمتشنجة ضد بعضهم بعضًا.

إن ما كانت تنزلق إليه الأمة من حروب ومهاترات طائفية، دفعت الغيارى من أبناء هذه الأمة إلى الصراخ والتحذير بصوت عالٍ، من أن مجتمعاتنا ستكون مشرّعة أمام رياح الفتنة المذهبية، وستغرق في فوضى كبرى لا أحد يعلم المدى الذي يمكن أن تصل إليه، إذا حققت المؤامرة الخارجية أهدافها، وخصوصًا إذا ما استمرت وسائل الإعلام في استعمال لغة الإثارة، واعتماد أسلوب المبالغة، ودعم الفرقة والاختلاف، وبث الفتن والكراهية بين الناس، وتغذية التوتر القائم بين أبناء الدين الواحد في المناطق المختلفة، واللعب على وتر الأحداث الجارية فيها، من دون إدراك العواقب الوخيمة التي يمكن أن تترتب علينا جميعًا

في حال خروج الوضع عن السيطرة، حينئذٍ تصبح بلداننا في مهب الريح، إذا نجحت جرثومة التفتيت الطائفي والمذهبي في اختراق النسيج الوطني، ولن يتوقف هذا الانحدار المميت، والتدمير الذاتي لبنانا، إلا من خلال تعزيز المناعة الداخلية، وتحصين الصفوف بكل الوسائل المتاحة.

لقد استوقفت أفكار الشيخ الصفار وتوجهاته محمد سعيد طيب، وخصوصًا تلك الداعية إلى الوحدة الوطنية والسلم الاجتماعي، والعدالة، والحقوق المتساوية، والفرص المتكافئة، والمجتمع المتواد المتحاب، والرافض للتناحر المذهبي، خاصة بعد تنامي اتهام ثقافتنا الإسلامية بعد أحداث ١١ سبتمبر، بأنها تعصبية، تدعم الإرهاب والتطرف، وكراهية الآخر، في حين أن المخلصين من مفكري الأمة، يناضلون لإبراز سماحة الإسلام وتعاليمه في احترام الإنسان، والتعايش بين أبناء البشر.. ولكن -وللأسف- فإن واقع التشنج والاستعلاء غير المبرر، والصراع الداخلي بين دعاة الجهوية والقوى والمذاهب، يلغي كل هذه الجهود المخلصة.. إذ كيف يتسنى إقناع الآخرين - من غير المسلمين - باستعدادنا للتعايش معهم، واحترام حقوقهم في ظلّ عجزنا عن التعايش فيما بيننا؟ بل وكيف نقنع الآخرين، بأننا مستعدون لقبول الرأي الآخر، والتعايش مع الأديان الأخرى والبشرية جمعاء؟(١)

التهديد الخارجي يطرق الأبواب

لقد أتت أحاديث الشيخ الصفار عن المهاترات الطائفية، ونقده للجدل المذهبي المتصاعد، في سياق ما كانت تمر به الأمة من أحداث صعبة وضاغطة، حيث كانت يومئذٍ أساطيل أمريكا العسكرية تملأ المنطقة، وقادتها يهددون كل يوم باقتراب حملتهم العسكرية على العراق، التي تنذر المنطقة بخطر كبير، على استقرارها السياسي، ووضعها الاقتصادي، ومستقبلها الاجتماعي، كما كان قادة العدو الصهيوني يواصلون مشروعهم التدميري ضد الشعب الفلسطيني، دون أيّ رادع.

---

(١) من مقدمة محمد سعيد الطيب لكتاب المذهب والوطن. ص ٩

وقد أثار الشيخ الصفار الشكوك حول مغزى توقيت هذا الجدل المذهبي متسائلًا: هل هو الوقت المناسب لبحث هذه الأمور؟ وهل الأمة متفرغة لهذا الجدال؟ ففي الوقت الذي يخطط فيه الأعداء لضرب العراق، ويهددون بقية البلدان العربية والإسلامية، وفي الوقت الذي كان الكيان الصهيوني أيضًا يشنّ حملات إجرامية عنيفة في الأراضي الفلسطينية، وكانت ترتفع الأصوات في أوساط الأعداء خوفًا من مواجهة ردة فعل الشارع العربي والإسلامي، إلا أن هذه المناظرات وهذه البرامج المذهبية تقول للأمريكيين والصهاينة أن الشارع العربي والإسلامي مشغول بهذه المناقشات والجدليات العقيمة وغافل عما يجري حوله من مؤامرات.

إن ما تشهده أوطاننا اليوم من احتلالات وضعف وتمزق وتطورات كارثية، ليس مفصولًا عما شهدته منطقتنا خلال العقود القليلة الماضية، فمن الحرب الأهلية المدمرة في لبنان، إلى الغزو السوفيتي لأفغانستان وما تلاها من حرب أهلية طاحنة، إلى الحرب العراقية الإيرانية، إلى اجتياح لبنان، إلى غزو الكويت، إلى محارق صهيونية عدة في لبنان وفي فلسطين المحتلة، إلى غزو العراق، وغير ذلك مما ابتليت به أوطاننا من تداعيات، وما هبّ عليها من عواصف وتدخلات، ما كانت لتحصل، أو كانت آثارها أقل، لو كانت أوطاننا متماسكة ومتحدة في داخلها وفيما بينها.

لقد تراجع مستوى العلاقات البينية بين أوطاننا كثيرًا، وكذلك بين فئات الأمة، أو بينها وحكوماتها، حيث تدهورت إلى أدنى مستوياتها، وارتفعت الجدران السياسية والثقافية عاليًا، وسالت الدماء غزيرة، ما سمح لكل ذي غرض شرير بالتدخل لأغراضه الخاصة، وأكثر ما استفاد من هذه الحال المأساوية هو العدو الصهيوني، الذي رفع منسوب إرهابه وبطشه، بما وسّع رقعة استيطانه وثبت احتلاله.

إن جراحات الاحتراب الداخلي، الغائرة في عمق جسد الأمة، والموغلة في صميم روحها، لا تزال تنزف بغزارة في أكثر من مكان، وتستنزف معها قدرات الأمة وطاقاتها الكامنة، وإذا لم يعمل المخلصون من أبناء هذه الأمة على إيقاف هذا الهدر المجاني من

رصيدها، وإعادة ترتيب بيوتنا الداخلية والوطنية والأهلية والاجتماعية، ويجعلوها أولوية مصيرية، من خلال السعي الدؤوب إلى تذويب الخلافات والنزاعات، والتوافق على ترسيخ مبدأ التعايش السلمي، وتعميق تقاليد الحوار الفعال، والقبول بالآخر ومشاركته، بدل التفكير في إلغائه أو تجاهله أو تهميشه، والعمل على إزالة كل ما يعكر صفو فضاء أوطاننا من المنغصات، ونشدان الاستقرار والوفاق والوحدة، ليكون لنا بعدها دور وموقف وعمل يصدّ أي فعل شرير يستهدفنا، وإلا فإننا سنظل مستهدفون دائمًا، ورهانات الأعداء على بقاء فرقتنا وتشرذمنا ستكون صحيحة.

في مقدمة كتابه **المذهب والوطن**، يتحدث الشيخ الصفار عن أن الوحدة ضرورة ملحّة لكل أمة ومجتمع، في كل وقت وآن، لكنها عند المنعطفات الخطيرة، وأمام التحديات الصعبة، تصبح أكثر ضرورة وإلحاحًا، خصوصًا ونحن نعيش لحظات حرجة تتطلب الاهتمام بجمع الشمل، ولم الصفوف، وتجاوز الخلافات والصراعات، وفتح أبواب الحوار ليكون فرص للتعارف المباشر بين أبناء الوطن الواحد، ولتجاوز مرحلة الظنون والنقولات، وآثار الحقبة السابقة التي أنتجتها عوامل سياسية مرت بها المنطقة خلال العقود السابقة، حيث رُسمت صور وانطباعات عند كل طرف عن الآخر كان فيها الكثير من التشويش، حيث تكرست معها الصور والانطباعات السلبية في ظلّ أجواء القطيعة والتباعد، وتأكدت ألوانها القاتمة بفعل التعبئة والتحريض المتبادل على الكراهية.

ولم يكن ممكنًا تجاوز حالة القطيعة والتباعد إلا بالمبادرات الواعية المخلصة، التي تكسر الحواجز، وتقتحم الأسوار، وتنزع فتيل التشنج والحساسيات، عبر فتح الملفات بحكمة، ووضع قضايا الخلاف على طاولة النقاش الهادئ، وتناول المسائل بموضوعية تستند إلى الإقرار بحقوق الإنسان وحقوق المواطنة، ثم الاعتراف بحق اختلاف الاجتهاد والرأي، في إطار مرجعية الكتاب والسنة لمذاهب الأمة الإسلامية، وهو الأمر الذي لا يستطع القيام به وتحمل أعبائه إلا من كان مهمومًا بمصلحة الوطن وأمنه واستقراره، ومسكونًا بهاجس الوحدة وتحصين الجبهة الداخلية، وشجاعًا يتجاوز إرهاب الأجواء

المحيطة، التي تعتبر القطيعة مع الآخر دينًا، والخصومة مع المخالفين تكليفًا شرعيًّا.[١]

إن السعي إلى امتلاك ناصية التنمية والتقدم، واللحاق بالركب الحضاري العالمي، لن يتحقق لهذه الأمة في حال ظلت تعيش حالة التفرقة والتشرذم والتجزئة على كل صعيد، حيث «أن واقع التنافر والاحتراب الداخلي يعوّق أي محاولة للنهوض والإقلاع، فشعوبنا كسائر المجتمعات البشرية، تتنوع ضمنها الاتجاهات، وتتعدد الانتماءات، دينيًا وقوميًا وسياسيًا، لكن مشكلتنا أن كل اتجاه أو انتماء يعيش القلق من الآخرين في محيطه، حيث تسود أجواءنا حالة من الشك والارتياب، تجاه بعضنا بعضًا، مما يدفع كل طرف للحذر من الآخر، والاستعداد لمواجهته، والعمل على إضعافه، مما يحول بيننا وبين التعاون الجاد المخلص، بل ويوجه طاقاتنا نحو الهدم بدل البناء.

ويلفت الشيخ الصفار إلى أن أذهاننا وأفكارنا مشغولة بمعاركنا الداخلية، وأن الجزء الأكبر من إمكاناتنا تستنزفه تلك المعارك، لذلك فإنه من الطبيعي أن يستفيد أعداؤنا من هذا الواقع السيئ، وأن يشجعوا حالة التمزق والتشرذم في مجتمعاتنا، لتستمر في الخضوع لهيمنتهم، وليأمنوا خروج المارد الإسلامي من قمقمه. إن القوى المسيطرة في العالم، لا تريد لنا السير على طريق التنمية والتقدم، لتحقيق قدر من الاكتفاء الذاتي، بل تريدنا محتاجين لها دائرين في عجلة اقتصادها، ويتساءل الشيخ الصفار: متى سنتجه لمعركتنا الحقيقية في ميدان التنمية، ما دمنا منشغلين بمعارك خلافاتنا المزمنة والزائفة؟ ومتى سنتصدى لأعدائنا الواقعيين، ما دمنا مستغرقين في العداوات الداخلية الوهمية؟»[٢]

التطبيق المشوّه للدين

في ظلّ تلك الأجواء المشحونة بالتوتر التي ساد المنطقة، والحملات الإعلامية الثقافية الصاخبة على المستوى العالمي لتشويه سمعة الإسلام وصورته، واتهام ثقافته بالتعصب

---

(١) من كتاب المذهب والوطن. ص ٢٠

(٢) من كتاب التنوع والتعايش. ص ٢٦ الطبعة الثالثة ٢٠٠٤، دار التآخي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.

ودعم العنف والإرهاب والتطرف، وخاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر، فقد اعتبر الشيخ الصفار أن الحاجة أصبحت ملحّة للعمل على عرض مفاهيم الدين وحقائقه من خلال سيرة الرسول الأكرم، والتذكير بالمعالم المشرقة من حضارة الإسلام، «فالتطبيق المشوه للإسلام في عهود تاريخية سابقة حيث استغل الإسلام كغطاء لممارسات منافية لحقوق الإنسان وللعدالة الاجتماعية، بل وبعض التطبيقات المعاصرة التي جرت باسم الإسلام ألحقت بصورته أذىً وتشويهًا كبيرًا كما يحصل في أفغانستان. وعلى الرغم من أن هناك نماذج مشرقة وطيبة لتطبيق الإسلام في الماضي والحاضر، غير أن الأنظار تتجه للاحتمال الأسوأ، والنموذج الأبرز والأغلب. لذا يخشى الكثيرون أن يكون تطبيق الإسلام نوعًا من الرجوع إلى الوراء، واستعادة للتجارب القاسية في التاريخ، أو محاكاة الحالات السيئة في الوقت الحاضر.

لذلك شدد الشيخ الصفار على أهمية فتح باب الاجتهاد أولًا، من أجل اكتشاف وكشف أنظمة الإسلام وبرامجه، وتجاوز هذا الركام من التصورات المشوهة والخاطئة، وتوضيح مفاهيم الإسلام، وتبيين الأنظمة والمناهج الإسلامية في مختلف مجالات الحياة. **وثانيًا** ضرورة أن نقوّم تجاربنا التاريخية والحالية بكل جرأة وشجاعة وتجرد، وأن نوضح للعالم وللأجيال، الجوانب المضيئة منها، التي تمثل الإسلام، ونعترف بالجوانب المظلمة فيها التي هي مخالفة للإسلام ولا يرضاها، وأن لا نتبنى كامل التجارب السابقة وننسبها للدين.[1]

لم تكن حالة التخلف التي تمر بها شعوب الأمة الإسلامية، كما هي أوضاعها الداخلية، أقل وطأة على حاضرها ومستقبلها من تلك التحديات الخارجية التي تعاني منها، نتيجة واقع العجز والقصور التي تعيشه مجتمعاتنا في إدارة اجتماعها الأهلي، وإدارة شؤونها السياسية والاجتماعية، المتسمة تاريخيًا بالعنف والاستبداد والظلم والفساد، وهيمنة عقلية الاستئثار والوصاية واحتكار السلطة، حيث «لا يخفى على أحد أن جملة البلدان العربية،

(١) من كتاب السياسة النبوية ودولة اللاعنف ـ ص ١٣٣ ـ الطبعة الثانية ٢٠٠٦، مؤسسة العارف للمطبوعات، بيروت.

قد خضعت منذ عهود الاستقلال، إلى أنظمة سياسية لم تستطع أن تتخلى عن نزعات الاستبداد المنحدرة من عصور التاريخ القديمة والمتأخرة، فظلّ هامش الحريات محدودًا في مواطن، أو غائبًا تمامًا في مواطن أخرى.

كما ساهم القمع والتهميش في قتل الرغبة في الإنجاز والسعادة والانتماء، ولذا كما يضيف الشيخ الصفار، نلاحظ سيادة الشعور باللامبالاة والاكتئاب السياسي، ومن ثم ابتعاد المواطنين عن المساهمة في إحداث التغيير المنشود في الوطن. أما على صعيد الحريات المدنية السياسية فينقل الشيخ الصفار ما ورد في تقرير التنمية الإنسانية العربية الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي لعامي ٢٠٠٢/ ٢٠٠٣ م، الذي أشار إلى أن الاتجاه في عموم البلدان العربية كان هابطًا إلى أدنى مستوى من التمتع بالحريات بين مناطق العالم المعتبرة.

وقد أشار التقرير إلى احتلال المنطقة العربية أدنى مستويات التمثيل والمساءلة، كأهم أركان الحكم الصالح بين مناطق العالم، وأن أكثر من بلد عربي يخضع لقانون الطوارئ منذ سنوات، ويقدم فيه المدنيون للمحاكم العسكرية ومحاكم أمن الدولة (الاستثنائية)، كما يمنع قيام منظمات المجتمع المدني في أغلب البلدان الإسلامية».[١]

إنه لمن المؤكد أن لا يخلو أي مجتمع من وجود اختلافات في طريقة إدارته، وفي من يتصدى للقيادة والزعامة ـ دينية أو سياسية ـ حيث لا يعدم مناوئًا أو مخالفًا أو منافسًا، كما يقول الشيخ الصفار، إلا أن المشكلة هي أن النهج السائد المتبع عند الزعامات السياسية والدينية في المجتمعات غير الديمقراطية هو رفض هذه الحالات وقمعها، بمختلف العناوين والمبررات، كالحكم عليها بالكفر والمروق، أو إدانتها بالخيانة والانشقاق، أو اتهامها بالفساد والتخريب. وهذا النهج كما يضيف الشيخ الصفار ينبثق من عقلية الاستبداد، وتضخيم الذات، وحب الهيمنة والاستحواذ، ويؤدي إلى تهميش المجتمع، ووأد طاقاته وكفاءاته، كما يؤسس لحالات الانقسام والمواجهة والصراع.[٢]

---

(١) من كتاب السياسة النبوية ودولة اللاعنف ـ ص ٢٠

(٢) من كتاب السياسة النبوية ودولة اللاعنف ـ ص ٣٣

إن عقلية الاستبداد والاستئثار في إدارة المجتمع وممارسة الحكم والسلطة ليست وليدة اليوم، بل هو ثقافة متجذرة في ثقافة مجتمعاتنا، ونهج حدث منذ وقت مبكر من تاريخ هذه الأمة، كما أشار الشيخ الصفار، عندما خالفت الأمة النهج الحضاري الذي أرساه رسول اللّٰه ﷺ في إدارة المجتمع، حيث تعرّض هذا النهج لنكسات مؤسفة، بعد عهد الخلافة الراشدة، حيث شرّع الحكام الذين جاؤوا بعد الخلافة الراشدة من أمويين وعباسيين وغيرهم، سياسة القمع والعنف، وخالفوا نهج رسول اللّٰه ﷺ وخلفائه الراشدين في استيعاب الرأي الآخر، والرفق بالمعارضين والمخالفين، وهو ما أدخل الأمة العربية والإسلامية في نفق الاستبداد السياسي، وأخذتها دوامة العنف والعنف المضاد، إلى الوقت الحاضر، مع تفاوت نسبي في الحالات بين الأزمنة والبلدان، فلا تكاد تجد عهدًا يخلو من الثورات والانتفاضات وحالات التمرد .

وفي الوقت الذي طورت فيه الأمم الأخرى تجاربها السياسية والاجتماعية، وأصبحت تعيش حالة الاستقرار السياسي، والأنظمة الديمقراطية، والتداول السلمي للسلطة، بقيت أغلب بلاد المسلمين تعاني الاضطرابات والأزمات، وخاصة البلدان التي ابتليت بالانقلابات العسكرية، والحكومات الحزبية، والتي مارست بحق شعوبها أسوأ ألوان القمع والاستبداد، تحت مختلف الشعارات البراقة.

لذلك أخذ الرأي العام العالمي ينظر إلى بلاد المسلمين باعتبارها خارج إطار عالم الحريات وحقوق الإنسان، وباعتبارها مسرحًا للعنف، ومصدرًا للإرهاب، واندفعت مختلف الجهات الدولية لتقديم مشاريعها ووصفاتها لعلاج الواقع السقيم للعرب والمسلمين، كمشروع أمريكا للشرق الأوسط الكبير، والمشروع الأوروبي للإصلاح السياسي في الشرق الأوسط.

ويشير الشيخ الصفار إلى أن البديل الصحيح لرفض هذه المشاريع الأجنبية، التي لا تخلو من المطامع والأغراض المشبوهة، هو العودة إلى النهج النبوي، والتأسي بسيرته الكريمة في نبذ العنف، وإرساء السلم الاجتماعي، وحماية الحقوق والحريات. على أن هذه

التحديات الكبيرة التي تواجهها الأمة لا تسمح لنا بالاسترسال في دوامة الصراعات الداخلية، بل لا بدَّ من التوافق والتراضي، ونبذ العنف كوسيلة لحل الخلافات، واعتماد الحوار والنهج الديمقراطي السليم.[١]

---

(١) من كتاب السياسة النبوية ودولة اللاعنف ـ ص ٦٩

الفصل الثاني

المسألة الطائفية وضرورة الإصلاح السياسي

أولًا:

المسألة الطائفية والتداخل بين ما هو سياسي وما هو ديني

لا يخلو أي مجتمع في هذا الزمن من تعرضه إلى أزمات ومشكلات اجتماعية واقتصادية ومعضلات سياسية، قد تتحول إلى حالات توتر واختلاف وصراع داخلي تؤدي إلى صدامات تأخذ شكل اضطرابات طبيعية، نتيجة لأسباب معيشية وعائلية واجتماعية وحياتية مختلفة، مما يضطر الناس للنزول إلى الشارع للتعبير عن غضبهم من الغلاء والبطالة، وعن احتجاجهم على الفساد والهذر، وسوء إدارة الاقتصاد الوطني، والخلل في توزيع عوائد الثروة الوطنية، والتهميش السياسي واحتكار السلطة والاستفراد بالقرار، وإلى غير ذلك من أسباب، وفي مثل هذه الحالات من الطبيعي حدوث اضطرابات وأعمال عنف تؤدي إلى مصادمات مألوفة حتى بين المنتسبين إلى هوية واحدة، أو المنتمين إلى دين واحد، أو المنضوين تحت كيان محدد، وخصوصًا عندما تتحكم فيهم العصبية والقبلية.

إلا أن المشكلة الكبرى تقع عندما يكون هذا المجتمع، متنوع الأطياف والفئات، ومتعدد الأعراق والأديان والمذاهب، فتتحول عندها الاختلافات والمشكلات الطبيعية فيه، إلى توتر وصدامات يُستدعى فيها الدين ورموزه، ويتم تسييس الأحداث، وإعطائها طابع ديني، وخلفيات مذهبية وطائفية وفئوية، قد تنحاز فيها السلطة إلى جانب على حساب آخر، تفرض فيها الحلول على طرف بالإكراه، بعيدًا عن العدل والمساواة، مما قد يؤدي إلى تلبد الأجواء، ويزيد من احتقان النفوس، ويهيئ الأرض لاشتعال الفتن والحروب والنزاعات، حيث تتحول الخصومات والاحتجاجات العفوية والطبيعية إلى

أشكال جديدة من النزاع الأهلي، والتوتر الطائفي، والاحتراب المذهبي، والانقسامات الوطنية، والى أعمال عنف دموية وصاخبة غير مألوفة وغير مبررة في سياق العلاقة التاريخية بين أطياف وفئات المجتمع الواحد، مما ينتج عنها زعزعة لاستقرار المجتمع وضرب أمنه وتخريب وحدته.

إن إدخال البعد الطائفي على خط ما يحدث من أزمات ومشكلات في أي مجتمع، غالبًا ما يكون عملًا انتهازيًا وأداة ذرائعية، يستدعيها هذا الطرف أو ذاك، من أجل استثمارها لتحقيق أهداف وأجندات خاصة، وخدمة لأغراض سياسية، وتحقيق طموحات ومصالح فئوية ومحدودة، على حساب الآخرين من الشركاء من غير وجه حق، وإجحافًا بحقهم، وتعاليًا عليهم، وتجاهلًا لهم، وتعصّبًا ضدهم.

الطائفية والتوظيف السياسي

والطائفية حسبما يعرّفها الشيخ الصفار تعني فيما تعني انحياز الإنسان غير الموضوعي لطائفته، والحيف على حقوق الطوائف الأخرى، مضيفًا أن من مبادئ الدين الأساس التي لا خلاف عليها بين المذاهب التزام العدل، وهو يعني إعطاء كل ذي حق حقه، مسلمًا كان أو كافرًا، فضلًا عن اختلافه المذهبي، يقول تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾، ويقول تعالى: ﴿**وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾. وليس هناك مذهب من المذاهب الإسلامية يشرّع للظلم والاعتداء على حقوق الآخرين، لتغاير الدين أو المذهب، وما يطرحه بعض المتمذهبين من آراء تحريضية ضد المخالفين لهم، هي سوء فهم، أو تعبير عن نزعات عدوانية تعصبية، أو لخدمة أغراض مصلحية لا علاقة لها بالدين والمذهب.(١)

ومع حرص الدين على العدل والإحسان والتقوى في التعامل والعلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، إلا أن هناك من لا يتورع عن توظيف الدين في النزاعات الطائفية،

---

(١) الإصلاح الديني والسياسي. الجزء الثاني. من حوار مع موقع إيلاف الالكتروني.

وإذكاء أوارها، وصبّ الزيت على النار، وإحراق الأخضر واليابس، واستباحة الحرمات والمحرمات، باسم الدفاع عن العقيدة والمذهب، وذلك من أجل أهداف ومصالح سياسية، لا تمت بصلة إلى القيم والمبادئ العليا للدين، إلى درجة أن الشيخ الصفار يعتبر أن مسألة العنف الطائفي مرتبطة ومحكومة بالقرار السياسي أكثر مما هي مرتبطة بالحالة الأهلية الشعبية ذات الخلفيات الدينية المذهبية.

يشير الشيخ الصفار في مقدمة كتابه **الطائفية بين السياسة والدين**، إلى «أن مشكلة الطائفية في مجتمعات الأمة يصنعها ويمدها عنصران رئيسان، الأول سياسي، والثاني ديني. ويتمثل **العنصر الأول** في اعتماد سياسة التمييز الطائفي بين المواطنين، وتشجيع حالات الصراع المذهبي لأغراض سياسية، بينما يتمثل **العنصر الآخر** في نهج الخطاب الديني حين يعتمد التعبئة المذهبية، بالتركيز على نقاط الخلاف، والاستدعاء الدائم للتاريخ والتراث من أجل تغذية المشاعر المذهبية، والتحريض ضد الآخر، ومما يثير قلق الشيخ الصفار، أن هذين العنصرين، يعملان اليوم بشكل محموم لتأجيج الصراع الطائفي في أكثر من موقع في ساحة الأمة، متسائلًا هل ما حدث في العراق لا يكفي للعظة والاعتبار؟»[١]

عندما تهمّش فئات وشرائح من أي مجتمع كان، عن المشاركة في صنع مستقبل وطنها، وتكبح تطلعاتها المشروعة، وتعاني من الاضطهاد، وتوصد الأبواب الشرعية في وجهها وتسد أمامها الطرق، وتنعدم أساليب وأدوات العمل والحراك السياسي المشروع من أمامها، فمن الطبيعي بعد كل ذلك، أن تلجأ نتيجة عوامل الإحباط واليأس، إلى استخدام مختلف الأساليب والأدوات والطرق للتعبير عن تطلعاتها وأشواقها، حيث تصبح الانتماءات والهويات الهامشية والفرعية والعرقية والمذهبية والقبلية، ملجأً يستند عليه، وأوراقًا تتداول وتستغل للاستثمار، على حساب الهويات الكبرى والجامعة.

إن استدعاء الطوائف والجماعات لهوياتها الفرعية والتاريخية، إذا ما تعرضت للتهميش والاضطهاد، قد يرجعها البعض إلى حداثة تجربة الدولة الوطنية الجامعة في معظم دول العالم

---

(١) الطائفية بين السياسة والدين. ص ٧

العربي والإسلامي، وفشلها في دمج الجماعات المختلفة كلّها ضمن هوية وطنية واحدة بصورة توافقية، بما يجعل الانتماء للوطن الكبير في مقدمة الانتماءات والهويات الفرعية الأخرى وليس العكس، إذ لا يصح وضع هذه الانتماءات الفرعية في وضع متعارض مع ذلك الانتماء الأشمل والأعمق والأوسع.

وبما أن أوضاع الناس وشؤونها في العادة مرتبطة بالقرار السياسي، حيث يتحكم في تفاصيل الأوضاع الاجتماعية، والقدرة على حل المشكلات الكثيرة في مختلف المجالات، فإن مشكلة الدولة الوطنية الحديثة تكمن في أن الدخول إلى دائرة صنع القرار فيها، أو الاقتراب من مستوى التأثير فيه، يعتبر منطقة محرمة ومحظورة، إلا على فئة قليلة محدودة تحتكر السلطة وتستفرد بها، مما يؤدي إلى تهميش باقي فئات المجتمع وشرائحه وتياراته وقواه الفاعلة، ويقصيها عن المشاركة في صنع القرار.

لماذا نعجز ويتقدم غيرنا؟

إن مشكلة الكثير من القيادات السياسية ضمن الحكومات والأحزاب الماسكة بأزمّة الأمور في عالمنا العربي والإسلامي، كما يشير الشيخ الصفار، أنها لا تحمل أكثر من همّ بقائها في سدة الحكم وموقع النفوذ، لذا لا تجد نفسها معنية بمشاريع التغيير والتطوير الحضاري، مضيفًا أنه بسبب ضيق أفقها السياسي تظلّ محشورة في زوايا الاهتمامات الذاتية، والقضايا الجانبية، بالإضافة إلى خضوعها لتأثيرات القوى الخارجية والأجنبية، بينما لو أنها اهتمت بامتلاك شروط الوعي الحضاري واستقلالية القرار السياسي، لاستطاعت إنجاز مهمة الوحدة والتضامن في واقع الأمة، كما صنعت ذلك القوى السياسية في أوروبا.[١]

هذا العجز الذي تمر به الأمة، وعدم قدرتها على الإنجاز، وتجاوز واقعها السلبي، يدفع الشيخ الصفار للتساؤل: «لماذا يتعايش الناس في العالم المتقدم كأوروبا، مع تنوعهم القومي والعرقي والديني والمذهبي، ويصنعون اتحادًا أوروبيًّا، يضم مجتمعات تختلف في

---

(١) الطائفية بين السياسة والدين. ص ٤٢

ثقافتها وتاريخها، ويحتدم فيها التنافس المادي المصلحي، بينما تعجز عندنا مجتمعات يجمعها دين واحد عن الاتحاد والاتفاق؟»[١]

يلفت الشيخ الصفار النظر إلى أن ما نراه من استقرار سياسي واجتماعي في المجتمعات الغربية، ليس لعدم وجود اختلافات بينهم في الرأي والمصلحة، ولا لعدم حدوث مشاكل وأزمات في بلدانهم، بل قد يكون التعدد والتنوع عندهم في الأعراق والديانات والمذاهب والأحزاب، أكثر مما عندنا بكثير، وتنافسهم على المصالح والمكاسب كبير، لكنهم ينعمون بوجود مؤسسات ديمقراطية على الصعيد السياسي والاجتماعي، يناقشون في إطارها الأمور، ويعالجون المشاكل، ويحتوون الأزمات، فالحوار بين وجهات النظر المختلفة والأطراف المتنافسة، أصبح جزءًا من نظام حياتهم، في الإدارة السياسية، والعمل الاجتماعي، والمؤسسات العلمية، وفي وسائل الإعلام، بينما تفتقر أغلب مجتمعات العالم الثالث إلى أدنى فرص الحوار، لذلك تعاني من حالات الاحتقان، وتعيش أخطار التمزق والاحتراب.[٢]

والشيخ الصفار يعتقد أن عجز مجتمعاتنا عن التعايش والتحضر والتقدم والتطور كالمجتمعات الأخرى المتقدمة، على الرغم من تنوعها القومي والعرقي والديني والمذهبي والثقافي والتاريخي، يرجع إلى وجود خلل عميق يتمثل في أمرين، **الأول** يتمثل في فقدان النظام العادل الصالح، الذي يساوي بين الناس في الحقوق على اختلاف أعراقهم وأديانهم ومذاهبهم، والأمر **الثاني** يتمثل في ثقافة التحريض على الكراهية، والتعبئة المتبادلة في أوساط أتباع كل مذهب تجاه المذهب الآخر، حيث تَخفُت وتختفي ثقافة التسامح، ويرتفع منسوب حالة التشنج والتعصب والكراهية للآخر المختلف في المذهب، والاتجاه الفكري، وإيغار الصدور ضده.[٣]

(١) الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٢٤

(٢) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ٣٨

(٣) الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٢٤

التأثيرات السلبية للعوامل السياسية والدينية

إن هذا العجز الذي يعتري واقع الأمة امتدّ ليصيب مسيرة الوحدة الإسلامية والتقريب بين مذاهبها، حيث لم تسلم من التأثيرات السلبية للعوامل السياسية والدينية، فقد اعترتها نكسات، وتعثرت خطواتها، حيث قامت بعض الأنظمة الحاكمة في البلاد الإسلامية بدور إثارة الخلافات وتغذيتها، خدمة لأهداف مشبوهة، وتجلى الدور السلبي للعامل الديني وتمثل في التوجهات المذهبية المتطرفة، في أوساط مختلف المذاهب، التي تعرقل مسيرة الوحدة، عبر تركيزها على قضايا الخلاف المذهبي وتضخيمها، وخلق أجواء من الشحن والتعبئة الجماهيرية ضد الآخر.(١)

وهكذا فإن من أهم المشكلات التي تواجه عالم المسلمين وتبعدهم عن التقارب، هي مشكلة الاستبداد السياسي والديني، كما يستنتج الشيخ الصفار، حيث دائمًا ما تتعثر خطوات الوحدة والتقارب بسبب العوامل السياسية، من خلال إثارة الخلافات وتغذيتها خدمه لأهداف مبطنة، حيث يساهم العامل السياسي أو المصلحي بشكل عام في تحويل اختلاف الرأي إلى مبرر للنزاع والاحتراب، حيث ينحاز إلى بعض الآراء ويسعى إلى فرضها على الناس، ويقمع الرأي الآخر، أو يستخدم بعض العلماء والفقهاء كواجهات لإضفاء الشرعية على حكمه، أو يستفيد من افتعال الخلافات الدينية لإشغال الأمة بها عن واقعها السياسي.

ويضيف الشيخ الصفار أن العامل المذهبي أو التوجهات المذهبية ذات النزعة المتطرفة دائمًا ما تكون حجر عثرة وتقف دون التلاقي والتعاون والتعاضد، وتعرقل مسيرة الوحدة والعمل الجماعي المشترك، عبر فرض آرائها ومحاربة الرأي الآخر بأساليب الإرهاب الفكري، والتسقيط الاجتماعي، أو باستخدام القوة والعنف، كما أنها لا تكفّ عن التركيز على قضايا الخلاف وتضخيمها، وخلق أجواء من الشحن والتعبئة الجماهيرية، ضد

(١) الطائفية بين السياسة والدين. من حوار مع جريدة الوسط البحرينية. ص ١٣٨

الآخرين ممن لا يتفقون معها أو لا ينسجمون مع خياراتها.(١)

إن ما نشاهده من أعمال عنف وتدمير وقلاقل وفتن، تحركها النزعة المتطرفة، وكراهية الآخر المختلف، كما يشير إلى ذلك سعود البلوي، حيث الاحتقانات والمكبوتات الفكرية والاجتماعية والسياسية، تتحول إلى اعتداءات تحاصر فرص التعايش بين الناس وتباعد المسافات الإنسانية بينهم، تتوسع معها فرص التعصب بانفجار موجة من الكراهية التي يغلفها (الدين) كدافع إيديولوجي. ويضيف البلوي قائلًا: «وعلى الرغم من أن العالم العربي يعيش اليوم حالة احتقان قاتلة، هي نتيجة تراكمات سياسية واجتماعية ودينية، يبدو أننا كسعوديين لن نكون خارج إطار هذا الاحتقان كحالة عربية/ إسلامية عامة، والأحداث الأخيرة في المدينة المنورة (أحداث قباء) انتقلت من إطارها الاجتماعي العادي إلى إطار طائفي مقيت، وهنا دليل على وجود حالة طائفية كامنة في المجتمع مبنية أساسًا على أحاكم مذهبية أو دينية مسبقة لدى الطرفين.

وفي مثل هذه الأحداث المزعجة والخطرة يجد المواطنون في البلاد العربية، مسلمين ومسيحيين، شيعة وسنة، أنفسهم داخل أتون هذه العاصفة، يمارسون بلا وعي نفي أنفسهم وتفتيت مجتمعاتهم، ربما معتقدين أنهم يحافظون على هويتهم، بينما قد ينفذون من حيث لا يشعرون مصالح سياسية لا تعود عليهم بأي فائدة؛ ولهذا يفترض أن تدرك السلطات السياسية العربية أن مثل الاحتقانات الطائفية والدينية خطر مستقبلي على الدولة ككيان اجتماعي وسياسي، وتبادر إلى دراسة هذه المشكلات بشكل علمي متعمق».(٢)

عندما يكون الفقهاء في خدمة أجندة السلطان

عندما تصبح الطائفية هوية/ عصبية تحلّ محلّ الهويات الجامعة والانتماءات الأوسع، بل وتتعالى عليها وتأخذ مكانها وموقعها، وتكون بديلًا عنها، وحين تتماهى النخب مع هذه العصبية، حينها يتحول الحكام والساسة من رجاء دولة إلى رجال طوائف يميلون

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٧٥

(٢) من يدفع ثمن الكراهية؟ سعود البلوي. جريدة الوطن السعودية بتاريخ ٧/ ١/ ٢٠١١م.

حيث تميل بهم الأهواء الطائفية، بعيدًا عن منطق العدالة والمساواة بين أبناء الوطن الواحد. والطائفية حال تفشيها وانتشارها تتحول إلى نزاعات بين فئات وطوائف قائمة على أسس دينية أو مذهبية أو عرقية أو لغوية، وفي حال ما تأسست وتشكلت أجهزة الدولة وإدارتها على أسس طائفية، يمتزج فيها المعطى الطائفي بالمعطى السياسي، فإن ذلك يؤدي إلى تقويض بناء هذه الدولة وأركانها.

المشكلة أنه ما أن تحدث أزمة سياسية في العالم العربي والإسلامي، يتم استدراج العناصر المذهبية والطائفية، حيث تنساق المؤسسات الدينية وراء هذه الأزمات، وتزيد من أوار اشتعالها، لأن «هؤلاء المنتمين إلى هذه المؤسسات لا يزالون يعيشون عقلية الصراع الطائفي، ولا زالوا يعيشون حالة التعصب، وحالة الكراهية للآخر المختلف عنهم في المذهب والاتجاه الفكري، والسبب الآخر الذي يزيد من تفاقم هذه الأزمات هو الإرادات السياسية التي توجه هذه الأطراف، ومن الواضح أنه حتى على المستوى الديني هناك فتاوى تنطلق من خلفيات سياسية وبتوجيه سياسي».[١]

فالكثير من الحالات المذهبية لا تتحرك وتتفاعل إلا نتيجة عامل سياسي، كما يشير إلى ذلك الشيخ الصفار، حيث يستثمر أرضية مهيأة للصراع المذهبي، تتمثل في وجود ثقافة مذهبية تعبوية عند كل طرف تجاه الآخر، وتتمثل في واقع التباعد وفتور العلاقات، ويضيف الشيخ الصفار شارحًا: لقد رأينا بوضوح أن بعض الجهات الدينية وكأن العامل السياسي هو الذي يوقّت حماسها المذهبي واندفاعها الطائفي، عندما تنبعث بعض الأصوات الطائفية وتنبري نتيجة وقوع أحداث وتطورات معينة، فلا تلبث أن تتوالى بعدها الفتاوى والخطب والمطبوعات الطائفية التحريضية محدثة دويًّا صاخبًا في الأرجاء.[٢]

إذا لم يرتقِ الخطاب الديني ويرتفع فوق الصغائر والهوامش، وإذا لم يتقِّ علماء الدين وفقهاء المذاهب الدينية ويتورعوا من خدمة الأجندة السياسية، ويضعوا حدا لثقافة التعبئة

(١) الطائفية بين السياسة والدين. من حوار مع مجلة الوحدة. ص ١٦٨

(٢) الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٨٩، من حوار منشور في كتاب التقارب السني الشيعي بين حق الاختلاف ودعوى امتلاك الحقيقة للكاتب وحيد تاجا.

المذهبية، ويحولوا دون استثمار الخلافات الطائفية في تأجيج المذهبية المرتكزة على قضايا الصراع السياسي، ويستبدلوا بها ثقافة التسامح والوسطية والاعتدال والوحدة والتقريب، والدفع باتجاه خلق واقع التواصل والتداخل والتعاون بين أبناء الأمة، مما يمنع أو يحدّ من قدرة العامل السياسي على تأجيج الصراعات المذهبية، وإلا فإنهم سيصبحوا أدوات صغيرة في خدمة العامل السياسي يستفيد منهم ويستخدمهم في تنفيذ خططه ومآربه.

هناك من يشك في قدرة هذا الخطاب الديني على التبشير بثقافة الاعتدال والترويج لها، حيث يشكك فاضل العماني في هذه القدرة بقوله: «لقد أخفق الخطاب الديني الراهن في تبني مبدأ الوسطية والاعتدال، وغُيب الكثير من الجوانب المشرقة من ديننا الحنيف، كالتسامح والرحمة وقبول واحترام الآخر من نبرته المتشنجة، ولم يعد نشر التعاليم والقيم الإسلامية النبيلة، وتقديم صورة حضارية لعالمية الإسلام، من ضمن أولوياته التي تعج بثقافات كريهة كالتعصب والازدراء والتكفير والتصفية. لقد فشل هذا الخطاب في كسب تعاطف المسلمين، فضلًا عن غير المسلمين، ووضع المهاجرين المسلمين في زاوية من الشك والرفض والريبة، وأعاق اندماجهم وانسجامهم مع تلك المجتمعات التي عانت من تأثيرات وتداعيات ذلك الخطاب الراديكالي المأزوم. ولم يستطع حماية شبابنا من فتنة التطرف والغلو، بل أسهم في بعث وتأجيج وشرعنة النزعات الطائفية، وبرّر الكثير من مظاهر الإرهاب والعنف والفساد، وتمترس خلف المذهب والطائفة والفكر والاتجاه رافضًا كل محاولات التوحد والتعايش بين الأطياف المختلفة، ورفض الانفتاح على الثقافات والأفكار الأخرى التي لا يراها تنسجم مع فهمه الوحيد للإسلام وامتلاكه الحقيقة المطلقة التي لا يأتيها الباطل.. ويبدو أن الوقت قد حان لنقد ومراجعة وتصحيح الكثير من مفردات هذا الخطاب، ليكون أكثر انفتاحًا ومرونة وتطورًا وتأثيرًا ومنفعة.»[١]

يجدر القول هنا أن مقاربة الشيخ الصفار للمسألة الطائفية تتسم بالنقد والمراجعة والتصحيح، حيث يمكن تلخيص هذه المسألة في خطابه، إذا ما أردنا تلخص مقاربته

(١) الخطاب الديني.. بين التراجع والاختطاف. فاضل العماني. جريدة الوطن السعودية الصادرة بتاريخ ٧/ ١/ ٢٠١١م.

ورؤيته لها، بالقول: إن ما يحيط بنا اليوم من مشكلات وأزمات وفوضى وعنف وكراهية متبادلة، تباعدت خلالها المسافات وساد فيها التعصب، لم تكن وليدة هذه اللحظة، وهذا الزمن، بل هي نتيجة لإرث تاريخي مليء بالاحتقانات والمكبوتات، فتراثنا وتاريخنا مليء بالكراهية والبغضاء بين أتباع الطوائف والمذاهب والملل والنحل، وهذه الأرضية من الخلاف والنزاع تظلّ خافته وكامنة. إلا أن هذا التراث الخلافي، لا يعمل ويثار ويفعّل ويتم تحريكه، إلا بتأثير القرار السياسي، الذي يتحكم في مسألة إثارة التوتر والتشنج المذهبي، والدفع بها إلى درجة الفتن. أما إذا ارتأت القوى والأطراف السياسية المتصارعة والمتقاتلة أن هذه الفتن ليس في صالحها أو من مصلحتها، فإنها سوف تضع حدًّا لها، وتسعى إلى الاتفاق فيما بينها على وضع حلٍّ لإخماد أوار الفتنة، ووضع الحلول المناسبة لحلها، والتخفيف من حالة التوتر المذهبي، والميل إلى ضبط الأوضاع حتى لا تنزلق إلى مستويات يصعب التحكم بها أو السيطرة عليها.

في سبل تفكيك غلواء الطائفية

إذا كانت المشكلات الطائفية والأمراض المصاحبة لها، لا تترعرع إلا في ظل الاستبداد السياسي والديني، والإرهاب الفكري، فإن أجواء الحرية والانفتاح، وارتفاع مستوى المشاركة الشعبية السياسية، وتحقيق مفهوم المواطنة، وقبول التعددية، واحترام الرأي الآخر، كلها كفيلة بتبديد أجواء الطائفية الملبدة بكل الأمراض الخبيثة والمؤذية، وستكون هذه القيم النبيلة والرفيعة والالتزام بها هي الأرضية والضمان لحالة التقارب والوحدة، وتجاوز حالات الخلاف والشقاق والتباعد والقطيعة والخصام بين الاتجاهات المتعددة والمتنوعة في أي مجتمع، كما يمكن تلخيص وإجمال وجهة نظر الشيخ الصفار حول طرق وأساليب تفكيك غلواء المشكلة الطائفية وتبديدها.

ومن المهم إبعاد الحالة المذهبية والطائفية عن أن تكون حالة انغلاق وتحجّر وعصبية، وذلك عن طريق التركيز على ما هو مشترك بين أبناء المجتمع الواحد، والعمل على تكوين وبلورة الأطر المناسبة لإدارة الاختلاف فيما بينها بطرق سلمية، فالاختلاف هو أمر طبيعة

بني الشبر، يمكن تحويله من حالة تنافر سلبي، إلى حالة تنوع إيجابية وخلاق، ومصدر غنى يثري المجتمع بكل أطيافه، ويرفع من مستوى علاقات أطرافه وقواه ويقرب بينهم.

لذلك فإنه «حين تكون العلاقة بين أتباع المذاهب توافقية وطبيعية، فإن تقارب الآراء السياسية والبرامج الاجتماعية، والتوافق في المصالح، سيكون هو المؤثر في تشكيل التحالفات والتجمعات، بغض النظر عن الانتماء المذهبي والاختلافات العقائدية، ففي أتباع المذهب الواحد، هناك تنوع في الاتجاهات السياسية، واختلاف في المدارس الفكرية، وتضارب بين مصالح الفئات.»[1]

وفي موازاة ذلك فإن تضارب المصالح وتصادمها وتعارضها بين الناس أمر طبيعي وواقعي في هذه الحياة، وهو الأمر الذي يؤثر على آرائهم ومواقفهم ويدفعهم إلى تبني قناعات راسخة تجاه ما يدور حولهم من أحداث وتطورات، حيث تسعى كل جهة أو فئة أو جماعة جاهدة في سبيل تحصيل واستحواذ ما تراه أنه جزء من مصالحها ومنافعها، والدفاع عنه بكل الوسائل والطرق.

خلاصة قول الشيخ الصفار في مسألة التقارب بين أبناء المجتمع الواحد، على الرغم من تعدد انتماءاتهم، هي أن اختلاف المصالح بين الجهات أمر وارد، وهو يسبب الاختلاف في المواقف، ولكن ذلك لا يمنع التعاون والتوافق ضمن صيغة تحفظ لكل منهم مصلحته التي يراها، وتمنعه من الاعتداء على مصالح الآخرين، وهذا هو الأسلوب الحضاري الذي تتعامل به الجهات المتحضرة المتمدنة في العالم فيما بينها، فهم يعترفون باختلاف المصالح فيما بينهم، ويتنافسون في اكتساب المصالح والمكاسب، لكنهم يتعاونون في نفس الوقت ضمن أطر وصيغ مرنة.

وبهذا الأسلوب تتعايش الأحزاب المتنافسة على المصالح في أمريكا وأوروبا الغربية، فحينما يصل حزب إلى الحكم في بلد، فإن الحزب الآخر يأخذ موقف المعارضة، ولكن ضمن حدود وأطر متفق عليها بين الطرفين، ويستمر بينهما التشاور والتعاون والتعامل،

---

(١) الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٥٩

وخاصة عند التحديات وفي المواقف المشتركة.[١]

من المهم السعي إلى صياغة نظام جديد للتعايش في مجتمعاتنا، يتجاوز الأطر التقليدية البالية، إذ لا ينبغي الاستسلام للمدّ الطائفي المتوحش وخطابه المتشنج، أو الرضوخ لأمره الواقع وتأثيراته المتطرفة، أو الاستسلام لثقافة التكفير والتعصب والكراهية، مهما كانت الصعوبات والتحديات، على الرغم من تكلفة الوقوف أمام موجاته المتعالية، والثمن الباهض الذي يمكن أن يدفعه من يجاهر بكلمة حق في الدعوة إلى مواجهته وصدّ تمدده وتداعياته، والدعوة إلى الوحدة والتقارب والتآلف، ومجابهة باطل التفرقة والتمزق والانقسام؛ لأن في السكوت عن تمدّده وتفشّيه اعتراف بالفشل، يتحول فيه الأمر إلى أعراف وتقاليد دارجة ومتبعه تتكرس بفعل الزمن.

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ١٣٧

ثانياً:

في مظاهر المشكلة الطائفية

عندما نتحدث عن خطر النزاع الطائفي على واقع الأمة المعاصر، ومدى قوة أو ضعف مناعتها ضد أسقام الطائفية وعللها، وأثر ذلك وانعكاساته وتداعياته على حاضر الأمة ومستقبلها، «فإننا لا نتحدث عن أمر متوقع وخطر محتمل، بل عن واقع فظيع حصلت مشاهده الدامية في أكثر من بلد عربي وإسلامي، حيث سفكت الدماء، وقتل عشرات الألوف، وهدمت المساجد والأماكن المقدسة، وتم اغتيال عدد من الشخصيات البارزة من مختلف الأطراف».[1]

إن هذا الواقع الفظيع والمزري الذي تعيشه الأمة، يتغذى وينتعش من خلال «مذهبة الصراع السياسي داخل الأوطان، وبين القوى الإقليمية المتنافسة على النفوذ، مما يعني اللعب بنار الطائفية على حساب شعوب المنطقة، كما أن تصاعد نبرة الخطاب المذهبي المتطرف عبر فتاوى التكفير وبيانات التخوين، وإعلام الفضائيات المذهبية، إنما يصبّ الزيت على نار الفتنة التي تحرق الأخضر واليابس».[2]

هذه الثقافة التعبوية المذهبية المتبادلة، والانشغال بالخلافات والجدل المذهبي، والتحريض ضد الآخر المختلف، ورميه بالاتهامات والشكوك، والطعن في سلامة إيمانه، كلها دليل على تغلغل حالة الخصام في النفوس، حيث تتجلى هذه الثقافة التحريضية

---

(١) الطائفية بين السياسة والدين. ص ٦

(٢) الطائفية بين السياسة والدين. ص ٧

من خلال التركيز على مواقع الخلاف المذهبي، وتجاهل وإهمال ما هو مشترك ومتفق عليه، وتلمّس نقاط الضعف في تراث المذهب الآخر والتشهير بها، ونبش حوادث التاريخ وإثارة الأحقاد والضغائن وتوريثها للأجيال.«وعلى خلفية هذا الطرح تصدر أحكام التكفير والتفسيق والتبديع، والاتهام بالشرك والضلال لمذاهب وجماعات كبيرة من المسلمين. وهذه الثقافة التعبوية تمثل تحريضًا على الكراهية، وتأجيجًا لمشاعر العداء والبغض والجفاء، وتهيئ الأجواء القابلة للاشتعال بنار الفتنة».[١]

يشير الشيخ الصفار إلى أن هذه الثقافة التعبوية التحريضية يمكن ملاحظة تجلياتها في إصدار الفتاوى التي تتهم الآخر بالكفر، والشرك، والبدعة، والضلال، وما أشبه ذلك، حتى لو كان الاختلاف في مسائل جانبية، فالتشكيك في دين الآخر أمر لا يجوز، وعلينا أن نتجاوزه، وليكن الاختلاف بيننا اجتهاديًّا يسعه ما ورد عن رسول اللَّه: **(المجتهد إذا أصاب فله أجران، وإن اخطأ فله اجر واحد)**، وعلينا أن ننقل مسائل الخلاف من دائرة الإيمان والكفر، والحق والباطل، إلى دائرة الصواب والخطأ.[٢]

إلا أن المشكلة كما يراها الشيخ الصفار، تكمن في أن بعض المتشددين من العلماء يرى في إصدار فتاوى التكفير وإثارة الكراهية تكليفًا شرعيًّا، كما يرى آخرون من الطرف الآخر أن إظهار الإساءة بالسبّ واللعن للرموز التي يقدسها غيره ويحترمها، تكليفًا شرعيًّا أيضًا. والسؤال: إلى متى تظل هذه العقلية المتشنجة والمتوترة، تحمل ثقافة الكراهية والتحريض ضد الآخر، والإساءة إليه والعدوان على كرامته؟ فليس مقبولًا صدور فتاوى التكفير، ولا خطاب التحريض على الكراهية، ولا الإساءة للمقدسات والرموز.[٣]

لذلك فإن «من أهم الإشكالات النظرية التي تواجه مفهوم الوحدة والتقريب بين أبناء المذاهب الإسلامية، مسألة قبول التعددية واحترام الرأي الآخر، حيث تسيطر على

(١) الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٧

(٢) الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٣٣

(٣) الطائفية بين السياسة والدين. ص ٢٦

الذهنية المذهبية فكرة احتكار الحقيقة بكاملها، وتجريد الآخر من أيّ نسبة منها، والنظر إليه على أنه باطل وضلال، وبالتالي فإن التعامل معه يكون باستهداف تغييره وهدايته، وإلا فمقاطعته وعداؤه».[١]

إنه لمن الطبيعي جدًّا، نتيجة لهذه الثقافة التعبوية المذهبية المتبادلة، أن تكون هناك تداعيات سلبية، وإفرازات مؤذية بسبب غلواء اتجاهات التشدد المذهبي، تتمثل، كما يقول الشيخ الصفار، في فتاوى التكفير وخطابات التحريض على الكراهية، وتبادل الاتهامات وحالات العداء، والانتهاك للحقوق المادية والمعنوية، كسياسات التمييز الطائفي، وحوادث العنف والعدوان، لذلك فإن هذه الإفرازات منتج طبيعي لاتجاهات التشدد المذهبي، ولواقع التباعد والتنافر بين المنتمين للمذاهب المختلفة.[٢]

فلا يمكن للعين أن تخطئ رؤية ومشاهدة هذه المظاهر الطائفية البغيضة، حيث هي تطفو على سطوح مجتمعاتنا من خلال تصاعد نبرة الخطاب المذهبي المتطرف، الذي يرفع من منسوب التعبئة الطائفية، ويكرس حالة التفرقة وسوء الظن، عبر فتاوى التكفير، وبيانات التخوين، وشيوع خطابات وخطب التحريض على الكراهية، وتبادل الاتهامات وحالات العداء بين أبناء الدين الواحد، وانتهاك حقوقهم المادية والمعنوية، وحوادث العنف والعدوان، واتساع حالات النزاع والاحتراب والإرهاب والعنف الداخلي والخارجي.

هذا بالإضافة إلى ما نشاهده من تمييز بين المواطنين على أساس قومي ومذهبي، وسياسات الإلغاء والإقصاء، والتمييز بين المواطنين على أساس انتماءاتهم من خلال وضع الأنظمة والقوانين والقرارات والإجراءات التي تقصيهم وتبعدهم وتستثنيهم عن تولي الكثير من الوظائف والمناصب في الدوائر والأجهزة والمؤسسات المختلفة، على الرغم من مما يمتلكونه من مؤهلات وكفاءات عالية.

---

(١) الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٥٦ ـ من حوار مع مجلة منتدى الحوار المغربية.

(٢) الطائفية بين السياسة والدين. ص ٣١

انتهاك الخصوصيات

لا يغفل الشيخ الصفار أيضًا عن نقد تلك السياسات التي لا تراعي الخصوصيات الدينية والاجتماعية لشرائح محددة من أبناء الوطن، وهو الأمر الذي يؤدي إلى حدوث توترات ومشكلات غير حميدة، كالمشكلات التي تحدث بسبب تعليم المواد الدينية، حيث لا تكاد تمر سنة إلا وتحدث مشكلة ما بسبب المواد الدينية، فمدرس المادة الدينية يأتي ولديه رسالة تبليغ أو تبشير يريد أن يهدي هؤلاء الناس الضالين، أو الذين يمارسون البدع والانحرافات، حسبما يتصور في مخيلته، عندها تحصل المشاكل.

لذلك، ومن أجل تلافي هذه المشاكل، يرى الشيخ الصفار أنه من الصحيح فيما يرتبط بالمادة الدينية، أن يكون التعليم للقيم الدينية العامة التي تشكل جامعًا مشتركًا، أو أن يكون التعليم مشتملًا على كل الآراء، بإيراد رأي المذاهب في أي مسألة، حيث يرفض الشيخ الصفار أن يأتي أحد من بيئة مختلفة مذهبيًّا إلى مجتمع ضمن مذهب آخر، وتسلط عليه معلمين مبشرين على أطفال في مرحلة التكون، لأن هذا الأسلوب يجعل الطفولة ساحة لصراع فكري ونفسي لا يتحمله الأطفال.

ويرجو الشيخ الصفار ويتمنى أن يركز التعليم في مراحله الأولى على المشتركات العامة، وتجنب الخلافات، والابتعاد عما يسمى المنهج الخفي، والدور التبشيري الذي يمارس في مرحلة الطفولة، فالمعلم الذي يأتي إلى منطقة أخرى يجب أن يأخذ هذه القضية بعين الاعتبار، وإذا أراد أن يبشر بفكره ومذهبه فله الحق، لكن عليه أن يتحدث إلى البالغين الراشدين، أما أن يأتي إلى أطفال في المرحلة الابتدائية أو المتوسطة ويقول لهم آباؤكم مشركون وأمهاتكم أمهات بدع وعائلاتكم كلها ستدخل نار جهنم، فهذا غير مقبول ولا معقول.

إن التعليم بهذه الطريقة وهذا الأسلوب وفي الصفوف التي تحتوي على طلاب من فئات متعددة سوف يتسبب في تحريض الطلاب على بعضهم بعضًا، وعندما يأتي المدرس ليتوسع في شرح زيارة القبور ويقول هؤلاء قبوريون ويعبدون غير اللّٰه بزيارتهم للقبور،

والذين يتوسلون بالأئمة والأولياء مشركون وما إلى ذلك، عندها تصبح هناك جدليات ونقاشات بين الطلاب أنفسهم، وبالتالي ينفرز الصف، فهذا شيعي وهذا سني، وأنت مشرك وأنت رافضي وأنت وهابي، فهل هذا من المناسب في وطن واحد؟[١]

بذور المشكلة ونذر الفتنة

إن نذر الفتنة الطائفية تطلّ برأسها في مواقع مختلفة من العالم الإسلامي، وهو الأمر الذي لا يصح السكوت عنه أو التساهل تجاهه، فحيثما ولينا وجوهنا شطر أي جهة من عالمنا العربي والإسلامي، وأيضًا على امتداد أرض اللّه الواسعة، نجد أن هناك مذابح وانتهاكًا للحقوق والحرمات تحت عناوين مذهبية طائفية، فأعمال العنف والإرهاب والقتل والتفجير التي تستهدف هذا الطرف وذاك الطرف تتم تحت هذا العنوان، وهذه الأعمال لها انعكاسات سلبية كبيرة على الرأي العام في أوساط جماهير الأمة.

لقد أدى الانتشار الواسع في المواقع الإلكترونية، والاستخدام السيئ لها، إلى تأجيج الفتن ومشاعر الكراهية والبغضاء، حيث لعبت دورًا سلبيًّا في التحريض المذهبي الطائفي، وتعبئة أبناء الأمة ضد بعضهم بعضًا، بالإضافة إلى الدور السلبي الذي يقوم به الإعلام الفضائي المذهبي الذي ينشر ثقافة التعبئة المذهبية، من خلال ما يبثه من برامج تساهم في تأجيج الفتنة والخلاف والنزاع بين أبناء الأمة.[٢]

إنه لمما لا شك فيه أن ما يحدث الآن من مآسي النزاع والاحتراب في أكثر من ساحة إسلامية، يفجر الألم والغضب في نفوس أبناء الأمة، حيث تسيل دماء المسلمين على أيدي المسلمين، ويحلّ بديارهم الخراب والدمار من خلال معاركهم الداخلية، فضلًا عن توقف مسيرة التنمية وضياع الثروات والقدرات. وتمنح هذه الصراعات الدامية للقوى الأجنبية أفضل فرص التدخل والهيمنة وبسط النفوذ، كما حصل في العراق وأفغانستان والصومال

---

(١) من كتاب المذهب والوطن. ص ٤٨

(٢) الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٠٩

والسودان ولبنان.[١]

إلا أن تصاعد مشاعر الألم والغضب التي يتحدث عنها الشيخ الصفار، قد ترتدّ سلبًا على واقع الأمة، حين تصيب النفوس بالإحباط واليأس، وقد تدفع باتجاهات تدميرية انتقامية تضر بالذات أكثر مما تضر بالأعداء، وتضاعف المآسي بدل معالجتها، كما نرى ذلك في الممارسات الطائشة للإرهاب والعنف الداخلي والخارجي، الذي شوّه صورة الإسلام في العالم وأساء للأمة إساءة بالغة.[٢]

لم يكن من الممكن لهذه الفتن التي تمزق الأمة، أن تنجح وأن يتّقد أوارها، لو لم تكن لها بذور، ولو لم تتوفر لها الأرضية الخصبة لنموها، فما تعاني منه الأمة من فرقة وتمزق واستهداف لها، من خلال إشعال الفتن داخل مجتمعاتها، يستهدف تمزيق الأوطان والشعوب، وتفكيك وحدتها الداخلية والتضامن فيما بينها.

«ومن أهم منافذ الفتن وعوامل النزاع الداخلي، غياب العدل والمساواة، واعتماد سياسات التمييز بين المواطنين على أساس تنوعهم القومي والديني، بالإضافة إلى منفذ آخر شديد الخطورة وهو التعبئة الطائفية، حيث تعالت أصوات الاتجاهات التعصبية المذهبية التي استغلت تنوع مذاهب أبناء الأمة لشنّ حملات التحريض على الكراهية بين أتباع المذاهب والدفع بهم نحو النزاع والاحتراب».[٣]

"إن هذه التعبئة الطائفية التي تتمثل في بعض فتاوى التكفير وبيانات التشكيك والتجريح وخطب التحريض وإثارة الضغائن، تساعد على تحقيق أهداف الأعداء، بتمزيق الأمة وإشغالها بخلافاتها، وتعيد المنطقة إلى أجواء الصراعات المذهبية، وتهدد بضياع ما يبذل من جهود تقريبية وتوحيدية ووطنية، وكذلك جهود كل المصلحين والمخلصين من علماء الأمة ودعاتها ومفكريها، كما تفتح الثغرات في جدار الوحدة الوطنية، فهذه التعبئة

---

(١) الطائفية بين السياسة والدين. ص ٤١

(٢) الطائفية بين السياسة والدين. ص ٤٢

(٣) الطائفية بين السياسة والدين. ص ٤٤

تؤثر على علاقات المواطنين ببعضهم، وتخلق أجواء للتشنج والخصام".[١]

المواجهة وتحدي الصعاب

لا ينسى الشيخ الصفار التذكير بأن التحديات التي تواجه الإسلام والأمة في هذا العصر، الذي يتجه لصدام الحضارات، وتتسع فيه الهوة بين الدول النامية والدول المتقدمة، هي تحدّيات على صعيد خطوط المواجهة الثقافية، وخطط التنمية البشرية، والإصلاح السياسي، حيث يجب أن تستأثر باهتمام الخطاب الوحدوي، ليشكل موقفًا رائدًا يلتقي عنده الغيارى والواعون والمصلحون من أبناء الأمة.

فمشكلة الأمة اليوم ليست الخلافة الإسلامية التاريخية وتحديد الموقف تجاهها، بمقدار ما هي مشكلة شروط قيام الحكم الصالح، والخلاص من أنظمة الاستبداد. وأزمتنا المعاصرة ليست مشروعية التقية وحدود استخدامها، وإنما هي أزمة الحرية السياسية وحق التعبير عن الرأي في أوطاننا. وقضيتنا اليوم ليست الخلاف حول زواج المتعة هل نسخ أو لم ينسخ، بل هي حماية أمننا الأخلاقي الاجتماعي الذي يترنح للسقوط والانهيار تحت قصف أنماط السلوك والثقافات الوافدة. مواجهة هذه التحديات الصعبة يجب أن تكون محور الوحدة والتقارب ورسالة الخطاب الوحدوي التقريبي.[٢]

ومن هنا يتحتّم أن لا يكون تنوع الانتماء المذهبي بين المواطنين ذريعة للإجحاف بحقوق بعضهم، فليس من العدالة في شيء أن يؤثر ذلك على واقع المساواة بينهم، حيث ينبغي أن يتساوى الجميع تحت سقف القانون، وفي الحقوق والواجبات، بدون تمييز فئة على أخرى، لأيّ سبب كان، أو لأيّ اعتبارات مذهبية، لأن ذلك يخلق أرضية خصبة لتوتير الأوضاع، وإثارة أجواء المشاحنات والعداء، ويكرّس الخصومة والنزاع، بينما يبدّد العدل والمساواة كل آثار الاختلاف، ويؤكد الوحدة الوطنية، ويحمي أمن المجتمع.

---

(١) الطائفية بين السياسة والدين. ص ٨٦

(٢) الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٦٣

بالطبع علينا أن لا نتوقع إنهاء آثار ومضاعفات فترة طويلة من سوء الفهم والجفاء بين عشية وضحاها، على حدّ قول الشيخ الصفار، لأن هناك من تربوا على منهجية التعصب، وارتبطت مصالحهم بالأحادية والغلو، من مختلف الأطراف. ومع كل هذه الأثقال الشداد، والمشكلات الصعاب، التي ترهق كاهل الأمة وتعيق مسيرتها، يبدو الشيخ الصفار واثقًا من انطلاقتها، ومتفائلًا بمستقبلها ومسيرها ومسارها، بقوله إن المسيرة قد بدأت جادة مخلصة.[١]

والسؤال إلى أي مدى يمكن لهذه الأمة السير في طريق الإصلاح والتغيير، ومعالجة ما تشكو منه وتعانيه من أمراض عضال تنخر الجسد وتشوه العقل وتتغلغل في الروح؟ وهل هناك من أمل يرجى في شفائها من هذا المرض العضال؟

(١) الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٤٢

ثالثاً:

بحثًا عن جذور أمراض الطائفية

إذا كنا قد تحدثنا عن بعض المظاهر التي تتجلى فيها أمراض الطائفية، من خلال رصد الإشارات الواردة في خطاب الشيخ الصفار وتصويبه المباشر تجاهها، أو من خلال ما نشاهده ونسمعه من أقاويل وأفعال وسلوك وممارسات، تعبر عن غلواء وتفشي هذا الوباء في بعض مجتمعاتنا، فإن ذلك يدعونا إلى الذهاب أبعد من ذلك، بحثًا عن الجذور التي تكمن خلف هذه المظاهر، فالحديث عن مظاهر الأشياء والاكتفاء بوصف المشكلة من دون معرفة الجذور المسببة لها، لن يفيد في تشخيص حقيقة المشكلة، وتهيئة الظروف التي تعين على وضع الحلول المناسبة، والتي تساعد في عملية العلاج ووقف تفشي الوباء ومحاصرته والتخلص منه.

إن حياتنا المعيشة لا تخلو من المشكلات والأزمات والاحتكاكات التي تقع وتحدث بين أبناء الطوائف، والشيخ الصفار لا ينكر وجود مشكلة هنا وخطأ هناك، وحدوث إساءة من هذا الطرف، أو تصرف سيء من ذاك الطرف، نتيجة ما يمارس من تعبئة وإثارة للضغائن والأحقاد، وفتح ملفات الخلافات العقدية والفقهية، وتجميع أوراق السقطات والأخطاء، إلا أن الشيخ الصفار يستدرك بقوله إن تاريخنا وتراثنا الإسلامي مليء بالأوراق الصفراء، والجراح الدامية، لكن السؤال: هل هذا هو الوقت المناسب لفتح الملفات، وطرح الأوراق؟ ألا يعتبر ذلك صبًّا للزيت على نار الفتنة المتقدة؟ وتوسيعًا لرقعة اشتعالها؟ أليس ذلك نوعًا من تقديم الخدمة الممتازة لإنجاح مخططات الهيمنة الأمريكية، بإحداث الفوضى

الخلاقة في أرجاء المنطقة؟[١]

شوائب التراث وتنقيته

وعلى الرغم من أن الشيخ الصفار لا يحبذ فتح ملفات الماضي وجراحه، إلا أن الحقيقة المرة هي أن ما نعانيه من مشكلات وفتن في هذا الزمن، ليس مفصولًا عن سياقاته التاريخية، بل هو نتيجة لتراكماته السلبية التي لم نستطع تجاوزها، مع مرور كل هذه السنين، حيث أصبح البعض يعود لهذا التراث السلبي مستعينًا به كلما أراد الثأر من خصومه والانتقام من منافسيه.

والشيخ الصفار لا يبرئ التراث مما تئن تحت وطأته بعض ساحات الأمة من مشكلات، مشيرًا إلى أنه «بالطبع لا يمكننا إنكار وجود بذور للطائفية في تراثنا وثقافتنا، وأنماط علاقاتنا، وإنما تقوم الاتجاهات التعصبية برعاية تلك البذور، فيجد الأعداء من خلال ذلك فرصتهم المناسبة لتمزيق صفوف الأمة، ومن هنا تبرز أهمية مراجعة هذا التراث، وتنقية الثقافة المتداولة بين المسلمين، من آثار وشوائب عصور التخلف، والصراعات الطائفية».[٢]

إن مستوى التعبئة والتجييش الغير معقول، وانتشار ثقافة النبذ والكراهية بين أبناء الأمة الواحدة، يحتم فعلًا الوقوف أمام هذا التراث بكل جرأة وشجاعة لفحصه ومساءلته ومراجعته، وتنقيته من كل الشوائب التي أصبحت كالمعين الذي يعود إليه البعض، ويستقي منه ما يحلو له من ذخيرة لمهاجمة خصومه والحطّ من شأنهم، حيث تتحول في بعض الأحيان «خطب الأئمة في المساجد إلى منابر للتحريض الطائفي، مستدعية كل ما في التراث والتاريخ من رصيد للكراهية المتبادلة والصراع المذهبي».[٣]

والحقيقة التي لا مراء فيها هي أن ما نراه من انقسام مذهبي وطائفي ليس أمرًا طارئًا،

---

(١) الطائفية بين السياسة والدين. ص ٥٠

(٢) الطائفية بين السياسة والدين. ص ٤٦

(٣) الطائفية بين السياسة والدين. ص ٤٩

وإنما هو حالة تاريخية وجزء من التراث الذي انتقل إلينا ممن سبق، حيث كان للعوامل السياسية والمصلحية، بالإضافة إلى التطرف الديني والفكري، دورٌ في تكريس حالة الانقسام وتجذير حالة الصراعات والخلافات بين فرقاء الأمة. ونتيجة لذلك، كما يشير الشيخ الصفار، فقد أصبح للأمة تاريخ من الصراعات الدينية المذهبية، وتراث من الجدل والمناكفات والتشويه المتبادل للصورة، من كل طرف تجاه الآخر، وكذلك التحريض على الكراهية والتعبئة المتبادلة. ويضيف الشيخ الصفار معربًا عن أسفه الشديد، بأن آثار ذلك التاريخ مؤثرة في الجيل الحاضر من أبناء الأمة، مما يجعل ساحة الأمة أرضية خصبة للفتن، وأجواءها مهيأة للاستجابة للإثارات الطائفية، خاصة مع حضور العامل السياسي الداخلي والخارجي، الذي يوظّف هذا الاستعداد لصالح مطامعه ومخططاته.(١)

تتعدد الإشارات في خطاب الشيخ الصفار حول أساس وجود المشكلة الطائفية وبذورها، لافتًا إلى أن هذا الجذر يكمن فيما ورثناه من تراث وثقافة وأنماط علاقات، حيث يمتلئ تاريخنا وتراثنا الإسلامي بالأوراق الصفراء، والجراح الدامية، حيث هناك تراث ضخم من الجدل المذهبي، والسجالات والمساجلات والمماحكات والمناظرات والجدل الكلامي العقدي التي شغلت الأمة قرونًا كثيرة، وأنتجت ثقافة من التعبئة المتبادلة، كما أنتجت النزاعات والصراعات، وهو الأمر الذي تجد فيه الاتجاهات المتعصبة فرصتها المناسبة في تمزيق صفوف الأمة، عبر التعبئة وإثارة الضغائن والأحقاد، وفتح ملفات الخلافات العقدية والفقهية، مستدعية كل ما في التراث والتاريخ من رصيد للكراهية المتبادلة والصراع المذهبي.

الخلاف حول الخلافة

لن يكون مجديًا اليوم إثارة خلافات الماضي، أو فتح باب السجال حول موضوع الخلافة الإسلامية التاريخية، لما لذلك من تبعات وتداعيات سلبية على العلاقة بين أبناء الأمة الواحدة، وما يسببه ذلك من ضغائن وأحقاد نحن اليوم في غنى عنها، حيث يقول

---

(١) الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٧٥

الشيخ الصفار في هذا الصدد، إنه «إذا كان من حق الشيعة أن تكون لهم رؤيتهم وقناعتهم، فليس من حقهم الإساءة إلى رموز ومقدسات الطرف الآخر، إن ذلك يشكل انحرافًا عن تعاليم الدين وآدابه، ويؤدي إلى الفتن وتخريب وحدة الأمة، من هنا نعتبر الإساءة بالسبّ والشتم للخلفاء الراشدين عملًا محرمًا خاطئًا، لا يصدر إلا من جاهل أو مغرض، حيث تحدث ضد هذه الظاهرة السيئة كثير من أئمة الشيعة وعلمائهم المصلحين.

ويشير الشيخ الصفار إلى أن مقولات التجريح والطعن والسبّ والشتم لا تقتصر على بعض كتب التراث عند طرف دون آخر، بل تراها موجودة ومتفشية عند الجميع، فكتب التراث وصفحاته مليئة بأقاويل التجريح بين الخصوم، والكلام العنيف ضد بعضهم بعضًا، وذمّ الآخر وإباحة بغضه وكرهه، ووصف الغير والمختلف بالكفر والزندقة، واتهامه بأبشع التهم والرذائل.

ويعتبر الشيخ الصفار كتب التراث وما تتضمنه من إساءات هو تعبير عن انعكاس لحالات الخلاف والتشنج المذهبي، وهي تعبّر عن آراء أصحابها، كما أنها نتاج لبيئاتهم وعصورهم، إلا أن السؤال الذي يطرحه الشيخ الصفار هو: لماذا نكون أسارى لكتب التراث؟ ولماذا يحاكم بعضنا بعضًا على ما ورد في كتب أسلافه؟

لذلك يدعو الشيخ الصفار إلى أن نقرر تجاوز هذا الجانب المظلم السلبي من تراثنا سنة وشيعة، ونركز على الجانب المضيء الإيجابي منه، الذي يساعدنا على إصلاح أمورنا ومعالجة مشاكلنا وتدعيم وحدتنا وألفتنا، وألا نعيش آثار هذه المعارك الموجودة في كتب التراث، ونتخذ المواقف من بعضنا البعض على أساسها».(١)

إن هذا التراث من الجدل والسجال المذهبي، كما يرى الشيخ الصفار، «قد أخذ فرصته الطويلة الكافية، طيلة العقود والقرون الماضية، فكانت نتيجته تراثًا ضخمًا من المساجلات والمماحكات والمناظرات، التي استهلكت وقتًا طويلًا من العلماء وطاقات الأمة، إضافة إلى سجل من الأحداث في النزاعات والصراعات التي عادة ما ترافق مثل تلك المناظرات،

---

(١) الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٤٨

وبقي السنة سنة والشيعة شيعة، اللّهم إلا تحول أفراد من هذا الطرف إلى ذاك الطرف أو العكس».[١]

لا ينكر الشيخ الصفار أن في الشيعة متطرفين متشددين تصدر منهم إساءات لبعض الخلفاء والصحابة ولبعض رموز أهل السنة والجماعة، في كتب أو مجلات أو نشرات، كما لا يمكن أيضًا إنكار أن هناك كتبًا وفتاوى وخطبًا من قبل جهات سنية تكفر الشيعة وتحرّض عليهم وتتهمهم بأبشع التهم وأسوأ الصفات، ومع كل ذلك فإن المهم الآن وجوب السعي لتجاوز هذه الحالة السيئة التي لا تليق بأمة تحمل رسالة الإسلام، وتعيش في عصر تتسع فيه الأحلاف والتكتلات، وتنشأ فيه أقوى الاتحادات بين مجتمعات مختلفة وشعوب متباينة.

لذلك يدعو الشيخ الصفار إلى كتابة ميثاق شرف إسلامي يضع حدًّا لهذه المهاترات، بدلًا من الاستغراق في إعداد الملفات ضد بعض، والحديث عمن سبّ أكثر، أو من أساء للآخر أكثر، مبديًا استعداده ومساحة واسعة من مراجع الشيعة وعلمائهم للالتزام بميثاق شرف إسلامي يضع حدًّا لكل التجاوزات والصراعات المذهبية والخلافات الطائفية، ويؤكد على وحدة الأمة، وعلى مرجعية الكتاب والسنة، وعلى الاحترام المتبادل، وخدمة المصلحة العامة.[٢]

الماضي بين أن يكون للعبرة أو يكون للإثارة

وإذا كان لا بد من العودة إلى الماضي، أو استحالة الانفكاك من سطوته، فإنه على الأقل أن يتم ذلك ضمن أطر وقواعد محددة تنظم هذه العودة، لمراجعة وبحث واكتشاف أفضل ما في هذا التراث من قيم ومفاهيم وثروات يمكن أن تستخرج ويستفاد منها في حاضر هذه الأمة ويعزز من مكانتها. والشيخ الصفار يؤكد أنه لا ضير في بحث الاختلافات العقدية والفقهية والتاريخية في إطار البحث العلمي الرصين، وليس ضمن أساليب

---

(١) الطائفية بين السياسة والدين. ص ٨٩

(٢) من كتاب المذهب والوطن. ص ١٣٦

التعبئة والتهريج.[١]

على أنه من المهم ونحن نعيش في هذا الزمن المعاصر، ألا يكون الماضي سيفًا مسلطًا على أبناء الحاضر، حيث نعيش اليوم صخب أحداث وتحولات مستجدة ومتتالية غير مسبوقة، وعلى كافة الصعد والمستويات السياسية والثقافية والاجتماعية والتكنولوجية والحضارية، أما العودة إلى الماضي واستدعائه، فلن يكون إلا سببًا يزيدنا تشتتًا وفرقة وضعفًا، ويسهل على المتربصين بأمتنا التسلط علينا واستنزاف إمكاناتنا وخيراتنا.

إن كبار علماء الأمة، كما ينقل الشيخ الصفار، يحذّرون من إثارة خلافات الماضي السحيق، والإنجرار إلى إثارتها، بل من واجب الأمة، مواجهة تحديات الحاضر، وتحديات بناء المستقبل. ويشير الشيخ الصفار في هذا الصدد إلى بيان صادر عن السيد السستاني، أحد كبار مراجع الشيعة، يقول فيه، «تمر الأمة الإسلامية بظروف عصيبة، وتواجه أزمات كبرى، وتحديات هائلة، تمسّ حاضرها، وتهدّد مستقبلها، ويدرك الجميع- والحال هذه- مدى الحاجة إلى رصّ الصفوف، ونبذ الفرقة، والابتعاد عن النعرات الطائفية، والتجنب عن إثارة الخلافات المذهبية، تلك الخلافات التي مضى عليها قرون متطاولة، ولا يبدو سبيل إلى حلها بما يكون مرضيًا ومقبولًا لدى الجميع، فلا ينبغي إذًا إثارة الجدل حولها خارج إطار البحث العلمي الرصين، ولا سيما أنها لا تمسّ أصول الدين وأركان العقيدة، فإن الجميع يؤمنون باللّه الواحد الأحد، وبرسالة النبي المصطفى، وبالمعاد، وبكون القرآن الكريم ـ الذي صانه اللّه تعالى من التحريف ـ مع السنة النبوية الشريفة مصدرًا للأحكام الشرعية، وبمودة أهل البيت، ونحو ذلك مما يشترك فيها المسلمون عامة، ومنها دعائم الإسلام: الصلاة والصيام والحج وغيرها.

ويتابع البيان تأكيده بأن هذه المشتركات هي الأساس القويم للوحدة الإسلامية، فلا بد من التركيز عليها لتوثيق أواصر المحبة والمودة بين أبناء هذه الأمة، ولا أقل من العمل على التعايش السلمي بينهم، مبنيًا على الاحترام المتبادل، وبعيدًا عن المشاحنات والمهاترات

---

(١) الطائفية بين السياسة والدين. ص ٥٦

المذهبية والطائفية، أيًا كانت عناوينها.

ويؤكد البيان على أنه ينبغي لكل حريص على رفعة الإسلام ورقي المسلمين، أن يبذل ما في وسعه في سبيل التقريب بينهم، والتقليل من حجم التوترات الناجمة عن بعض التجاذبات السياسية، لئلا تؤدي إلى مزيد من التفرق والتبعثر، وتفسح المجال لتحقيق مآرب الأعداء الطامعين في الهيمنة على البلاد الإسلامية، والاستيلاء على ثرواتها».[١]

نقد التراث ومراجعته

إن السعي إلى تجاوز المشكلة الطائفية، والحرص على التقريب بين أبناء الأمة الواحدة، وتجسير الفجوة فيما بين فئاتها وأطيافها، يتطلب تشجيع حركة النقد، وحركة الاجتهاد، داخل كل بيئة مذهبية، لغربلة تراثها وتمحيصه، فهو نتاج بيئته الثقافية والاجتماعية، ومتأثر بما كان من صراعات مذهبية وتأثيرات سياسية، وهو بالتأكيد يعبر عن رأي منتجيه الذين عاشوا تلك المراحل التاريخية من الزمن.

لقد أدت صراعات الماضي، وعمليات الاضطهاد والممارسات القمعية التي تعرضت لها بعض الجماعات في بعض الفترات من التاريخ الإسلامي، إلى ردود فعل سلبية، جعل بعضًا من هذه الجماعات تنكفئ على ذاتها، وتتمسك أكثر بمعتقداتها ومتبنياتها، ومحاولة تحصين أفرادها من تأثير الرأي الغالب والسائد حينها، نتيجة عدم احترامه للرأي الآخر، ومارس القمع ضد معتنقيه.

وإذا كان الشيخ الصفار دائمًا ما يؤكد في خطابه الإصلاحي على أهمية مراجعة التراث وتمحيصه، وتنقية الثقافة المتداولة بين المسلمين، من آثار وشوائب عصور التخلف، والصراعات الطائفية، فإن السؤال، ونحن نتحدث عن المشكلة الطائفية، هل نحن اليوم ضحايا هذا التراث وأسارى له؟ وكيف يمكن لنا مراجعة هذا التراث، ومن أين نبدأ، ومن هو المنوط به عملية المراجعة؟ وهل يمكن اليوم فعلا مراجعة هذا التراث؟ ألا يمكن

(١) الطائفية بين السياسة والدين. ص ٩٧

أن تدخلنا هذه المراجعة في متاهات لا نهاية لها، أو يمكن أن تتسبب لنا في مشكلات أكثر، ومصاعب أكبر مما هو موجود، حيث نحن اليوم في غنى إضافة مشكلات جديدة؟

رابعاً:

المناعة ضد الطائفية بين الماضي والحاضر

يقارن الشيخ الصفار بين حال الطائفية السائدة اليوم، وما يحدث فيه من جدل مذهبي وصراع طائفي وإثارة للفتن والصراعات، وبين حال الأمة في سابق العصور والقرون السالفة، وما حدث فيها من فتن وصراعات، بقوله إن المقارنة تكشف عن وجود اختلافٍ كبيرٍ بينهما، ففي سابق العصور «كانت حوادث النزاعات الطائفية تحصل في ظلّ حضارة إسلامية رائدة، حيث كانت الأمة في موقع الصدارة والقوة، وكانت الحضارة الإسلامية هي طليعة التقدم والتفوق في العالم آنذاك،» بحيث إن مثل هذه المشكلات لم تكن تطفو أو تبرز بتلك الحدّة أو ذاك الصخب، «فحوادث النزاع الطائفي في تلك العصور كانت مثل جراثيم ضعيفة في جسم قوي المناعة، قد تسبب بعض الأعراض الجانبية، لكنها لا تلبث أن تضمحلّ وتزول، على العكس من واقع الأمة المعاصر، وهو واقع متخلف وهزيل، ضعيف المناعة والمقاومة تجاه أدنى العلل والأسقام، لذا تسرح مختلف الجراثيم الضارة في جسم الأمة، لتفتك بما بقي فيه من خلايا حية سليمة». [(١)]

لذلك يمكن القول إن حال الأمة اليوم في ظلّ هذا الواقع المتردي والمتخلف والهزيل، الذي تعاني فيه نقصًا حادًّا في مستوى المناعة الدينية والأخلاقية والحضارية، قد يؤدي إلى إصابتها بالعلل والأسقام مع أقل هبة ريح، والانجرار والانزلاق إلى متاهات الطائفية البغيضة.

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٦

إلا أن السؤال الذي يمكن أن يثار هنا هو أنه إذا كانت الدولة الإسلامية في عصور صعودها وقوتها لم تتأثر بذاك القدر من تداعيات المشكلات الطائفية، واستطاعت احتواءها، كما يقول الشيخ الصفار، فلماذا لم تعمل هذه الدولة، زمن قوتها، على حلّ هذه المشكلات حينها، وتضع الحلول الجذرية لها؟ ولماذا ورّثتنا تلك الدولة هذه المشكلات، ونحن الذين نعاني اليوم من الذلّ والهوان والضعف الداخلي والعدوان الخارجي، حيث تتكالب علينا الأمم الأخرى؟ وإذا كانت الأمة لم تحلّ مشكلاتها وأزماتها أثناء فترة قوتها، فهل يمكن لها أن تحلها في ظلّ ضعفها وتخلفها؟

عندما لا تحسم المسائل الخلافية في أوقات العزة والقوة، أو على الأقل إبداع الطرق الخلاقة في احتوائها ومنع استفحالها، وإلا فإن بقاءها إلى أوقات الضعف كفيل بإشعال الفتن والحروب، ويجعل الأمر مرشحًا للسير في الاتجاه الأسوأ، لأنه دائمًا هناك من يترصد لاستغلال الفرص للعب على أوتار الفن الطائفية والتعيش عليها. فالمشكلات الطائفية التي تنفجر من آن لآخر تتطور وتأخذ منحىً مختلفًا، عندما تدخل على خطها أو تستغلها أطراف أخرى تدخل على خط التوتر الطائفي، من أجل تأجيجها أو الادعاء بمناصرة فئة على أخرى، أو من أجل تأجيج نارها، إلا أن ما يغذي استمرار هذا الأمر، ويهيئ المناخ المناسب لدخول أطراف أخرى، هو عدم حسم الكثير من المشكلات جذريًّا، والوصول إلى تسويات عادلة ومقبولة، حيث إن المشكلة تحدث عندما يتم ترحيل حلّ المشكلات العالقة أو الشائكة، واعتماد المسكنات لتهدئتها دون حلٍّ جذري.

لقد انعكس هذا التراخي وعدم الحسم في حلّ المشكلات المتراكمة، سلبًا على حياة الناس وطبيعة العلاقة فيما بينهم، حيث طرأ على الكثير من مجتمعاتنا مع مرور الزمن تغيرات اجتماعية وثقافية جوهرية، انحسرت معها أفكار التسامح والتعايش لصالح أفكار التشدد، ففي فترات سابقة من الزمن، كانت بعض مجتمعاتنا تزخر بعلاقات اجتماعية وثقافية تمتزج بتجارب تعكس روح التسامح والمحبة والإخاء فيما بين أطيافها ومكوناتها، إلا أن هذه الأجواء التسامحية انقلبت اليوم لصالح ظواهر التطرف والتشدد والتزمت، حيث أخذت هذه الأمور تستشري وتتمدّد يومًا بعد يوم، وتتسلّل إلى البنية الثقافية للناس، مما أدى إلى

توتير الأوضاع، وزيادة حالة التوتر، وبروز حالة من الاستقطابات الحادة، وبدأنا نشهد حوادث الفتن والعنف الطائفي البغيض.

أزمة ثقة وضعف في الأطر الجامعة

لعلّ المعضلة الكبرى التي نعيشها على أرض الواقع تكمن في تحول الطائفية إلى ثقافة تسري في عقول الناس، وتجري مجرى الدم في العروق، وتصبح جزءًا من الثقافة الاجتماعية الدارجة. وحينما تؤمن نسبة كبيرة من الناس بأفكار التشدد، التي تعادي المختلفين والمخالفين، تنقطع عندها كل سبل الاتصال والتواصل والحوار بينهم، وهو الأمر الذي يتفاعل في وعي الناس، ويتحول إلى سلوك ينتج عنه أحداث مؤسفة، على النحو الذي نشهده بين فترة وأخرى في الكثير من المناطق المحيطة بنا.

وإذا ما انقطعت سبل الاتصال والتواصل بين مكونات أي أمة، وافتقدت قيم الحوار وروحه سبيلها بين أطيافها، عندها يمكن أن تنتشر الانقسامات المجتمعية الحادة فيها، حيث تؤدي إلى الانكفاء والتقوقع على الذات، وتتسلل إليها روح التعصب والفرقة، ويرتفع منسوب الطائفية بينها، فيؤدي بها كل ذلك إلى الترهل والضعف الخواء.

والتفسير الأكثر معقولية لهذا الأمر، كما يقول «صلاح سالم»، يتعلق بذلك الحضور الملتبس للدولة في حياة الناس، بين حضور أمني كثيف بغرض الضبط والقسر، وحضور سياسي خفيف لا يفي بمهمة القيادة والتوجيه. وهنا ولدت ونمت أزمة الثقة بينها وبين المجتمع الذي صار مدركًا لعجزها عن إلهامه وتوجيهه، ولذا أخذ المجتمع يعيد ترتيب حياته في غيابها، ثم تفريغ شحنات غضبه في وجهها.

ففي مثل تلك المراحل التي تنزوي فيها الدولة كإطار يستوعب حياة الناس، ويلهمهم حسّ اتجاه نحو المستقبل، تبدأ بدائلها في الظهور لتسدّ حاجات الناس، فتبرز النعرات الجهوية والإثنية والدينية وربما القبائلية، حيث تتصدر الساحة باعتبارها تجسيدًا للانقسامات المجتمعية البدائية، التي تصير هي الانقسامات الأبرز التي تتصارع وحداتها

لوراثة دور الوحدة الكبرى أو اللحمة الوطنية.[١]

إن هذا المناخ الانقسامي والانعزالي والطائفي المتوتر، وما يصاحبه من بروز لظواهر التطرف الديني وأفكار التشدد، سوف يظل قائمًا حالًا ومستقبلًا، إذا لم يكن هناك سعي لبناء دولة وطنية مدنية حديثة جامعة، تمثل إطارًا جامعًا للانتماء والهوية، وبوتقة تصهر عناصر ومكونات المجتمع، وتحتضن فيه جميع مواطنيها، وتضمن المساواة التامة بينهم في الحقوق والواجبات، انطلاقًا من الإقرار بمبدأ المواطنة الذي ينظر لجميع المواطنين بشكل متساوٍ، بغض النظر عن انتماءاتهم المختلفة، تنتهي معها كل السياسات التمييزية بين الناس، ليصبحوا كلهم فيها سواسية كأسنان المشط، لا أحد يعلو فيها على أحد، إلا بالتقوى وبمقدار ما يقدمه من عطاء وتضحيات لوطنه.

(١) العنف الطائفي والركود السياسي في مصر. صلاح سالم. جريدة الحياة.

خامساً:

منهج اللاعنف والتسامح كأساس في بناء الدولة الحديثة

تجتاح بعض مجتمعات بلداننا منذ بضع سنوات موجة من أعمال العنف الأعمى المدمر والشديد الفظاعة، نتيجة التباينات والاختلافات بين مكونات مجتمعاتها، المختلِفة التنوع والتعدد والانتماء، والمتكونة من فئات وجماعات مذهبية وطائفية وعرقية، وإلى غير ذلك من تكوينات وانتماءات. ففي أنحاء مختلفة من بعض بلدان العالم الإسلامي تتوالى أعمال العنف الدموي، التي يسقط خلالها وبسببها يوميًّا، المئات من القتلى والجرحى والمعوقين، بالإضافة إلى ما ينتج عنها من أضرار مادية جسيمة لا تقدر بثمن، وانعكاسات نفسية ومعنوية سلبية ثقيلة الوطأة، وتترك دمارًا نفسيًّا على حياة ومعيشة الكثير، تستمر آثارها باقية في النفوس مددًا طويلة من الزمن، ويصعب إصلاحها واندمال جراحها على المديات المنظورة.

إن ظاهرة العنف هذه، المتفشية في بعض أوطاننا، التي تؤدي إلى الخراب والانهيار والتفكك والتمزق، وتستنزف مقدرات الأمة وطاقاتها، تقف خلفها في الأعم الأغلب، أو تقوم بها، جماعات تتخذ لها من الدين واجهه، وتدّعي أنها إسلامية المنطلق والتوجهات، وتبغي الوصول إلى أهداف تدّعي مثاليتها، مما يتسبب في تغذية الصراعات الأهلية، وتصعيد التوترات الداخلية، وارتفاع حِدّة الاختلافات والتباينات بين هذه الأطياف والمكونات الأهلية، وتتحول إلى أعمال عنف تهدد أمن واستقرار ووحدة الأوطان.

عنف وحشي ومنفلت

والحقيقة إن هذا العنف الأسود لا يتسبّب إلا في تشويه صورة الإسلام وأهله، وينقل انطباعات سيئة عن مضامينه وقيمه، وهذا الإرهاب، الذي يعرفه الشيخ الصفار بأنه الاعتداء من غير حق، واستخدام العنف تجاه الأبرياء، وتجاه الآمنين، واستخدام أساليب التخريب، كما تعارفت عليه بعض الحركات المتطرفة، هو أمر ليس صحيحًا ومضرًّا ويشوّه سمعة الإسلام، ويعدّ انتهاكًا للحرمات التي يحرص الإسلام على حمايتها وعلى حفظها.

ويشدِّد الشيخ الصفار على أن الإسلام لا يقبل بأي شكل من الإشكال الاعتداء على الآخرين من أجل تحقيق غرض سياسي، أو من أجل خدمة توجّه فكري معيَّن، فالإسلام يرى أن الفكر والمنطق وإقناع الناس هو الطريق الصحيح، ومن هنا نجد أن الأنبياء لم يستخدموا القوة، ولم يستخدموا الإرهاب لنشر رسالتهم، واللَّه تعالى لم يسمح لهم بذلك بقوله: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ**﴾، وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾، كما يقول تعالى ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾، حيث لا يمكن أن تستخدم القوة طريقًا لخدمة مبدأ، أو طريقًا لخدمة توجّه، أو للوصول إلى مقصد سياسي.

القوة، كما يشرح الشيخ الصفار، يجب أن تحتكرها جهة شرعية، تستخدمها لردع المعتدي، ولردع الظالم، ضمن الحدود الشرعية، وما عدا ذلك يعتبر إرهابًا، ويعتبر استخدامًا غير مشروع للقوة، وقد رأينا أن بعض الفئات ممن انتسبت إلى الإسلام قامت ببعض هذه الممارسات، إلا أنها في الواقع أضرّت الإسلام كثيرًا، وأعطت الفرصة للأعداء من أجل أن توجّه الضربات العنيفة للأمة الإسلامية.

المشكلة أن هناك فئات تدعي أن لها أهدافًا سياسية، تقوم باغتيالات وتقوم بتفجيرات داخل البلاد الإسلامية، وداخل المجتمع الإسلامي، وهو الأمر الذي أوجد ردّ فعل عند الناس تجاه الإسلام، مما أعطى مستمسكًا أكثر بيد السلطات، وبيد الأعداء ضد الحركات الإسلامية، بالإضافة إلى ما تقوم به بعض الحركات ضد غير المسلمين من هجوم أو تفجير

للآمنين وللأبرياء في تلك المجتمعات وهو أمر أيضًا غير مقبول.[١]

والسؤال الملحّ بعد استفحال هذه الظاهرة المشينة، هو: هل استخدام العنف الذي يوقع الكثير من الأضرار البشرية والمادية الجسيمة، ويترك دمارًا هائلًا على مختلف الصّعد، يمكن أن يكون منهجًا إسلاميًّا يقره الدين للوصول إلى الأهداف المرجوة، على الرغم من احتمالات انزلاقه إلى المجهول، أم أن هذه الممارسة هي اجتهاد خاطئ له ما بعده من تداعيات سلبية وتبعات مكلفة، وتزداد معها الكوارث الإنسانية لشعوب هذه البلدان بغير نهاية؟

وفي تفسيره لتفشّي ظاهرة العنف والإرهاب في بعض مجتمعاتنا، يتحدث الشيخ الصفار عن أهمية معرفة الأسباب التي تقف خلف هذه الظاهرة، والتي تدفع بعض الجهات المحسوبة على الدين للجوء إلى استخدامه، حيث يقول إن هناك سببين رئيسين يدفعان هذه الجماعات إلى هذا المنزلق الخطير، وهما:

الأول: يكمن في **القراءة الخاطئة للدين**، فبعض المتدينين يقع في الخلط، وتلتبس عليه الأوراق، فيشتبه بين تطبيق الحق وبين مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيحصل عنده تزاحم بين هذا المبدأ والمبادئ الإسلامية الأخرى، عندها لا يعرف الأولويات والأهميات. فهناك مبادئ إسلامية أساس، مثل: لا إكراه في الدين، ومبدأ احترام حقوق الإنسان، واحترام الحريات، ومبدأ الرفق والرحمة، وغير ذلك من مبادئ، إلا أن الفهم الخطأ والقراءة المغلوطة لهذه المبادئ، ومفهوم الأولويات، والمهمّ والأهمّ، ينجم عنهما ما نراه من اللجوء إلى استخدام العنف.

أما السبب **الثاني** الذي يقف خلف ظاهرة العنف، فيكمن في **اعتبار هذا اللجوء إلى العنف بمثابة رد فعل تجاه واقع القمع والاستبداد**، والإنسان، كما نعلم، عندما يحشر في زاوية ضيقة أو حرجة، تهدد وجوده أو مصالحه الأساسية، لا يجد أمامه سوى الدفاع عن نفسه، وهنا قد يسيء أو يخطئ اختيار وسيلة الدفاع، أو الطريقة التي يرفع بها عن نفسه

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع موقع المعصومين الأربعة عشر.

الظلم والحيف.

لذلك فالأنظمة الاستبدادية والقمعية، كما يستنتج الشيخ الصفار، هي المسؤولة عن لجوء الكثير إلى سلوك طريق العنف كرد فعل للعنف الذي يمارس ضدهم. طبعًا الإنسان المؤمن الواعي يجب أن يكون رد فعله منطقيًّا ومنسجمًا مع مبادئ دينه وعقله، لكن الكثير من الناس قد لا يصل إلى هذا المستوى من الإدراك والفهم للدين، ولا يمتلك الرؤية السليمة والحكمة لكيفية التعامل مع الواقع، فتظهر بسبب ذلك وتنتشر ظاهرة العنف.[١]

إن حال الأمة وأوضاعها، كما هي الوقائع والمؤشرات، تشير إلى أن بعض دولنا تسير نحو الكارثة والمجهول، التي يتسبب بها هذا العنف المتمادي والمتصاعد الوتيرة، والذي لا يلحق أفدح الأضرار بالمجتمعات المصابة به فقط، وإنما يؤدي إلى تداعيات وكوارث ومصائب كثيرة أخرى، ما لم تتكثف الجهود لوقف الترديات الجارية، والبدء في إجراء مراجعات حقيقية ومخلصة من أجل ترميم الأوضاع وتصحيح الخلل في البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، التي ينفذ من خلالها المغرضون ويتسللون لتنفيذ مآربهم الشريرة.

أخلاقيات الدين في التعامل مع المختلفين

استخدام العنف والقوة ليس خيارًا مرحّبًا به داخل المجتمعات الإسلامية، كما هي قناعة الشيخ الصفار، فهو يرى أن هذا الخيار في الأصل أمر مرفوض وغير صالح إلا ضمن ظروف تحددها ضوابط شرعية، وتحدّدها مرجعيات دينية مقبولة في الأمة، والتطورات السياسية في المنطقتين العربية والإسلامية أثبتت فشل خيارات القوة والعنف، الذي يعتقد أن البديل الأمثل لها هو توجّه الحكومات نحو الإصلاح السياسي، وتفاعل القوى السياسية والاجتماعية الواعية في مجتمعاتنا معه.[٢]

---

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول ـ من حوار في كتاب بعنوان (مع قادة الفكر الإسلامي).

(٢) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع جريدة الأيام البحرينية.

ليس العنف هو السبيل إلى نشر الدين ومبادئه، ولن يكون سبيلًا إلى تطبيق قيمه وأخلاقه، وإنما ذلك لن يتحقق إلا بالدعوة إلى اللَّه بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلة الآخرين بالتي هي أحسن، بعيدًا عن الإكراه والعنف والإرهاب، بل بالعقل والأخلاق، وبتقديم الدليل والبرهان على صحة ما ندعو له، فالأصل في منهج الإسلام هو الدعوة السلمية، كما يقول الشيخ الصفار، وليس استخدام العنف، وعلى المستوى الواقعي نلاحظ النتائج التي أسفر عنها استخدام العنف، والمشاكل الكثيرة التي شوهت صورة الإسلام في العالم.

ويرى الشيخ الصفار أن من الواجب سلوك طريق اللاعنف، سواء تحققت أهدافنا اليوم أو غدًا؛ لأن المسؤولية الشرعية تتحدّد في سلوك الطريق الصحيح، فلا يمكن أن يطاع اللَّه من حيث يعصى، والوسيلة أو الطريق جزء من الهدف، لذلك لا يمكن سلوك طريق العنف واستعمال القوة حتى لو أوصلنا إلى الأهداف بسرعة، لأن ذلك الوصول سيكون عبر ركوب المعاصي وسلوك الطريق الخطأ.[١]

من المهم الالتزام بأخلاقيات الإسلام، كما يشدّد عليها الشيخ الصفار، التي تدعو إلى احترام الرأي الآخر، واعتماد منهجية الحوار والجدال بالتي هي أحسن، ومراعاة الحقوق العامة لأخوة الدين والوطن، فالاختلاف في الرأي لا يجيز التعدي على حقوق الآخرين، ولا يخدش من حقوق المواطنة.

من المهم أيضًا الالتزام بأخلاقيات الدين في التعامل مع الآخرين، والإعلاء من قيمه، والاحتكام إلى الدوافع النبيلة، والرأفة في التعاطي مع الناس والرحمة بهم، بعيدًا عن الأهواء أو ردود الفعل السلبية المشحونة بالحقد ونوازع الانتقام؛ لأن إشاعة روح الرأفة والرحمة والعدل وتجسيده عمليًّا على أرض الواقع، سوف ينعكس إيجابًا على كل نواحي الحياة، بالأمن والاستقرار والاطمئنان النفسي والاجتماعي والسياسي.

---

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول ـ من حوار في كتاب بعنوان (مع قادة الفكر الإسلامي).

لقد كانت سيرة الرسول نموذجًا لهذا التعاطي الأخلاقي الراقي المليء بالرأفة والرحمة واللين، وهو ما لفت إليه الشيخ الصفار حين أشار إلى أنه كان للمنافقين في زمن الرسالة العديد من الأدوار والممارسات المناوئة لحركة الإسلام، وفي مواجهة قيادة رسول اللّه ﷺ، وكان يكفي أي واحد من تلك الأدوار والمواقف، لتوجيه الضربات القاضية لرموزهم وأتباعهم من قبل الرسول، حيث أشار كبار الصحابة، وفي مواقف كثيرة، على النبي باستخدام القوة لردع المنافقين. بالإضافة إلى أن آيات القرآن الكريم في فضح خطط المنافقين والتنديد بمؤامراتهم والتحذير منهم والأمر بمجاهدتهم، كانت توفّر للنبي فرصة لمواجهتهم وقمعهم لو أراد ذلك، كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدْ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾.

إلا أن ما يثير الدهشة، حسب تعبير الشيخ الصفار، هو سعة صدر رسول اللّه، وعظيم احتماله لكل إساءاتهم الخطيرة، وممارساتهم العدائية، حين تعامل معهم بِنَفَسٍ طويل، وصبرٍ عميق، ومارس معهم سياسة الاحتواء والاستيعاب، حيث يلخص الشيخ الصفار نتائج هذه التجربة الاستيعابية في البنود التالية، **أولًا: عدم اللجوء إلى القوة والقمع**، رغم استفزازاتهم وجرائمهم، فلم يتعامل معهم كأعداء محاربين، ولم يقتل منهم أحدًا، ولم يسجن أحدًا، ولم يجلد أحدًا، ولم يطرد أحدًا. **وثانيًا: لم يصادر أيّ حق من حقوقهم المدنية**، فكانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة كسائر المسلمين، يحضرون المسجد، ويدلون بآرائهم في قضايا المجتمع، ويأخذون نصيبهم من الغنائم وعطاء بيت المال. **وثالثًا**: كان رسول اللّه **يبذل لهم الإحسان، ويحوطهم بمداراته، ويشملهم بكريم أخلاقه.**[1]

لقد واجه الرسول أيضًا ألوانًا أخرى من الإساءات لشخصيته ولموقعه القيادي، ومن المخالفات لقراراته وأوامره الدينية والسياسية، حيث كانت تصدر ليس فقط من أفراد غير منتمين لتيار مناوئ كالمنافقين، وإنما هي نابعة من الجهل، أو الانفعال، أو الأغراض الشخصية، وبعض تلك الإساءات كانت شديدة الوطأة، وتنال من مقام رسول اللّه ﷺ،

(١) من كتاب السياسة النبوية ودولة اللاعنف. ص ٤٥

وتشكك في نزاهته، كما أن بعض المخالفات كانت ترقى إلى مستوى الخيانة العظمى، لكن رسول اللّه استقبل كل تلك الإساءات والمخالفات بسعة صدر مذهلة، واستوعب أصحابها بحلم وأناة لا مثيل لها، فلم يستخدم القمع والعنف في أي حالة من تلك الحالات، رغم توفر الأسباب والمبررات، ورغم إلحاح بعض من حوله من الأصحاب على ذلك، إلا أنه التزم نهج السلم، ورجّح سياسة العفو.[١]

(١) من كتاب السياسة النبوية ودولة اللاعنف. ص ٥٩

سادساً:

من أجل تنمية حالة التفاعل والتجانس والتآلف بين شركاء الوطن الواحد

لا يكاد يوجد مجتمع في هذا العالم لا يحتوي ولو على قدر محدود من التعدّد، سواء في الأصول والأعراق، أم في اللغات، أم في الأديان، ومجتمعنا لا يخلو هو أيضًا من بعض التعدد، على رغم وحدة الدين واللغة والتراث، وكذلك وحدة المصالح، فثمة قدر ما من التنوع في مجتمعنا، مع اختلاف في درجة التباين، يكشف عن نفسه في أنماط العادات والتقاليد والقيم الراسخة والمتوارثة في الكثير من البيئات على امتداد مناطق الوطن وأقاليمه، نتيجة اختلاف الظروف والتطورات التاريخية التي مرت بها.

وما أن يضعف التجانس الاجتماعي والتآلف الثقافي في داخل المجتمع، نتيجة طغيان الشعور بالانتماءات الطائفية والقبلية والعشائرية والمناطقية، فإن ذلك يحمل في طياته عوامل الضعف والانحلال والتفكك للكيان الاجتماعي الذي يؤلف الدولة، قد ينجم عنه مشكلات داخلية سياسية وأمنية واقتصادية، تؤثر على وحدة الوطن وتماسكه.

صراع الهويات

عندما يحدث انقسام اجتماعي، كما يقول الشيخ الصفار، تتضخم الهويّة الخاصة عند كل طرف من الأطراف، فهي حدود الدفاع عن ذاته، وخندق مقاومته، وعنوان وجوده، لذلك فمن أجل أن يتوحد المجتمع، لا بد أن تنخفض درجة الغليان في الهويّات الخاصة، لصالح هويّة مشتركة يتمثل فيها وجود كل الأطراف، وترى من خلالها ذاتها بدرجة

متماثلة. وفي هذه الحال لا يمكن أن تقوم هويّة أحد الأطراف بهذا الدور الجامع؛ لأن بروزها يستثير تحدّي بقية الهويّات، وإعلانها يعني غلبتها واعتراف الآخرين بالهزيمة أمامها.

فعندما يكون المجتمع منقسمًا على أساس قومي، فلا يمكن أن تشكل إحدى قومياته إطارًا لوحدته، وتصبح هوية جامعة له، وكذا الحال لو كان متعدد الأديان أو المذاهب، فإن أحدها لن يقوم بدور الجامع المشترك، لذلك لا بد من عنصر مشترك بين أجزاء المجتمع، يتم إبرازه والتركيز عليه كهويّة جامعة، أو تنمو حالة فكرية سياسية جديدة تتمحور حولها فئات المجتمع، وتصبح هدفًا مشتركًا وإطارًا جامعًا.

ويذكرنا الشيخ الصفار بما تحقق على يد رسول اللّه ﷺ، من خلال دعوته الإسلامية المباركة، حين أصبحت حالة سريعة النمو تخترق أوساط مختلف القبائل، وتبشر بتوجه جديد يحفّز نحو أهداف سامية، ويتبنى قيمًا إنسانية حضارية، تتجاوز أنانية الأفراد، وعصبية القبائل، وعبثية الحياة، حيث أخذ الإيمان موقعه في نفوس أبناء تلك القبائل المتصارعة، وتمحور حوله ولاؤهم، وتوثق له انتماؤهم، على حساب الولاء القبلي، والانتماء العشائري، فأصبح إطارًا جامعًا وهويّة مشتركة، يفخر به الجميع بدرجة متساوية على اختلاف قبائلهم وتفاوت مكانتها وقوتها.(١)

إنه لمن الطبيعي في مجتمع كبير ومتنوع الأقاليم ومتعدد المناطق وينتمي الكثير من سكانه إلى أصول قبلية وعشائرية، ويمرّ بحراك تنموي وتحديثي متسارع الخطى، أن يحدث بين أبنائه لغط والتباس حول الكثير من المفاهيم والممارسات الحديثة، وتباين في فهمها، مقارنة بالمفاهيم القديمة والمتوارثة، حيث يبرز وسط هذا الشدّ والجذب، احتدام الصراع بين الحداثة والأصالة في المجتمع.

وحول هذه الإشكالية أو المعضلة في فهم معاني ودلالات المفاهيم، أو السعي إلى تشويه معانيها، تتساءل جريدة الوطن السعودية، عن المدى الذي وصل إليه مجتمعنا

---

(١) من كتاب السياسة النبوية ودولة اللاعنف. ص ٧٨

في تشويه المفاهيم الفكرية، من خلال تحويلها إلى تهم وتصنيفات اجتماعية، يقصد بها الانتقاص من الآخر المختلف معك. فما يحدث من نقاشات اجتماعية عديدة، تحتضنها الكثير من المجالس والديوانيات الخاصة والعامة، التي عادة ما تتناول قضايا تطرحها وسائل الإعلام، وخصوصًا ما يعرف بالإعلام الجديد، وفي مقدمتها الصحف والمنتديات الإلكترونية، يمثل نموذجًا لما يحدث من التباس ولغط، أو تشويه مقصود لتلك المفاهيم الجديدة، ولكن اللافت أن هذه النقاشات تتحول إلى مناصرة لهذا الرأي أو ذاك، أو تبنٍّ لموقف، أو تصنيف يطلقه أحدهم دون وعي بحقيقة هذا المصطلح أو المفهوم.

وتلفت «جريدة الوطن» إلى أن هناك عددًا من الدراسات والطروحات الثقافية «يشير إلى أن الانفتاح الحضاري وتأثيرات العولمة لم يحدّا من التعصب القبلي في المجتمع العربي بشكل عام، والسعودي بشكل خاص، بل يرى بعض الباحثين أن ما حدث هو العكس، حيث زادت نبرة القبلية والعنصرية، بفعل استغلال ثورة المعلومات واستخدام معطيات العصر، في نشرها وترسيخها كقيم اجتماعية، كالقنوات الفضائية الشعبية والإنترنت، فالفضائيات أصبحت مرتعًا خصبًا لرفع راية القبيلة والتفاخر بالأنساب والأحساب. أما الإنترنت فهو المكان المفضل لتوثيق هذه «الأمجاد» فلم تعد أي قبيلة بدون موقع على الإنترنت بل وتطور الأمر إلى «الفيسبوك».[١]

عندما تتضخم الهويات الخاصة والفرعية على حساب الهويات الكبرى والجامعة، فإن حالة الانقسام والفرز الاجتماعي الناتجة عن ذلك، تحفر آثارها في النفوس والمشاعر، بتضخيم الذات الفئوية، والحطّ من شأن المنافسين، والتعبئة تجاههم، كما تنتج ثقافة تبرر التمايز، وتكرّس المفاصلة، وقد تدفع إلى سلوكيات عدائية، وممارسات استفزازية، ولن يتم تجاوز هذه الحالة، والتطلّع لوحدة المجتمع، إلا بثقافة جديدة تعالج آثار ثقافة الانقسام، وتواجه مفاعيلها النفسية والسلوكية.

لقد كان الصراع والتنافس القبلي في الجزيرة العربية، كما ينقل الشيخ الصفار، دافعًا

---

(١) جريدة الوطن السعودية. الصفحة الثقافية. حسن آل عامر. ٢٨/ ١٢/ ٢٠١٠

لتربية الأبناء على الفخر والاعتزاز بانتمائهم للقبيلة، وتنمية مشاعر التميّز وأحاسيس الأفضلية على الآخرين، وهذا ما تنضح به قصائد شعرائهم، وخطب زعمائهم، فقد كانت الحماسة والفخر من الأغراض الأساس في الشعر العربي الجاهلي، حيث يتفنن الشعراء في تمجيد قبائلهم وإظهار مكانتها، أو في هجاء القبائل المنافسة والحطّ من شأنها، ووصفها بأسوأ النعوت، وأقبح الصفات.

وعندما جاء الإسلام وسعى لتوحيد تلك القبائل، اهتم بمواجهة تلك الثقافة التمييزية السائدة، باجتثاث جذورها النفسية والفكرية، ومقاومة آثارها السلوكية، حيث أكدت آيات القرآن الكريم، على الأصل الواحد لبني البشر: ﴿**الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾، ونسفت كل مبررات التفاضل الزائفة بين الناس، إلا على أساس كسبهم الاختياري للصفات الفاضلة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾.

ويضيف الشيخ الصفار أن الرسول الكريم شدَّد في خطاباته وأحاديثه على مبادئ الوحدة بين أبناء المجتمع الإسلامي، وشّن حربًا ضارية على الأفكار والتصورات الجاهلية، بالتفاخر بالأنساب والأحساب، أو التفاضل بالانتماء القبلي أو العرقي، كقوله ﷺ: (**ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية**). كما روي عنه ﷺ أنه خطب يوم فتح مكة فقال: (**أيها الناس ليبلغ الشاهد الغائب: إن اللَّه قد أذهب عنكم بالإسلام نخوة الجاهلية، والتفاخر بآبائها وعشائرها، أيها الناس إنكم من آدم وآدم من طين، ألا وإن خيركم عند اللَّه وأكرمكم عليه اليوم أتقاكم وأطوعكم له**).

ونقل عن جابر بن عبد اللَّه الأنصاري انه قال: خطبنا رسول اللَّه ﷺ في أوسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال: (**يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند اللَّه أتقاكم**). وفي إحدى الغزوات حصل سوء تفاهم بين مهاجري وأنصاري فصاح أحدهما: يا للمهاجرين، ونادى الآخر: يا للأنصار، فلما سمع

رسول اللّه ﷺ أدان هذا المنطق قائلًا: (**ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة**).(١)

بناء الهوية الجامعة

إن ضعف مفهوم الدولة ودورها في الثقافة والوعي الاجتماعي العام، لصالح ثقافة الولاءات للمكونات والهويات الخاصة الأخرى، من مذهب وطائفة وقبيلة وعشيرة وإثنية وعرقية، وهي مكونات يمكن أن تكون نعمة من خلال تعددية أطيافها، في إثراء واغتناء ورفد الدولة وتقويتها، لتتحول إلى نقمة تهدد بقاء الدولة ككيان جامع، وكضامن لتعايش هذه المكونات في نسيج وطني واحد تحت مظلتها، إذا سادت واستفحلت الثقافات الفرعية واستقوت على حساب الثقافة الجامعة، مما يهدد مفهوم الدولة، ويؤدي إلى تقويض مؤسساتها وهدمها.

هناك من يشعر بالحاجة، وربما الحنين، للعودة إلى حضن ودفء مكوناته الأولى، كحاضن يحتويه ويحقق له ما يريد من الأمن والأمان وتأمين مصادر الرزق، على الرغم مما يحدث من حراك تحديثي وتنموي في المجتمع، حيث يلاحظ تسلسل النزعة القبلية والعشائرية والمذهبية إلى الإدارات الحكومية والمصالح العامة، بفعل التغاضي عن بعض ممارسي فعل القبلية والطائفية، وهما أسّ الواسطة والمحسوبيات التي تعتبر من أهم المشكلات الإدارية في المملكة، كما أشارت إلى ذلك جريدة الوطن، مع أن مشروع الدولة الحديث ومفهومه، يهدف إلى استيعاب وتنظيم وصهر كافة مكونات المجتمع ضمن بوتقة واحدة، وإعادة إنتاجها وإخراجها بشكل جديد يحمل مسمى المواطنة، الذي يتمثل في نموذج المواطن الصالح، حيث تعمل الدولة الحديثة على تنظيم الإيقاع بين كافه التلاوين والأطياف المكونة للدولة.

إن من أسباب ضعف أي دولة وتفككها، كما يشير إلى ذلك الكاتب سعيد الحمد، هو «أن الدولة لم تكن «بيضة قبان» في علاقاتها مع القوى والتيارات، ومع مكونات مجتمعها،

---

(١) من كتاب السياسة النبوية ودولة اللاعنف. ص ٨٠

بمعنى أكثر دقة، لم يقف نظام الدولة العربية على مسافة واحدة من الجميع.. فكانت المفارقة أن الأقرب إليها بالأمس هو الذي يقود اليوم ويتزعم قوى وتيارات تفكيك الدولة في بعض البلدان، فيما بلدان أخرى تهدد بتفكيك دولتها قوى راديكالية/ اجتثاثية تعتمد منذ البدء الميليشيا عسكريتريا جديدة تنفذ التفكيك بأسلوب الانقلاب».

ويضيف الحمد قائلًا: أنه «في مفترق الطرق نسأل عن تأمين الدولة من نوازع ونزوعات التفكيك، وهي نوازع لم تأتِ من فراغ، بقدر ما جاءت وتبلورت تعبيرًا عن ثقافة الولاء للمكون على حساب كل ولاء، بما فيه الولاء للدولة، «مرة أخيرة نذكر أننا نتحدث عن الدولة وليس عن النظام في عالمنا العربي - والفرق كبير لمن يريد أن يفهم»، فتأمين الوعي العام الجمعي وتأهيله بمفهوم الدولة وثقافة الدولة وفكرة الدولة مهمة شاخصة وملحة بقوة في برهة تاريخية عربية مؤلمة حدّ الوجع قد يطول مداها ويمتد إلى لحظة نذهل فيها عن تفكيك مؤسسة الدولة العربية فلا نجد دولتنا العربية إلا وقد «تصوملت» فأصبحت كل عواصمنا مقاديشو أخرى في نسخ مكررة تتوزعها زعامات التفكيك وهي تراهن على دولة المكون الطائفي أو القبلي أو الأثيني لا دولة الوطن والمواطن.. دولة المؤسسة».(١)

الشراكة في بناء الوطن وتعميره

إن التعدد هو أمر طبيعي وحالة إنسانية، حيث يمكن أن تتعدد وتختلف الطوائف والمذاهب والقبائل والأثينيات في أي مجتمع، ومن غير الطبيعي أن لا يوجد هذا التنوع والتعدد داخل أي مجتمع إنساني. وحتى داخل الفئة الواحدة والطرف والصف الواحد في المجتمعات الضيقة والمحدودة يوجد داخلها هذا التنوع والاختلاف تجاه أي قضية أو مشكلة تواجه المجتمع وتمسّ حاضره ومستقبله، فتتعدد وتختلف الرؤى والمواقف، وذلك تبعًا لاختلاف الاجتهادات الفكرية أو الانتماءات العقائدية، من دون أن يتهم أحد آخر لا بالتكفير ولا بالتفسيق ولا بالتبديع، فلكل وجهة نظره، ولكل أحد أن يكون كما يشاء، واختلاف الرأي يجب أن لا يفسد للود قضية.

---

(١) تفكيك الدولة ورهان بلا بدائل. سعيد الحمد. جريدة الأيام البحرينية بتاريخ ٢٨/ ١٢/ ٢٠١٠.

إذا كان التعدد المذهبي واختلاف الآراء، حسب قول الشيخ الصفار، حالة طبيعية ولا مناص منها ولا ضير فيها، فإن التعصب المذهبي البغيض، بما يعنيه من سعي لفرض الرأي ورفض للرأي الآخر، وممارسة الاستبداد والإرهاب الفكري، هو الأرضية الصالحة والمناسبة لبروز وظهور النزاعات والصراعات داخل الأمة، وسببٌ لإحداث الشروخ في حالة السلم الاجتماعي، ويؤدي إلى تصاعد الاحتراب الأهلي، ومن ثم استنزاف قوى الأمة وإمكاناتها في معارك مكلفة وخاسرة بكل تأكيد.

ويضيف الشيخ الصفار قائلًا: إن مما لا يشك فيه عاقل، أن حال التشنج والنزاع داخل الأمة، يضعف قدرتها على مواجهة التحديات العاصفة، كما يتيح الفرصة للأعداء كي يلعبوا بأوراق هذا النزاع، ويدعو الشيخ الصفار، موجهًا خطابه للإخوة السلفيين من أبناء الوطن، مدّ يد التعاون والتحالف للأطراف الإسلامية الأخرى، مؤكدًا أن ذلك من أولويات ما يدعو إليه العقل والدين، وإلا فإنهم يتحملون مسؤولية المضاعفات السلبية لواقع الخلاف القائم.

ومن المثير للدهشة والاستغراب، كما يقول الشيخ الصفار، إنه في الوقت الذي نرى فيه تسارع خطوات التقارب والتنسيق بين الآخرين، ممن بينهم خلاف عقدي عميق، وصراع تاريخي طويل، حيث يتجاوزون كل ما بينهم من تناقضات وصراعات، ويبادرون للتحالف والتعاون تجاه ما يرونه خطرًا مشتركًا، بينما نعجز نحن المسلمين ونفتقد الإرادة الواعية والعزيمة الكافية لتجاوز خلافاتنا وصراعاتنا، والاقتراب من بعضنا، ونحن أهل دين واحد، ونبي واحد، وبيننا هذا القدر الكبير من الجوامع والقواسم المشتركة، ونواجه التحديات والإخطار العاصفة.[١]

إن ما يسمى بالصراع الطائفي والنزاع المذهبي، فخٌّ منصوب يراهن عليه المغرضون والحاقدون، من أجل استنزاف الطاقات وإهدار الإمكانات في معارك جانبية، تتسبب في

---

(١) من كتاب السلفيون والشيعة نحو علاقة أفضل. الطبعة الثانية ٢٠٠٧، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت ـ لبنان.

إضعاف التجانس والتآلف بين شركاء الوطن، وتشغلهم عن البناء والتعمير، من خلال ضخ المزيد من ثقافة التزمت والانغلاق والتشدد والغلو والكراهية، حيث أصبحت مثل هذه الثقافة السلبية، بفعل التراكم، كالعقيدة والأيدلوجية التي يصعب إزاحتها وتفكيكها من الوجدان الجمعي.

ولعل هذا الذي يحدث من أعمال عنف وتخريب على ساحة بعض أوطاننا، يؤشر إلى وجود ثقافة سلبية متضخمة تغذي أساليب وأعمال وممارسات التطرف الذي يستنزف الكيانات المؤسسية ويفككها. ففي مقابل استقواء واستفحال المذهبية والطائفية والقبلية والعشائرية والأثنية، تتراجع بالتأكيد وتضعف مؤسسة الدولة، وهو الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى الضعف والتهالك والانهيار، بفعل سقوط هيبة القانون، مرورًا بانتهاك احترام الدولة، واحترام مؤسساتها وأجهزتها.

من المؤكد أن ترتيب أوضاعنا الداخلية، وتحصين أوطاننا من الداخل، يعززان من قوة الوحدة الوطنية، ويقطعان الطريق على أية نيات مبيتة للإخلال بالأوضاع بأيّ شكل من الأشكال، وتحت أيّ شعار وادّعاء كان، ويقفل الأبواب والنوافذ أمام أيّ تدخلات خارجية، ويسمح بانطلاق واستعادة مسيرة النماء والإصلاح والإعمار، لتكون أوطاننا كما هو مفترض، لها هيبتها ودورها الفاعل في المنطقة، وقادرة على التصدّي لكل محاولات تقطيع أوصالها وتقسيمها واقتسامها.

إنه لمن المهم كسر الحواجز النفسية التي تفصل بين مختلف قطاعات السكان من خلال التعارف والترابط والابتعاد عن روح التعصب، وتغليب واستيعاب فكرة المواطنة، وأهمية التشكل في صورة أمة أو شعب واحد، حتى يمكن القضاء على الشكوك القائمة على عدم الفهم وعدم التقدير بين أبناء الوطن الواحد، فالانعزال والتمايز الاجتماعي والثقافي عن باقي قطاعات المجتمع الأخرى، قد يثير الشكوك حول مدى الولاء للوطن فيما لو تعارضت المصالح. على أنه من غير المشروع فرض قيود على مقومات الهوية الاجتماعية التي يعتز بها قطاع ما من السكان، قد يؤدي فرضها إلى شعورها بالتمييز ضدها وبالاضطهاد، مما

يدفعها إلى اتخاذ مواقف متطرفة تكون في غير صالح المجتمع كلّه.

يبقى القول إن الاندماج الوطني قضية ملحّة، كما يشدّد الشيخ الصفار، حيث يجب أن يبذل كل الواعين أقصى جهودهم من أجل خدمتها وتحقيقها، فهذا الوطن الواسع الكبير يضم مناطق عديدة، ومجتمعات مختلفة في بعض خصائصها الجانبية، وإن كانت تنتمي لأصول عربية واحدة، ولدين واحد، هو الإسلام. لكن الحرص الطبيعي والمشروع لكل مجتمع على خصوصياته يقتضي احترام هذه الخصوصيات، واتساع بوتقة الوطن للجميع، بالتأكيد على القاسم المشترك، والهوّية الوطنية الواحدة التي تحترم الخصوصيات ولا تقمعها. وحين تضعف هذه الحال لصالح خصوصية معينة، يزداد تمسك الآخرين بخصوصياتهم، فيصبح الوطن ساحة صراع بين الخصوصيات أو الهوّيات الفرعية، على حساب الهوّية الوطنية، كما أن وجود ثقافة تنال من الآخر الوطني، وتعبئ ضده لاختلاف مذهبي أو فكري، يعوّق تحقق الاندماج الوطني، ويحول بعض فئات الشعب إلى كانتونات تنكفئ على نفسها، وتنعزل عن محيطها.(١)

مسؤولية شركاء الوطن في تجاوز المشكلة الطائفية

عندما يعيش أي مجتمع مشكلات طائفية، وتتعرض بعض فئاته أو بعض شرائحه إلى التمييز، حين يمارس تجاهها الإقصاء والتهميش بسبب انتمائها المذهبي، فإن مسؤولية الخروج منها، وإيجاد الحل لها، هي مسؤولية مشتركة، تقع على عاتق جميع الأطراف المعنية بأمر الوطن، حتى وإن كان حجم المسؤولية يختلف من طرف إلى آخر، وذلك حسب قول الشيخ الصفار، الذي يعتبر أن المتضررين من التمييز يتحملون قسطًا من المسؤولية في التصدي لهذه المشكلة، وإيجاد الحل المناسب والعادل لها.

كلام الشيخ الصفار يأتي في سياق بحثه في المشكلة الطائفية، وضرورة أن تحدد الجهة المتضررة من التمييز المذهبي، مسؤوليها وأدوارها الذاتية، قبل إلقاء المسؤوليات على

---

(١) من كتاب المذهب والوطن. ص ١٨٧

الجهات الأخرى، وتوزيعها عليهم، وتحميلهم وزر المشكلة كلّه. لذلك يتوقف الشيخ الصفار عند **ثلاثة عوامل** يدعو إلى وضعها في عين الاعتبار حين تحديد المسؤوليات، وهو يعتبرها جزءًا من مسؤولية الطرف المتضرر، الذي يشكو من المشكلة، ويطالب بالإصلاح والتغيير:

العامل الأول: الطرح السليم للقضية، حتى تكون جزءًا من قضايا الوطن الأعمّ، وليس مشكلة فئة من أبنائه، ليكون العلاج بعدها بالإصلاح الشامل، وضمن اللغة الوطنية، والإسلامية الوحدوية، وبشكل موضوعي مناسب، بعيدًا عن الطرح الانفعالي والاستفزازي المتشنج؛ لأن ذلك إذا ما حصل فإنه يسيء للقضية بدل أن يخدمها. فعندما يكون هناك تقنين دستوري، ومشاركة شعبية، وحقوق مواطنة، فمن الطبيعي أن تحلّ هذه المشكلة ضمن هذا السياق الشامل، وخصوصًا إذا كانت الثقافة السائدة في المجتمع، منفتحة واعية في إطار حقوق الإنسان، واحترام حقوق المواطنة والحريات، ليتم معالجة هذه المشكلة مع أي مشكلات أخرى معلقة.

لا يغفل الشيخ الصفار عن التذكير بأنه لا ينبغي لأحد يشعر بالغبن والإقصاء، ويشتكي من التهميش والتمييز، السكوت عن مشكلته، وإغفال المطالبة بحقه (**فالساكت عن الحق شيطان أخرس**)، كما لا ينبغي لأحد الشعور بالإحباط، والاستسلام لليأس والعجز، وادّعاء انتظار الفرج، وتغيُّر الظروف، والاستسلام للأمر الواقع، وتحمّل أذاه، والصبر عليه، لكون القضية قضاءً وقدرًا، بل على العكس من ذلك، ينبغي لهؤلاء المواطنين، المطالبة بحقوقهم، وحمل قضيتهم (**فما ضاع حق وراءه مطالب**)، وأن لا يسكتوا عن معاناتهم، وأن يطرحوا ما يرونه حقًّا لهم بمختلف الطرق والسبل، وأن يتحدثوا عنه أمام المسؤولين، وأمام بقية الناس، وفي وسائل الإعلام المتنوعة والمتعددة، على أن يكون ذلك كلّه، بطريقة سليمة معتدلة تخدم القضية ولا يسيء إليها.

العامل الثاني: الاهتمام بالشأن الوطني العام وتعزيز الدور الوطني، حيث لا يصحّ لهؤلاء المواطنين أن يحاصرهم همهم الخاص، فيصبح الهمّ الخاص غالبًا على الهمّ الوطني

العام؛ لأن هناك من له مصلحة في دفع هؤلاء المواطنين نحو اتجاه التقوقع على الذات، وحصر اهتماماتهم بقضاياهم الخاصة، بعيدًا عن الشأن العام، الذي يهمّ الوطن كلّه، حيث يدعو الشيخ الصفار هؤلاء المواطنين إلى عدم الانسياق خلف هذه الحالة الانعزالية، بل عليهم نقل قضيتهم ضمن إطارها الطبيعي، وأن لا يضعف في نفوسهم وتفكيرهم وعملهم الهمّ العام، خاصة وأن مشكلتهم هي جزء من وضع عام موجود ولا يمكن حلّه كاملًا إلا إذا كان هناك إصلاح وتطوير شامل.

وكلما ارتقى الإنسان بهمّه، وطريقة طرحه، أصبح في موقعية متقدمة، واستطاع أن يخدم قضيته وهمّه الخاص بشكل أرقى وأفضل. وعندما يعمل هؤلاء المواطنون على تعزيز دورهم على المستوى الوطني العام، وتبنّي قضايا وهموم الوطن، من خلال العمل على تعزيز دورهم ثقافيًّا وإعلاميًّا واقتصاديًّا وعلميًّا واجتماعيًّا، فسوف تكون لهم المبادرة باتجاه مختلف القضايا، وعلى مختلف الصّعد، وذلك ضمن إطار التنافس الإيجابي مع باقي قطاعات وسكان الوطن.

العامل الثالث: الانفتاح وعدم استمراء حالة الانطواء والانغلاق على الذات، بل بالسعي إلى الانفتاح على الآخرين كلّهم في محيطهم الوطني من أبناء المناطق الأخرى والمذاهب والتوجهات المختلفة، حيث يعتقد الشيخ الصفار أن حالة الانفتاح هي أولًا لمصلحتهم بصفتهم أحد مكونات الوطن، وجزءًا من شرائحه الاجتماعية، وثانيًا لأن العقل السليم يدفع بهذا الاتجاه، وكذلك الدين، فالأئمة من أهل البيت كانوا يدفعون أصحابهم للانفتاح على الآخرين، على الرغم من أنهم كانوا يعيشون ظروفًا مليئة بالجور والاضطهاد، لكون تعاليم الإسلام تشجع الإنسان المسلم أن يكون منفتحًا على الآخرين، بغض النظر عن تصنيفاتهم، لا أن يكون منغلقًا على ذاته داخل جحره وصومعته.[١]

من أجل بناء مجتمع قويّ ومحصّن

يشير الشيخ الصفار إلى أن ما نحتاجه من أجل تجاوز حالة الجفاء والجمود بين

(١) من كتاب المشكل الطائفي والمسؤولية الوطنية. ص ٢٩

أبناء الوطن الواحد، وتعزيز حالة الوحدة والتقارب، وخلق أجواء التآلف والوئام، هو المبادرات المخلصة الجريئة، التي تتجاوز ضغوط بعض القوى المتشددة في الجانبين، هذه القوى التي تلجأ لتحريك عواطف الجمهور ومشاعره، بمختلف العناوين، لعرقلة حركة الوحدة والتقارب، واتهام المصلحين بالتخلي عن الثوابت، والتنازل عن المعتقدات.(١)

لذلك ينبغي لنا أن نكون أكثر رشدًا في الحرص على الانسجام مع الفئات المتعددة داخل المجتمع الوطني، من خلال إشاعة ثقافة التعايش السلمي والأهلي، وقبول الآخر ضمن المجتمع الواحد، ونقل مستوى وعي الناس من مستوى التقوقع والانعزال على الذات، إلى رحابة الاندماج مع الآخر والتحاور معه، باحترام القانون والأعراف والتقاليد، والتفاعل الإيجابي مع القيم السائدة، وبالاحترام المتبادل للخصوصيات.

فكم هو جميل ورائع العمل على تحسين العلاقة بين إخوة الوطن والدين الواحد، والتمسك بقيم التسامح والوسطية والاعتدال، والقيم المدنية والحضارية المتطورة، وتخطي حالة التعصب والبغضاء، وترك طريق التشدد والمشاحنات، وتجاوز خطابات التحريض، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، بعيدًا عن الحوارات المتشنجة، والحدّة في المناقشة، والسجالات العصبية، والتعصب للآراء الذاتية، وإثارة المشاحنات الطائفية، والبعد عن إصدار الأحكام المطلقة تجاه الآخرين واحترام رؤاهم، حتى وإن لم نتفق معها، من دون التعالي عليهم وتحقيرهم وتهميشهم، بل من خلال النظر إليهم والتعامل معهم بشكل أخلاقي وإنساني يقوم على أسس الأخوة والرحمة والشفقة والتواضع.

وعلى الرغم من تردّي حال الأمة وصعوبة أوضاعها، يبدو أن الشيخ الصفار ما زال يشعر بدرجة من الأمل والتفاؤل بتحسن وتطوير العلاقة بين أبناء الوطن الواحد، نتيجة ما يلاحظ من تطور فكري وثقافي ملحوظ عند مختلف الفئات والأطراف، يجعلها أقرب إلى القبول بوجود الرأي الآخر، والتعامل معه مهما كانت درجة الاختلاف والتباين، مع

---

(١) من كتاب السلفيون والشيعة نحو علاقة أفضل.

التزام كل طرف بثوابته وقناعاته.

إلا أن ما يمكن قوله أن صناعة مستقبل الأمة ليس أحلامًا طوباوية، والطريق إلى ذلك الهدف ليس مفروشًا بالورود، خصوصًا ونحن نشاهد المنطقة من حولنا تعجّ بالكثير من الأزمات والتحدّيات ومشاريع الحروب، وانتشار أشباح الفتن المذهبية والعرقية، وما يمكن أن تفرزه من أمراض ليس من السهل توفير الدواء الناجع لها، ولا يمكن مواجهتها من دون العمل الجاد والمخلص من داخل مجتمعاتنا، من أجل معالجة ما نعني منه من مآزق ومشكلات.

فهل من صالح مجتمعاتنا وتقدّمها وتطوّرها واستقرارها ورفاهيتها وجود مثل هذه التوترات والصراعات والخصومات؟

إن التعايش بين أبناء المجتمع الوطني الواحد هي قضية تستلزم الحدّ من النزاعات والاختلافات الهامشية، والتمييز بين ما هو تصرف مقبول وما هو مرفوض، ما هو أخلاقي وما هو ضد الأخلاق، ما يتفق مع التقاليد والقيم ومصالح المجموع، وما هو ليس كذلك، ما يتفق مع جوهر الدين وروحه وتعاليمه وتوجيهاته وأهدافه السامية، وما هو من القشور والشكليات والمظاهر.

إن بناء المجتمع القويّ والمحصّن، يحتاج إلى رؤية إستراتيجية شاملة، وخريطة طريق واضحة المعالم، تتحرى مصالح الأمة العليا، لا تحدد الأهداف لهذه الرؤية فحسب، بل ترتّب أولويات تلك الأهداف في طريق الألف ميل. والمهم هو ما نقوم به من جهد وعمل، وما نخطوه من خطوات جادة نسلكها على هذا الطريق الطويل بأنفسنا وبجهدنا.

فهل نحن فاعلون؟

سابعاً:

مسؤولية الحكومات في تشجيع حالة الحوار بين أطياف الوطن الواحد

إنه لمما لا شك فيه أن قادة الرأي، من الرموز الدينية والفكرية والثقافية الواعية في أي مجتمع، لهم قوة تأثير جماهيرية واجتماعية مهمة في الأوساط التي ينتمون إليها، وهم لذلك معنيون بنشر ثقافة التقارب والتسامح والحوار، وتشجيع التوجهات الخيرة كلّها في وسط البيئات التي تعيش وتتحرك فيها، وأن تأخذ على عاتقها مهمة التبشير بالقيم النبيلة الشاملة التي تدعو للتعاون على البر والتقوى والأخلاق الحميدة، والدعوة إلى الوحدة والوئام، وإشاعة روح التسامح والتقارب، والتحذير من التعصب، ومحاربة توجّهات الغلو والتشدّد والتطرّف.

والمؤمّل أن تؤدي النخبة الواعية دورًا أساسيًّا في ثقافة التقارب، وأن تتحمل مسؤولية نشر الوعي الملتزم بقضايا الوحدة، حيث يقع على عاتقها تنمية فرص اللقاء والتعارف والحوار المنتج لحالة الطمأنينة والاستقرار. إلا أن الشيخ الصفار مع ذلك يعتبر أن مسؤولية الحكومات أكثر أهمية وإلحاحًا من أيّ جهة أخرى، من خلال المبادرة وتوجيه الاهتمام لهذه القيمة، والسعي إلى خلق حالة حوارية جادة تحت قيادتها وإشرافها والدفع بها إلى الأمام، وتحمل مسؤولية تجسيد نتائجها عمليًّا، لكي تعمّ فائدة الحوار وخلاصاته أبناء الأمة وشركاء الأوطان كلّهم.

وإذا افترضنا أن مسؤولية البدء بنشر الأطروحات الداعية للتفاهم والتواصل

والتعارف هي بعهدة علماء الدين والدعاة، ﴿**بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء**﴾، إلا أن ظروف الواقع تجعل العامل السياسي هو المسؤول بالدرجة الأولى في بسط وتعميم هذه الأطروحات، كما يعتقد الشيخ الصفار، فالقيادة السياسية في كل بلد مسؤولة عن حقوق مواطنيها بمختلف مذاهبهم وطوائفهم، فإذا ما طبقت العدل والتزمت المساواة وتكافؤ الفرص، فسيجد الجميع أنفسهم أمام واقع التعايش، واحترام حقوق بعضهم بعضًا.[١]

إن مسؤولية الارتقاء بمجتمعاتنا إلى مستوى التعايش الحضاري، تقع على عاتق الجميع بدون استثناء، حيث يقول الحديث الشريف: (**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**)، إلا أن الحاكمين في البلاد الإسلامية، يتحملون مسؤولية رئيسة في توحيد شعوبهم، وتوفير أجواء التعايش والانسجام فيما بينهم، على أساس الحق والعدل، ومنع أي تمييز قومي أو طائفي، فقد روي عن رسول اللّه ﷺ قوله: (**خير الولاة من جمع المختلف، وشر الولاة من فرق المؤتلف**).[٢]

والشيخ الصفار يعتقد أن المؤسسات الرسمية، خاصة عندنا في منطقة الخليج والجزيرة العربية، معنية بالحوار كما هي النخب، فالأنظمة والحكومات عندنا تدرك الأخطار المحيطة بهذه المنطقة، وقد واجهت المشاكل السياسية، الداخلية والخارجية في المرحلة الماضية، حيث يأمل الشيخ الصفار أن تشجع حكومات المنطقة حالة الانفتاح بين المذاهب والحوار بين أتباعها الموجودين في أوساط مجتمعات منطقة الخليج ويعيشون في كنفها ويشكّلون جزءًا من تركيبة شعبها؛ لأن ذلك يضمن تلاحم أبناء المنطقة مع بعضهم البعض، ويتيح لهم القدرة للتصدي المشترك والفعّال لكل الأخطار المحدقة بهم والدائرة في فلكهم.[٣]

لذلك فإن إزالة الحواجز التي تمنع التلاقي والتواصل بين أبناء المجتمع الواحد، تشكّل

(١) من كتاب المذهب والوطن. ص ١٣٧

(٢) من كتاب التنوع والتعايش. ص ١٨٥

(٣) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول ـ من حوار مع جريدة الوطن الكويتية.

ضرورة قصوى لتحقيق الشراكة الوطنية الفاعلة، فثقافة الإقصاء تشكل أحد الإشكالات التي تعاني منها أغلب المجتمعات العربية والإسلامية نتيجة «الفهم الديني السائد الذي يَعُدُّ الرأي الآخر ضلالًا ومنكرًا تجب محاربته وإزالته، بالإضافة إلى سياسات الأنظمة الحاكمة التي ترفض وجود الرأي الآخر المختلف مع توجّهاتها ومواقفها، وهو الأمر الذي مارسته شتى الأنظمة في البلاد العربية والإسلامية، من اشتراكية وقومية وليبرالية وإسلامية، عندما كانت في مواقع السلطة فمارست أشدّ أنواع القمع ضد مخالفيها».(١)

من هنا تظل مسؤولية الدولة في نشر ثقافة الانفتاح والتسامح والحوار أكبر من مسؤولية الآخرين، لأن «سياسات الحكومات هي المؤثر الأكبر في واقع مجتمعاتنا، فإذا ما أتاحت الحكومة فرصًا متكافئة لجميع الأطراف، وخاصة في مجال الإعلام والعمل الثقافي والاجتماعي، فستكون التعددية والتعايش السلمي بين فئات المجتمع هو الحال القائم، كما نجد ذلك في كثير من البلدان. أما الانحياز لجهة ما، ووضع كل الإمكانات تحت تصرفها وحرمان الآخرين من التعبير عن رأيهم ووجودهم، فستكون النتيجة الحتمية كذلك هي الأحادية والاستبداد الفكري، فبعض الجهات تمارس دورًا قمعيًا يكرّس الاستبداد والأحادية، ويغذّي التطرّف والتشدّد، من خلال مصادرة ما يخالف التوجه السائد. ووسائل الإعلام في بلداننا كلها رسمية، فالتلفزيون والإذاعة يعملان بنهج أحادي لا مجال فيهما إلا لرأي اتجاه واحد».(٢)

عقلنة المجال الديني

إن المطالبة بدور أكبر وأساس للدولة في تأسيس حالة حوارية بين مكونات شعبها، هو بالتأكيد أمر مهمّ، ويشكّل ضرورة جوهرية، إلا أنه يتطلب إصلاح مؤسسات الدولة، وتثبيت أركان دولة حديثة، وإنهاء أشكال السياسات التمييزية كلّها بين السكان. ومع ذلك يظلّ هذا الاصطلاح الضروري ناقصًا، إذا لم يعمّم ليطال أيضًا المؤسسات الدينية

(١) من كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. ص ٧٩

(٢) من كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. ص ٨١

التي تزعم أنها تتكلم باسم الدين، لا سيما ذلك الخطاب الطائفي الذي ينتجه فرقاء بعض هذه المؤسسات.

من المهم أن لا يحرفنا القول بأن للسياسي دورًا ما في التلاعب بالأدوار الطائفية لبعض المؤسسات الدينية، عن الانتباه إلى أن لهذا الخطاب الديني الطائفي زخمًا ذاتيًا ومستقلًا، يجب العمل على تفكيكه من قبل كلّ القوى المؤمنة بثقافة التقارب والتسامح والحوار، لا في الحيّز السياسي فقط، وإنما أيضًا في الحيّز الاجتماعي والثقافي والإعلامي، من خلال وضع استراتيجيات وخطط مناسبة، والعمل على تطبيقها، على أن يساهم فيها كلّ الذين يرفضون الخطاب الطائفي.

وعلى الرغم مما نشاهده اليوم من توسّع وامتداد للحالة الطائفية والتعصبية، نتيجة المزاج العام في المنطقة والعالم، واتساع نفوذ بعض القوى المحافظة والمتشددة، وتمكنها من الاستحواذ على حيثية شعبية، وكسب المزيد من النفوذ في الاستحقاقات الوطنية التي تتعلق بالقدرة على التأثير في صياغة الحاضر والمستقبل، وهو الأمر الذي يضعنا أمام سؤال وطني ملحّ، عن مدى امتلاكنا القدرة والإمكانات تجاه تحديث الدولة والمجتمع، وترميم وإصلاح العيوب والأخطاء المتجذرة في المؤسسات، وفي ثقافة وسلوك الأفراد، وامتلاك رؤية لعقلنة المجال الديني، والعمل على ترقيته وضبطه بما يتوافق مع المصلحة الوطنية العامة وبناء دولة المؤسسات.

وانطلاقًا من هذا المعنى يراهن الشيخ الصفار على أن تكون الأجواء في بلادنا أقرب وأسبق إلى حالة الوئام والانسجام بين طوائفها، لما لهذا البلد من موقع ديني متميز، فحالة التقارب بين المذاهب في المملكة ستترك تأثيرها الإيجابي على العالم الإسلامي كلّه، في الوقت الذي سيكون لحالة التنافر المذهبي فيها انعكاس سلبي على الأمة كلّها، وهو الأمر الذي حصل بالفعل، حيث يضيف الشيخ الصفار أن هناك أمرين فارقين لوضعنا في المملكة عن غيرها من البلدان: **الأول**: أن الحكومة ملتزمة بنهج إسلامي معيّن هو المنهج السلفي.

أما الأمر **الثاني** فهو: أن المدرسة السلفية لها موقف حادّ وصارم تجاه الرأي الآخر،

حيث ينزع بعض العلماء المحسوبين على هذه المدرسة إلى إقصاء المختلف، وإخراجه من حظيرة الدين الإسلامي، ويرفض اعتباره أخًا في الدين، وهو كلام يفهم منه تكفير الآخر.

وما يلفت نظر الشيخ الصفار، ويثير استغرابه، أن هؤلاء العلماء المحسوبين على المدرسة السلفية، يعتبرون جزءًا من مرجعية رسمية، ولرأيه تأثير على قطاع واسع يثق به، وهو الأمر الذي يجعل الشيخ الصفار يتمنى أن يصدر ما يخالف كلامه وينكر عليه، مذكرًا بأننا **أولًا**: في دولة لا تمنح جنسيتها إلا للمسلم، فكيف نصمت على من يكفِّر شريحة من مواطني هذه الدولة وحملة جنسيتها؟ **وثانيًا**: إن هذا الكلام يأتي في وقت تتعالى فيه الأصوات ضد التكفير والتكفيريين، حيث صدر أكثر من بيان من هيئة كبار العلماء، وصرح ولاة الأمر بذلك. فكيف سُكِت على هذا الأمر المخالف لسياسة الدولة، والمواقف المعلنة للمؤسسة الدينية ضد التكفير؟ **وثالثًا**: إن بلادنا تعاني من خطر الفئات الإرهابية، حيث يخشى أن تستفيد هذه الفئات من مثل هذه الآراء في توجهاتها الإرهابية.

بعد هذه الصراحة لا يفوت الشيخ الصفار التنبيه إلى أن مثل هذه الآراء والمواقف الصادرة من علماء لهم مكانتهم، وباسم مؤسسات لها موقعيتها، سوف تعرقل مسيرة التقارب والوئام في المجتمع السعودي، وعلى مستوى الأمة، آملًا بأن تكون هناك مراجعة لمثل هذه الآراء، والتفكير في مدى مناسبة طرحها، وخصوصًا في الظرف الحسّاس.[١]

(١) من كتاب المذهب والوطن. ص ١٤٦

الفصل الثالث

حول مسألة التقريب في خطاب الشيخ الصفار

أولًا:

أنشطة التقريب بين النجاح والفشل

المشكلة الطائفية ليست وليدة اليوم وهذه اللحظة، بل هي أمر تاريخي، متجذرة ومزمنة في جسد هذه الأمة، ولن يكون العمل على تجاوز هذه المشكلة ووضع الحلول لها بالأمر الهيّن والسهل بعد كل هذا التراث المتراكم من سوء الفهم. وحل هذه الإشكالية، والعمل على تجسير الفجوة بين أبناء المذاهب الإسلامية، لن يتم في غمضة عين، أو يتحقق بين ليلة وضحاها، بل هو أمر تاريخي أيضًا، يحتاج إلى وقت وزمن، وتراكمات من أعمال التثقيف الواعي، والحوار الخلاق، والفعل الإيجابي.

إن اختلاف المذاهب وتعدّد الآراء، كما يشير الشيخ الصفار، ليس أمرًا جديدًا وطارئًا في حياة المسلمين، فجذور هذا الاختلاف المذهبي نشأت في العقود الأولى للقرن الأول من تاريخ الإسلام، حيث ظهرت في أوساط الصحابة آراء متباينة حول تولي الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ، فكان الإمام علي بن أبي طالب يرى نفسه الأولى بالخلافة ومعه بنو هاشم ونفر من الأصحاب، بينما تمت مبايعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة، في غياب عليّ ومؤيديه، ومع أنّ الإمام عليًا ومن معه بايعوا أبا بكر فيما بعد، إلا أنّه تكوّن اتجاه مُوالٍ لأهل البيت، يعتقد بأولويتهم وأحقيتهم، ثم جاء حكم الأمويين وما حصل خلاله من اضطهاد لأهل البيت وشيعتهم، بلغ ذروته في واقعة كربلاء سنة ٦١هـ، لتكرّس اتجاه الولاء والتشيع لأهل البيت في أوساط الأمة، وليتمايز الاتجاهان، الاتجاه العام والرسمي، الذي أصبح يطلق عليه فيما بعد أهل السنة، والاتجاه الموالي لأهل البيت، الذي أخذ فيما

بعد عنوان التشيع والشيعة.

وإذ يشير الشيخ الصفار أنه بالإضافة إلى هذين الاتجاهين، ظهرت ملامح اتجاه ثالث أثناء خلافة الإمام عليّ، على أثر قضية التحكيم في واقعة صفين، وهو اتجاه الخوارج، الذين عارضوا التحكيم بعد حصوله، وتمرّدوا على حكم الإمام عليّ، إلا أن كل هذه التوجهات ارتسمت ملامحها في النصف الأول من القرن الأول للّهجرة، وفي منتصف القرن الثاني، حيث بدأ ظهور المدارس الكلامية، والمذاهب الفقهية، كمدرسة أهل الحديث وأهل الرأي، والأشاعرة والمعتزلة، ومذاهب أهل السنة المختلفة، وتشعّبت الاتجاهات لدى أتباع أهل البيت. وبمرور الزمن وبفعل العوامل السياسية، والمناظرة والتنافس والبحث العلمي، تجذّرت المذاهب والتوجهات الرئيسة في الأمة، وتلاشت أو ضعفت بقية الاتجاهات.

ويعتقد الشيخ الصفار أن تعدّد المذاهب والتوجهات في تلك القرون الأولى لم يؤثر على وحدة كيان الأمة، ولم يصنع الحواجز الاجتماعية بين أتباع تلك المذاهب والتوجهات؛ لأن المبادئ الإسلامية للدين، والمعالم الرئيسة للشريعة، كانت تعتبر حدًّا جامعًا وإطارًا مشتركًا، يستوعب تعدّد المذاهب والاتجاهات، فالجميع يؤمنون باللّه ربًّا، وبمحمد ﷺ نبيًّا، وبالآخرة معادًا، وبالقرآن كتابًا، وبالكعبة قبلة، ويلتزمون بالأخذ بسنة الرسول، ويقيمون الصلاة بفرائضها الخمس، ويؤتون الزكاة، ويصومون شهر رمضان، ويؤدّون فريضة الحج في وقتها المقرر، ويتفقون على تحريم الخمر والزنا والربا، وسائر المحرمات المعروفة بين المسلمين.[1]

القطيعة وسبل تجاوزها

والسؤال بعد هذه الخلفية التاريخية حول المسألة الطائفية وجذور نشأتها، هو: إلى متى يتحول اختلاف الرأي في بعض التفاصيل العقدية والفقهية، أو التباين في المواقف السياسية، إلى حالٍ دائمة من سوء الفهم والتباين بين أتباع تلك المذاهب والتوجهات،

---

(١) من كتاب رؤية حول السجال المذهبي. ص ٤١

وتظل ترتفع بينهم الحواجز النفسية، وتستمر فيما بينهم حالة الجفاء والقطيعة والتنافر، مما يجعل منهم كتلًا معزولة، وجزرًا منفصلة عن بعضها بعضًا، تؤدي بهم هذه الحال في نهاية المطاف إلى التشتت والفرقة، والى تفتت شمل هذه الأمة ووحدة كيانها، وإضعاف قوتها وصلابة موقفها؟

من غير المتوقع أن تنتهي آثار ومضاعفات فترة طويلة من سوء الفهم والجفاء، ويتم تجاوزها بين عشية وضحاها؛ لأن هناك من تربوا على منهجية التعصب، وارتبطت مصالحهم بالأحادية والغلو من مختلف الأطراف، لكن العمل على تجاوز هذه المشكلة لا يجب أن يتوقف، أو يُصاب العاملون على نهج التقريب والتوحيد باليأس والملل لطول الطريق ووحشته، أو لصعوبة السير فيه ووعورته، بل عليهم أن لا يهنوا أو يستسلموا مهما طال الزمن وبعُد الطريق والهدف، خصوصًا عندما يكون هذا الهدف نبيلًا وجليلًا بهذا المستوى.

يذكرنا الشيخ الصفار بأن هذا السعي قد بدأ به بعض المصلحين من علماء الأمة، ومن العاملين على نهج التقريب والتوحيد، عندما بادروا قبل أكثر من نصف قرن، للدعوة إلى معالجة المشكلة الطائفية، فتأسست على إثر تلك الدعوة دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة، حيث انضم إليها عدد من العلماء والمفكرين والمصلحين من مختلف المذاهب.

إلا أن ما عرقل جهود هذه الحركة الرائدة، حسب قول الشيخ الصفار، هو تدخل العامل السياسي، مما أدى إلى تضاؤل نشاطها وتوقفه، بينما أفسح هذا العامل السياسي المجال لاتجاهات تعصبية متشددة، لِتُلوِّث أجواء الأمة بالغلو والتطرف، ولتمعن التجزئة والتمزق في الجسد الإسلامي الجريح، حيث لم يقتصر دورها على إذكاء الخلاف والنزاع بين المذاهب القائمة فقط، بل توغلت أكثر حتى داخل محيطها المذهبي، لتكفر وتحارب كل من يخالفها في رأي أو موقف، وأصبح الحكم بكفر الأمة كلها، والمجتمع كله أمرًا متداولًا

في هذه الأوساط.[١]

إن الحديث عن النجاح والفشل في أنشطة التقريب بين الماضي والحاضر ليس أمرًا مطلقًا، كما يرى الشيخ الصفار، بمعنى أنه ليس إما نجاحًا أو فشلًا، وإنما هو أمر نسبي، ففي أوقات وأزمان معينة يكون العامل السياسي محايدًا فتقطع هذه الدعوة والنشاطات شوطًا جيدًا، وفي أوقات أخرى يكون للعامل السياسي دورٌ سلبيٌ يعيق هذه الدعوة، ويؤدي إلى تجميد مشروع التقريب وعرقلته، إلا أن اليوم وفي العصر الحاضر، حسب قناعة الشيخ الصفار، فإن هناك تيارًا واعيًا واسعًا في الأمة أخذ يتشكّل لصالح الوحدة والتقريب، كما توفرت أيضًا وسائل إعلامية تخدم هذا التوجه الوحدوي، بالإضافة إلى مؤسسات ثقافية تعنى بقضية التقريب وتدعمه، وينال دعمها واهتمامها.[٢]

إلا إن استمرار حالة التشنج السياسي والديني الذي تعيشه الأمة، والصراع الداخلي بين الجهات والقوى والمذاهب التي تتشكّل منها، يعكس عجزًا وتخلفًا في الوعي الحياتي، وفي القدرة على التعايش مع الاختلاف والتنوع، ولن يكون ممكنًا تجاوز هذه الحال إلا بالحوار الصريح والمفتوح، كما يدعو إلى ذلك الشيخ الصفار، من أجل تجاوز هذا التخلف، وهذا المأزق المعيش، حيث يرى أن الحوار يجب أن يكون من أجل التعارف الصحيح، بأن تعرف كل طائفة ما عليه الأخرى، من خلال مصادرها، ومن خلال الرأي المقبول لديها، وليس عبر استدعاء الروايات والمرويات الشاذة من تراث هذه الطائفة أو تلك، وغير المقبولة عند أكثر علمائها، إلا أنه ـ ويا للأسف الشديد ـ فإن البعض من أجل إثبات وتصعيد حالة التشنج، وإثبات حالة الصراع، يأتي بمثل هذه المرويات، وبمثل هذا الكلام، الذي يجب أن تتجاوزه الأمة، وأن نتجاوزه كمتحاورين.

يتوقف الشيخ الصفار عند أهمية أن يكون مقصد الحوار هو البحث عن القواسم المشتركة؛ لأن ما بين المسلمين سنة وشيعة من القواسم المشتركة هو الأكثر، وأن الاختلاف

---

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ١٧٢

(٢) الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع جريدة الوسط البحرينية.

لا يطال إلا نسبة قليلة في بعض الفروع والجوانب، أما الأشياء الأساس فكلهم مسلّمون متفقون عليها، ويجب أن نثبِّت هذه القواسم المشتركة، التي نتفق عليها.

لذلك يرفض الشيخ الصفار أن يكون من أهداف هذا الحوار التبشير المذهبي، متسائلًا: ماذا يفيدني أن أكسب عدة أشخاص من أبناء السنة، حتى يصبحوا شيعة؟ أو أن يكسب السني عدة أشخاص من أبناء الشيعة حتى يكونوا سنة؟ وها نحن نشاهد كيف أن أبناءنا ـ سنة وشيعة ـ يعيشون حالة من الانبهار بالفكر الغربي، وبالحضارة الغربية. المسألة إذًا ليست أن يصبح أبناؤنا سنة أو شيعة، المشكلة إننا جميعًا مهدّدون في أن نصبح ويصبح أبناؤنا عبيدًا تحت هيمنة الغرب، وتحت هيمنة الآخرين.

ويستنكر الشيخ الصفار اتهام الناس في أديانهم، مستشهدًا بقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا**﴾، فلا يصح لنا أن نتهم الآخرين في أديانهم، فللإسلام مذاهب وقراءات متعددة ومتنوعة، وليست طارئة، فالمدرسة الشيعية والمدرسة السنية ليست وليدة هذا اليوم ولا وليدة هذا العصر، وإنما هما مدرستان كانتا منذ العهد الإسلامي الأول، فلماذا تشكّك هذه المدرسة، أو يشكّك أتباع هذه المدرسة في دين أتباع المدرسة الأخرى؟ وعلى هذا الأساس من الواجب الإقرار بتعددية المذاهب، والتنوع في القراءات، حيث إنها جميعًا ضمن إطار الإسلام الواحد.(١)

التقريب ومكامن الإخفاق والفشل

على الرغم من أن دواعي الوحدة، وتصحيح العلاقات الداخلية بين المذاهب، قد فرضت نفسها على ساحة الأمة، في عصر التحديات الكبرى، ورغم تهاوي مبررات النزاع والخلاف المذهبي، في زمن حوار الحضارات، وتحالف التكتلات العالمية، إلا أن بعض العوائق، كما يرصدها الشيخ الصفار، لا تزال قائمة على الأرض، متسببة في عرقلة مسيرة الوحدة والتقريب، ومانعة ترجمتها من لغة الشعار والخطاب، إلى منطق الفعل والواقع،

(١) من كتاب رؤية حول السجال المذهبي. ص ٢٤

وحائلة دون خروجها من قاعات المؤتمرات واللقاءات، إلى شارع الجمهور والحياة الاجتماعية.

ولعل **أول** هذه العوائق هو **رفض بعض الفئات الإسلامية قبول التعددية في الرأي،** وإصرارها على محاكمة الرأي الآخر، وفق مسلماتها وعلى ضوء مرجعياتها، مبررة ذلك بأن الخلاف في القضايا العقدية غير مقبول، وهو يعني التفرق المذموم في الدين، وإذا كان لا بد من قبول الخلاف، فهو في دائرة المسائل الفقهية، حيث لا مانع من تعدّد المذاهب الفقهية.

إلا أن الشيخ الصفار يرفض هذا التبرير قائلًا بأنه ليس صحيحًا ولا منطقيًا، فالاختلاف العقدي المرفوض هو ما يكون في أصول العقيدة، بأن ينكر أحد وجود اللّه تعالى ووحدانيته، أو نبوة النبي ﷺ والأنبياء السابقين، أو الإيمان بالبعث يوم القيامة، أو يرفض مرجعية القرآن والسنة، لأن من ينكر شيئًا من هذه الأصول يخرج عن دائرة الإسلام، ومن ثم فالاختلاف فيها غير مقبول، أما التفاصيل والجزئيات العقدية، فباب الاجتهاد فيها مفتوح، والاختلاف حولها قديم، فكما يصح الاختلاف في المسائل الفقهية، يصح في هذه المسائل الجزئية العقدية، فإذا كان هناك نص نقلي حول شيءٍ منها، فإن من الوارد النقاش في مدى ثبوت صحته سندًا، ثم حول دلالته وما يفهم منه.

أما العائق **الثاني** الذي يشير إليه الشيخ الصفار، فهو **المحاسبة على ما ورد في بعض كتب التراث الشيعي،** كالمصادر الحديثية، من إساءة ولعن لبعض الصحابة والخلفاء، وهنا لا بد من القول بأن للشيعة رأيهم في تقويم شخصيات الصحابة والخلفاء، وذلك لا إشكال فيه على مستوى البحث العلمي والتحليل التاريخي، أما اللعن والسب، فهو أمر مرفوض من قبل مراجع الشيعة وقياداتهم، ولا أحد يمارسه إلا بعض الجهال والمنفعلين.

ويشير الشيخ الصفار إلى إن وسائل الإعلام في المجتمعات الشيعية اليوم، من فضائيات وإذاعات وصحف، وهي تنقل خطب علماء الشيعة وتصريحاتهم، لا يوجد بها مثل تلك الإساءات، أما كتب التراث والمجاميع الحديثية، فإن الشيعة يعترفون باحتوائها على الغثّ والسّمين، والصحيح والضعيف والكذب، ولذلك لا يعتبرون أيًّا منها كله

قطعي الصدور، وصحيح الإسناد.

مجمل القول في حديث الشيخ الصفار حول هذه المسألة أنه ليس صحيحًا أن نبقى في أسر كتب التراث الحديثية والتاريخية، فهي بمجملها تحتاج إلى غربلة وتمحيص، وكما في مصادر الشيعة الغثّ والضعيف، فإنه كذلك في مصادر السنة، لذلك لا يصح أن يحاكم بعضنا بعضًا على ما ورد في كتب الأسلاف، بل نتعامل على أساس ما هو معتمد ومعمول به لدى جمهور العلماء المعاصرين عند الفريقين.(١)

التواصل والحوار العلمي والمعرفي

لئن كانت الأمة الإسلامية بحاجة ماسّة اليوم وأكثر من أي وقت مضى، إلى تنشيط وتفعيل حالة الحوار الداخلي بين الحكومات والشعوب، منعًا للاحتقان الذي يؤدي إلى الانفجارات، ووقاية من اللجوء إلى القوة والعنف، فإنها أيضًا بحاجة إلى تعزيز نهج الحوار بين فئاتها وأطيافها، حيث يمكن للحوار بين قيادات المذاهب الدينية، وخصوصًا إذا كان من خلال أطر حوارية مناسبة، أن يتيح فرص خلّاقة للتعارف وتبادل الرأي، وإرساء أسس للتواصل والتعاون، ويمكِّن الجميع من تعرّف توجهات بعضهم بعضًا بشكل مباشر، وليس من خلال كتابات مغرضة أو نقولات قديمة، حيث يمكن لكل جهة إدراك مقدار التطور في فكر الجهة الأخرى، وتقومها من واقع فكرها المعاصر، لا على أساس أفكار وتوجهات سابقة، فالتواصل المعرفي الحديث والمباشر يتيح فرص خلّاقة لتعرّف خلفيات ومبررات وأدلة هذه التوجهات والآراء عند كل مذهب.

إن التقريب بين المذاهب الإسلامية قضية ترتبط بالحوار وإدارة العلاقات الداخلية، فإذا كان تعدد المذاهب واقع قائم في حياة المسلمين، وله جذوره التاريخية العريقة، التي تمتد إلى القرن الأول من تاريخ الإسلام، وكل مذهب له أتباعه الذين يشكّلون جزءًا من وجود الأمة على الصعيد السياسي والاجتماعي، فإن عدم وجود صيغة سليمة للعلاقات بين

---

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ١٧٦

أتباع هذه المذاهب، تقوم على الاحترام المتبادل، والتعاون في المصالح المشتركة، والحوار في قضايا الخلاف، فإن ذلك يعني خللًا أساسيًّا في الفكر ونظام الاجتماع، يعوق وحدة الأمة، ويسلب أمنها، ويمنع تقدمها.[١]

وإذا ما أردنا تجاوز فتاوى التكفير والتبديع والتهم المتبادلة بين المذهب الإسلامية، فإننا نحتاج إلى الحوار بين المدارس الفكرية والتيارات السياسية، حسب رأي الشيخ الصفار، من أجل الوصول إلى صيغة تمكّننا من التعايش، والاهتمام بالبناء والتنمية في أوطاننا، بدلًا من الاسترسال في هدم قوانا، وهدر إمكاناتنا، وتضييع جهودنا في النزاع والاحتراب الداخلي.[٢]

يلفت الشيخ الصفار إلى أن حركة التواصل بين مفكري الأمة وعلمائها ومثقفيها من مختلف المذاهب والتيارات على الصعيد الثقافي قوية ونشطة، من خلال اللقاء والتواصل فيما بينها في المؤتمرات واللقاءات التي تعقد كل عام في مختلف أنحاء العالم، لتناول قضايا الإسلام وأوضاع الأمة، وكذلك من خلال عدد من المجلات الفكرية الثقافية العامة أو المتخصصة التي يشارك في تحريرها كتّاب من مختلف الاتجاهات والمذاهب في الأمة، إلا أن الشيخ الصفار يبدو منزعجًا وغير سعيد بسبب ضعف حركة التواصل المعرفي في مجال البحوث العقدية وميدان علم الكلام؛ لأن القضية العقدية من وجهة نظره، هي الأكثر أهمية على المستوى الديني، فهي أساس الدين وجوهره وعمقه وأصله، كما أن لها تأثيرها الكبير على مشاعر الإنسان وتوجهاته السلوكية والعملية.

وإذا لم يعمل علماء الأمة الناضجين، والمدارس الفكرية المنتمين إليها، على إنضاج حركة التواصل المعرفي بين مذاهب الأمة وتياراتها، وإخراجه من حال الخمول والركود، وإيلاء مجال البحوث العقدية، وميدان علم الكلام، ما يستحق من عناية واهتمام، بدل تركه لتفاعلات تراث العصور الماضية، بما فيه من خصومات وخلافات، عندها سيتحول

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ١٧٢

(٢) الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع جريدة الشرق الأوسط.

إلى ساحة للقوى المتطرفة المتعصبة من مختلف المدارس والمذاهب، حيث لا زال هذا الميدان ساحة للصراع، ومعتركًا للنزاع، تسود أجواءه حالة التوتر، وتسيطر على حركته حالة التشنج.

وأكبر شاهد على ذلك كتابات التهريج ضد هذا المذهب أو ذاك، وفتاوى التكفير ضد هذه الطائفة أو تلك، والمناظرات غير العلمية التي تبثها بعض الفضائيات، والمشتملة على كثير من الإثارات والمهاترات التي تؤجّج نار العداوة والبغضاء بين المسلمين، بالإضافة إلى ما ينشر على شبكة الانترنت، حيث تخصصت مواقع طائفية كثيرة لتبادل الاتهامات والمطاعن والسباب والشتائم.

لذلك يرى الشيخ الصفار ضرورة الاهتمام بموضوع التواصل المعرفي بين نخب الأمة العلمية والفكرية، وخصوصًا في مجال البحوث العقدية، فعندما يكون التعارف والتواصل مطلوبًا بين أبناء الأمة في مختلف المجالات، فهو في المجال العقدي أكثر أهمية وفائدة، وذلك للأسباب التالية:

أولًا: يساعد الإنسان المسلم على اكتشاف الحقّ ومعرفة الصواب في مسائل العقيدة، عن طريق اطّلاعه على مختلف الآراء، وفهمه لأدلتها، فليس صحيحًا أن يسترسل الإنسان في معتقداته مع ما ورثه من آبائه وأجداده، أو ما ألفه في بيئته ومحيطه، دون بحث وتمحيص، ودليل وبرهان.

ثانيًا: إن القراءة الموضوعية لآراء الفرق والاتجاهات العقدية الأخرى، تمكن الإنسان من معرفة الآخرين على حقيقتهم وواقعهم، بينما تكون القطيعة المعرفية سببًا للجهل بالآخر، ورسم صورة غير دقيقة عن توجّهاته، فبعض المسلمين يسيئون الظن ببعضهم الآخر، ويحكمون عليهم أحكامًا جائرة، بناءً على مقدمات خاطئة، ومعلومات مغلوطة، قد تؤخذ عن طريق مناوئيهم وخصومهم، وهو الأمر الذي حذّر منه القرآن الكريم ﴿**فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ**﴾.

ثالثًا: إن التواصل العلمي وتدارس القضايا بموضوعية وإخلاص على أيّ صعيد

ديني ومعرفي يتيح المجال لبلورة الرأي، وتكامل الفكر، وحلّ العُقَد، ومعالجة الثغرات. وكما يمكن التقارب والتكامل في معالجة قضايا الفقه والثقافة، فإنه يمكن الوصول إلى بعض المعالجات وتصحيح بعض الآراء في المسائل الكلامية والعقدية، خاصة وأن بعض الخلافات كانت تغذّيها عوامل سياسية ومصلحية، في التاريخ الماضي، وقد تجاوزتها الأمة.

رابعًا: هناك مسائل جديدة في علم الكلام تشكل تحدّيًا أمام العقيدة الإسلامية ككل، وهي تستوجب تعاونًا بين علماء الأمة المتخصصين من مختلف المذاهب، لتوضيح الرؤية الإسلامية تجاه هذه المسائل المطروحة في أذهان الجيل المسلم المعاصر.

لهذه الأسباب وغيرها يرى الشيخ الصفار وجوب الاهتمام ببعث حركة علمية معرفية، للتواصل والانفتاح بين علماء الأمة المهتمين ببحوث العقيدة وعلم الكلام، من مختلف المدارس والمذاهب. ومع إدراكه لخطورة ما تواجهه الأمة من تحدّيات سياسية واقتصادية، قد يقال إنها أولى بالاهتمام من هذه البحوث النظرية، إلا أنه يؤكد على ضرورة الاهتمام بهذا المجال؛ لأن إهمال ساحة البحث العقدي، يسبب الكثير من عوامل الخلل والإضعاف لقدرة الأمة على مواجهة تلك التحدّيات، ويتيح الفرصة للمتعصبين والمغرضين، ليعبثوا بوحدة الأمة، ويمزّقوا صفوفها بطروحاتهم الطائفية المتشنجة، مثل ما يدور على شبكة الإنترنت في بعض المواقع من جدل طائفي عنيف، فلا بد من مواجهتهم بالطروحات العلمية الموضوعية.

بالإضافة إلى ذلك فإن لقضايا العقيدة تأثيرًا لا يمكن إنكاره وتجاهله في نفوس أبناء الأمة، وتشكيل فكرهم الديني، وعلاقاتهم مع بعضهم، لذلك يتساءل الشيخ الصفار: لماذا نترك هذه القضايا الهامة خاضعة لتأثير الموروث التاريخي، وضمن حالة المفاصلة والقطيعة، ولغة الانفعال والعاطفة؟ أليس من الأفضل الارتقاء بالشأن العقيدي إلى لغة العلم والمعرفة، وضمن أفق التواصل والحوار؟[١]

---

(١) من كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. ص ٤١

ثانياً:

الثابت والمتحول في العلاقة بين المذاهب الإسلامية

التقريب والحوار بين المذاهب الإسلامية، وسبل تعزيز الوحدة فيما بينها، من القضايا الأساس التي دائما ما ترد في خطاب الشيخ الصفار، لكون هذه الخلافات من الإشكالات التي تستنزف مقدرات الأمة وطاقاتها، وتتسبب في الشقاق والفرقة، وتضعف الصف وتشتت الكلمة، فيؤدي بها ذلك إلى إضعاف مكانتها، ويجعلها نهبًا لمن هبّ ودبّ، ولقمة سائغة لباقي الأمم.

إن هذه المحنة التي تعيشها الأمة في داخلها، تثير تساؤلات الشيخ الصفار حين يسأل: هل الوحدة بين المسلمين لا تتحقق إلا بإلغاء طرف لآخر، أو اندماجه فيه، وهل هذا الأمر يمكن أو يعقل، وعندما تخبرنا تجربة القرون الماضية منذ بزوغ شمس الإسلام إلى يومنا هذا، أن هذا الأمر لن يتحقق، فهل نظلّ نصرّ ونقضي أوقاتنا وحياتنا في أمور وقضايا سوف تستهلك كل حياتنا وأعمارنا بدون أي مردود يذكر، أم أن المسألة تحتاج منا إلى التفكير والوعي وبعد النظر، والتخطيط لحاضرنا ومستقبلنا بطريقة يكون مردودها الإيجابي لصالح الدين والإسلام والإنسان، مهما كانت عقيدته وانتماؤه؟

التقريب وهواجس التنازلات

يكشف الشيخ الصفار عن وجود بعض الاتجاهات تتحفّظ تجاه دعوات التقريب بين المذاهب، وتنظر إلى هذه الدعوات نظرة ريب وشك، وهي ترى أن السبيل الوحيد لحل

المشكلة المذهبية هو تنازل الآخرين عن أفكارهم وآرائهم، وعودتهم إلى منهجهم واتّباعه، وهو شرط تعجيزي، كما يرى الشيخ الصفار، وغير قابل للتحقق، ولا يرضى به الآخرون، الذي هم أيضًا يعتقدون بصوابية وأحقية منهجهم، كما يعتقد الأولون ذلك في أنفسهم.

إنه ليس من المنطقي أن يطلب أحد ينتمي إلى مذهب معيّن التخلي عن قناعات دينية يؤمن بها، كشرط مسبق للحوار والتعاون، بل المطلوب وجود إطار يركز على المشتركات ومواد الاتفاق، ويبقى الحوار والبحث العلمي هو سبيل تغيير القناعات والآراء، أو تشذيبها وتطويرها، لدى مختلف الأطراف.(١)

إذا كان هناك من يشترط تنازل الآخرين عن قناعاتهم كحلٍّ وحيدٍ لتجاوز مشكلة الطائفية، فإن هناك في المقابل، كما يشير الشيخ الصفار، متحفظون على دعوات الوحدة والتقريب في الوسط الديني، ويثيرون مشاعر القلق خوفًا من تقديم التنازلات للطرف الآخر على حساب العقيدة والمذهب، حيث يدحض هذا القلق والتوجس غير المبرر بقوله: إن العلماء الوحدويين منذ بداية مسيرة التقريب في هذا العصر تحدثوا بأن غرض الوحدة والتقريب هو تحقيق التعايش بين أبناء الأمة، وتوفير أجواء الاحترام المتبادل، والسعي للتعاون في خدمة المصالح المشتركة.

ويضيف الشيخ الصفار أن الوحدة والتقريب لا تعني أبدًا تحول أتباع مذهب إلى مذهب آخر، ولا تلفيق مذهب ثالث بين المذهبين، ولا طلب التنازل من أحد عن معتقداته وآرائه التي يدين اللّه بها؛ لأن أمور العقيدة والدين لا تقبل المساومة، وهي شأن قلبي يستعصي على الإخضاع، وإذا كان هناك من شيء يجب التنازل عنه فهو الإساءة والعدوان من أيّ طرف تجاه الآخر، وإثارة خطابات التحريض والكراهية والتكفير، وكل الممارسات والأفعال والأقوال، التي تؤدي إلى إضعاف الأمة ويشتتها، وينزلق بها إلى الدرك الأسفل من الهاوية.(٢)

---

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ١٧٤

(٢) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٢٥

ربما تشعر بعض الأوساط المحافظة بالقلق من أن التقارب مع الغير، من أهل المذاهب الأخرى، يمكن أن يكون على حساب المبادئ والقناعات المذهبية، وخصوصًا عندما يفرض الآخرون، أو يطلبون ممن يتقرّب إليهم التخلي عن بعض قناعاته المذهبية، إلا أن المشكلة التي نواجهها هنا، كما يتصورها الشيخ الصفار، هي في تضخيم البعض وتعظيمه بعض المسائل الجزئية، واعتبارها من ثوابت المذهب وأساساته وأركانه، وبالتالي فإن مناقشتها، أو إبداء رأي آخر تجاهها، هو مؤشر للتنازل العقدي والتخلي عن الثوابت، وفي بعض الأحيان قد يقاوم الاتجاه التقليدي التغيير والتطوير، حتى في بعض العادات والممارسات الشكلية، بدعوى أنها قد تكون مدخلًا لتنازلات أخرى، ضمن عنوان سدّ الذرائع.[١]

في الحقيقة هناك من الناس ممن لا يؤمن بمقولات التقريب، ويرفضها جملة وتفصيلًا، وهو غير مقتنع بجدوى التقريب وأهدافه، قد لا يتورع عن إثارة الأقاويل تجاه دعاة الوحدة والتقريب وتشويه سمعتهم، إلى حدّ اتهامهم في أديانهم، والتشكيك في نياتهم ومصداقيتهم، فيشيع عنهم، أو هكذا نسمع، أنهم يتنازلون عن العقيدة والمبدأ والشعار، لأجل التقرب من الطرف الآخر وكسب ودّه، إلا أن الحقيقة التي يجب أن تقال إنه ليس مطلوبًا من أحد التنازل عن قيمه وقناعاته، بل إن المطلوب منه عند الحديث في مسألة الآراء والقناعات والاتجاهات، مناقشتها بحكمة، ووضع الأمور في نصابها الصحيح، بعيدًا عن التهويل والمبالغات واستغفال الناس بالعناوين العريضة والفضفاضة، رغبة في دغدغة مشاعر الناس وعواطفهم، وتوجيهها بطريقة غير بناءة، لخدمة غرض الرفض، ودعاة القطيعة والانعزال.

من المهم مناقشة الأفكار والقضايا التي يختلف فيها بالعقل والمنطق والدليل والبرهان، فالمسألة كما يقول الشيخ الصفار، تخضع للحوار، بالقول هذا رأي خطأ أو أنه نهج خطأ، بعيدًا عن التشكيك في دين أحد، أو في نزاهة أحد، بل نقول إنه يمكن استعمال الأسلوب

---

(١) من كتاب المذهب والوطن. ص ١٥٩

والنهج الخطأ في هذا المجال، وكلّ ذلك بغرض فرز وتحرير، **أولًا**: ما هي المبادئ وما هي العقائد حين نختلف في الرأي حول تفصيل أو فرع من الفروع العقدية، فالمسألة ليست لكوني متنازلًا أو متمسكًا، ولكني قد أكون غير مقتنع بأن هذا من العقيدة، أو لست مقتنعًا بأن هذا من المبدأ، وعلى هذا الأساس فإن المسألة ليست مسألة تنازل، ولكن المسألة هي اختلاف في المصداق، في كون هل هذا الأمر من العقيدة أم لا؟ حيث لا يصحّ أبدًا الاستدلال بالعنوان العام والدليل العام في الشبهة المصداقية.

وثانيًا: كما يضيف الشيخ الصفار، أن هناك بعض الجوانب قد تكون من العقيدة ومن الشريعة، ولكن هناك ظرف يقتضي تجاوز هذا الجانب أو التنازل عن ممارسته؛ لأن هناك أولوية أهمّ، فهذا احتمال وارد، فمن يستطيع الجزم بضرس قاطع، أنه لا يصح التنازل في أي من شؤون الدين؟ التنازلات تصح في بعض الأحيان، بل هي مطلوبة في بعض الحالات.

إذًا القضية، كما يشرحها الشيخ الصفار، ليست تنازلات، بل القضية هنا هي مسألة أولويات ومصالح عليا تستدعي التنازل، فليس مطلوبًا من أحد التنازل عن قناعاته وعقائده ومعتقداته التي يؤمن بها حقًّا، ويدين للَّه بها، بل لا يصحّ أصلًا التنازل عنها، فليس هناك تنازلات في دائرة الاعتقاد، فالاعتقاد الذي تنطوي عليه الجوانح ليس فيه تنازل، ولن يستطيع أحد سلبك ما تؤمن به ما دام مستقرًا في القلب والوجدان. إذًا، هناك احتفاظ بالقناعة والرأي، ولكن إظهار هذه القناعة، أو ممارسة وظيفة شرعية خارجية، إذا كانت هناك مصلحة أعلى منها، كالحفاظ على وحدة الأمة، أو التحبّب لإخواننا المسلمين يرغّب الشرع والفقه التنازل فيه، كما أفتى فيه الفقهاء.

مجمل القول في حديث الشيخ الصفار حول قضية التنازلات، يلخّصها في ثلاث نقاط: **الأولى**: إن الدعوة إلى الانفتاح والتقارب والوحدة هي وظيفة إسلامية شرعية، وعلى المجتمع أن يحاسب من يتخلف عن القيام بهذه الوظيفة. **وثانيًا**: إن الاجتهاد وشرعية الاختلاف مبدأ متفق عليه، ولا يحقّ لأحدٍ أن يتهم الرأي الآخر بالخروج والمروق من

الدين، فهذا خلاف الأخلاق والدين، وخلاف المنهج العلمي، والاختلاف في الرأي قائم ليس من الآن، وإنما منذ بداية تشكّل فكر أهل البيت، وثقافة مذهب أهل البيت. **وثالثًا**: ينبغي **أولا** تحرير مواطن الخلاف، هل هذا من العقيدة والشريعة أم لا؟ ثم بعد ذلك نتحدث حول كونه تنازلًا أم غير تنازل، والجانب **الثاني** لا مانع أن تكون هناك تنازلات في المظاهر والممارسات، عندما تكون هناك مصلحة أعلى، وحينما تكون هناك أولويات.(١)

الأولويات وتشخيصها

لا يفوت الشيخ الصفار تناول موضوع التنازلات من خلال حديثه عن مفهوم التقية وموارد استعملها لكونها مفهومًا دينيًّا وقضية قرآنية حيث يتحدث بصراحة بأن التقية حين يبحثها الشيعة إنما يبحثونها في إطارين اثنين، **الإطار الأول**: دفع الضرر الشخصي، أو فلنقل دفع الضرر المادي على الشخص، أو على المجتمع. أما **الإطار الثاني**: فهو دفع الضرر عن الأمة، وعن الوحدة الإسلامية، ويعنُون بذلك إنه إذا كانت ممارسة حكم من الأحكام المقررة في المذهب تبرز حالة من الانشقاق في الأمة أو التمزق، فإن المذهب يجيز لأبنائه ترك ذلك حفاظًا على الوحدة، لأولوية الوحدة وأهميتها، وهذا ينبغي أن يحسب للمذهب كامتياز وليس مأخذًا عليه.(٢)

إلا أن السؤال هنا: من الذي يحدّد ذلك، ويشخّص الحالة والمصلحة، ويقدّر الظرف، ومقدار الحرج والاضطرار وظروفه، وكيف؟

وحول هذا التساؤل يجيب الشيخ الصفار أن الذي يحدد ذلك هم الجهات المتصدية لهذه المهام، من العناصر الكفوءة والمؤتمنة، كما في أي مجال من المجالات، فالفقهاء يحددون من خلال الفتاوى والأحكام الشرعية العناوين العريضة والرئيسة للقضايا، أما فيما يرتبط بتطبيقها على الموضوعات فهي مرتبطة بالمكلفين، فالفقيه يقول للمكلف: إذا كان هناك

(١) من كتاب الانفتاح بين المصالح والهواجس. ص ٢١ ـ الطبعة الثانية ٢٠٠٩، أطياف للنشر والتوزيع، القطيف ـ المملكة العربية السعودية.

(٢) من كتاب المذهب والوطن. ص ٣٥

حرج أو عسر، وإذا كان فيه مصلحة النظام، اعمل كذا وكذا، وهذه عناوين يذكرها الفقهاء، ولكن من يشخّص؟ والفقهاء هنا لم يشترطوا فيمن يقوم بتشخيص الموضوعات أن يكون فقيهًا، أو أن يشخّص التطبيقات الخارجية فقيه.

إذًا المتصدّون للقضايا الخارجية هم الذين يعرفون تطبيقاتها، والناس الموجودون على الأرض، هم أعرف بقضايا مجتمعهم، وقضايا علاقاتهم مع المحيط حولهم، من أي جهة علمية وفقهية، حيث إن الجهات الفقهية، لا تمتلك الأجهزة الكافية التي توصل لها التقارير والمعلومات، فالمراجع لا يعلمون الغيب، ولا ينزل عليهم الوحي من السماء ليخبرهم، ولا يملكون أجهزة كاملة بسبب الظروف التي يعيشونها، وبسبب الواقع الذي نعرفه في حوزاتنا ومرجعياتنا، كما يشرح الشيخ الصفار، لذلك فإن الحراك السياسي والعلاقات مع الأطراف الأخرى، لا يتدخل الفقهاء فيها، فالناس يديرونها ويتولون أمورها، نعم إذا كان ذلك يصطدم مع عنوان يقتضي حكمًا أساسيًّا فهذا حكم آخر، ولكن ما دامت المسائل في إطار العناوين والأحكام، فالتطبيق في الموضوعات وتشخيصها متروك للجهات المتصدية.[١]

التقريب من أجل التعايش

إن الأحاديث عن التقريب بين المذاهب الإسلامية قد لا يكون عنوانًا دقيقًا لواقع الحال، وفيه شيء من التسامح، كما يقول الشيخ الصفار «لأن المذاهب **أولا** هي في واقعها متقاربة لوحدة مرجعيتها وهي الكتاب والسنة، ولاشتراكها في الأصول والمعالم الأساسية للدين، والتباعد الحاصل هو بين أبنائها وليس بين المذاهب كمدارس وتوجّهات. **وثانيًا:** لا أعتقد أن من المطلوب السعي للتنازلات المتبادلة عن القناعات المذهبية، وهو ما قد يوحي به عنوان التقريب بين المذاهب، فلكل مذهب قواعده ومنظومة أفكاره وتوجهاته، إنما المطلوب حسن العلاقة والتعايش بين أتباع المذاهب، والتعاون بين أتباع المذاهب، والتعاون في خدمة الجوامع المشتركة والمصالح العامة، وذلك عن طريق إشاعة روح

(١) من كتاب الانفتاح بين المصالح والهواجس. ص ٣٨

التسامح وثقافة التعددية، والتزام أخلاقيات الحوار العلمي والاختلاف المشروع.»[١]

إذا كانت المذاهب والمدارس الإسلامية هي في واقعها متقاربة لوحدة مرجعيتها، ولاشتراكها في الأصول والمعالم الأساس للدين، إلا أن ذلك لا يعني التنكر لوجود اختلافات رئيسة في قضايا عقدية وفقهية، نتيجة «لإعمال حقّ الاجتهاد والنظر في النصوص الشرعية، التي تحتمل أكثر من وجه وتفسير، حيث إنه من المعلوم أن اختلاف الاجتهادات قد أنتج ثراءً في معارف الأمة، وعزّز حرية الرأي والتفكير، وأفسح المجال لتعدد الخيارات في معالجة بعض المشاكل الفكرية والحياتية التي تواجه الأمة.

لكن ما عانت منه الأمة، كما يشير إليه الشيخ الصفار، هو سوء التعامل والتعاطي مع الرأي الآخر، بين الأطراف المختلفة، بدءًا من رفض حقّه في الوجود، وانتهاء بإلغاء حياة من يقول به، أو تعطيل دوره وتهميشه، وتضييق الخناق عليه، حيث كان لهذا الاستبداد الفكري ذرائع ومبررات، من أهمها دعوى الحفاظ على وحدة الصف واجتماع الكلمة، انطلاقًا من أن وجود الرأي الآخر يعني الفرقة والانشقاق.

ولا شك أن هذا الفهم للوحدة خطأ مرفوض، كما يرى الشيخ الصفار، فالوحدة لا تستلزم إلغاء حرية الفكر، وشرعية الاجتهاد، ولا تعني فرض الرأي قسرًا على الناس؛ لأن ذلك مخالفة لطبيعة البشر القائمة على الاختلاف، ولطبيعة النص الديني كأيّ نص منقول، يقبل النقاش حول صحة نقله، فيما عدا النص القرآني القطعي الصدور، أو فهم المراد منه، مما يشمل النص القرآني ونصوص السنة الشريفة، وأقوال الأئمة والفقهاء. بالإضافة إلى ذلك فإن فرض الرأي منافٍ لظواهر النصوص الدينية، التي تؤكد على كرامة الإنسان، واحترام حقّه في التفكير والاختيار، والتعبير عن الرأي».[٢]

الوحدة والتقارب والانفتاح لا يعني التطابق والتماثل في التفاصيل العقدية، كما أنه

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٨٣

(٢) من كتاب الوحدة نقد وتقييم. ص ٢٠ ـ الطبعة الأولى ٢٠١٠، مكتب الشيخ الصفار، القطيف ـ المملكة العربية السعودية.

لا يعني أيضًا التنازل عن أي شيء من المعتقدات على الإطلاق، إلا أنه يمكن مع ذلك تقديم التنازلات، كما يقول الشيخ الصفار، في الممارسات العبادية والخارجية، اتقاء للسوء والأذى، أو من أجل صيانة أجواء التعايش، وجلب المحبة وحفظ وحدة المسلمين ودفع الضغائن، ومع ذلك فإنه من المهم في هذا العصر على دعاة الوحدة والتقريب نشر ثقافة حرية الاعتقاد، ومعارضة أي قيود على الشعائر والممارسات الدينية لأتباع أي مذهب، لأن عالم اليوم لا يقبل تقييد الحريات الدينية.[١]

إن ما يشدّد عليه الشيخ الصفار، ويريد استنتاجه، ويدعو إلى التأكيد عليه في ظلّ التحديات المعاصرة، هو الإقرار بواقع التعددية، والتعامل معها بكل أريحية وسعة صدر، والقبول بها نهجًا في التعامل بين المذاهب والمدارس الإسلامية، وأن يقبل بعضها بعضًا على الرغم مما يمكن أن يكون بينها من فروقات واختلافات، حيث لا بديل اليوم عن الاعتراف المتبادل واحترام الخصوصيات، وِقاية للأمة من شرور النزاعات والشقاق والتمزق، أو الانشغال بالفتن والصراعات الداخلية، على حساب مصالح الأمة، وبناء الأوطان وحفظها من التشتت.

لذلك يفضّل الشيخ الصفار أن ينطلق أي حوار وتفاهم بين المذاهب من أرضية المصالح المشتركة، والواقع المعيش الذي تعيشه الأمة، قبل الانتقال إلى الحوار العقائدي ومباني الفقه، بسبب «خطورة الوضع الذي يحيط بأمتنا العربية والإسلامية في هذا العصر، والتحديات والمخاطر التي تحفّ بنا، وهذا يوجب علينا أن نتحاور من أجل أن نحفظ أنفسنا، فكلنا نستقل طائرة واحدة وسفينة واحدة إذا أصابنا الغرق أو العطب فسنغرق كلّنا بمختلف عقائدنا ومذاهبنا وآرائنا، فلنعمل أولًا على حفظ هذه السفينة التي نمتطيها، فنبدأ الحوار حول مصالحنا المشتركة، وحول القضايا المعاشة التي تحيط بنا، لأنها الأكثر خطورة وحساسية».[٢]

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٢٨

(٢) من كتاب الإصلاح الديني والسياسي. الجزء الأول. ص ٤٥

ممارسة التقريب قولًا وعملًا

يعتبر الشيخ الصفار أن طرح موضوع التقريب في القضايا العقدية أو الفقهية قد تجاوزه الزمن، وأصبح من الماضي، وهو يفترض أن الوعي العام لأبناء الأمة ما عاد يركز عليه، «فالنظرة الواعية تدرك الآن أن تعددية الآراء ليس مرضًا ولا خللًا، بل قد يكون مبعث إثراء معرفي، وعلى مستوى الفتوى يوفر أمام المسلمين خيارات متعددة، لما يرونه أنسب وأصلح لظروفهم وحياتهم، ما دامت الفتوى ضمن الضوابط العلمية الشرعية».

ويطالب الشيخ الصفار بعدم تضييع «الوقت والجهد للتقرب في القضايا العقدية والفقهية بمقدار ما نحتاج إلى الفهم الصحيح المتبادل والتعارف الموضوعي، بعيدًا عن التضخيم والتهويل، وعن الإشاعات والافتراءات، أو لغة التهريج والتعميم، فقد تكون هناك آراء شاذة وممارسات خاطئة في أوساط هذه الطائفة أو تلك، لكن التعاطي والتعامل يجب أن يكون على أساس الموقف العام والرأي المشهور وخط الاعتدال».(١)

لا يمكن لموضوع التقريب أن ينجح ويتطور ويصبح ثقافة عامة، فقط من خلال البناء على حسن النيّات والمبادرات الطيبة، وجهود بعض المخلصين، ومؤسسات ومجمعات التقريب؛ لأن ذلك لا يكفي ما لم تدعم الحكومات والدول هذا الجهد بكل قوه، وتوفر له كل الدعم وأسباب النجاح. فالنجاح والفشل مرهون بإيجابية العامل السياسي، كما حياديته على الأقل، أو بتدخله السلبي المعيق لمسيرة التقريب، ويعتقد الشيخ الصفار أن «مسيرة الوحدة الإسلامية قد اعترتها نكسات، وتعثرت خطواتها بسبب العوامل السياسية، حيث قامت بعض الأنظمة الحاكمة في البلاد الإسلامية بدور إثارة الخلافات وتغذيتها، خدمة لأهداف مشبوهة».(٢)

بالإضافة إلى ذلك هناك عامل آخر، قد يستفيد ويستغل العامل السياسي، أو

---

(١) من كتاب الإصلاح الديني والسياسي. الجزء الثاني. ص ١٢٧

(٢) من كتاب الإصلاح الديني والسياسي. الجزء الأول. ص ١٢٦ من حوار صحفي مع جريدة الوسط البحرينية.

يتحالف معه في إثارة الخلافات الطائفية وتغذيتها «ويتمثل في التوجهات المذهبية المتطرفة في أوساط مختلف المذاهب، هذه التوجهات التي تعرقل مسيرة الوحدة الإسلامية عبر تركيزها على الخلاف المذهبي وتضخيمها، وخلق أجواء من الشحن والتعبئة الجماهيرية ضد الآخر».(١)

إنه لمن المؤكد أن تغيير نمط التفكير عند عامة الناس، ودعوتها إلى تقبل الآخر واحترام آرائه ومعتقداته، بعيدًا عن أجواء الشحن والتعبئة، يحاج إلى عمل كبير وجهد فعّال ومتواصل، لا ينحصر في النقاشات والحوارات بين النخب داخل الغرف المغلقة فقط، وإنما تحتاج إلى ممارسات عملية على أرض الواقع، من خلال نزول هذه النخبة إلى الناس وتوعيتها، ليس فقط من خلال إخبارها وإعلامها بنتائج مؤتمرات كهذه، وإنما أيضًا من خلال ربط هذه النتائج والأفكار والرؤى الجديدة بتأصيلها دينيًّا، وذكر الحوادث والشواهد التي تثبت أن الدين أو التراث الديني، يزخر بالقيم والأفكار والممارسات الإنسانية الخلاقة، التي عاش فيها أبناء الدين الواحد في ظلّ أجواء المحبة والتعاون والتكاتف والتآزر من أجل مصلحة هذه الأمة وحماية لوحدتها ودرءًا للمفاسد والفتن.

---

(١) من كتاب الإصلاح الديني والسياسي. الجزء الأول. ص ١٢٦ من حوار صحفي مع جريدة الوسط البحرينية.

ثالثاً:

الصراعات الطائفية وتمهيد ظروف معالجتها

الصراعات الطائفية في الأمة وإثارة التفرقة المذهبية، عادة ما يكون خلفها **عاملان**، كما يقول الشيخ الصفار، **الأول**: هو **العامل السياسي**، حينما تخطط جهات أجنبية أو سلطات منحرفة، لإشغال المسلمين عن قضاياهم المصيرية، أو لتمزيق وحدتهم، من خلال نبش أوراق الماضي، وإثارة الخلافات الطائفية المذهبية وتغذيتها خدمة لأهداف مشبوهة. أما **العامل الثاني** فيتمثل في **حالة التخلف** التي تعيشها قطاعات كبيرة من الأمة في المجال الثقافي والأخلاقي، حيث يتجلى ذلك في جهل المسلمين ببعضهم بعضًا، وفي عدم وجود الانفتاح المتبادل والحوار الإيجابي، وفي أخلاقيات التعصب والتشدد تجاه الرأي الآخر.

وعندما تسود وتنتشر ثقافة التعصب والجهل والعزلة والانغلاق والانكفاء والإرهاب الفكري، فسوف تنكفئ ثقافة التسامح وأخلاقياتها، وتخفت الأصوات التي تنادي وتدعو للانفتاح والتعارف الخلاق بين أبناء الأمة، ولن يكون هناك فرص للقاء والحوار والتعارف من أجل تجاوز مناطق الخلاف، إلى أفق الوحدة وخدمة المصلحة المشتركة، والتعاون من أجل مصلحة هذه الأمة وقضاياها المصيرية.[1]

كثيرًا ما يهتم الشيخ الصفار ويركز في خطابه على عناوين ومفاهيم التعددية والتعايش، وأهمية التلاقي والحوار والتعاون بين أبناء الأمة بمختلف اتجاهاتهم ومذاهبهم، لافتًا إلى أن حديثه عن التعايش والتلاقي والحوار ينطلق فيه من مفاهيم الإسلام وتعاليمه، فالقرآن

---

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول. من حوار مع مجلة الموسم.

الكريم يشرّع للتعايش السلمي مع الكفار المخالفين لنا في الدين، ويشجع على التعامل معهم بعدالة وإحسان لقوله تعالى: ﴿**لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾. والقرآن أيضًا يأمرنا أن نلتزم بأفضل آداب الحوار حينما نتناقش مع اليهود والنصارى في أمور الدين، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿**وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾. والقرآن كذلك يدعو المسلمين إلى عدم التنازع فيما بينهم حتى لا تهدر طاقاتهم وقدراتهم في الصراعات الداخلية، ويفشلون في إثبات وجودهم بين الأمم فيقول تعالى: ﴿**وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾.

كما ينطلق الشيخ الصفار في حديثه عن التقارب والتعاون بين أبناء المجتمع، من معطيات العقل والواقع، فنحن اليوم، كما يقول، نعيش عصر العولمة والانفتاح، وأصبح العالم قرية واحدة، فهل من المعقول أن ننغلق تجاه بعضنا بعضًا، بينما تنفتح كل غرفة من غرف بيوتنا على العالم كله، عبر أجهزة التلفاز وقنوات البث المباشر؟

وفي الوقت الذي يدور فيه الحديث عن حوار الحضارات، فهل من المنطق أن ننفتح على الحضارات الأخرى ونتحاور معها، ونتردد في الحوار الداخلي فيما بيننا؟

ثم إن الأخطار المشتركة التي نواجهها كأمة عربية وإسلامية، والتي من أبرزها تحدّي العدوان الصهيوني، الذي يسرح ويمرح في مقدساتنا، ويحتل أراضينا، وينتهك حرماتنا، ويقتل النساء والأطفال، ويهدم البيوت، ويحرق المزارع في فلسطين، ثم بعدها نتشاغل عنه بالخلافات الجانبية حول قضايا جزئية، وأحداث تاريخية، أكل عليها الدهر وشرب، أليس ذلك من العيب والمخجل بحقّ أنفسنا؟

ولا ينسى الشيخ الصفار إضافة تحدّي العولمة والحفاظ على الهوية، وتحدّي التخلف العميق الذي نعيشه، ويجب أن نفكر في تجاوزه، وكذلك المشاكل التي تواجهها مجتمعاتنا في كل المجالات والميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي نشترك فيها جميعًا، وتهدد واقعنا ومستقبلنا.

ألا تدعونا هذه التحديات والمخاطر كلّها للاقتراب من بعضنا بعضًا، وللتعاون من أجل المصلحة المشتركة، والمستقبل الواحد؟

إذا كان الشيخ الصفار يركز ويكثر من تناول هذا الموضوع، فذلك لما يلحظه من وجود تعبئة في بعض الأوساط باتجاه الخلافات والفتن المذهبية الطائفية، فبين فترة وأخرى تصدر فتاوى، وتوزع منشورات، وتلقى خطب، لإثارة النزاع المذهبي، ولتعبئة هذه الطائفة ضد تلك، ولاجترار مآسي الماضي، وخلافات التاريخ المنقرض، وهناك أيضًا ممارسات طائفية من قبل البعض تهدد وحدة أوطاننا، وتشكل خطرًا على السلم في مجتمعاتنا، لذلك يرى الشيخ الصفار وجوب مواجهة هذه التعبئة وهذا التوجه ببث الفكر الوحدوي الصحيح، ونشر ثقافة الألفة والتعاون والإصلاح، اتّباعًا لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**﴾، وقوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا**﴾.»[1]

التقارب عمل استراتيجي

إذا كانت هناك ظروف سياسية مختلفة عاشتها مجتمعاتنا ساهمت في توتير الأوضاع وغذّت حالة التشنج الطائفي والمذهبي، فليس من مصلحة مجتمعاتنا أن تتعمق فيها الحالة الطائفية، بل من الضروري اغتنام الفرص متى ما لاحت في الأفق ظروف سياسية مختلفة ومواتية، والتجاوب معها بغية تحجيم حالة التعبئة والتنافر، والدعوة إلى مدّ الجسور بين أبناء الأمة، وتجسير الفجوة بينهم، لكي يتواصلوا ويعيشوا في حالة ودّ ووئام وتآلف وتعاون على البر والتقوى.

وعلى الرغم من أهمية وجود أجواء سياسية منفتحة، فإن الواقع لا يخلو من عناصر وجهات تغلب عليها روح الطائفية، ولا يرضيها أن تسود بين أبناء الأمة حالة الودّ والوئام، فتعزف على وتر الطائفية والمذهبية، وتعمل جاهدة على إثارة الخلافات وتوتير الأوضاع، عبر التحريض وإصدار الكتب والفتاوى التي تزيد حالة الاحتقان والتشنج، وتتسبّب في

---

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول. من حوار مع مجلة المواقف البحرينية.

إعاقة أي جهد يبذل من أجل وحدة أبناء الأمة.

لذلك فإن التحريض المذهبي سبب آخر من عوامل المشكلة الطائفية، إلى جانب العامل السياسي، حيث تمثل التوجهات المذهبية المتطرفة في أوساط مختلف المذاهب سببًا في عرقلة ثقافة التسامح ومسيرة الوحدة، عبر تركيزها على قضايا الخلاف المذهبي، وخلق أجواء من الشحن والتعبئة الجماهيرية ضد الآخر.

ومع ذلك فهناك قوى واعية تدرك أن المصلحة العليا، وخاصة في المراحل الحساسة التي تمر بها الأمة، تقتضي التقارب والانفتاح والحوار بين أتباع المذاهب، بل إن الوعي الإسلامي الحقيقي يوجب مثل هذا الانفتاح والتقارب، بغض النظر عن أي ظروف سياسية. ومثل هذا التقارب بين أبناء هذه الأمة يجب ألا يكون مجرد تكتيك مرحلي يفرضه الظرف السياسي، وإنما يؤكد على استراتيجية ثابتة على هذا التوجه لمصلحة الإسلام والمسلمين.[1]

إن طريق خروج أمتنا من مآزقها التاريخية، كما يقول الشيخ الصفار، يتمثل بالأخذ بقيم الإسلام التي تأمر بالعدل والإحسان، واحترام حقوق الآخرين ﴿**وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ**﴾، وكذلك بالاستفادة من تجارب المجتمعات البشرية الأخرى التي تتعاطى مع التنوع الديني تعاطيًا إيجابيًا، فلسنا الأمة الوحيدة التي تتعدد فيها المدارس والمذاهب، فاليهود والنصارى والسيخ والهندوس والشنتو، وكل الديانات القديمة والجديدة، حصل فيها تنوع وتعدد في الاتجاهات والمذاهب، فلننظر كيف يتعايش الآخرون فيما بينهم، حيث يفترض فينا أن نكون أفضل منهم ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾.

والسؤال: هل يستعصي على أمتنا، وشعار دينها السلم والسلام ﴿**ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً**﴾، وهي تحمل رسالة الرحمة للبشرية جمعاء ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾، أن تحقق السلم والوئام في داخلها، وبين مذاهبها المختلفة؟

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني. من حوار مع جريدة الأيام البحرينية.

ومن أجل تجاوز ما تمر به أمتنا من صراع طائفي، يطالب الشيخ الصفار بضرورة أخذ الأمور التالية بعين الاعتبار، **أولًا**: الإقرار بجامعية الإسلام للطرفين، وعدم تكفير أحد من أهل القبلة، مع الاعتراف بحقّ الاختلاف. **ثانيًا**: الاحترام المتبادل، ورعاية حقوق المواطنة لكل مسلم في وطنه مهما كان مذهبه. **ثالثًا**: تجريم الإساءة من أي طرف للآخر، والتحريض على الكراهية، دون أن يمنع ذلك عرض كل طرف لآرائه. **رابعًا**: تشجيع الحوار في القضايا المختلف فيها، عقدية أو فقهية أو تاريخية، ليفهم كل طرف الآخر على حقيقته، وليكتشفوا مساحات الالتقاء، وموارد الاختلاف. **خامسًا**: المشاركة والتعاون في خدمة القضايا العامة للإسلام والأمة.(١)

سياسة رأب الصدع

إن ما تمرّ به أمتنا في الزمن المعاصر، من أحداث وتطورات خطيرة ومصيرية، أدت إلى زيادة الشرخ والتباعد فيما بين فئاتها وأطرافها، فانقسم المقسم، وتجزأ المجزأ، وتشتت الشمل، وازداد الفشل، وانحدر موقع هذه الأمة إلى قاع السلم الحضاري، وضعفت مكانتها بين الأمم، ولن يكون ممكنًا وقف هذا التراجع والتردي والانحدار، إلا من خلال وقف كل أشكال التعدي والعدوان بين أبنائها وفئاتها المختلفة.

يقول محمد بن إبراهيم الرشيد انه، «ما أحوجنا إلى رأب الصدع، وسدّ الشرخ العميق الذي ينشأ بين قوى سياسية في وطن واحد، كما هو الحال في بعض الأوطان العربية، حيث تحتاج إلى من يلمّ الشمل، ويوقف النزاع، لتعود للبلاد وحدتها، وتواجه عدوها الذي يستغلّ تمزقها، ويشعله أكثر؛ ليحقق هو أغراضه العدوانية.

ويضيف الرشيد قائلًا: إن من أعظم ما نعتزّ به من قيمنا الإسلامية، ومن أهم ما نحن في حاجة إليه من أعمال إنسانية، هو رأب الصدع، وإصلاح ذات البين، فإذا كانت الحياة الفردية، أو الاجتماعية، أو الوطنية في حاجة ماسّة إلى رأب الصدع بين أطرافها، وعود

(١) من كتاب المذهب والوطن. ص ١٣١

الجمع بين صفوفها، لازمة فيما مضى، فإنها في وقتنا الحاضر ألزم، والحاجة إليها أشدّ، وعلى جميع المستويات، ذلك لما اجتاح الحياة المعاصرة من متنوع صور الخلاف، وكثرة أسباب النزاع، بل والحروب بين الدول، وتعمق صور الصراعات.

ويتابع الرشيد موضحًا أن هذه الحاجة المعاصرة إلى رأب كل صدع، يحدث شرخًا في بناء الأسرة والمجتمع، وضرورة العمل على عودة الجمع، والوفاق والتوحد بين من شبّت بينهم نار الفرقة، وهدّدهم التمزق والصراع، تجعلنا ندعو جاهدين، ونأمل من كل القادرين، العمل على تحقيق حياة آمنة مطمئنة لنا، ولأسرنا ومجتمعنا»[١].

إذا كانت توجهات الخلاف والشقاق تترعرع في ظلّ الانغلاق السياسي والإرهاب الفكري، فإن توجهات التقريب والتقارب والوحدة لا تنمو ولا تترعرع إلا في ظلّ أجواء الحرية والانفتاح، وارتفاع مستوى المشاركة الشعبية السياسية، وقبول التعددية، واحترام الرأي الآخر. على أن من واجب الحكومات، كما يأمل الشيخ الصفار، أن تبادر لمعالجة الظروف التي تتسبب في تعميق حالة الخلاف الطائفي والمذهبي، وأن تحتضن الدولة جميع مواطنيها، وأن الوطن للجميع، لا يشعر فيه المواطن بالانتقاص والدونية والتحقير، من أجل أن تؤكد هذه الحكومات حرصها على وحدة مجتمعاتها وتماسكها أمام مختلف الأخطار والتحديات.

---

(١) حتى لا تذبل قيمنا.. عود الجميع ورأب الصدع. محمد بن احمد الرشيد. جريدة الرياض.

رابعاً:

في ضرورة نشر ثقافة التقارب والتواصل

أحد أهم المشكلات التي تكرّس الطائفية السياسية في مجتمعاتنا هي حالة القطيعة بين أطياف المكونات الاجتماعية لهذه الأمة، وضعف علاقات التواصل والترابط بين بعضهم بعضًا، حيث تغلب على الكثير عقلية العزلة والانكفاء والانغلاق، وربما اتخاذ مواقف سلبية من الآخرين والدعوة للإساءة لهم.

إن القيم الدينية الجليلة لا تشجع على هذه الحال من الانغلاق والعزلة، بل هي تدعو إلى التحاور بالتي هي أحسن، والتواصل والتعارف والتعاون على كل ما فيه الخير للإنسان والبشرية، وتدعو إلى عمارة القلوب بالحبّ، وتدفعهم إلى التعاون على إعمار الأرض، والدعوة إلى الخير، لذلك فإن حالة الانكفاء والانغلاق، والجهل بالآخرين، وتبني مواقف سلبية ضدهم، لا تملك أي أصالة دينية، والإنسان الذي ينطلق من القيم الإلهية لا يتخذ مثل هذا الموقف السلبي تجاه الآخرين.

يلفت الشيخ الصفار إلى أن الإسلام لا ينصح بالقطيعة مع المخالفين، بفصل وشائج العلاقات الإنسانية والاجتماعية معهم، بل على العكس من ذلك يوصي بالبر بهم، والإحسان إليهم، ما داموا مسالمين غير معتدين، لقوله تعالى: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾، فالمسلم من واجبه الالتزام بحسن الخلق مع كل من يتعامل ويتعاطى معه، فقد ورد عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: (**أحسن صحبة من صاحبك تكن مسلما**)، وجاء عن

حفيده الإمام جعفر الصادق عليه السلام: **(ليس منا من لم يحسن صحبة من صحبه، ومرافقة من رافقه)**.[١]

ولعل السرّ الذي يكمن خلف إشكالية القطيعة والتنافر والتباعد بين أطياف المكونات الاجتماعية في هذه الأمة، هو في تخلف البنية الثقافية والقاعدة الفكرية، كما هو التخلف البنيوي في مجال العلاقات الإنسانية بين الناس. والشيخ الصفار يرجع إشكالية القطيعة في أي امة إلى هذين البعدين، أي في ثقافتها وأفكارها، وفي شبكة العلاقات بين مراكز القوى فيها، حيث نعاني نحن من أزمات خانقة في هذين البعدين، فلا نهتم بالوسائل والسبل التي تجمعنا من أجل التحاور، وتلاقح الأفكار والآراء، والاستفادة من تجارب بعضنا بعضًا.[٢]

عندما تسود وتتجذر حالة القطيعة، تنتشر مظاهر التخلف، وينتفي معها التفكير أو الاهتمام بالوسائل والسبل التي تؤدي إلى تجسير الفجوة بين الناس، وتقليص الفواصل بينها، وتقريبها من بعض، وجمعها من أجل التحاور والتعارف وتلاقح الأفكار والآراء، حيث يعتقد الشيخ الصفار بأننا بحاجة إلى تكثيف المبادرات، واختراق الحواجز المصطنعة بيننا، حتى نتعرف إلى بعضنا بعضًا بشكل مباشر، ولكي نتعلم على الحوار الصريح، ونتربى على قبول الرأي الآخر واحترامه مهما اختلفنا معه.[٣]

التواصل لتنمية روح التآلف

يولي الشيخ الصفار مسألة الوحدة اهتمامًا كبيرًا في خطابه، ويعدّ من دعاة تعزيز الوحدة الوطنية، على قاعدة الولاء لمطلقات الإسلام وقواعده العامة، مناديًا بتجاوز الاختلافات الجزئية، لذلك وبناءً على هذه القاعدة، يشعر بالمسؤولية تجاه وحدة الأمة وتماسك المجتمع،

(١) من كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. ص ٢٨

(٢) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول ـ من حوار في كتاب بعنوان (مع قادة الفكر الإسلامي).

(٣) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول ـ من حوار مع مجلة المواقف.

ويعي جيدًا مدى أضرار النزاعات والخلافات على أمن الوطن ومصلحة المواطنين، لذلك فإنه ينطلق في العمل على هذا الصعيد من تركيز جهده على **محورين** أساسين:

الأول: التأكيد على ثقافة الوحدة وضرورتها، وتأصيل أخلاقياتها كاحترام الرأي الآخر، والقبول بالتعددية، والتذكير بالأصول الدينية الواحدة بين المسلمين، والتسامح تجاه الاختلافات الفرعية والجزئية، والاهتمام بالمصالح المشتركة لنا كمواطنين وللأمة الإسلامية التي تواجه أشد التحديات والأخطار في هذا العصر، وكل ذلك عبر الكتابة والتأليف، وإلقاء الخطابات والمحاضرات، والتحادث المباشر مع مختلف الأوساط.

أما **المحور الثاني** الذي يشتغل عليه الشيخ الصفار، فهو التواصل الاجتماعي، بالمبادرة إلى زيارة العلماء وذوي الرأي والتأثير، من أجل تمتين أواصر العلاقات، ومناقشة ما يدور في الأجواء من تساؤلات، لتوضيح الصورة، ولتلافي آثار المراحل السابقة.(١)

يتحدث الشيخ الصفار أنه يحرص على لقاء أي شخصية تثير اهتمامه، ولديه قناعة بأن اللقاء المباشر مع أي شخصية يتيح تعرفًا أفضل إليها، فكثيرًا ما يحصل أن تقرأ لبعض الشخصيات وعنهم، إلا أن اللقاء بهم يضيف للمعرفة بهم بعدًا جديدًا. وعندما يسأل عن دوافعه وبواعث حرصه على مثل هذه اللقاءات، والتواصل مع نخبة العلماء في وطنه، يقول: إن لديه قناعة بأن صورة المواطنين الشيعة ليست واضحة لدى المؤسسة الدينية في بلادنا، وأن الكتابات والتقارير المغرضة أوجدت تشويهًا كبيرًا لتلك الصورة، وساعد على ذلك انغلاق الشيعة وانطواؤهم على أنفسهم، بسبب الظروف التي أحاطت بهم، لذلك كان تصميمه على المبادرة لكسر هذا الحاجز، والانفتاح مباشرة على القيادات الدينية السلفية المؤثرة، من أجل أن تسهم اللقاءات في توضيح الصورة، وتدشين مرحلة الحوار والتفاهم.(٢)

كما يؤكد الشيخ الصفار دائمًا في خطابه الإصلاحي على أهمية التلاقي والتزاور كضرورة

---

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول ـ من حوار مع جريدة المدينة السعودية.

(٢) من كتاب المذهب والوطن. ص ١٥٢

ملحّة، فمتى ابتعد المؤمن عن أخيه المؤمن، وانعدمت اللقاءات والاجتماعات بينهما، حينها تكون الفرصة مؤاتية للشيطان ليخلق بينهما حواجز العداوة والفرقة، وخاصة إذا كان بينهما اختلاف في الرأي أو المصلحة، فبسبب الابتعاد تتضخم القضايا الصغيرة في نظر كل منهما عن الآخر، كما تتراكم الانفعالات النفسية، ويقوم الوشاة والنَّمامون بدورهم الخبيث في نقل المساوئ فيما بين الطرفين. إلا أنهما لو التقيا لذاب كثير من الجليد والتراكمات النفسية التي بينهما، ولتفاهما على ما يختلفان عليه، وجعلاه في حدود الواقعية.

مشكلتنا، كما يشخصها الشيخ الصفار، هي في انعدام أو قلَّة اللقاءات بين الجهات المختلفة في الرأي أو المصلحة، حيث يبتعد كل طرف عن أماكن تواجد الطرف الآخر، فلا القيادات الدينية تكثّف اللقاءات فيما بينها، ولا الحركات الإسلامية تحرص على الاجتماعات، ولا مختلف الجهات الفاعلة في المجتمع تتبادل الزيارات.

إن للقاءات والاجتماعات أثر كبير في تقريب النفوس، وتأليف القلوب، وتضييق شقَّة الخلافات، فالأحاديث الدينية تؤكد عليها بشكل عجيب، والإمام الصادق عليه السلام يوجّه وصية لتلامذته وأتباعه يؤكد عليهم فيها المواظبة على اللقاءات والاجتماعات فيما بينهم فيقول: (**اتَّقوا اللَّه وكونوا بررة متحابين في اللَّه متواصلين متراحمين تزاوروا وتلاقوا وتذاكروا، وأحيوا أمرنا**)، كما أن الإمام الجواد عليه السلام يشير إلى أن في اللقاءات الأخوية **فائدتين** أساسيتين: **فائدة نفسية** بتحصيل السرور والانشراح النفسي، **وفائدة فكرية**، حيث يكون اللقاء فرصة لتبادل الآراء، فيقول: (**ملاقاة الأخوان نشرة وتلقيح العقل**)، فالزيارات واللقاءات تساعد على رأب الصدع، ولمّ الشمل، وتخفيف حدّة الصراعات، وتهيئ الأجواء للتعاون والتقارب، وصدق رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم حينما قال: (**الزيارة تنبت المودّة**).[١]

عندما تتجاوز الأطياف المختلفة في أي وطن حالة القطيعة ولغة التنافر، ويتم الإقرار بواقع التنوع الفكري والانتماء المذهبي الموجود فيما بينهم، وتنفتح بينهم أبواب الحوار والتواصل المباشر، عندها تتساقط الحواجز النفسية المصطنعة التي تحول دون تلاقيهم،

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ١٦٢

وتزول الكثير من الأوهام والخرافات والتصورات الخاطئة، ويتم تجاوز سلبيات الماضي، وتنتفي مبررات التجييش والتحريض والعداوات المكلفة، لصالح مسؤولية بناء وطن الجميع، والتنافس الإيجابي على تطويره.

كسر حواجز القطيعة

كم يساهم تواصل وتلاقي النخب من أبناء المجتمع الواحد، وعلى اختلاف انتماءاتهم المذهبية، وفتح أبواب الحوار فيما بينهم، في كسر الحواجز واختراق الحدود الوهمية التي تفصل بينهم، بعد أن حالت بينهم تراكمات تاريخية وحواجز ثقافية حان وقت تجاوزها، وبناء علاقات جديدة، مبنية على أسس صلبة ومتينة، من خلال معرفة الآخر وطريقة تفكيره بشكل مباشر، وليس عن طرق ووسائل أخرى قد لا تكون دقيقة، أو أمينة في نقل الصورة الحقيقية عن الآخر.

إن قيمة التواصل والحوار المباشر والمردود الإيجابي المؤكد لهما، يجعل من الأهمية بمكان على المدارس العقدية، ضرورة التعارف المباشر فيما بينها، كما يؤكد الشيخ الصفار، من خلال اطّلاع كل طرف على معتقدات الطرف الآخر بالرجوع إلى مصادره المعتمدة لديه في المجال العقدي حاضرًا، وضمن الرأي المشهور في ساحته، وليس من خلال مجاميعه الحديثية، أو كتبه التاريخية، أو ما يعبر عن آراء فردية شاذة في وسطه.(١)

إن السعي إلى تجاوز حالة القطيعة، وفتح أبواب التلاقي والتواصل بين أبناء الأمة، وكسر الحواجز والحدود الوهمية، والترسبات النفسية العميقة الجذور فيما بينها، التي سببتها تراكمات الماضي، يحتاج إلى توافر **ثلاثة عوامل**، يمكن أن تساعد في التغلب على تلك الترسبات النفسية العميقة الجذور:

أولًا: إيقاف الإثارة لهذه الترسبات ومنع تغذيتها وتنميتها، عبر وقف التعبئة والتعبئة المضادة، وتجريم ثقافة التحريض على الكراهية، وتبادل الطعن والاتهام والتجريح، فمن

(١) من كتاب خطاب الوحدة نقد وتقويم. ص ٣٠

المهم وقف بث ثقافة التحريض والكراهية ضد المخالف في الرأي، ويجب أن يتوقف الدعاة عن تعبئة جمهورهم تجاه الطرف الآخر، وإبرازه كجهة خطر؛ لأن وجود حالة تعبوية تحريضية يمنع من إزالة تلك الترسبات بل يغذيها، لذلك علينا أن نوقف الانشغال بالخلافات العقدية والمذهبية، والتصدي للأخطار المشتركة على كل الدين، وكل الأمة، فهي الأحقّ بالاهتمام والانشغال، فهناك تخلف عميق يلفّ حياتنا السياسية والاقتصادية حريّ بنا أن نعمل جميعًا لتجاوزه.

وثانيًا: نشر ثقافة التسامح وقبول التعددية واحترام الرأي الآخر واستخدام لغة الحوار في التواصل معه. أما **العامل الثالث** فهو: صنع واقع التعايش، القائم على العدل والمساواة ومراعاة حقوق الإنسان وحقوق المواطنة، وتشجيع الاندماج والانفتاح الإسلامي والوطني.[١]

إن التطور الحادث اليوم في وسائل الاتصال والتواصل والمعرفة تجعل من إمكان معرفة الآخر أكثر سهولة ويسر، حيث تتوفر فرص للمعرفة والانفتاح بين أتباع المذاهب من السنة والشيعة، كما يشير إلى ذلك الشيخ الصفار، وذلك عبر الكتب والمجلات، والقنوات الفضائية ومواقع الإنترنت، والتواصل المباشر، وبإمكان كل طرف أن يتعرف إلى الآخر، وحقيقته بعيدًا عن التضليل والتهريج، والتعميمات النمطية، فلم يعد إمام المسجد، أو خطيب الحسينية، هو المصدر الوحيد للمعلومات لكل من الطرفين عن الآخر، الأمر الذي كان يجعل الجمهور معرضًا للتعبئة والشحن الطائفي في كثير من الأحيان.[٢]

إلا أن المشكلة تحدث عندما تستعمل هذه الوسائل الحديثة وتستغلّ بشكل سلبي في إثارة الضغائن والأحقاد والحساسيات والفتن، من خلال نشر كل ما هو مسيء ورد في التراث، من روايات ومواقف متطرفة حادّة ضد الآخر، بفعل العوامل السياسية، والاتجاهات التعصبية؛ لأن النتائج بعدها لن تكون إلا كارثية على الجميع، ولن تساهم في

---

(١) من كتاب المذهب والوطن. ص ١٣٤

(٢) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع شبكة أخبار إيلاف.

التقريب بين أبناء الأمة، وتجسير الفجوة بينهم.

لذلك يرجو الشيخ الصفار من القائمين على البرامج الحوارية السعي الجادّ لضبط مسارات الحوار، بحيث لا يفسح المجال لطرح الإثارات الطائفية البغيضة، من طرف سني، أو شيعي، كتكفير أحد من أهل القبلة، سنة أو شيعة، وكالتشكيك في سلامة النص القرآني، أو الطعن في إسلام الصحابة الأجلاء، أو النيل من عرض رسول اللّٰه ﷺ، فهذا الكلام قبيح ومقزّز، يجب أن يبرأ منه كل مسلم، إلا أن السؤال: لماذا يثار مثل هذا الكلام ضمن برنامج فضائي يشاهده الملايين في العالم؟

إن من أهم إشكالات بعض هذه الحوارات والمداخلات الدائرة، كما يلاحظ الشيخ الصفار، هو انطلاقها من حالة التعالي، وادّعاء هذا الطرف أو ذاك أنه الأصل، وأن الآخر طارئ دخيل، وأنه هو الجهة التي تقرر إسلام هذا وكفر ذاك. ولا يفوت الشيخ الصفار التنبيه إلى أن السنة والشيعة مسلمون والحمد للّٰه، لا تحتاج جهة منهم لأخذ شهادة حسن سيرة وسلوك، أو صك براءة وغفران، من الجهة الأخرى، داعيًا إلى تجاوز هذا المنطق الوصائي المتعالي.[١]

من أجل حوارات منتجة

كم هو مؤسف حقًّا أن تتخذ الحوارات بين أبناء الأمة مسارات غير سوية ومنفلتة من عقالها، تبتعد عن روح الإسلام وقيمه، وتتسبب في تعميق جراحات الأمة، التي ظلت مفتوحة لم تندمل منذ وقت بعيد، حيث يزيدها هذا الانفلات اتّساعًا في الشرخ. وفي محاولة منه لتحديد إشكاليات العلاقة بين أبناء الأمة، ومواضع الخلل فيها، يرصد الشيخ الصفار، ومن خلال تجربته الحوارية، عددًا من الأسباب التي تحول دون كسر الحواجز النفسية، وفتح أبواب الحوار والتواصل مع الآخر، حيث يقول إنه دخل في حوارات كثيرة مع علماء من أهل السنة من مختلف البلدان، والتقى كثيرًا من علماء الشيعة العاملين في

---

(١) من كتاب رؤية حول السجال المذهبي. ص ٢٨

مجال التقارب والتقريب بين المسلمين، ووجد أن الإشكالات التي يطرحها أهل السنة على الشيعة ناتجة عن أحد **أسباب ثلاثة**:

الأول: عدم الاعتراف بالحقّ في الاختلاف، حيث يحاسب بعض السنة الشيعة على آرائهم المخالفة لهم، وكأنه يلزم أن يوافق الشيعة على كل آراء السنة وإلا فهم محاسبون، إلا أن ما يجب الاعتراف به هو أن هناك مدرستين متفقتين في الأصول الأساس للدين، متمايزتين في جوانب تفصيلية من العقيدة والفقه، كما هو الحال في التمايز داخل مدارس السنة من أشاعرة ومعتزلة وسلفية وصوفية، وداخل مدارس الشيعة من أصولية وإخبارية.

أما القول بأنه يجب اتّباع كتاب اللّه وسنة رسوله فهو ما يتفق عليه الجميع، لكن هناك اختلافًا في الفهم وقبول بعض المرويات، فالكتاب والسنة لا يحتكرهما أحد، لأن كل طرف يدّعي أنه يسير حسب الكتاب والسنة. إننا اليوم وبعد أربعة عشر قرنًا من الصراع والانشغال بالاختلاف والمراهنة الفاشلة لكل طرف أن يغيّر الآخر أو يلغيه، فإنه قد آن لنا أن نعترف بالتعددية وحق الاختلاف، ونجرّب عصرًا جديدًا في التحاور والتقارب والاحترام المتبادل.

الثاني: المحاسبة على الآراء والتصرفات الفردية من قبل بعض العوام، أو من قبل جهات متطرفة من الشيعة، واعترف هنا بأن بعض الشيعة مثلًا يسيئون كثيرًا بالتعرض للخلفاء بالسبّ أو الشتم، لفهم خاطئ لديهم أو رد فعل لمواقف متطرفة من السنة، ولا ينبغي أن يحاسب المذهب كله والطائفة كلها بذلك، وإلا كان الغرب محقًّا في محاسبة كل المسلمين والعرب، على تصرفات الإرهابيين والمتطرفين من المسلمين.

الثالث: سوء الفهم لحقيقة وواقع الآراء الشيعية بقصد أو بغير قصد، أما لعدم الاطّلاع أو للاعتماد على نقولات المناوئين، أو لإبراز الآراء الشاذة في المذهب، وعندنا في المملكة مثلًا لا يسمح بدخول كتب الشيعة، ولا فرصة لهم لعرض آرائهم في وسائل الإعلام، وبعض العلماء لا يكلف نفسه عناء مراجعة مصادر الشيعة المعتمدة، فيبقى على

تصورات خاطئة تجاه الشيعة.[١]

الدعوة إلى التواصل واللقاء والتعارف وخلق حالة حوارية حضارية منتجة، هي ليست دعوة مثالية وترفية ونظرية مجردة، ومن المهم والضروري أن تتحول مؤتمرات الحوار والتقريب، إلى مشاريع عملية تتجسد على أرض الواقع، وأن يؤخذ بعين الاعتبار توسيع رقعة موضوعات الحوار المطروحة وكذلك الجهات والأطراف المشاركة. والشيخ الصفار يحدوه الأمل في الوصول إلى برامج عملية تجعل الحوار تعاونًا فعليًا يتجاوز الأمور النظرية، حوار يكسر الحواجز ويعرّف الأطراف ببعضهم بعضًا، ولكن لا ينبغي الوقوف عند هذا الحد، وإنما الانتقال إلى مشاريع مشتركة تخدم الدين والوحدة الوطنية.[٢]

إن نشر هذه القيم الخلاقة والتوعية بأهميتها وضرورة التقيد والالتزام بها عمليًّا، ليست مسؤولية فردية تقع على عاتق فرد أو أفراد معدودين، بل هي مسؤولية عامة وجماعية، يجب أن يشترك في القيام بأعبائها وتحمل أثقالها كل من تهمّه مصلحة الوطن ومستقبل الدين والأمة، والمطلوب اليوم وأكثر من أي وقت مضى، التبشير بمرحلة جديدة يتجاوز فيها الجميع خلافات الماضي وسلبيات الحاضر، وبلورة مشروع وطني جديد يراعي تحولات الزمن، والقفزات الحضارية والثقافية السائدة في عالم اليوم.

ولكون هذا المشروع مسؤولية جماعية من واجب الجميع تحمل أعبائها، فإنه من المهم أن تكون مشاركة المؤسسات والمعاهد والشخصيات الدينية في مقدمة ركب هذا المشروع لكون الإرهاب الذي يواجهه وطننا وبقية دول العالم العربي والإسلامي له وجهه الديني، حيث لا يمكن مواجهة هذا الخطر وهذه الآفة، من دون مشاركة هذه الجهات، فتفكيك الجذور العميقة لهذه الآفة الخطيرة يتطلب بطبيعة الحال من جميع أطراف المشهد الديني العمل على عدد من المستويات كما يراهن على ذلك محمد المحفوظ من خلال:

أولًا: صياغة خطاب ديني، يعزّز قيم الحوار والتسامح وحقوق الإنسان، وينبذ

(١) من كتاب المذهب والوطن. ص ١١٠

(٢) من كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع جريدة الحياة.

نزعات الغلو والتطرف والتكفير. **وثانيًا**: رفع الغطاء الديني والثقافي، عن كل الممارسات والجماعات، التي تتوسل العنف كوسيلة لتحقيق أهدافها وغاياتها. **وثالثًا**: تعميق الأبعاد الإنسانية لقيم الإسلام في فضائنا الاجتماعي والثقافي، فإبراز إنسانية الإسلام، واهتمام هذا الدين بكرامة الإنسان، بصرف النظر عن دينه أو قومه أو عرقه، أضحى ضرورة دينية وثقافية، لإزالة الكثير من الالتباسات والهواجس الداخلية والخارجية. **ورابعًا**: تطوير المناهج التعليمية الدينية؛ لأن في عملية التطوير، إخراجًا لهذه المناهج والمؤسسات من اتهامها بأنها تساهم بشكل أو بآخر في تفريخ ظاهرة الإرهابيين، فالحاجة الدينية والاجتماعية، تقتضي الإسراع في عملية تطوير المناهج التعليمية الدينية، وإن عملية التطوير هذه، ليست خضوعًا لمقتضيات خارجية، بل بفعل حاجات ذاتية واجتماعية ملحة.(١)

إن أي مشروع وطني جديد يهدف إلى تجسيد معنى التعارف والتقريب والتقارب، لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال توثيق علاقات الودّ والاحترام والترابط بين أبناء الوطن الواحد، من خلال نشر ثقافة التقارب والتسامح والتعاون، ومحاربة الأفكار التي تدعو إلى القطيعة، والإثارات التي تشجع التعصّب والعزة بالإثم، وعدم إضفاء صفة الشرعية على الصراعات والنزاعات بين الإخوان، بحجة أن القضية هي تكليف شرعي، حيث يستغلّ ويستعمل هذا الزعم من أجل إسقاط الآخرين من المخالفين ورميهم بالتهم السيئة، خدمة لأهداف مشبوهة ومغرضة.

---

(١) أفكار في مواجهة الإرهاب. محمد محفوظ. جريدة الرياض.

خامساً:

قيم التعددية والاختلاف والتنوع كمصدر قوة وإثراء في المجتمعات المتعددة الانتماءات

التعددية والاختلاف والتنوع في هذه الحياة حالة طبيعية، بل هو حقّ مشروع، والحياة البشرية على مدى التاريخ الإنساني عاشت هذه الحالة في كل مراحلها المتعاقبة، والمجتمعات الإنسانية تنوعت وتعددت انتماءاتها الدينية والعرقية، كما تنوعت أيضًا، الاختلافات والتقسيمات داخل كل مجتمع من هذه المجتمعات.

إن هذه الحال من الاختلاف والتعدد لهو أمر تاريخي وإنساني لا يمكن إنكاره، وجد منذ وجود هذا الإنسان على هذه الأرض. ولكون هذا الأمر طبيعيًّا وحقًّا مشروعًا، فلن يكون بالإمكان إلغاؤه لأيّ سبب كان، بحجة أنه لا يجوز أن تتعدد الآراء ويسود الاختلاف داخل البيئة الواحدة والمجتمع الواحد، بزعم أنه يؤدي إلى الخلاف والتنازع والفشل.

والتنوع بين الناس على نوعين، كما يفصّل الشيخ الصفار ذلك في كتابه التنوع والتعايش، **الأول: تنوع طبيعي تكويني**، حيث وجد الناس أنفسهم ضمنه، دون اختيار منهم، ودون استشارة أحد، فالإنسان لا يخيّر قبل مجيئه لهذه الدنيا، في انتمائه العرقي أو القومي، ولا في ملامح شكله ومظهره، فالأبيض لم ينتخب البياض لنفسه، ولا الأسود اختار السواد لشكله، ولم يقرر أحد من البشر لنفسه أن ينحدر من السلالة التي انحدر منها، أو أن ينتمي إلى القومية التي وجد نفسه منتميًا إليها، وهذا التنوع الطبيعي يتم بأمر اللّه ومشيئته، لذلك يعبر عنه تعالى بالجعل ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى**

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾، فاللّه تعالى هو الذي جعلنا متنوعين في أعراقنا وقومياتنا وشعوبنا.

أما **النوع الثاني**: **تنوع اختياري كسبي**، وهو يرتبط بقناعات الإنسان وأفكاره، ونمط سلوكه واتجاهه، فكل إنسان هو الذي يقرر ما يعتنق من دين، وما يؤمن به من فكر، وما يرتضيه لنفسه من ثقافة وسلوك، وتبعًا لذلك تتعدد الأديان بين الناس، وتختلف المدارس الفكرية، وتتنوع التوجهات السياسية، وهذا التنوع ناشئ من تقدير اللّه تعالى وحكمته لوجود الإنسان في هذه الحياة، حيث خلقه اللّه تعالى حرًّا مريدًا مختارًا قادرًا على التفكير، واتخاذ القرار، ليكون في موضع الابتلاء والامتحان، فيستحق الثواب والعقاب، يقول تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ**﴾، وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ**﴾.[١]

لقد كرر القرآن ذكر هذه الحقيقة وثبتها، كما هي التجربة الإنسانية تثبت هذه حقيقة البشرية، «فالتعددية والتنوع ظاهرة قائمة في كل المجتمعات البشرية، على حدّ وصف الشيخ الصفار، إذ ليس هناك مجتمع متجانس بالكامل ١٠٠٪، فبعض المجتمعات تتعدد فيها الأعراق والقوميات، وبعضها تتعدد فيها الأديان، وبعضها تتعدد فيها المذاهب أو التوجهات السياسية، وقد تحدث القرآن الكريم عن التنوع العرقي والقومي واعتبره من دلالات القدرة الإلهية وعظمتها، يقول تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ**﴾.

كما تحدث القرآن الكريم عن تعدد الديانات، واعتبره ظاهرة طبيعية في هذه الحياة؛ لأن اللّه تعالى قد منح الإنسان حرية الاختيار، وأودع في نفسه نوازع الخير والشر، ويوم القيامة هو يوم الفصل والحساب، فسبحانه وتعالى يقول: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾.

---

(١) من كتاب التنوع والتعايش. ص ٧٠

إذًا فنحن أمام سنة كونية وظاهرة اجتماعية طبيعية، حيث يقاس اليوم وعي المجتمعات ونضجها، ومستوى تحضّرها، بمقدار نجاحها في التعامل الإيجابي مع التعدد والتنوع الداخلي، فالمجتمعات المتحضرة المتقدمة تعتبر التنوع مصدر إثراء وإغناء لتجربتها الحضارية، فتحترم الخصوصيات لكل فئة وطائفة مهما كانت قليلة وصغيرة، وتخضع لقانون وطني عام على صعيد حقوق المواطنة وواجباتها، حيث يتساوى فيه الجميع على اختلاف أعراقهم وأديانهم ومذاهبهم وتوجهاتهم، أما في المجتمعات المتخلفة، فغالبًا ما يكون التنوع سببًا للظلم والحيف، بأن تجور فئة على أخرى، أو تصادر جهة حقّ سائر الجهات في ممارسة خصوصياتها، أو يفصّل ثوب الوطن على مقاس طائفة واحدة.

ولا ينسى الشيخ الصفار الإشارة إلى أننا في دول مجلس التعاون الخليجي ليس عندنا تعدد في القوميات ولا في الأديان، فالمجتمعات الخليجية تنتمي إلى الأمة العربية، وتدين بالإسلام والحمد للّه، أما التنوع المذهبي فهو يعني الاختلاف في بعض التفاصيل المرتبطة بالمعتقدات أو الأحكام الفقهية، مع الاتفاق على أساسيات العقيدة، وأركان الدين، ومعالم الشريعة، إلا أن هذا الاختلاف لا ينبغي أن يؤثر أبدًا على الوحدة الوطنية، ما دام الجميع يؤمنون بدين واحد يدعوهم إلى الوحدة والتعاون، حيث يقول تعالى: ﴿**إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾، ويقول تعالى أيضا: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى**﴾.»[١]

التنوع الخلاق أو الخراب

هناك من يتخذ من موضوع الاختلاف والتنوع ذريعة إلى الانعزال والتقوقع على الذات، ومنصة لرمي الآخر المختلف بشتى التهم والأقاويل غير العادلة، التي دائمًا ما تصدر عن عدم معرفة ودراية بالآخر، أو لأنهم لا يتفقون معهم في كل ما يؤمنون به ويعتقدون فيه، مما يؤدي إلى إثارة الشكوك والظنون بين الفرقاء، وبالتالي إلى تبادل الأقاويل والاتهامات وتقاذفها، مما قد يؤدي إلى انزلاق الأمور بعدها إلى ما لا يحمد عقباه.

---

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول. من حوار مع مجلة المواقف البحرينية الأسبوعية.

إذا لم تتحول حالة الاختلاف والتنوع إلى أمر طبيعي وواقعي ومسلّم به في حياة الناس، والى حالة ثقافية معيشة وعادية في الحياة اليومية ومعترف بها، فإنه سيكون من الصعوبة على الفرقاء في المجتمع الواحد العيش بهدوء واستقرار بعيدًا عن منقصات وسلبيات وتداعيات حالة التباعد والفرقة.

عندما تكبر وتتوسع أعراض الضعف والتشتت، الذي يؤدي إلى السّبات والجمود، يتحتم على أبناء المجتمع الواحد التفكير للخروج من أسار هذه الحالة المزرية، لخلق تجربة جديدة في طريقة التعامل والتعاون بينهم على قاعدة الإقرار بأن حالة الاختلاف والتعدد أمر طبيعي، والعمل على تحويله من شيءٍ مخيف وسلبي، وسببًا للتباعد والعداوات والنزاعات والصراعات، إلى حالة إيجابية وخلّاقة، وسببًا للتقارب والوحدة والتعاون والتفوق والانجاز والقوة.

التعددية في الحياة العامة، كما يقول الشيخ الصفار، هي وسيلة فضلى في إدارة الشأن العام لكون «التعددية هي الحالة الطبيعية، وبدونها سيكون البديل هو القمع والكبت، في كل مجتمع هناك فئات قد تتبنى أو تؤمن بأفكار ونظريات، هذه الفئات إذا لم يتح المجتمع لها الفرصة للتعبير عن قناعاتها واختياراتها السياسية والفكرية بشكل علني، ستتجه إلى التعبير عن ذلك بطرق سرّية، إذا لم تكن الفرصة متاحة إلا لقوة واحدة مهيمنة أو جهة معينة، فإن باقي القوى لن تتنازل عن اختياراتها بل ستلجأ إلى العمل السرّي، وتنشط خلف الكواليس، وتعمل على معارضة القوى المهيمنة بكل الأساليب.

أما عندما تكون التعددية مباحة ومشرّعًا لها، كما نجده لدى الدول التي تعمل بالتعددية الحزبية، فإن جميع القوى تعمل في وضح النهار، وتكشف عن اختياراتها وآرائها بوضوح، دون خوف أو ارتياب، وبالتالي فلا خوف على القوة الحاكمة من أيّ عمل تخريبي أو معارض ينمو في الخفاء، وقد أثبتت التجارب التاريخية أن الحكومات مهما امتلكت من أسباب القوة، لا يمكنها أن تجبر الناس على اعتناق آراء وأفكار لا يرغبون في اعتناقها أو الإيمان بها. وعندما توجد فئة تعمل في الخفاء وتحت الأرض، فلا يمكن الحديث عن

الاستقرار السياسي والاجتماعي؛ لأن هذا الاستقرار قابل للانفجار في أية لحظة».[١]

يقول هاشم صالح في هذا الصّدد متسائلًا: إنه بدلًا من أن نذبح بعضنا بعضًا على الهوية في ظلّ الدولة المركزية الصارمة، وبدلًا من أن نجبر بعضنا بعضًا على الاتحاد الانصهاري والتوحيد القسري الذي ستقهر فيه حتمًا فئة معينة بقية الفئات في عقر دارها، لماذا لا نحاول أن نجد صيغة للتعايش لا تكون طلاقًا انفصاليًّا، ولا زواجًا كاثوليكيًّا؟

يجيب صالح عن هذا التساؤل بقوله: «ينبغي أن نتخلى تدريجيًا عن وهْم الدولة الواحدة الموحدة الأحادية المنسجمة التي لا تحتوي على أي تنوع أو اختلاف في أحشائها ومكوناتها. دولة مشكلة من دين واحد أو حتى مذهب واحد وعرق واحد ولون واحد: هذا مستحيل! التماثل النمطي الكامل المطلق شيء طوباوي غير موجود على وجه الأرض. وأصلًا غير مستحب. معظم دول العالم تحتوي على مكونات مختلفة إما عرقيًّا ـ لغويًّا، وإما دينيًّا ـ مذهبيًّا وإما الاثنين معًا. وهذا ليس شيئًا سلبيًّا بحدّ ذاته وليس مشكلة مستعصية إذا ما عرفنا كيف نتصرف تجاهه ووسعنا عقولنا قليلًا.. فالتنوع يقضي على النمطية والرتابة ويجعل البلد أكثر جمالًا وغنىً وجاذبية. والتنقل من إقليم إلى إقليم آخر مختلف يشعرك بالارتياح. التنوع نعمة لا نقمة. «اختلاف أمتي رحمة!» ولكننا لا نرى فيه إلا الجانب السلبي بسبب عقليتنا المتحجرة وكرهنا لكل تنوع أو اختلاف. ثقافتنا الاستبدادية على مدار التاريخ غير متعودة على قبول الاختلاف، ومع ذلك فإننا نكابر ونريد إقناع العالم بأننا ديمقراطيون!».[٢]

عندما يتنكر أحد لوجود الآخر، ويعتبر وجوده وحده هو المشروع والأصل، وأن الآخرين لا أصل ولا وجود لهم، أو أراد أن يفرض وصايته عليهم، وأن يذوبوا فيه ويلتحقوا به، فإن ذلك الأمر سيكون تشريعًا لأبواب الفتن والصراعات التي لا تنتهي، وتبقى مفتوحة على طول الزمن، إلى أن يقضي اللّٰه امرًا كان مفعولًا، كما أن هذه الحال من

---

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول. من حوار أجرته الجهة المشرفة على إصدار كتاب «مع قادة الفكر الإسلامي».

(٢) هاشم صالح. إما الفيدرالية وإما التقسيم! جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ١٨/ ١٢/ ٢٠١١م.

الفرقة والتنازع ستكون مفتاحًا للآخرين من المغرضين وأصحاب النيّات السيئة للتسرب داخل المجتمع والتغلغل بين أطيافه وأطرافه، من أجل بثّ الفرقة بينهم، وعندها إذا ما وقع الفأس على الرأس لا تنفع دعوات التقريب ووحدة الصف.

وكم هو مفرح ومفيد لتلك الأطراف المغرضة أن تستمر وتسود حالة الفرقة بين أبناء المجتمع الواحد، لكي تمرر أجندتها وأغراضها ومآربها السلبية والمضرة والمشينة؛ لأن هذه المشاريع لا يمكن أن تمرّ في مجتمع واعٍ ومدرك لكل ما يدور من حوله من تنافس وصراعات بين أطراف ومشاريع مختلفة، وقد يحمل بعضها أهدافًا شيطانية تريد تمزيق هذه الأمه من أجل الهيمنة والسيطرة على خيراتها ومقدراتها.

إدارة التنوع والاختلاف

لن يكون ممكنًا وقف هذه الاختراقات المغرضة والمضرة، إذا استمرّ أبناء الأمة الواحدة يعيشون حالة التنازع والفرقة وتبادل التهم والدعايات الجارحة. وإذا لم توضع الحدود لهذه النزاعات والصراعات، من خلال بناء وخلق الأطر المناسبة لحلها أو إدارتها بشكل حضاريٍّ راقٍ ومتطور ومتسق مع التطور الذي تشهده دنيا البشر، ومبنيٍّ ومرتكز على قواعد ومبادئ وقيم الدين العليا، التي تكون معيارًا يرتكز عليه في تقييم وتقويم الأمور على أسس تسودها أخلاقيات الاحترام المتبادل، وإلا فإن الجميع سيكون نهبًا لكل من هبّ ودبّ، ووبالًا على هذه الأمة، وكارثة لا يعلم إلا اللّٰه متى نخرج منها، هذا إذا خرجنا منها سالمين.

مسألة الاختلاف والتعدد في مجتمعاتنا لا بد من إدارتها من خلال ضوابط قيمية وعملية، وضمن أطر قانونية ثابتة ومؤسسات وطنية مستقرة، يلتزم بها الجميع، إن لم تكن ملزمة للجميع، تعالج من خلالها كل القضايا المختلف فيها وحولها بروح إيجابية، وذلك لمصلحة الدين والأوطان وكل أبناء هذه الأمة، حتى لا تكون هناك فتنة، ولا تكون مسائل الخلاف البؤرة التي تتفجر منها صراعات الأمة، ومساحة يستغلها أعداؤها، ويلعبون على تناقضاتها، أو تكون مسرحًا تنفلت فيه كل الرغبات والحساسيات غير المنضبطة،

والانتماءات الضيقة المنفلتة من عقالها، والخارجة عن القيم وعلى الضوابط.

والشيخ الصفار دائمًا ما يُذكِّر بأن مسألة الاختلاف والتعدد سنة كونية لا يجب أن نُعقِدها، أو نتعقد منها بل «إن مجتمعاتنا بحاجة ماسة للوعي باحترام الرأي الآخر والاعتراف به، وخاصة في المجال الديني القائم على أساس الاقتناع والاطمئنان حيث ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾»[١]. «والمطلوب من كل فئات الأمة أن يديروا خلافاتهم بالطرق السلمية، على أساس الحق في الاختلاف، واحترام الرأي الآخر، والاستفادة من أسلوب الحوار والتعامل الإيجابي، وتغليب المصلحة العامة على المصالح الفئوية، والتعاون في المساحات المشتركة».[٢]

الاختلاف في المسائل الدينية والقضايا الفقهية أو الاجتهاد في أمور الدين وتباين الآراء فيها والاختلاف حولها، هو أمر معروف ومتداول ومسلم به، حيث يختلف العلماء في آرائهم الفقهية حول مسائل العبادات، وحول بعض مسائل المعاملات، وهو الأمر الذي لا ضير فيه ولا إشكال حوله. إلا أن السؤال هو كيف ينسحب هذا التنوع والتعدد على القضايا العامة، وفي إدارة الشأن العام، وينعكس إيجابيًّا على واقع الحياة، وعلى كافة الصّعد المختلفة من حياتنا، بحيث لا يتحول هذا الاختلاف والتنوع إلى صراعات داخلية سلبية.

إذا كان الاختلاف في المسائل الفقهية التي هي محلّ ابتلاء فردي للإنسان المسلم هو أمر معروف ومتداول، ولا ضير فيه ويعبر عن حالة من الإقرار والقبول به، فإنه من المهم أيضًا أن لا يكون هناك ضير أو مشكلة في مسائل إدارة الشأن العام والاختلاف حولها، بما يتيح لأصحاب المدارس والمشاريع الفكرية والثقافية والسياسية والفقهية المتنوعة الفرصة لكي تمارس حقّها الطبيعي في الاجتهاد والعمل، والمساهمة في تطوير مجتمعاتها والرقي بها.

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول. من حوار مع مجلة «شهر اللّه» السنوية.

(٢) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول. من حوار مع مجلة المواقف البحرينية الأسبوعية.

إلا أن ما يجب التأكيد عليه في حال بروز أي إشكاليات أو تناقضات أو تضارب في الرؤى والمشاريع، أن يعود الجميع للاحتكام إلى أنظمة وقوانين متفق عليها، كما يؤكد الشيخ الصفار، حيث «ينبغي أن تحلّ وأن تعالج بالتأكيد على أخلاقيات الإسلام، وعلى مبادئ الإسلام لاحترام الرأي الآخر، ولاحترام التوجه الآخر، فليس صحيحًا أن تحاول فئة أو تحاول جماعة مرجعية معينة إلغاء حقّ المرجعية الأخرى في أن يكون لها مشروع وفي أن يكون لها رأي، إذا كانت هذه المرجعية ترى أن من حقّها أن تعبّر عن رأيها، وأن تطرح مشروعًا في ساحة الأمة، فهذا يعني أن تعترف بأن للمرجعية الأخرى أيضًا رأيًا.

ويتابع الشيخ الصفار كلامه بالتأكيد على أهمية التكامل، من خلال احترام بعضنا بعضًا، وتقبّل التنوع والتعددية ما دمنا قبلنا بفتح باب الاجتهاد، وما دمنا قد قبلنا بأننا جميعًا ضمن دين واحد، وأساسًا على مستوى الأمة الإسلامية هناك تنوع مذهبي، وإذا كنا نطرح التقارب والتقريب بين المذاهب على اختلافها في المجال العقدي والفقهي، فأحرى بنا أن نصر على الوحدة وعلى التقارب بين أتباع المذهب الواحد، وبين مرجعياته المختلفة في المشاريع وفي التوجهات الفكرية، حالة التنازع والصراع هذه في الواقع حالة مرضية، ناشئة إما من ضيق الأفق، وإما من وجود أغراض نفسية، بأن يكون هناك تحاسد، أو يكون هناك تكالب على مصلحة معينة، وينبغي أن ننشر في المجتمع ثقافة قبول التعددية واحترام الرأي الآخر، والتوحد مع التنوع في إطار مشترك لخدمة القضايا العامة والمشتركة».[١]

لذلك فإن ما ينبغي التأكيد عليه هو أن الاختلاف والتنوع هو من نواميس الحياة وسنن الكون، وأن الاختلاف في الرأي هو جزء من الطبيعة البشرية في هذه الحياة، وأنها ظاهرة صحية وطبيعية ومألوفة، لا ينبغي تسفيهها والحطّ منها، حيث لكل منا أهواؤه ورغباته المختلفة، وتوجّهاته المحددة، ولسنا نماذج مستنسخة من بعض، أو صدى لبعضنا بعضًا، وهو ما يستدعي من الجميع القبول بحرية الرأي والرأي الآخر واحترامه.

---

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني. من حوار مع شبكة المعصومين الأربعة عشر الالكترونية.

من الصعب أن تتحقق هذه القيمة الإنسانية بيننا وتتجسد في سلوكنا، من دون الإقرار بها والتسليم ببداهتها، ومن ثم العمل على تطبيقها في الواقع من خلال فتح المجال وإتاحة الفرص للجميع للعمل وفق قناعاتهم ورؤاهم وتحقيق مصالحهم بالطرق المشروعة، ووفق ضوابط تتيح المجال للجميع على العمل بكل حرية، وبناءً على تكافؤ الفرص المتساوية، وبعيدًا عن كلّ أشكال الوصاية والإلغاء، أو كل ما يؤدي إلى الصّدام والعنف.

الفصل الرابع

إشكاليات التعصب والاستبداد والحرية في التاريخ الإسلامي

أولاً:

العصبية القاتلة

يغلب على الثقافة السائدة في مجتمعانا النظرة السلبية تجاه الآخر، مما يؤثر على سلوكنا تجاهه، ومواقفنا منه، ومعرفتنا الجيدة له، وسواء كان هذا الآخر مختلفًا عنا عرقيًّا أو حضاريًّا أو فكريًّا وثقافيًّا، أو كان آخر ممن يخالفنا الرأي والمواقف والاتجاهات الأيديولوجية والسلوكية، فإن هذه النظرة السلبية دائمًا ما تفتش عن الفروقات والتمايزات مع الآخر، وتؤجّج الاختلافات معه وتبرزها، حيث تؤدي إلى رفض القبول به والتعايش معه، وهو الأمر الذي يجعل الجميع غير قادر على النظر للآخر بحيادية وإنصاف، وتجعله أسيرًا للمواقف العصبوية المسبقة، مهما تغير الزمن وتبدّل الحدث.

يشير الشيخ الصفار إلى أنه مع وضوح رؤية الإسلام في القبول بالآخر، والاعتراف به، والتعايش معه، حتى وإن كان مغايرًا في الدين والمبدأ، ومع شدّة التحديات والأخطار التي تحيط بالأمة الإسلامية في هذا الزمان، ومع أننا نعيش عصر الانفتاح والتقدم العلمي، إلا أن داء التعصب المذهبي المقيت، والذي يشكل خطرًا دائمًا على هذه الأمة، لا يزال ينخر في كيان أمتنا الإسلامية، فيقعد بها عن النهوض، ويكرّس تمزقها وتشرذمها، ويمنعها من التوحّد واجتماع الشمل، حيث تسود أجواء الأمة تشنجات طائفية مذهبية في العديد من البلدان والبقاع، بما يخالف قول رسول اللّه ﷺ: **(من كان في قلبه حبة من خردل من عصبية، بعثه اللّه يوم القيامة مع أعراب الجاهلية)**، **(ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية)**.

هناك مناطق عديدة من العالم الإسلامي، يعيش أبناؤها تنوعًا مذهبيًا، لكنهم مع الأسف الشديد يعجزون عن التعايش والتعاون والانسجام فيما بينهم، وهم أبناء دين واحد، ووطن واحد، وقومية واحدة، فيقع بينهم الصراع والتنافر، وتحدث حالات من الاضطهاد المذهبي، والتمييز الطائفي، مما يدفع الشيخ الصفار للتساؤل هل الاختلاف في المذهب مبرر للصراع والتنافر، على الرغم من المشتركات الواسعة بين المذاهب الإسلامية، والاتفاق في أصول واحدة مشتركة؟

الموقف من التنوع

حينما يكون الانتماء المذهبي للمواطنين المسلمين متنوعًا، فإن أمامهم أحد **خيارات ثلاثة**، للتعاطي مع هذا التنوع والتعدد، كما يقول الشيخ الصفار، مشيرًا إلى أن **الخيار الأول** يتمثل في محاولة **الفرض والإلزام**، من خلال سعي أتباع كل مذهب لفرض مذهبهم على الآخرين، وإلزامهم بأخذه والتعبد به؛ لأن أتباع كل مذهب يعتقدون بأحقية مذهبهم، ويرون أنفسهم مكلفين بنشره وتطبيقه.

إلا أن هذا الخيار كما يوضح الشيخ الصفار يواجه إشكالًا من الناحية الشرعية؛ لأن المعتقد، وطريقة التعبد، لا يصح فرضها بالإكراه، حيث لا إكراه في الدين، بل يجب أن يكون عن قناعة، واندفاع ذاتي، كما أن الشرع لا يجيز للمسلم أن يفرض على الآخرين ما لا يعتقدونه، ويؤمنون به، فاللّه تعالى لم يعط لنبيه ﷺ هذا الحق، وإنما قال له: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ**﴾، ﴿**أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ .

ومن الناحية العملية، فإن كل تجارب فرض الأفكار والمعتقدات، هي تجارب فاشلة، حيث يتمسك الناس بأديانهم ومذاهبهم أكثر في حالة التحدي والمواجهة، وواقع الشعوب الإسلامية في البلدان التي كانت تهيمن عليها الشيوعية أوضح شاهد على ذلك، كما إن مثل هذه المحاولات حصلت في بعض فترات تاريخنا، عندما حاولت بعض الجهات فرض رأيها أو مذهبها على الآخرين كونها تمثل الأكثرية، أو تمتلك القدرة والقوة، إلا أن تأثير تلك المحاولات كان وقتيًا ومحدودًا.

أما **الخيار الثاني**: فهو حالة **العداء والصراع**، حيث يتحصّن أتباع كل مذهب في خندق مذهبهم، ويعبئون أفرادهم تجاه المذهب الآخر، وتسود حالة التشنج والعداء، ويكون هناك قطيعة وتنافر، وتقوم الجهة المقتدرة باضطهاد الجهة الأخرى، التي ستعمل بدورها للدفاع عن نفسها، وللانتقام من الطرف الآخر، وبذلك يدخل المجتمع في نفق الصراع الداخلي، الذي قد ينتهي إلى حرب أهلية، حيث يخسر الجميع، وتكون الفرصة مؤاتية للأعداء، أعداء الإسلام، وأعداء البلاد، لينفذوا من خلال هذا الصراع مخططاتهم ومؤامراتهم.

أما **الخيار الثالث** الذي يتحدث عنه الشيخ الصفار فهو **التعايش**، حيث يعترف كل طرف للآخر بحقّه في التمسك بقناعاته ومعتقداته، وممارسة شعائره الدينية، والعمل وفق اجتهاداته المذهبية، ويتعامل الجميع فيما بينهم مواطنين متساويين في الحقوق والواجبات، متعاونين لتحقيق المصلحة العامة ومواجهة الأخطار المشتركة، وهو ما يأمر به الإسلام، وتدعو إليه تعاليمه السمحاء، وهو منهج أئمة الإسلام، وأعلام المسلمين الواعين المخلصين، وهو أيضًا ما يدعو إليه العقل والمنطق السليم، وتفرضه طبيعة الاشتراك في ظروف حياتية واحدة، وضمن وطن واحد، وكما يقول الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام: **(صلاح شأن الناس التعايش)**.[١]

احتكار الحقيقة

في ظلّ حالة التنوع والتعدد الذي يتكون منه واقع هذه الأمة التاريخي، هناك من الناس من لا يزال يمارس إرهابًا فكريًّا باسم حماية العقيدة والدين، وخيارهم الأوحد هو في فرض عقيدتهم على الآخرين، مُدّعين احتكار الحقيقة، بعيدًا عن الأدلة والبراهين، فيشككون في دين الآخر، ويصدرون فتاوى التكفير والتبديع والتضليل ضده، ويصادرون حقه في التعبير عن رأيه، ويجيزون لأنفسهم اتهامه بمختلف التهم، وإهدار حقوقه، وهتك حرماته، بعيدًا عن أي وازع ديني وأخلاقي.

(١) من كتاب التنوع والتعايش. ص ١٥١

إن على هؤلاء الناس التأمل ومراجعة ضمائرهم، وإعادة النظر في مواقفهم وأطروحاتهم المتشددة تجاه الآخر، فالواقع الخارجي الذي نعيش، كما الظروف المحيطة بنا اليوم، والمليئة بالتحديات والأخطار، لا تسمح بالمزيد من التشرذم والتفرقة، حيث الطائفية البغيضة تعصف بالمنطقة، والمؤامرات الخارجية تهدد شعوب هذه الأمة، وهو ما يحتم علينا تقبل بعضنا البعض بكل رحابة صدر، والتعايش فيما بيننا بكل أريحية، وإذا كنا مقتنعين بأن ما نعتقده هو الحقيقة، فإن الدعوة إليها لن تكون مجدية إلا بالحوار والحكمة والموعظة الحسنة، بعيدا عن أساليب الإكراه والقمع، وبعيدًا عن اتهام نيّات الآخرين، أو التشكيك في دينهم.

وإذا لم تَسُدِ الحكمة بين الأطراف المختلفة والمتباينة، وتُكرِّس ثقافة الحوار، وتعتمدها لغة في التخاطب والتفاهم فيما بينها عند الاختلاف والتنافس، وإلا فإن البديل عن ذلك هو أحد **خيارين اثنين** كما يحذّر الشيخ الصفار: فإما **هيمنة إرادة معينة وخضوع الآخرين لقوتها**، لكن مع شعور بالغبن، وتحفز للانتقام والثأر، مما يجعل العلاقة بين الطرفين قلقة حذرة، تنعدم في ظلها فرص التعاون والبناء، والانسجام الوثيق، وإما **سيادة ثقافة التناحر والتغالب**، التي تكرّس انغلاق كل طرف على ذاته، واهتمامه بالتحشيد والتعبئة ضد الآخر، حتى تجد الأطراف نفسها في مأزق حرب ونزاع قد يصعب عليها الخروج منه.

إنه لمما لا شك فيه أن التفاوض والحوار هو الخيار الصحيح، والبديل الأفضل؛ لأنه يعني اعتراف الأطراف ببعضها، ورغبتها في الوصول إلى توافق مشترك، يتيح لها فرصة التعارف المباشر، وتحديد نقاط الاتفاق ومواقع الاختلاف، فالحوار اليوم هو سمة الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمعات المتقدمة، إلا أن حضوره ودوره في مجتمعاتنا لا يزال محدودًا باهتًا، حيث دفعنا، ولا نزال، ثمنًا باهظًا لغياب الحوار الفاعل عن أجوائنا، يتمثل في الحروب بين الدول والحكومات، وفي الاضطرابات السياسية والأمنية الداخلية، وفي الصراعات القومية، والفتن الطائفية، والنزاعات الفئوية.[١]

---

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ٤٣

ثانياً:

تاريخية الاستبداد والتعصب

من الضروري الاعتراف بأن هذه الحياة مليئة بالأديان والعقائد والمذاهب والملل والنحل التي لا تعدّ ولا تحصى، متنوعة ومتعددة الأشكال والأنواع، كما يجب الاعتراف أن الناس في هذه الدنيا لهم أفكار تستند أو ترجع إلى مثل خلفيات كهذه ومرجعيات دينية وعقدية ومذهبية، وهم يعتقدون بصحتها وصلابتها ورسوخها. وما نعتقده وندعيه نحن من صحة مطلقة في أفكارنا، يعتقده الآخرون أيضًا في أفكارهم، كما لا يعني ذلك أن أفكار الآخرين لا تملك شيئًا من الصحة، أو لا تتضمن بعض العناصر الصحيحة.

وكما يقول الشيخ الصفار، إنه لمن الطبيعي أن يسعى أصحاب كل دين أو مذهب إلى نشر دينهم والتبشير بعقيدتهم ليغطي أكبر مساحة ممكنة من أبناء البشر، فما داموا يعتقدون الصواب والحقّ في دينهم، فسيكونون مندفعين لدعوة الناس إليه، كما أن وفاء وإخلاص كل شخص لدينه يجعله متحمسًا للتبشير به؛ ولأن الدين يصبح جزءًا مهمًّا من ذاتية الإنسان وشخصيته، فأيّ تقدم أو مكسب للدين، يعتبره الإنسان تقدّمًا ومكسبًا ذاتيًا وشخصيًا.

إلا أن السؤال المهم الذي يثيره الشيخ الصفار ويطرحه ضمن سياق هذه الفكرة، هو: كيف تكون الدعوة إلى هذا الدين؟ وكيف ينجح الإنسان في إدخال أكبر عدد من الناس إلى حظيرة الدين الذي يؤمن به؟

إن الطريق الصحيح والمشروع في الدعوة إلى الدين والتبشير به، كما يرى الشيخ الصفار، يكون من خلال محاولة إقناع الآخرين والتأثير على نفوسهم باتجاه الدين، إلا أن

المشكلة التي يضع الشيخ الصفار الإصبع عليها، هي أن البعض يستخدم القوة والعنف لفرض الدين أو المذهب الذي يؤمن به على الآخرين، وهذا ناتج عن الجهل أو روح التسلط والظلم.

لقد عانت البشرية على مرّ تاريخها من الظلم والقمع والإرهاب والتنكيل ومحاكم التفتيش، وتحملت المصائب والمآسي في حروب وصراعات دامية تحت شعارات دينية وفكرية، من أجل فرض وإكراه الناس على دين معيّن، وإجبارهم غصبًا على اعتناقه، تحت تأثير واستخدام وسائل القمع والقهر والتهديد والضغط، إلا أن الحقيقة التي يجب أن تقال، وعلى الجميع أن يعرفها، هي أن من يفرض دينه على الناس بالقوة والقهر، إنما يعترف بفشل عقيدته وعجزها عن استقطاب الناس وإقناعهم، أو أنه يستغل الدين ستارًا وغطاءً لعدوانه وتسلطه على الناس.(١)

لا إكراه في الدين

إذا كان من الطبيعي والمشروع أن يندفع الإنسان ويجتهد للانتصار للرأي الذي يؤمن به ويتبنّاه، وأن يسعى إلى نشره وتعميمه، فإنه من الطبيعي أيضًا أن يسعى ويهتم بإضعاف الرأي الآخر وتفنيده، وهو أمر مقبول ولا ضير فيه، كونه يساهم في خلق حراك فكري في المجتمع البشري، عبر حالة التنافس، واستثارة العقول، وكشف ثغرات الآراء، فعندما لا يهتم أصحاب الآراء بطرح أفكارهم والدفاع عنها تسود حالة الركود الفكري، والجمود المعرفي، إلا أن السؤال كيف يتم الانتصار للرأي الذي نتبنّاه؟

يقول الشيخ الصفار: إن هناك نهجين في الانتصار للرأي: **الأول** هو **نهج العنف والقمع لأصحاب الرأي الآخر**، بمحاصرتهم والتضييق عليهم، والتنكيل بهم، ليتراجعوا عن آرائهم، ولمنع انتشارها في المجتمع. أما النهج **الثاني** فهو **نهج المواجهة الفكرية**، بالاجتهاد في تبيين الرأي وإثبات صحته وأحقيته بالدليل العلمي والبرهان المنطقي، ونقد

---

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ٥٨

الرأي الآخر بكشف نقاط ضعفه، ومكامن الخطأ فيه، وإبطال حججه ومستنداته.

إنه لمن المؤكد أن استخدام العنف ضد الرأي الآخر هو نهج خاطئ فاشل، ففيه مصادرة لحرية الإنسان في أعمق دوائرها، وانتهاك لأقدس حقوقه وأهمها، كما أن تجارب التاريخ قد أثبتت فشل أسلوب العنف في القضاء على الفكر وإنهاء الرأي، فهو الأسلوب الذي عادة ما يستخدمه الجبابرة الظلمة، عندما يمارسون العنف والقمع ضد أصحاب الرأي الآخر، حين يكون فيه مساس بمصالح سلطتهم، أو لأنهم يريدون التظاهر بحماية الدين، أو لمجرد فرض هيبتهم وتسلطهم وإرعاب الناس.

يشعر الشيخ الصفار بالأسف لأن كثيرًا من الحكام في تاريخ الأمة الإسلامية قد سلكوا هذا النهج، ليس فقط ضد أصحاب الرأي السياسي المعارض، وإنما ضد الآراء الدينية والفكرية، تارة بعنوان الحرب على الزندقة والإلحاد، وأخرى بعنوان التصدي للبدع والأفكار المنحرفة في الساحة الدينية.

وفي كل الأحوال، فإن الطريق المشروع، والنهج الصحيح، لنشر أي فكرة ومبدأ، هو عرضها بأحسن بيان، والدعوة إليها بالمنطق والبرهان، والجدال عنها بأفضل أساليب التخاطب مع العقول والنفوس، وذلك هو النهج الإلهي الذي قرره القرآن الكريم، بقوله تعالى: ﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾. كما أن مواجهة الأفكار الباطلة، والآراء الخاطئة، يكون بنقدها ومناقشتها، وتسليط الأضواء على مكامن انحرافها، ونقاط ضعفها.

إن الرسالات الإلهية تتعامل مع الإنسان باعتباره كائنًا عاقلًا مريدًا، ولذلك تحترم عقله وتتخاطب معه، وتراهن على الثقة به وحسن اختياره، كما أنها ترفض أساليب الهيمنة وممارسة الوصاية الفكرية، بما تعني من تجاهل لدور العقل، ومصادرة لحرية الإنسان، فالتخاطب مع العقل لا يكون بلغة العنف والقمع، وإنما بمنطق الحجة والبرهان: ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ**﴾، ﴿**قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا**﴾، ﴿**لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ**

وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾، ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾.(١)

يشير الشيخ الصفار إلى أن تراثنا الإسلامي حفل بالكثير من المفاهيم والتعاليم المرتبطة بأساليب الحوار وطرقه الصحيحة، ذلك أن الإسلام إنما شقّ طريقه إلى الناس عبر الحوار، حيث لم يكن رسول اللّه ﷺ يمتلك في مكة عند بداية الدعوة قوة ولا ثروة ولا منصبًا، وكانت الأجواء العامة رافضة لدعوته، لكنه استطاع بقوة منطقه، وثبات حجته، وعبر أسلوب الحوار الناجح أن يقنع الآخرين، ويستقطبهم إلى جانب الدين الجديد.

ولم يرتضِ الإسلام القوة والفرض وسيلة لإدخال الناس في الدين، ذلك أنه ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾، بل اعتمد منهجية الدعوة بالمنطق والحوار الهادئ، حيث يقول تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾، فالجدال بالتي هي أحسن، يعني النقاش والحوار بأفضل أسلوب، والقرآن الكريم ينهي عن مناظرة الآخرين والحوار معهم إلّا بأفضل الطرق والأساليب، يقول تعالى: ﴿**وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾.(٢)

لن يكون ممكنًا تجاوز ما تعيشه أمتنا وتعانيه من ظلم وقمع وقلق واضطراب وفشل، إلا بالاعتراف بوجود تنوع وتعدّد فيها، والاعتراف بوجود آخرين مختلفين ينتمون إلى عقائد وفئات وتيارات وقوى مختلفة يعيشون معها وبينها، حيث لكل منهم أفكاره المختلفة عن الأخرى، إلا أنهم في مجموعهم يُكوِّنون مجتمعًا واحدًا. وهذا الاعتراف عندما يتحقق سيخفّف من غلواء وحِدّة التنازع والخصام والتشنج والتعصب والعداء بين الناس في أي مجتمع، ويشكّل مدخلًا إلى التعايش والانسجام والتلاقي والاعتراف المتبادل فيما بينهم. وتنظيم هذا الإخلاف والتنافس الحرّ حول الأفكار المختلفة، والاختلاف حولها بشكل حرٍّ وإيجابي وخلّاق من أجل خير الإنسان ورقيه، سيؤدي إلى شيوع حالة الاستقرار في المجتمع، ويطور مستوى الأفكار فيه، ويحسن مستوى حياة الناس، بعيدًا عن هوس

---

(١) من كتاب الأحادية الفكرية. ص ٢٣

(٢) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ٤٥

التعصب والتصادم والإلغاء والتشنج والتزمت والاستبداد بكافّة أشكاله.

على أن الاستقرار المتحقق من قمع كل مكونات المجتمع المتصارعة في عالم اليوم المعقد والمتداخل، هو استقرار موهوم ومؤقت، كما يقول خالد الحروب، «ذلك أن حقيقة ما يتم لا تتجاوز دفن الخلافات وأسباب الصراع تحت السطح وتأجيل انفجارها. ولا يعمل الاستبداد خلال حقب الاستقرار التي يحققها على إبطال مفاعيل الصراعات بين الجماعات المتنافسة في المجتمع، بل يشتغل في الغالب الأعمّ على الحفاظ عليها، وأحيانًا تأجيجها؛ لأن وجودها يبرر شرعية بقاء الاستبداد ذاته. وأحيانًا كثيرة أخرى يتحالف الاستبداد مع جماعة، أو طائفة، أو عصبية، تكون هي العمود الفقري الذي يستند إليه مستعديًا بقية مكونات المجتمع مستأثرًا بالحكم من ناحية ومانحًا المزايا والأفضلية للجماعة المُتحالف معها. وهكذا فإن العلاقات بين المكونات المتنافسة في مجتمع الاستبداد تقوم على العداء المبطن والتربص الدائم المقموع بآلية الضغط التي يفرضها الحكم. وهي بهذا تكون علاقات هشة قائمة على انتظار الانفجار القادم».[١]

التاريخ بين الواقع والمثال

لا يغفل الشيخ الصفار عن الإشارة إلى أنه كانت هناك بعض الومضات المشرقة في تاريخنا الإسلامي، حين التزم المجتمع بقيم الإسلام، وبتطبيق تعاليمه وآدابه، فسادت حينها حالة الانسجام والتعاون والتعايش بين التوجهات والانتماءات المختلفة عرقيًا أو دينيًا أو مذهبيا، إلا أنه من المؤسف أن هناك أيضًا وجهًا آخر مخالف لهذه الصورة في تاريخ هذه الأمة يثير الألم والحسرة، لما عكسه من حالات تعصب وعداء، كانت نتيجته إزهاق الكثير من النفوس والأرواح، وهتك الحرمات، وتضييع الحقوق، بسبب رفض حالة التنوع، ومحاولة فرض هيمنة معينة، كانت ترافقها في كثير من الأحيان أفكار وأطروحات تبريرية خاطئة.

---

(١) الحرية والاستبداد ورهان الاستقرار. خالد الحروب، جريدة الاتحاد الإماراتية، ٢٥/ ٧/ ٢٠١١م.

فقد عانى غير المسلمين شيئًا من الظلم في بعض الحالات والفترات في التاريخ الإسلامي، كما وقع الاضطهاد على الموالي ـ غير العرب ـ من قبل بعض الحاكمين المسلمين، وكان اختلاف الرأي والمذهب، سببًا لمآسي واعتداءات فظيعة داخل المجتمع الإسلامي.

ويؤكد الشيخ الصفار أنه لا يمكن لأحد الادّعاء بأن تاريخنا وتراثنا، كانا متطابقين كليًّا مع رؤية الإسلام، ومنهج التعايش الإنساني، فإلى جانب تلك اللقطات المشرقة، المنسجمة مع روح الإسلام ومنهجه، كانت هنا ممارسات عدوانية مؤلمة، تناقض سماحة الإسلام وعدله، حيث ما كانت لتحصل لولا ابتعاد المجتمع عن منهج اللَّه، فتتسلط جهة ظالمة، أو تبرز قوى جاهلة أو مغرضة، تنشر البغضاء والفتن بين الناس.

أما في الزمن المعاصر فإن ما يشهده العالم الثالث اليوم من حروب وأزمات، وما تعانيه الشعوب النامية من تخلف ومشاكل، يرجع في الغالب، إلى أجواء التنازع السائدة بين الانتماءات والتوجهات المختلفة، وعدم الوصول إلى النظام الاجتماعي العادل، القائم على الاعتراف بالآخر، والقبول به، والتعايش معه، ومشاركته في بناء الحياة الحرة الكريمة. ومن واجب النخبة العالِمة ومن مهامها الأساس في هذا الزمن الموبوء بالفتن، هي استجلاء قيم الإسلام الحقيقية، والاستفادة من الجانب التطبيقي الإيجابي في تراثنا وتاريخنا، حتى نتمكن من إصلاح واقعنا، ومواجهة التحديات الخطيرة التي تواجه مجتمعاتنا.[١]

صور الماضي في تفكير النخبة

يعوّل الشيخ الصفار دائمًا على دور النخبة في تجاوز مشكلات الحاضر وبناء المستقبل، من خلال استجلاء قيم الدين واستلهام معانيها وتجسيد تجلياتها، إلا أن المشكلة التي يجب أن تقال هنا، هي أن عودة هذه النخبة إلى التراث والتاريخ لا تتم في الغالب إلا من أجل إبراز خلافات الماضي ومشكلاته، حيث أصبح الماضي وصراعاته الشغل الشاغل لهذه النخبة، وهمّها الذي ما بعده همّ، فالحديث عن الماضي والنقاش فيه هو المهيمن على جلّ

(١) من كتاب التنوع والتعايش. ص ١٤٨

أوقاتها، كما أن التأليف فيه والكتابة عنه يحتلّ مساحه واسعة من نتاجها الفكري والثقافي، إلى الحدّ الذي أثقل كاهل الفرد في مجتمعاتنا، وكتم أنفاسه، وحمّله أثقالا وأعباء ينوء بحملها، ويصعب عليه تحملها .

إن هذا الماضي الذي نشير إليه هو عند البعض تاريخ القوة والأمجاد والانتصارات والفخر والعطاء، والمثال الذي يحتذى، والحلم الذي يريد إعادته وتكراره، وهو عند البعض الآخر تاريخ وماضي الظلم والجور والاستبداد والحقّ الضائع، كما أنه عند فئة ثالثة يشكل تاريخ بائد، وماضٍ لا يعود، ولا علاقة لها به، ويجب القطيعة معه وتجاوزه.

مشكلتنا اليوم أن هناك من بيننا من يهرب إلى الماضي ويعيش فيه لعدم قدرته على مواجهة استحقاقات الحاضر وشروط التعايش معه، أو تبريرًا لعجزه عن المساهمة في إنتاج حضارة بديله، أو الاندماج بشكل إيجابي في الحضارة المعاصرة، فيدعي أسبقيته وفضله عليها، فيعوض تأخره وعدم قدرته على مجاراة الآخر باستعادة تاريخ الماضين وإنجازات الأولين.

الفجوة بين تاريخ المسلمين وجوهر الدين

في ظلّ تعدد صور الماضي في ثقافة أجيال الحاضر، يدعو الشيخ الصفار إلى الفصل بين الإسلام كقيم وتعاليم، والإسلام كتاريخ، مشيرًا إلى أن الباحث الموضوعي في قيم الإسلام وتعاليمه وآدابه، يستطيع أن يفصل بين الواقع التاريخي السيئ للمسلمين، وبين حقيقة مفاهيم الإسلام وتشريعاته، التي تدعو إلى الالتزام بقيم العدالة والحرية وحقوق الإنسان، «وإذا كنا كمسلمين نفخر بريادة قرآننا الكريم في إعلان حقوق الإنسان، وبنموذجية الممارسة السياسية والاجتماعية الملتزمة بحقوق الإنسان في العهد النبوي الشريف، فإننا يجب أن نشعر بالأسف والأسى لتخلف معظم واقعنا التاريخي والحاضر عن مستوى الالتزام بحقوق الإنسان.

ذلك لأن تاريخنا الإسلامي السياسي في معظمه، وكذلك حاضرنا، قد ابتلي بداء

الاستبداد، فانعدمت فيه المشاركة السياسية للأمة، وتقلصت الحريات العامة، وسادت لغة القمع، وتلاشت قيمة الإنسان، وأهدرت حقوقه، حيث انعكس هذا الواقع السيئ على الجانب الثقافي المعرفي، وتمّ تجاهل وتغييب ما صدع به القرآن من إعلان حقوق الإنسان، وما ورد في السيرة النبوية، وجرى تأويل كل ذلك وتفسيره بما يمنع تفعيله في واقع الحياة، ليبقى مجرد آيات كريمة تتلى لطلب الثواب، وسيرة شريفة تحكى للتبرك والفخر.

لقد تشكلت للأمة ثقافة بديلة تبرر التخلف والاستئثار بالسلطة، وتشرّع القمع ومصادرة الحريات، وتبارك إهدار حقوق الإنسان، وتخلق حالة من الممانعة للإصلاح والتغيير في أوساط الأمة باسم الدين، فكان أن تأثر الفقه الإسلامي بهذا الواقع المتخلف، فتوسعت وتضخمت فيه أبواب العبادات، بينما تقلصت وتضاءلت أبواب السياسات، وما يرتبط بإدارة الشأن العام للأمة، فألغى معظم الفقهاء أبواب السياسات من دراستهم وبحوثهم الفقهية، حتى لا يصطدموا بواقع الاستبداد السياسي، واختاروا الابتعاد والانكفاء عما يرتبط بالشأن العام، حتى على المستوى المعرفي، والبحث العلمي الفقهي، وخضع البعض الآخر من الفقهاء لواقع الحال السياسي، وتشكلت آراؤهم في الفقه السياسي على أساسه، وربما كان ذلك من بعضهم استجابة للترغيب أو الترهيب.

إن من يقرأ كتب الأحكام السلطانية، ومباحث السياسات في الكتب التي تناولتها، كما يكشف الشيخ الصفار، تصدمه فتاوى وآراء واضحة التباين مع مفاهيم القرآن، وتطبيقات السنة النبوية، ومبادئ حقوق الإنسان، فيمكن، على سبيل المثال، لخمسة أفراد أن يصادروا إرادة الأمة كلها، فيبايعون أحدهم ليكون إمامًا للأمة، وتنعقد إمامته، ويصبح حاكمًا شرعيًا تلزم طاعته، وبهذا أفتى طائفة من الفقهاء، بينما أفتى آخرون بكفاية اتفاق ثلاثة أشخاص على تقرير مصير الأمة بدلًا عن الأمة كلها.

ويضيف الشيخ الصفار شارحًا أن الماوردي نقل في الأحكام السلطانية قوله: **(وقالت طائفة أخرى: أقل من تنعقد به منهم الإمامة خمسة يجتمعون على عقدها، أو يعقدها أحدهم برضا الأربعة، وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين من أهل البصرة. وقال آخرون من علماء**

الكوفة: تنعقد بثلاثة يتولاها أحدهم برضا الاثنين، ليكونوا حاكمًا وشاهدين، كما يصح عقد النكاح بوليٍّ وشاهدين. وقالت طائفة أخرى: تنعقد بواحد).

وأبعد من ذلك، يتحدث الشيخ الصفار أن هناك رأيًا فقهيًّا بشرعية اغتصاب السلطة بالقوة، كما ينقل القاضي أبو يعلي الحنبلي في الأحكام السلطانية، مسندًا هذا الرأي للإمام أحمد بن حنبل في أحد النقلين عنه قال: (**وقد روي عن الإمام أحمد ـ رحمه اللّٰه ـ ألفاظ تقتضي إسقاط اعتبار العدالة والعلم والفضل (في الخليفة)، فقال في رواية عبدوس بن مالك القطان: (ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين لا يحلّ لأحد يؤمن باللّٰه واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إمامًا عليه، برًا كان أو فاجرًا، فهو أمير المؤمنين)**، وقال أيضًا في رواية المروزي: **(فإذا كان أميرًا يُعرف بشرب المسكر والغلول يغزو معه إنما ذاك له في نفسه)**... وقد روي عنه ما يعارض هذا).[١]

إن الخلاصة التي يمكن إجمالها من قول الشيخ الصفار، حول هذه الإشكالية، هي افتراضه أن مجمل مسائل الفقه الإسلامي تستهدف حماية الحقوق بين الناس وإقامة العدل، ورفض الظلم والجور، إلا أن هناك تفاوتًا واضحًا وبونًا شاسعًا بين مستوى الاهتمام القرآني بحقوق الإنسان، وبين موقعيتها في الفقه الإسلامي، ذلك لأن نتاج العملية الاجتهادية للفقهاء، كان في الغالب محكومًا بالبيئة السياسية والثقافية السائدة في مجتمعات الأمة، تلك البيئة الخاضعة لواقع الاستبداد والتخلف.[٢]

الاستبداد في الواقع لم يكن حالة طارئة في مجتمعاتنا، بل هو أمر تاريخي مزمن، فمن أجل الهيمنة على مقاليد الأمور والحكم، وتحقيق الاستمرارية في السلطة، والبقاء على رأس الهرم فيها، عملت أنظمة الاستبداد طوال التاريخ على الاغتناء بتنظيرات وتسويغات وتفسيرات وتأويلات، دينية وغير دينية، تتلمس لها الأعذار والمبررات التي تضمن لها البقاء والاستمرار، ويبرر لها التغول في الحياة العامة، والاستيلاء على مصادر

---

(١) من كتاب موقعية حقوق الإنسان في الفقه الإسلامي. ص ١٣

(٢) من كتاب موقعية حقوق الإنسان في الفقه الإسلامي. ص ٢١ ـ الطبعة الأولى ٢٠١٠، مكتب الشيخ حسن الصفار، القطيف.

القوة، والاستئثار بالثروة، ويبيح لها استعمال القوة والقمع والفرض، ويشرِّع لها ارتكاب التجاوزات ومصادرة الحريات، وكل ذلك من أجل ضبط مجتمعاتها وضمان عدم خروجها عن السيطرة، حتى وإن كان ذلك على حساب القيم والمبادئ والتشريعات الدينية وحقوق الشعب وحرياته.

نقد الاجتهاد الديني

يتحدث الشيخ الصفار عن أثر البيئة الاجتماعية في العملية الاجتهادية، وانعكاساتها على ذهنية الفقيه وطريقة تفكيره، لافتًا إلى أنه من المعلوم أن الفقه الإسلامي هو الفتاوى والآراء، التي تحدد الأحكام الشرعية الفرعية لأبناء الأمة، والتي يستنبطها الفقهاء من الأدلة التفصيلية، ومع أن الكتاب والسنة هما المرجع الأساس للفقهاء في استنباط الأحكام الشرعية، يليهما الإجماع والعقل عند الشيعة، ويقابل العقل القياس عند السنة، إلا أن عملية الاستنباط تتأثر إلى حدٍّ كبير بذهنية الفقيه وظروف بيئته. صحيح أن العمل الاجتهادي نشاط علمي له قواعده وأدواته، لكن المجتهد الذي يؤدي العمل الاجتهادي إنسان له خلفيته الفكرية ومشاعره الاجتماعية، وليس جهازًا آليًا.

ويشدّد الشيخ الصفار على أن نقد الفقه الإسلامي ليس نقدًا للشريعة وللدين ذاته، وإنما هو نقد لما استنبطه وفهمه هذا الفقيه أو ذاك من المصادر الدينية، فالشرع المقطوع به من قبل اللّه تعالى كاملٌ حقٌّ لا يصح التردد في قبوله، أو توجيه النقد إليه، لكن ما يفهمه ويستنبطه الفقيه من الشرع، هو جهد بشري محتمل للصواب والخطأ.

لذلك يختلف الفقهاء فيما بينهم في أصول الاستنباط ومبانيه، كما يختلفون في الآراء والفتاوى الفقهية، وديدن الفقهاء نقدهم لبعضهم بعضًا في مسائل الاختلاف، وهي أكثرية مسائل الفقه؛ لأن المتفق عليه والمقطوع به لا تزيد نسبته على خمسة في المائة من مجموع مسائل الفقه.

إن للنقد دوره الكبير في إثراء علم الفقه وأصوله، كما يؤكد الشيخ الصفار، إلا أن

ذلك لا يعني التقليل من عظمة هذا العلم الأصيل، ولا الاستهانة بالجهود الكبيرة التي بذلها الفقهاء في تحقيق أبحاثه ومسائله؛ لأن من يطلع على كنوز الفقه ويقرأ عن إخلاص الفقهاء وصرف أعمارهم وحياتهم في مدارسة العلم وغمار البحث، يدرك قيمة تلك الجهود الجبارة العظيمة.(١)

في نقد تاريخ الاستبداد

إذا كان للنقد دوره وقيمته المعتبرة في عمليات البحث العلمي، إلا أن التحسّس من نقد الذات، حالة مرضية سلبية، تنتج عن غرور زائف، أو شعور بالضعف يجري التستر عليه، وتؤدي هذه الحال إلى تبرئة الذات وتزكيتها، وتكريس الأخطاء والثغرات، وتفويت فرص معالجتها وتجاوزها. وكما يصيب هذا المرض الذات الفردية فإنه أيضًا يصيب الذات الجماعية، عندما تتحسّس الأمة من نقد ذاتها وأوضاعها الراهنة، أو نقد تراثها وتاريخها.

إن الأصالة والحرص على هويّة الأمة وتقدير تاريخها وإنجازاتها الحضارية، لا يعني تجاهل الأخطاء والثغرات ونقاط الضعف، فتاريخ الأمة لا يتلخص في تاريخ سلطاتها السياسية، حتى يكون النقد لتلك السلطات اتهامًا جماعيًّا بحقّ الأمة، ففي تاريخ الأمة أئمة هدى وعلماء وفقهاء ومفكرون وأدباء، قدموا للبشرية إنجازات حضارية عظيمة، أما على صعيد الممارسة السياسية، فلا يسع المنصف إلا أن يعترف بأن في تاريخ الأمة مساحة واسعة من الاستبداد.

وتأكيدًا على ما ساد تاريخ الأمة من ممارسات استبدادية، واتصاف المساحة الأوسع من تاريخ المسلمين بسمة الاستبداد، ينقل الشيخ الصفار عن المفكر البحريني الدكتور محمد جابر الأنصاري في كتابه **العرب والسياسة أين الخلل؟** قوله إنه: (على الرغم من التألق الروحي والعقلي والعمراني للحضارة العربية الإسلامية، فإن تاريخها السياسي ظلّ أضعف عناصرها على الإطلاق وأشدّها عتمة، فهي حضارة جميلة ورائعة لكنها تعاني

(١) من كتاب موقعية حقوق الإنسان في الفقه الإسلامي. ص ١٧

من (فقر دم سياسي)، ومن (أنيميا سياسية) من حيث الواقع العملي على صعيد التطبيق والنظم والممارسة، وإلى يومنا هذا تبدو الأمة العربية، بملايينها البشرية والمادية، وبامتدادها القارّي، وبكل طاقاتها الهائلة المعطلة، جسمًا عملاقًا برأس سياسي ضئيل في منتهى الصفر). وينقل الدكتور الأنصاري في بحثه شهادات كثيرة قديمة جديدة لأعلام من علماء الأمة ومفكريها تشير إلى بؤس السياسة في الوجدان العربي، بسبب الواقع السياسي الأليم الذي عاشته الأمة في أكثر عهود تاريخها.

فالدولة الأموية التي استمرت حوالي قرن من الزمن، والدولة العباسية التي دامت أكثر من خمسة قرون، ثم الدولة العثمانية التي دامت أكثر من أربعة قرون، هذه الدول، مثلًا، لو قرأنا سيرها في التعامل الداخلي مع الأمة، لرأينا بوضوح وبما لا يقبل الدفاع والتبرير أن المساحة الأوسع من تاريخ هذه الدول تتسم بالاستبداد والظلم. وهناك بعض الفرج الزمنية المحدودة، التي تختلف بطبيعة الحال عن هذا الوصف، كالسنتين اللتين حكم فيهما عمر بن عبد العزيز، أو بسبب وجود ظروف سياسية تلجئ الحاكم للتخفيف من ضغطه وقمعه، لكنها حالات مؤقتة على كل حال.

ويوضح الشيخ الصفار أن فقهاء الأمة ومفكريها وعلماءها عانوا كثيرًا من سياسات الاستبداد، التي صادرت حرياتهم حتى في المجال العلمي والفكري، فضلًا عن الجانب السياسي، وما محنة القول بقدم القرآن أو حدوثه، أو ما عرف بـمحنة خلق القرآن إلا نموذج من تلك النماذج.

لذلك نحن بحاجة إلى شجاعة أدبية وجرأة موضوعية لتشخيص مواقع الخطأ، كما هو حالنا عندما نشيد بمواقع القوة ونفخر بها في تاريخنا المجيد، ولا يعني ذلك أن نستغرق في مشاكل التاريخ الماضي، ولا أن ننشغل بالخلاف حول أحداثها، ولا أن نمعن في جلد الذات، ولكن تقديس الذات وتبرئتها وتمجيد كل ما سلف وسبق هو حالة سلبية خاطئة.

ويدعو الشيخ الصفار إلى ضرورة الفصل بين واقع الاستبداد في تاريخ الأمة، وطبيعة

تعاليم الإسلام وإنسانية قيمه وتشريعاته، وأن أعلام الأمة الصالحين من الفقهاء والمفكرين كانوا مخالفين لمسيرة الظلم، بل كانوا ضحايا لها في غالب الأحيان، وعلى هذا الأساس لا ينبغي إدانة تاريخ الأمة كلّه، وإنما إدانة ما يستحق الإدانة، قصرت مساحته أو غلبت. أما التقديس المطلق والتنـزيه التبريري العاطفي لهذا التاريخ، هو نوع مرفوض من خداع الذات.(١)

مراجعة تاريخنا ونقده

كم هو ضروري مراجعة تاريخنا وقراءته وتقييمه بشكل موضوعي ومحايد بعيدًا عن الأهواء ومنطق التهويل أو التهوين أو التضخيم لتطوراته وحوادثه ووقائعه، ولن يتأتى لنا ذلك إلا من خلال مساءلة هذا التاريخ، الذي نحن اليوم نتاجه، بكل إيجابياته وسلبياته، ومن ثم نقده وتفكيك محتواه، ووضعه على مشرحة التحليل القادر على الحفر، وفحص طبقاته الدنيا لاستخراج الخلاصات التي تفتح لنا آفاق الرؤية لفهم حاضرنا بشكل أفضل.

ولن تكون مراجعة الماضي وتراثه ذات معنى وقيمة إذا ما ظلت «إشكالية الثقافة العربية اليوم، في صورتها الجماهيرية أو شبه الجماهيرية التي يتبناها الوعّاظ والكتّاب التقليديون الذين يعيدون اجترار مقولات السائد الاجتماعي، تريد الجمع بين المتناقضات في آنٍ واحدٍ، تريد الديمقراطية والحرية وحكم المؤسسات ...إلخ، وفي الوقت نفسه تريد الاحتفاظ بالتاريخ الاستبدادي القمعي مُمَجّدًا ومُعظمًا، بل ومقدسًا. تريد الاحتفاظ بتاريخها كما هو، وبكل ما فيه، كموضع فخر واعتزاز، ومصدر إلهام تتغنى به في الصباح والمساء، وتريد في الوقت نفسه أن تعيش كما يعيش الغربي موفور الكرامة والحقوق، حيث لا يعاني من القهر ولا من الهدر، ولا يخشى طرفة عين من خطرات ونزوات الاستبداد والاستعباد.

---

(١) من كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. ص ٨٣

إن الماضي، حتى في صوره الجميلة، أو تلك التي تبدو كذلك، لا يتطابق مع الحاضر، ولا مع متطلبات الحاضر. كل شيء تغير ويتغير وسيتغير، والبُنى الاجتماعية بأكملها تغيرت وتطورت وتعقدت؛ كما تغير وتطور وتعقد الإنسان في سياق وجوده الفردي. لا بد أن نعي حقيقة أنه لا يمكن إنزال تجربة الماضي كما هي، على افتراض نجاعتها، على الحاضر، وإلا خسرنا حاضرنا، ولم يبق لنا إلا وهْم تاريخ».[١]

(١) التغيير بالتنوير.. من تفكيك الأوهام إلى الوعي بالذات. محمد بن علي المحمود. جريدة الرياض.

ثالثاً:

الإرهاب الفكري والوصاية على العقول

هناك مِن بيننا مَن ينظر إلى الحياة من حوله من منظار الاستقرار والثبات كوسيلة من وسائل الحفاظ على الهوية والتماسك الاجتماعي، ويطمئن إلى ديمومة واقع الحال واستمراريته، فهؤلاء على سبيل المثال لا يطمئنون إلا إلى تأويلات الأسلاف واجتهاداتهم، ويطبقون نتاج تفسيراتهم للنصوص على كل زمان وأي مكان، فالنص الديني بالنسبة لهم، له معنى ثابت لا يتغير مع تغير الزمن وتحولاته، فالعودة إلى تراث الماضين هو المخرج من المأزق الذي تعيشه الأمة، والحل لأزماتها وتحدياتها المعاصرة.

وإذا كان هناك مثل هؤلاء الذين يرون أن الثابت أفضل من المتغير؛ لأن فيه الأمن والاستقرار، والحل لأزمات ومشكلات مجتمعاتنا، حيث لا يجب المجازفة والمخاطرة بالذهاب إلى المجهول الذي يسلب الأمة هويتها، فإن هناك أيضًا من لا يطمئن إلى ما هو ثابت ومألوف وتقليدي، ويقلل من أهمية خبرات الآباء والأجداد، وتجارب الأولين والأسلاف وتراثهم النظري؛ لأنه نتاج أزمان انتهت ومضى أجلها، ويرون في التغيير الوسيلة الفضلى للتقدم والتطور، حيث إن الاندماج في الزمن الحضاري الراهن، والخروج من حالة التخلف، يتطلب تجاوز هذا الماضي.

والشيخ الصفار يقر أن هناك في تاريخ المعرفة الإسلامية صراعًا قديمًا، بين المحافظين الذين يتوجّسون الخوف والريبة، ويعتريهم القلق، تجاه أيِّ رأي آخر، أو أيِّ تطوير أو تغيير، وهذا صنف من العلماء، ومن المشتغلين في المجال المعرفي في تاريخ الأمة، والصنف

الآخر هو المتحرر من هذه المخاوف، الذي يمارس حقه في الاجتهاد وإبداء الرأي، وإن كان مخالفًا للسائد منافيًا للمشهور.

إنه صراع قديم جديد، كما يصفه الشيخ الصفار، وإن معركة حرية الرأي مظهر من مظاهر هذا الصراع، ذلك أن الاتجاه المحافظ يريد أن يحتكر الشرعية، وكأن ما يقوله ويتبنّاه هو الأصل وهو الشرع، وأن من يطرحون الرأي الآخر المخالف للسائد، يشكك في دينهم، ويرمون بالابتداع والضلال وما إلى ذلك، هذا صراع قديم، والمسألة فيه لا ترتبط بالعمل السياسي، فبعض الناس ـ كما نقرأ في بعض الكتابات ـ يثيرون هذا القلق من هذه الدعوات، بأنها دعوات توظف لأغراض سياسية، بينما المسألة واقعة ضمن هذا الصراع بين هذين الاتجاهين، وهي أعمق وأقدم من هذا الأمر، فهناك في تاريخنا الكثير من العلماء كانت لهم اجتهادات مخالفة للرأي السائد، وكان تعدّد الاجتهاد ـ سواء في المسائل العقدية أو المسائل الفقهية أو المسائل التاريخية ـ أمرًا مقبولًا.

إن ما يريد الشيخ الصفار التنبيه عليه في هذه النقطة، هي أن هناك تيارين في كل مجتمع فيما يخص الشأن الديني والفكري، وبإمكان كل تيار أو اتجاه أن يطرح رأيه ووجهة نظره،ولكن عليه ـ في المقابل ـ أن يسمح للآخرين بطرح رأيهم، وكذلك أن يبدي رأيه فيما يطرح الآخرون، ولكن دون اللجوء إلى أجواء الإرهاب الفكري، فالتشكيك في دين الطرف الآخر، وإخراجه من المذهب، ووصفه بالارتداد والضلال والبدعة وما إلى ذلك من تجاوز للحدود، هو استهداف شخصي، وإسقاط لأناس محترمي الشخصية، ولا يتناسب والحرية الفكرية، وحق المخالفة في الرأي، ولا ينبغي أن يسود في أي مجتمع، فهو حالة سلبية، لا تساعد على تنمية الفكر والمعرفة في هذه المجتمعات وأوساطها.(١)

حق الاجتهاد وحرية الفكر والمعرفة

إن تنمية الفكر والمعرفة الدينية والاجتهاد الديني لا يمكن أن تتقدم وتتطور في ظلّ

---

(١) من كتاب الانفتاح بين المصالح والهواجس. ص ١٧

الإرهاب الفكري، والاستبداد بالرأي، وقمع الحريات، ومنع حركة التغيير بدعاوى دينية، فالتغير سنة من سنن الحياة، والتغير قانون من قوانين الأحياء، ومفهوم رئيس في الدين، وطوال التاريخ لم يتوقف التغيير، وقد ظهر التغيير في روح الحضارة الإسلامية من خلال عملية النسخ، كما يقول حسن حنفي، فالنسخ هو تبديل الأحكام السابقة بأحكام لاحقة نظرًا للتغير الذي وقع في الأوضاع الاجتماعية ﴿**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾.

فالنسخ، كما يكمل حنفي، يأخذ التطور والزمان بعين الاعتبار، فلا يوجد حكم ثابت ودائم لتغير الظروف والأزمان والمراحل التاريخية، كما أن الاجتهاد مصدر من مصادر التشريع، وهو القدرة على استنباط الأحكام بعد التعرف إلى عللها، فالأحكام متناهية والوقائع غير متناهية، وتلك مهمة القياس الشرعي، تعدية الحكم من الأصل إلى الفرع لتشابه بينهما في العلة، وهذا هو معنى حديث المجددين الذي معناه أن اللّه يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها، فالواقع يتغير وفهم الدين يتغير أيضًا طبقًا لتغير الواقع، وإلا وقع التشريع في الجمود، وعدم مطابقته للمصالح العامة، فيهجره البعض ويستبدل به تشريعًا حديثًا وافدًا من الغرب، ويقع الشقاق بين السلفية والعلمانية، السلفية تدافع عن الثابت القديم، والعلمانية تدافع عن المتغير الجديد، وتلك أيضًا مهمة التأويل الذي قال به المعتزلة والفلاسفة والصوفية، تأويل النص بما يتفق مع العقل أو التجربة الذاتية.[١]

إن عملية فهم الدين تتغير تبعًا لتغير الزمن والوقائع الحادثة، فتعدد الاجتهادات واختلافها بين المدارس الفقهية أمر طبيعي ولا ضير فيه، حيث لا تخلو ساحة من ساحات المعرفة من تعدد المدارس والنظريات، واختلاف الآراء وتباين الأفكار فيما بينها. والساحة الدينية في مجتمعاتنا، كما يقول الشيخ الصفار، تخضع أيضًا لهذه المعادلة، حتى وإن كانت تنتمي إلى دين واحد، أو مذهب واحد؛ ذلك لأن النصوص المنقولة هي المصدر الأساس

---

(١) الدين والسياسة... ثبات أم تغير؟ حسن حنفي. جريدة الاتحاد الإماراتية، ٩/ ٧/ ٢٠١١م.

لمعارف الدين وتعاليمه، والنص بطبيعته قد يحتمل أكثر من قراءة وتفسير، وأوضح شاهد على هذا، اختلافات المفسرين في معاني كثير من آيات القرآن الكريم.

وإذ يشير الشيخ الصفار إلى أنه بجانب تعدد قراءات النص، هناك أيضًا اختلاف في تقويم ظروف صدوره، أو طرق وصوله، كما هو الحال في أحاديث السنة النبوية، والروايات الواردة عن أئمة أهل البيت، وأعلام الصحابة، ووقائع السيرة والتاريخ.

ومن الطبيعي أيضًا أن يؤثر تفاوت المستوى العلمي، واختلاف البيئات الثقافية والاجتماعية، وتنوع زوايا النظر ومنطلقات البحث، بل وحتى التكوين الذهني والنفسي لكل باحث في فهم المسائل وتحديد المواقف، لذلك أصبح اختلاف العلماء والباحثين في القضايا الدينية أمرًا معروفًا، ويُعَدُّ عنصر إثراء للمعرفة الدينية، وتكريسًا لحرية الاجتهاد والرأي.[١]

صراع الاتجاهات وحقّ الاختلاف والتعدد

من الطبيعي أن تتعدد وتختلف المواقف والآراء من عملية التغيير والتغير، فيبرز اتجاه يدعو إلى المحافظة على ما هو سائد من رؤى وأفكار وممارسات، لكون مشكلة مجتمعاتنا آتية من خارجها، وممن يتربصون بنا الدوائر، ليكون التصدي لمؤامرات الخارج هو التحدي الأول أمامها، وله الأولوية على ما عداها من أولويات، كما يظهر اتجاه آخر مخالف لهذا الاتجاه، ومعارض لما هو سائد، ويدعو إلى التغيير بدلًا من الجمود والتكلس؛ لأنه يرى أن مشكلة مجتمعاتنا تنبع أصلًا من داخلها، وتكمن في واقعنا الفكري والثقافي المتخلف عن مواكبة الزمن، الذي يكبل حياة الناس، ويعيق مسيرة مجتمعاتنا نحو الرقي والتطور، وهو الأمر الذي يتطلب عملية جراحية سريعة لفك ارتباط مجتمعاتنا بالماضي، بحيث لا يكون هذا الماضي قيدًا يكبل الحاضر ويعيق حركته.

في ظلّ هذا الصراع بين الاتجاهات المحافظة وبين اتجاهات التغيير والإصلاح، «عادة

---

(١) من كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. ص ٨

ما يُستغل الحماسة والعاطفة الدينية عند الناس، وخاصة من شريحة الشباب الطيبين، لقذفهم في أتون المواجهة ضد هذه الفكرة أو تلك، ولمحاربة هذه الشخصية أو تلك الجهة، على أساس الدفاع عن العقيدة والمذهب، والانتصار لهذه المرجعية أو هذا التوجه.

إلا أنه ليس من الخطأ أن يقتنع الإنسان برأي، أو ينتمي إلى مدرسة، أو يؤمن بقيادة، أو يثق بمرجعية، كما أن من حقه أن يعبِّر عن رأيه، وأن ينتصر لتوجُّهه، وأن يبشّر بأفكاره، لكن الخطأ هو احتكار هذا الحق لنفسه وإنكاره ذلك على الآخرين».[١]

عندما يتحول هذا الصراع في أي مجتمع إلى حالة تنافس إيجابي وخلّاق، فإن ذلك يساهم في إثراء واقع الحياة ويطور حركة الإبداع، وينمي المجتمع بكل جديد ومتطور يساهم في الارتفاع والارتقاء بمستوى الإنسان وكرامته. أما عندما يتحول هذا الصراع إلى حروب وفتن وأحقاد وتآمر، واتهامات متبادلة بالخروج عن الدين، والخيانة الوطنية، والارتهان للأجنبي، فإن ذلك يكشف عن ضيق النظرة وضيق الصدر من فكرة جود الآخر وفكره، والأنانية الضيقة والخوف المرضي من الآخر، أو التضخم الذاتي والغرور الذي لا ترى فيه النفس إلا ذاتها المتضخمة والمتعالية.

من المخيف والمرعب أن يتحول اختلاف أهل المدارس الفكرية من علماء وباحثين إلى نزاع وصراع وجود، ويتطور إلى معارك إلغاء للآخر والمختلف، وهو الأمر الذي يعتبره الشيخ الصفار الداء الأخطر الذي تعاني منه الساحة الدينية، عندما يحوّل الاختلاف في بعض المسائل الدينية إلى معركة صراع ونزاع تحتدم فيها المعارك المذهبية، وتشتد الصراعات بين المدارس والتيارات الفكرية، وبين أتباع المرجعيات والقيادات الدينية، وتستعمل فيها أسلحة فتاكة قذرة كفتاوى التكفير والتبديع والتضليل وإسقاط الشخصيات وإهدار الحقوق وهتك الحرمات.

إن هذه النزاعات، كما يكشف الشيخ الصفار، تنطلق في الغالب من دوافع مصلحية، يكون فيها اختلاف الرأي مجرد مبرِّرًا وعنوانًا، حيث يدفع المجتمع ثمنًا باهظًا من وحدته

---

(١) من كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. ص ٩

وانسجامه بسبب تلك النزاعات، وتحصل حالات خصومة وعداء حتى بين الأقارب والأرحام، فيشككون في تديّن بعضهم بعضًا، ويترامون تُهَمَ الانحراف والضلال.

ويتحدث الشيخ الصفار بكل صراحة عن الحاجة إلى الاعتراف بحق الاختلاف والتعدد، ويدعو إلى تعزيز حرية الرأي، ونشر ثقافة التسامح وقبول الآخر، كما يشدد على أهمية رفع الصوت عاليًا ضد الإرهاب والقمع الفكري، ويحذر من محاولات الهيمنة، وفرض الوصاية على عقول الناس وأفكارهم، باسم العقيدة والدين.[١]

إذا ما أقر الجميع بحقيقة وجود الآخر، وحقّه في الإيمان بما يعتقد، عندها سيكون المجال العام ساحة العمل ومكان المنافسة بين جميع التيارات والفئات والأطياف الموجودة على أرض الواقع، وسيكون جمهور الناس الحكم والمعيار الذي يسجل النقاط لهذا الفريق أو ذاك من الفرقاء المتنافسين والمتصارعين، ويحدد من هو الفائز في كسب النقاط والسباق من بينهم. وشرط نجاح هذا الصراع هو ضمان حرية التنافس التي تتطلب احترام الآخر، وترويض الذات على القبول به، وبكل الأفكار والاتجاهات المغايرة والمنافسة، وضمان حرية التنوع، من دون المراهنة والاتكاء على دعم ومساعدة وممارسة طرق وأساليب الإرهاب والترهيب والضغط والوصاية.

الخوف المرضي من الرأي الآخر

عندما يتحدث الشيخ الصفار عن واقع مجتمعاتنا وما ينتشر فيها من أمراض فإنه دائمًا ما يتحدث من موقع الدراية والخبرة، حيث يشير إلى أن من أسوأ أمراض مجتمعاتنا، ما يسود معظم أجوائها من حالات صراع وخصام داخلي، وسعي بعض الجهات لممارسة دور الوصاية على أفكار الآخرين، فما تراه هي هو الحق المطلق الذي لا يجوز لأحد الخروج عليه، وإلا استحق النبذ والطرد، والمحاصرة والإلغاء، وأصبح مستهدفًا في وجوده المادي والمعنوي.

---

(١) من كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. ص ٨

وهذه الحالة من الادعاء بامتلاك الحقيقة المطلقة، نجده ليس فقط على صعيد الخلافات المذهبية، حيث تتبادل الأطراف مع بعضها تهم التكفير والتبديع والمروق من الدين، ويجري التحريض على الكراهية في أوساط الأتباع، وقد يصل الأمر إلى إباحة هدر الدماء وانتهاك الحقوق والأعراض، بل نجد هذه الحالة أيضًا على مستوى الخلافات داخل المذهب الواحد، حين تتعدد المدارس، وتختلف الآراء في بعض التفاصيل العقدية والفقهية في إطار المذهب نفسه.

إن اعتقاد كل طرف وجهة بصوابية رأيه، وخطأ الرأي الآخر أمر مقبول، بناءً على مشروعية حق الاجتهاد، لكن إنكار حق الطرف الآخر في الاجتهاد وإبداء الرأي، والتعبئة ضده بالتشكيك في دينه واتهام نيّاته، هو منزلق خطير يؤدي إلى تمزيق الأمة، وتشويه سمعتها، ودفع أبنائها إلى الصراع والاحتراب، كما حصل ويحصل بالفعل، فالتعبير عن الرأي الاجتهادي عقديًا وفقهيًا ضمن الضوابط المقررة أمر مشروع، وحق مكفول للجميع، ولا يصح أن تحتكره جهة، وتصادره من الآخرين، وإلا اعتبر ذلك إرهابًا فكريًّا، وإغلاقًا فعليًّا لباب الاجتهاد، وحرمانًا للساحة العلمية من الثراء المعرفي.

أما ادّعاء الحذر من وجود آراء خاطئة، وطروحات منحرفة، تخالف المعتقدات السائدة، والاتجاهات الفقهية المشهورة، فهذا لا يقف أمامه القمع والتهريج، حسب وصف الشيخ الصفار، وإنما المواجهة العلمية الفكرية، التي تثبت ضعف الرأي الآخر وخطأه، ومكامن الانحراف والثغرات فيه، وتظهر صحة الرأي المتين وأصالته، وتعالج الإشكالات المثارة حوله؛ لأن أساليب القمع والإرهاب الفكري لا تستطيع أن توقف زحف الرأي الآخر، بل قد تخدمه بإثارة الاهتمام به، وتكتل أتباعه للدفاع عنه، وتعاطف الكثيرين مع ظلامته بسبب ما يستهدفه من قمع وتشويه، وخاصة في هذا العصر الذي سادت فيه شعارات الحرية والانفتاح، وتطلعات التغيير والتجديد.[١]

وفي موازاة ذلك، يلاحظ السيد محمد حسين فضل اللّه أهمية أن يأخذ الفكر الآخر

(١) من كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. ص ٣١

حريته في الطرح، وحريته على مستوى الجدال، شرط ألا تتحول المسألة إلى فوضى على مستوى الآليات والممارسة، وشرط أن يتمّ التسليم للحقيقة عندما تتجلّى واضحة في حركة الحوار ونتائجه، لذلك يصرّ السيد فضل اللّه دائمًا على رفض ممارسة أي عملية قمع ضد الفكر الآخر، «انطلاقًا من قاعدة العدل التي أكّدها الإسلام ورفض من خلالها ظلم الآخرين، حتى وإن كانوا كفّارًا. هذا إضافة إلى اعتقادنا الراسخ بأن عملية القمع التي تمارس ضد أي فكر لا يمكن أن تسقطه، بل إنها تتيح له الفرصة أكثر ليتحول إلى فكر شهيد يثير تعاطف الناس ودفعهم للاقتراب منه وحتى تبنّيه والدفاع عنه، حتى لو كان خاويًا في كثير من الحالات؛ لأن الناس بطبعها تميل إلى احتضان المظلوم، ولذلك فإن الوسيلة الفضلى لمواجهة الفكر الآخر تتلخّص في إعطائه الحرية ليأخذ دوره ويطرح نفسه، وعندها سيتبيّن لنا مدى عدم واقعية إمكانية صموده أمام الحقيقة العلمية التي تضجّ بها المفاهيم الرسالية والإنسانية».[١]

وبناءً على هذه الحقيقة لن يكون ذا جدوى الإصرار على قمع الرأي الآخر، وادّعاء امتلاك الحقيقة المطلقة واحتكارها مهما طال الزمن؛ لأن الزمن كفيل بقلب الأدوار وتبديل المواقع، ومن ثم إعادة تكرار نفس المشكلات والمآزق، أو إعادة إنتاجها بطرق وأساليب مختلفة، وإذا لم نؤمن بوجود رأي آخر مختلف إلى جانب ما نؤمن به من أفكار، فلن يكون ممكنًا بناء بيئة تتحقق فيها قيم التواصل والتعايش والتنافس بالتي هي أفضل وأحسن، حتى تساهم هذه الأجواء الطيبة في جعل مجتمعاتنا تعيش بهدوء وسلام، ويعمل أفرادها بجد من أجل بناء مستقبل يعبر عن طموحات الأمة بمختلف أطيافها وفئاتها ومكوناتها المختلفة.

لا للإرهاب الفكري

إننا اليوم ونحن نعيش في القرن الواحد والعشرين وفي زمن تطور العلم والتكنولوجيا، والمدى البعيد الذي وصلت إليه المجتمعات الصناعية المتقدمة، في الوقت الذي يتنامى فيه

(١) بين حرية التفكير وحرية التعبير. السيد محمد حسين فضل اللّه. موقع بينات، ٦/ ٦/ ٢٠٠٦م.

مستوى الوعي والإدراك في أوساط أمتنا الإسلامية الناهضة، يتساءل الشيخ الصفار: هل يمكن القبول بتكرار مآسي الماضي، وعودة أجواء التحجّر والتزمّت والإرهاب الفكري؟

ويشعر الشيخ الصفار بالأسف الشديد؛ لأنه لا يزال هناك من يعيش بيننا من يحمل تلك العقلية الضيقة، ويريد فرض وصايته وآرائه على الآخرين، وإذا ما خالفه أحد أو ناقشه، بادر إلى إصدار فتوى التكفير والمروق عن الدين بحقه، أو اتهمه بالابتداع والضلال، وادّعى أنه الوحيد صاحب الحق ومن يمتلك الحقيقة، وأن ما عداه على خطأ أو ضلال، وأن من ليس على نهجه وطريقه هو من أهل البدع والضلال والباطل.

إن وجود فئات تحمل هذا التوجّه المتشدد تجاه الآخر، وترفض حرية الفكر وخلق التسامح، يهدد الحركة العلمية والفكرية بالشلل والتحجّر، كما يخلق حالة النزاع والعداوة ويمنع الوحدة والتعاون، خاصة إذا ما كانت هناك مصالح سياسية تدفع بعض الحكومات ذات النفوذ والثروة لتبني مثل هذه التوجهات المتشددة، وهو الأمر الذي تعاني منه الأمة الإسلامية في هذا العصر على ما يشير إليه الشيخ الصفار.

ويضيف الشيخ الصفار أنه ما أن تكون هناك مبادرات وحدوية وتقريبية حتى تثور ثائرة أولئك المتشددين والمتزمتين، ويبدؤون في إصدار الكتب والمجلات التي توزع أحكام التكفير والمروق من الدين على هذا المذهب وتلك الطائفة، بل إن هؤلاء المتزمتين لا يكتفون بذلك، بل يمارسون نشاطًا مكثفًا ضد المذاهب والمدارس الفكرية المخالفة لهم، ضمن مخطط سياسي يهدف إلى إيجاد البلبلة وتعميق الفرقة، ولإضعاف الجهود الوحدوية الصادقة.

إن محاربة أي مذهب أو فكرة بالقمع والإرهاب غالبًا ما لا يقضي على ذلك المذهب أو تلك الفكرة، بل يفجر إرادة التحدي عند الأتباع، ويجعلهم أكثر إصرارًا وتمسكًا برأيهم، بل قد يدفعهم إلى الهجوم المضاد، والرد الانتقامي، وبذلك تتمزق وحدة الأمة وتتبدد طاقاتها على حساب معركتها وقضاياها الأساس.[١]

---

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ١٩٢

عندما يتحول التعصب في أي مجتمع إلى سمة اجتماعية عامة وبارزة فيه، ويصبح اتجاهًا وتيارًا له ثقله، وله ثقافته ورموزه وكياناته، فإن ذلك ينذر بأخطار وأضرار كبيرة، على مختلف الصُّعد من حياة المجتمع، حيث يبرز الشيخ الصفار ثلاثة مخاطر محتملة تحدق بالمجتمع جراء هذا التعصب المقيت، **الأول**: تصبح فئة من أبناء المجتمع ضمن هذا الاتجاه التعصبي عناصر معقدة، تنمو في نفوسهم نوازع الحقد والشر، وتتجه طاقاتهم نحو الهدم والتخريب، وكلما اتسعت رقعة الاتجاهات التعصبية، خسر المجتمع المزيد من أبنائه، الذين يتحولون إلى عناصر سلبية هدّامة، بدل أن يبنوا حياتهم ويخدموا مجتمعهم.

والخطر **الثاني**: مع نمو الاتجاهات التعصبية يفقد المجتمع وحدته واستقراره، حيث من الطبيعي أن يصبح لكل اتجاه تعصبي ضد فئة من المجتمع صدى ورد فعل عند الفئة المستهدفة، يشكّل حالة مضادة للدفاع عن الذات وحماية المصالح، فيتحول المجتمع إلى ساحة صراع، وميدان احتراب، بين فئاته المتمايزة عرقيًا أو دينيًا أو سياسيًا، وبذلك تنهار وحدة المجتمع، ويتقوض أمنه واستقراره.

أما الخطر **الثالث**: فهو تشويه الاتجاهات التعصبية لسمعة الجهة التي تنتمي إليها، من عرق أو دين أو مجتمع أو وطن، فتضطرب علاقاتها مع الجهات الأخرى، وقد يتورط المجتمع كلّه في صراع ونزاع مع مجتمعات أخرى، لوجود اتجاه تعصبي في أوساطه.[١]

إن تمزيق صفوف الأمة وتحويل ساحاتها إلى خنادق للصراع والاحتراب، ودفع أبناء الأمة إلى انتهاك حرمات بعضهم بعضًا، وإسقاط كل طرف لكرامة الطرف الآخر، وتشويه رموزه وشخصياته، هي جريمة كبرى، وخطرها أعظم وأكبر من مجرد وجود رأي أو وجهة نظر مختلفة في قضية جزئية، حيث لا ينبغي تضخيم الأمر واعتباره خاطئًا باطلًا، فتعاليم الإسلام وأخلاقياته، وسيرة الأولين من الصالحين والأئمة الطاهرين لا تقبل مثل هذه الأساليب ولا تتطابق معها. وهناك ما يكفي من الروايات التي وردت أو رويت عنهم، تحذر من نهج الإقصاء والإلغاء لبعضهم بعضًا، على أساس الاختلاف في بعض

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ٧٣

الجزئيات العقدية.

إن مجمل الأخطار المحيطة بالأمة من كل حدب وصوب، تستدعي من أبنائها المخلصين، التشمير عن سواعدهم دفاعًا عن قيمها ومبادئها، فالواعون من أبناء الأمة مطالبون بمقاومة الإرهاب الفكري، وتشجيع حرية الفكر، والتوعية بأخلاق الإسلام الداعية إلى التسامح واحترام الرأي. ومن المهم لنا اليوم، ونحن نرى ونراقب ما يحدث ويدور من حولنا، الاستفادة من كل التجارب المؤلمة والمريرة التي تمر بها أقطار أمتنا، وأن لا ندع الأمور تنفلت إلى دائرة الفوضى الهدامة، بل الواجب يحتم علينا خلق المناخ المناسب لدفع الأمور تتحرك في دائرة الحوار البناء، وإدارته بشكل يقرب أبناء الأمة بعضهم إلى بعض، مهما اختلفت الأفكار والرؤى، ومن دون إفساح المجال لإثارة النعرات والعصبيات، التي تؤدي إلى إدخال الجميع في أتون الفوضى، وفي متاهات مظلمة تعيدنا إلى الوراء عقودًا طويلة من الزمن.

رابعاً:

الحرية في الإسلام

الاختلاف والتنوع والتعدد في الفكر والثقافة حقيقة إنسانية ساطعة لا يمكن حجبها، وهي قيمة ثقافية عظيمة عندما تكون صيغة للتعايش والتواصل بين المكونات والمجموعات البشرية المختلفة، من خلال القبول العام بالتعددية الثقافية، سواء داخل الحضارة الواحدة، أو مع غيرها من الحضارات والثقافات الأخرى، حيث يمكن لكل مجموعة بشرية أن تُعلّم وتتعلم من الأخرى ضمن ديناميكية الحوار والتبادل الثقافي، وهو ما يعدّ بحقّ مصدر إثراء وغنى ثقافي وحضاري واقتصادي واتصالي، الأمر الذي يخلق إبداعًا متجددًا وفاعلًا تستطيع معه الجماعات البشرية الانطلاق إلى آفاق معرفية وفكرية مضطردة ويؤدي إلى تسريع وتيرة التقدم والتطور الحضاري، بعكس الثقافات أو المجتمعات الرافضة لقيم التعدد والتنوع، حيث إن هذا الرفض ينعكس سلبًا على مستوى التقدم ووتيرة التطور فيها ويعيق مسارها الحضاري.

إلا أن السؤال الذي يتوقف عنده الشيخ الصفار، ودائمًا ما يرد في خطابه، هو: إذا كانت تعددية المذاهب والفرق ظاهرة طبيعية في جميع الأديان والمبادئ، فكيف كان يتم التعامل والعلاقة بين المذاهب المختلفة ضمن الدين الواحد؟

يشير الشيخ الصفار إلى أن مستوى وعي الإنسان بالقيم، ومدى التزامه بالأخلاق الفاضلة، هو الذي يحدّد طريقة تعامله مع من يخالفه في الدين أو المذهب، ذلك أن الإيمان بقيمه الإنسان كإنسان، وحقه في أن يعيش حرًّا كريمًا حسبما يشاء ويختار، تفرض على صاحبه

احترام إرادة الآخرين، والاعتراف بحريتهم في اختيار أديانهم ومذاهبهم ومعتقداتهم، كما أن للتربية الأخلاقية دورها الفعال والحاسم في تنظيم علاقة الإنسان بالآخرين، وخاصة من يختلف معهم.

إنه لمن المؤلم حقًّا ما يحتفظ به التاريخ من سجلات دامية لحالات الصراع والاضطهاد المتبادل بين أبناء الدين الواحد عند اختلاف مذاهبهم، وخصوصًا في فترات انحطاط الوعي وتدني المستوى الأخلاقي. وإذا كانت هناك أعذار تلتمس ومبررات تفتعل للصراع والعداء بين أتباع الأديان المختلفة المتناقضة، فما هي مبررات الصراع بين أبناء الدين الواحد، مع انتمائهم لعقيدة واحدة تجمعهم، وإيمانهم بزعيم روحي واحد، ومع وجود القواسم المشتركة، ومجالات الاتفاق التي هي أوسع وأكبر من مساحة الاختلاف فيما بين مذاهبهم؟[1]

وعلى الرغم من إقرار الإسلام لحرية العقيدة والفكر، حيث يهتف قرآنه العظيم ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾، وعلى الرغم من تأكيد التعاليم والتوجيهات الإسلامية على حسن الأخلاق والتعامل حتى مع المخالفين في الدين ﴿**وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا**﴾، وعلى الرغم من كل النداءات القرآنية والمحمدية التي تدعو المسلمين للاتحاد والتعاون والتآلف ونبذ حالة التنازع والتقاطع، وعلى الرغم من كل ذلك، إلا أن تاريخنا الإسلامي شوهته صفحات سوداء قاتمة من الخلافات والصراعات الطائفية بين أتباع المذاهب الإسلامية، وذوي الاتجاهات الفكرية المختلفة في الأمة، حيث لا تزال تلقي بظلالها السلبية المقيتة على واقع الأمة المعاصر إلى يومنا هذا.

ويلاحظ الشيخ الصفار حصول تلك الأوضاع الشاذة في الفترات التي ساد فيها التخلف وانحطاط الوعي وسيطرة الجهل، وتغلب القوى الانتهازية والفاسدة على مقدرات الأمة، حيث علا صوت خط العصبية الطائفية والتصادم والإرهاب الفكري،

---

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ٢٢٥

أما في أوساط الواعين المخلصين، حينما كانت أمتنا الإسلامية في أوج عزتها وتقدمها الحضاري، فقد كانت روح التسامح وحرية الفكر والرأي ومنطق الحوار والتعامل الإيجابي، هي اللغة السائدة بين الفرق والمذاهب والتيارات والاتجاهات المختلفة في الأمة.[١]

ضمور قيمة الحرية

هل يُعلي الإسلام من قدر الحرية وقيمتها ويسمو بها، هل يكفل الإسلام حرية الإنسان ويقف في وجه كل من يعمل على استعباده واسترقاقه ماديًّا أو معنويًّا، هل نص الإسلام على حرية الإنسان وضمن له هذه الحرية وحماها من كافّة أشكال الاستغلال والاستعباد، هل يقرّ الإسلام من خلال نصوص القرآن والسنة النبوية الصحيحة حرية الاعتقاد، والحرية الدينية ولا يصادرهما؟

هذه الأسئلة وغيرها تبرز وتثار حول حقيقة رأي الإسلام وموقفه من موضوع الحرية، على وقع ما يحدث بين الحين والآخر من أحداث وحوادث عصبوية، ذات أبعاد دينية وتاريخية وتراثية وسياسية، يتصاعد معها السجال حول ادّعاء امتلاك الحقيقة بين من ينتسبون إلى الإسلام، حيث يحتدم النقاش بين الجميع ويتصاعد بنبرة حادة ولغة مرتفعة الوتيرة، يرتفع خلالها ويتصاعد مستوى الاحتقان والتجييش والتحريض الطائفي والتعبئة المذهبية إلى مستويات بالغة الحدّة ومرتفعة الدرجة، مما يكون له تداعيات وعواقب وخيمة، وانعكاسات سلبية على وحدة مجتمعاتنا، ويؤدي إلى شقّ صف الأمة وتشتتها وتفرقها، وزيادة الهوة والتباعد بين أبنائها، وحفر الخنادق ونصب المتاريس لبعضهم بعضًا.

لقد ألغت التوجهات التعصبية الآخر من قاموسها، ومارست العنف والشدة ضده، وارتكبت الجرائم البشعة بحقّه، حيث تعاني الأمة اليوم الويلات من تصرفات وممارسات الفئات التي تنتهج خط التعصب المذهبي والإرهاب الطائفي، من الذين يعتقدون أن الحق حصرًا فيهم وفي آرائهم، وأن الجنة لا تتسع لغيرهم، فيجيزون لأنفسهم محاسبة

---

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ٢٢٧

الناس ومحاكمتهم على اعتقاداتهم وانتماءاتهم، ويعتبرون الرأي الآخر خروجًا على الدين وثوابته.

يشير الشيخ الصفار إلى أن عصور التخلف المظلمة، التي مرت على أمتنا، أعطت عن الإسلام صورة سلبية، وأنه يدعو إلى الديكتاتورية والاستبداد، ويسمح بممارسة القمع والإرهاب، بالإضافة إلى أن بعض الجهات والطروحات في الساحة الإسلامية، لا تزال إلى اليوم تصرّ على التّفرد بالساحة، والاستبداد بالرأي، ولا تعترف بالرأي الآخر، ولا تحترم الموقف المغاير.

وهذه الصور السلبية من الماضي، والمواقف المتعصبة في الحاضر، تحدث خوفًا وقلقًا عند الكثير من الناس تجاه الإسلام، وتصبح مستمسكًا ومبررًا لدى المخالفين لتطبيق الإسلام، لذلك يرى الشيخ الصفار أنه من الضروري العمل على معالجة قضية الحرية والتعددية في الإسلام على الصعيد الفكري، وتوضيح مفاهيم الإسلام ورؤيته في المجتمع والحياة، معتبرًا أن قضية الحرية هي روح الإنسان، وعمق إنسانيته، وهي أخطر وأهمّ امتحان يواجه الإسلاميين في هذا العصر، حيث يطالب الشيخ الصفار هؤلاء الإسلاميين بتوضيح موقفهم من مفهوم الحرية وتطبيقاته، سائلًا إذا كانوا يريدون تطبيق الإسلام وبناء الدولة والمجتمع على أساسه، فما هو موقفهم من الرأي الآخر والمعتقدات المخالفة؟ وضمن دائرة الإسلام هل هناك مجال للتعددية في الرأي والموقف؟ أم هو الرأي الواحد، والموقف المتفرد، ولا موقع لسواه؟

يشدّد الشيخ الصفار على أهمية وضرورة أن نعرف الإسلام على حقيقته، وندركه على واقعه، نافضين عنه غبار التخلف والانحطاط، فكما تحدى الإسلام في انبعاثه الجديد مؤامرات أعدائه ومناوئيه، حيث كان يعينهم على ذلك ما ساد في مجتمعاتنا من جهل وتخلف وتحريف للإسلام في مفاهيمه وأفكاره، فإنه يقاوم أيضًا تخلف أتباعه ومدّعيه، عندما تعرض الإسلام على أيديهم طوال عصور الانحطاط إلى التحريف والتشويه، حتى بهت

نوره، وخفي رونقه، وعلى حدّ تعبير الإمام علي (**لبس الإسلام لبس الفرو مقلوبًا**).[١]

إذا استمر وضع الأمة على هذه الحال، من تكبيل مفهوم الحرية، ومصادرة حرية الرأي الآخر، والعمل على انتهاك كرامته وحرمته، باسم الدين وقيمه، فإن ذلك لن يؤدى إلا إلى الغرق في وحول الفتن، وإثارة العصبيات الطائفية والنعرات المذهبية، والتجييش الطوائفي، واللعب على وتر الخلافات والاختلافات المذهبية، وشحن الأجواء بطريقة سلبية ومفتعلة، واستثارة العواطف والنفوس، ولن يكون منتظرًا أن تقف هذه التداعيات والارتدادات عند حدٍّ معين، إن لم تلتهم نارها المشتعلة الأخضر واليابس بدون تمييز بين فئة وأخرى، ولن يكون أحد بعدها بمنجاة من نارها ولهبها.

مفهوم الحرية

حرية الاعتقاد من المفاهيم التي دائمًا ما ترد وتتكرر في خطاب الكثير من النخب العالِمة، بصفتها من أبرز حقوق الإنسان التي أقرتها الشريعة الإسلامية، وهي تعني ألا يكره إنسان على اعتناق عقيدة ما، وألا يضار بسبب عقيدة يؤمن بها. كما تؤكد هذه النخبة على أن النصوص القرآنية والنبوية، التي تؤكد حقّ الإنسان في اعتناق العقيدة التي يطمئن لها قلبه، ويستريح لها ضميره، كثيرة ومتنوعة.

إلا أن المشكلة في التعاطي مع هذا المفهوم، كما يشرح الشيخ الصفار، هي أن أمتنا ابتليت بوجود فئات وجهات تمارس الوصاية الفكرية، وتسعى لفرض آرائها، باعتبار ذلك وظيفة دينية، وتكليفًا شرعيًا، وهو الأمر الذي يحتم مناقشة هذه الممارسة على ضوء تعاليم الدين ومفاهيمه، ويتساءل الشيخ الصفار: هل يشرّع الدين لممارسة الوصاية الفكرية، بمعنى فرض الرأي بالقوة، والنيل من حقوق المخالفين، وسوء التعامل معهم؟

إن القراءة الواعية لآيات القرآن الكريم، ونصوص السنة والسيرة النبوية الشريفة، وأقوال وسيرة أئمة أهل البيت، كما يشرح الشيخ الصفار، تكشف عن منظومة من المفاهيم

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ٢٠

والتعاليم الدينية التي تؤكد على حرية الإنسان وحقّه في الاختيار، وأنه يتحمل مسؤولية قراره واختياره أمام اللَّه تعالى، وترفض الاستعباد والوصاية الفكرية على الناس.

ففي سياق تقرير حرية الإنسان وتأصيل وجودها، تؤكد كثير من آيات القرآن الكريم، أن اللَّه تعالى لم يشأ أن يفرض الإيمان به على خلقه بالإجبار والقوة، بل أودعهم عقولًا تقودهم نحوه، وفطرة ترشدهم إليه، وبعث لهم أنبياء يدعونهم إلى الإيمان به، ثم ترك للناس حرية الاختيار في هذه الحياة. يقول تعالى: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**﴾، ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾.

لذلك فالسؤال الذي يمكن إثارته هنا، هو: إذا كان اللَّه تعالى لم يفرض على عباده الإيمان به قسرًا، لتكون الحياة دار اختيار واختبار، كما شاءت حكمته، فكيف يحقّ لأحد من العباد أن يمارس فرض الإيمان على الناس باسم اللَّه ونيابة عنه؟

يتابع الشيخ الصفار شرحه بالقول: إنه تعالى لا يريد الإيمان به عن طريق القوة والقسر، لأنه حينئذٍ لن يكون إيمانًا حقيقيًا، ولو أراد اللَّه تعالى إخضاع الإنسان للإيمان به قسرًا لكان ذلك ميسورًا عليه، فسبحانه وتعالى يقول: ﴿**وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ**﴾، وبضرس قاطع ورفض صريح يقول تعالى: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾.(١)

إن حرية الاعتقاد تتجلى في أسمى صورها في رفض أسلوب الإكراه على العقائد، حيث من غير اللائق إرغام أحد على ترك دينه واعتناق دين آخر؛ لأن حرية الإنسان في اختيار دينه أساس الاعتقاد، فاللَّه سبحانه وتعالى خلق الإنسان ومنحه عقلًا يميز به بين الحق والباطل، وأعطاه حرية الاختيار، وهو مسؤول عما يفعل، ويتحمل نتيجة اختياره.

إن من يتدبر القرآن الكريم ويتأمل محكم آياته، كما يقول أحمد حلمي سيف النصر، يدرك في غير عسر أن الإسلام يقدس الحرية ويمقت الإكراه حتى لو كان ذلك وسيلة إلى

(١) من كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. ص ١٦

حمل الناس على اعتناق الإسلام نفسه، ونجد ذلك واضحًا في قول اللّه تعالى ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ وفي توجيهه للنبي ﷺ ﴿**لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ**﴾، و﴿**أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾، و﴿**مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ**﴾.

ذلك أن الإيمان أمن وطمأنينة، فكيف يكون التخويف والترهيب سبيلًا إلى الإيمان؟ وعبادة اللّه والخضوع لأوامره ونواهيه لا يكونان على الوجه الصحيح إلا بعد التحرر من الخوف، والتسلح بحق الحرية والتفكير والتدبر والنظر، وإذا كان الاعتبار الإنساني لا يقوم إلا بالحرية، فإن المسؤولية القانونية الكاملة لا تتقرر إلا للأحرار، وتنتقص هذه المسؤولية إذا انتهت هذه الحرية، أو كانت ضربًا من الشعارات الزائفة.(١)

موقف الإسلام الصريح من حرية الاعتقاد

الإسلام، كما يشرح الشيخ الصفار، حينما جاء أعلن موقفه الواضح والصريح من حرية الاعتقاد واختيار الدين، حيث أرسى القرآن الحكيم مبدأ الحرية الدينية الفكرية في قوله تعالى: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾، ويستشهد الشيخ الصفار بشرح العلامة الطباطبائي في تفسيره الميزان حول معنى هذه الآية الكريمة: بأن قوله تعالى ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ نفي الدين الإجباري، لما أن الدين وهو سلسلة من المعارف العلمية التي تتبعها أخرى عملية يجمعها أنها اعتقادات، والاعتقاد والإيمان من الأمور القلبية التي لا يحكم فيها الإكراه والإجبار، فإن الإكراه إنما يؤثر في الأعمال الظاهرية والأفعال والحركات البدنية المادية.

أما الاعتقاد القلبي فله علل وأسباب أخرى قلبية من سنخ الاعتقاد والإدراك، ومن المحال أن ينتج الجهل علمًا، أو تولد المقدمات غير العلمية تصديقًا علميًّا، فقوله: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ إن كان قضية إخبارية حاكية عن حال التكوين أنتج حكمًا دينيًّا ينفي الإكراه على الدين، والاعتقاد وإن كان حكمًا إنشائيًّا تشريعيًّا كما يشهد به ما عقبه تعالى من

(١) الحرية في القرآن. احمد حلمي سيف النصر. جريدة الخليج الإماراتية، ٨/ ٧/ ٢٠١١م.

قوله: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ كان نهيا عن الحمل على الاعتقاد والإيمان كرهًا، وهو نهي متّكٍ على حقيقة تكوينية، وهي التي مرّ بيانها أن الإكراه إنما يعمل ويؤثر في مرحلة الأفعال البدنية دون الاعتقادات القلبية.

كما يورد الشيخ الصفار أيضًا رأي سيد قطب في تفسير هذه الآية الكريمة يقول فيه: إن قضية العقيدة ـ كما جاء بها هذا الدين ـ قضية اقتناع بعد البيان والإدراك، وليست قضية إكراه وغضب وإجبار، ولقد جاء هذا الدين يخاطب الإدراك البشري بكل قواه وطاقاته، يخاطب العقل المفكر، والبداهة الناطقة، ويخاطب الوجدان المنفعل، كما يخاطب الفطرة المستكنة، يخاطب الكيان البشري كله، والإدراك البشري بكل جوانبه، في غير قهر حتى بالخارقة المادية التي قد تلجئ مشاهدها إلجاء إلى الإذعان، ولكن وعيه لا يتدبرها، وإدراكه لا يتعقلها؛ لأنها فوق الوعي والإدراك.

وإذا كان هذا الدين لا يواجه الحسّ البشري بالخارقة المادية القاهرة، فهو من باب أولى لا يواجهه بالقوة والإكراه ليعتنق هذا الدين تحت تأثير التهديد أو مزاولة الضغط القاهر والإكراه بلا بيان ولا إقناع ولا اقتناع؛ لأن في مبدأ حرية الاعتقاد يتجلى تكريم اللّٰه للإنسان، واحترام إرادته وفكره ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد، وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه، وهذه هي أخصّ خصائص التحرّر الإنساني.

ويكمل سيد قطب شرحه بأن حرية الاعتقاد هي أول حقوق «الإنسان» التي يثبت له بها وصف «إنسان»، فالذي يسلب إنسانًا حرية الاعتقاد، إنما يسلبه إنسانيته ابتداءً، ومع حرية الاعتقاد حرية الدعوة للعقيدة، والأمن من الأذى والفتنة، وإلا فهي حرية بالاسم لا مدلول لها في واقع الحياة. والإسلام ـ وهو أرقى تصور للوجود وللحياة، وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا مراء ـ هو الذي ينادي بأن لا إكراه في الدين، وهو الذي يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين، فكيف بالمذاهب والنظم الأرضية القاصرة، المتعسّفة وهي تفرض فرضًا بسلطان الدولة، ولا يسمح لمن

يخالفها بالحياة؟

أما الشيخ الصفار فيضيف أن الآية الكريمة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ على وضوحها وصراحتها ليست هي المورد الوحيد لإعلان الحرية الدينية وتأكيدها في القرآن الحكيم، بل هناك العديد من الآيات الشريفة التي تعالج موضوع حرية العقيدة والفكر من مختلف الجوانب والأبعاد، فالإنسان في نظر القران ليس مسيّرًا مجبرًا على أعماله وتصرفاته، بل هو حرّ مختار، وبالتالي فهو مسؤول أمام اللَّه عما يصدر منه، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾.

والأنبياء وظيفتهم التبليغ والتذكير وليس لهم حقّ الفرض على الناس أو إكراههم على الإيمان برسالتهم، فلو أن اللَّه تعالى يريد الطاعة من الناس بالقسر لكان سهلًا ويسيرًا على قدرته، يقول تعالى ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾، وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾، ويقول تعالى أيضًا: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، ويقول تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

إن الخلاصة التي يصل إليها الشيخ الصفار من هذا الشرح كلّه، هو بيان أن هناك آيات عديدة كثيرة في القرآن الحكيم، تشكل منظومة كاملة حول حرية الإنسان في هذه الحياة، وما الآية الكريمة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ إلا الخلاصة والعنوان لهذه المنظومة المهمّة الخطيرة.[1]

بين الواقع والمثال

إن الواقع الذي تعيشه الأمة اليوم لا يمثل التطبيق العملي لتعاليم الدين ومفاهيمه، وبعيد كل البعد عن مثل هذه القيم والمبادئ الرفيعة، التي ترفع من قيمة الإنسان وقدره

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ٥٩

ومقداره، وتحترم فيه عقله وضميره وسريرته، وتترك له حرية الاعتقاد والاختيار حتى بين قبول طاعة اللَّه أو عصيانه، وبين الإيمان والكفر، فالحرية على النقيض تماما من العبودية، والإنسان دائمًا في موقف الاختيار، ولذلك فهو مسؤول عما يفعل، ويتحمل نتيجة اختياره ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا**﴾.

وإذا كان منهج الإسلام في الدعوة إلى رسالته قائم على احترام عقل الإنسان وإرادته واختياره حتى في أخطر الأمور، وهو أمر الاعتقاد وتحديد الهوية الدينية، فالسؤال: لماذا لا يلتزم الكثير من المنتسبين إلى دين الإسلام بهذه القيم ويطبقوها ويجسدوها على أرض الواقع، ويتمثلوها في سلوكهم وحياتهم المعيشة، ويمارسوها في علاقاتهم مع الآخرين، حيث إن الدعوة إلى الإسلام تقوم على الاقتناع التام ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾، بعيدا عن القصر والإكراه ومنطق القوة.

هل يمكن للإنسان المسلم الممتلئ ثقة بدينه، وأنه دين الحق والطريق الوحيد للهدى والصواب، أن يتعايش مع المختلف معه في الدين والعقيدة، ويتسع فكره وصدره لتقبّل طقوسه وشعائره، على الرغم مما يمكن أن تحتويه هذه العقائد من باطل وضلال وانحراف وخرافة؟

يجيب الشيخ الصفار عن هذا التساؤل بالقول: إن تربية الإسلام وتعاليمه في الوقت الذي تبني فيه فكر الإنسان المسلم ومشاعره على أساس عبادة اللَّه وتوحيده والالتزام بدينه الحق، فإنها تركز في الوقت نفسه على احترام الإنسان كإنسان، مهما كان دينه أو مذهبه، ما لم يكن معتديًا ظالمًا أو محاربًا للحق، فالناس (**صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق**) كما يقول الإمام علي عليه السلام.

واحترام الإنسان يعني حرمة حقوقه المادية، كجسده وماله، وحقوقه المعنوية، كحريته وكرامته، واختياره لدينه، لذلك يرفض الإسلام اضطهاد الناس على أساس دينهم أو اعتقاداتهم، بل يوصي الإسلام أبناءه بأن يكونوا المثل الأعلى في الأخلاق وحسن التعامل مع الآخرين، حتى لا تحسب تصرفاتهم غير اللائقة على الإسلام، فتشوّه سمعته وتنفر

الآخرين منه.

إن الدنيا دار حرية واختيار للإنسان، وهو مسؤول أمام ربه غدًا يوم القيامة، ولا يحقّ لأحد في الدنيا أن يفتش عقائد الناس ويحاكمهم على أديانهم، فذلك الأمر موكول لرب الخلق يوم الحساب. وإذا كان مطلوبًا من المسلم أن يدعو إلى دينه، وأن يوضح بطلان وفساد الأديان الأخرى، إلا أن ذلك يجب أن يكون بإسلوب لائق، لا يجرح مشاعر الآخرين ولا ينفرهم، حيث يقول سبحانه وتعالى: **﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾**.[١]

الإنسان في هذه الحياة يختار طريقه بمحض إرادته وحريته، ويتحمل مسؤولية هذا الاختيار أمام اللَّه تعالى في الآخرة **﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾**، حيث يبني الإسلام مجتمعه ونظامه السياسي على أساس الحرية الدينية، فهو يعرض مبادئه ويبين أحكامه، والناس بعد ذلك أحرار في قبوله أو رفضه **﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾**.

ففي ظلّ الإسلام لا تلغى الديانات الأخرى، ولا يحظر وجود سائر المبادئ والملل، بل يخاطبهم القرآن الحكيم معترفًا بوجودهم وتاركًا لهم حرية الاختيار **﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾**، وحتى المشركون الكفار وإن كانوا لا ينتمون إلى ديانة معينة، ويعكفون على عبادة الأصنام والأوثان، فإن الإسلام لا يقسرهم على ترك ديانتهم، ولا يرفض وجودهم في ظلّه، بل شأنهم كأتباع الأديان الأخرى من يهودية ومسيحية ومجوسية.[٢]

إذا كان الإسلام يربي معتنقيه على الثقة المطلقة بأحقية دينهم وصوابيته، إلا أنه في الوقت نفسه يربي فيهم أيضًا احترام سائر الأديان والعقائد الأخرى وأصحابها بعيدًا عن أي تحقير وإهانة لمعتقداتهم ومقدساتهم، فالقرآن ينهى عن سبّ أصنام الكفار وأوثانهم، حتى وإن كانت زائفة وباطلة؛ لأن ذلك الفعل يجر إلى ردود فعل سلبية مضادة، تؤدي

---

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ٨٢

(٢) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ٧٥

إلى إهانة وسبّ مقدسات المسلمين، والإسلام لا يرضى بتبادل الإهانات والسباب كلغة حوار وتعامل بين أصحاب الأديان.

ولئن كان الشيخ الصفار يعتقد في قراره نفسه أن الإسلام هو الدين الحقّ، وهو العقيدة الصائبة التي ينبغي أن يؤمن بها الإنسان، إلا أنه في الوقت نفسه يرى أن اللَّه سبحانه وتعالى يريد لهذا الإنسان أن يعتنق الحق ويلتزم الصواب بملء حريته واختياره، عن طريق استخدام عقله والتأمل فيما حوله، لا أن يقسر على الإيمان، أو يفرض عليه الدين قهرًا؛ لأن ذلك يتنافى مع إنسانية الإنسان، وصفاته التي ميزه اللَّه بها.

ومن أجل أن لا يكون لحرية الاعتقاد، أو لحرية الفكر، انعكاسات سلبية على الواقع، بل تؤدي إلى نتائج إيجابية، يلفت الشيخ الصفار إلى أهمية معالجة سلبيات الواقع وأمراضه، والتأسيس لقيم بديله تقوم على مبادئ أخلاقية وتعاليم تربوية، تجعل العقول منفتحة والصدور متسعة لاختلاف الرأي وتعدد وجهات النظر، فالإسلام أكد على مبدأ التسامح واحترام الرأي، فليس في الإسلام محاكم تفتيش، ولا يحقّ لأحد أن يمارس دور الوصاية والرقابة على أفكار الناس ونيّاتهم ومشاعرهم. والانتماء إلى الإسلام والعضوية في مجتمعه لا يحتاج إلى شهادة أو قبول من أحد، حيث لا يمتلك أحد حقّ الحكم بطرد أحد من إطار الإسلام ما دام يعلن قبوله بالإسلام، حتى لا تتكرر مآسي التكفير والاتهام بالزندقة والمروق الذي كانت تمارسه الكنيسة في قابر الأيام.

إن تفشي ظواهر التكفير والاتهام بالزندقة والمروق هي مظهر من مظاهر الإرهاب الفكري، حيث يدعي البعض لنفسه احتكار الحق، وان الإسلام ينحصر فيما يراه ويفهمه هو، ويعتقد بأن رأيه هو الحق المطلق، متشبثًا برأيه رافضًا مجرد النقاش والبحث في الرأي الآخر، وأن من يخالفه في ذلك الفهم أو الرأي والمذهب فهو كافر وضالّ لا مكان له في أجواء الإسلام ومجتمعه.[١]

ومع أن الإسلام يقرّ حرية العقيدة والفكر، فإنه في الوقت نفسه يدعو أبناء البشر

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ١٨٢

لاختيار الحق واتّباع الهدى، وأن لا تكون حالات التعصب والانفعال والأهواء المصلحية سببًا لابتعاد الإنسان عن الحق وارتمائه في حضيض الباطل، إلا أن ما يلفت الشيخ الصفار النظر إليه في هذا الصدد، هو أن تتم الدعوة إلى الإسلام وإقناع الآخرين به، عبر الحوار والمناقشة الموضوعية الهادفة، وفي جو من الحرية والاحترام المتبادل، حيث إن الحوار الموضوعي لا يتنافى مع الحرية، بل هو مظهر صادق لوجودها، وطريق سليم للوصول إلى الحقّ.

إذا كانت الحقيقة هي الغاية التي ينشدها الإنسان، فإن وسيلة اكتشاف الحقّ والتعرف إليه هي بالعقل ولا شيء غيره، فالدليل والبرهان المستند إلى العقل هو المقياس والمعيار ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا**﴾، ﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾، ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾، ومن المهم أن يكون أسلوب الحوار موضوعيًّا هادئًا بعيدًا عن التشنج والانفعال وتجريح المشاعر ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾، ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾.[١]

---

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ٩١

خامساً:

أثر الأخلاق الفاضلة والآداب الحسنة في نيل المطالب وانتشار الأفكار

الإنسان الذي يسعى لنشر فكرته في أوساط الآخرين، ويهمه استجابتهم لدعوته، عليه أن يبحث عن منافذ التأثير على نفوسهم، وطرق الوصول إلى عقولهم، ليضمن اقتناعهم وقبولهم بفكرته ودعوته، فالإنسان إنما يؤمن بفكرة ما متى اقتنع بها، أو توفّر في نفسه انشداد إليها، أما الفرض والإكراه، فأثره معدوم في مجال تثبيت الأفكار والقناعات، وغاية ما ينتجه التظاهر بالاقتناع والقبول الظاهري، مع استقرار حالة الرفض والممانعة الداخلية، كما يقول تعالى: ﴿**إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ**﴾.

ولأن اللّه سبحانه وتعالى يريد من عباده إيمانًا صادقًا، فقد ترك لهم حرية الاختيار، ومنحهم العقل والإرادة، وجعل وظيفة أنبيائه التذكير والتبليغ، ولم يسمح لهم بممارسة أي لون من ألوان الفرض والإكراه، حيث يقول تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾، ويقول تعالى: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ**﴾، ويقول تعالى: ﴿**فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ**﴾.

لقد زوّد اللّه تعالى أنبياءه بأعلى قدرة وكفاءة ممكنة، ليقوموا بدور تبليغ الرسالة، عن طريق إثارة العقول، وجذب النفوس، ليكون إيمان الناس بها عن قناعة ورضا واطمئنان، فأنبياء اللّه تعالى يمتازون بالقدرة على طرح دعوتهم الإلهية، ببيان واضح، يخاطب العقل،

ويوافق الفطرة، ويحرّك النوازع الخيّرة في النفس، وهو البلاغ المبين، كما يتحلّون بسعة الصدر، ورحابة الأخلاق، وصدق المحبة للناس، فيصبرون على الأذى، ولا ينفعلون أمام الإساءات، ويتحملون جهل الجاهلين، وتصرفات المعاندين، وتلك صفات مساعدة على النجاح في الدعوة.

كيف تنتشر الأفكار؟

ويشير الشيخ الصفار إلى أن نجاح دعوة نبينا محمد ﷺ كانت نتيجة تمثله لهذه الخصائص والصفات حيث قام بأعباء الدعوة إلى اللّٰه تعالى في مجتمع غارق في الوثنية والشرك، خاضع للعصبيات القبلية، نشأ أبناؤه على الاعتزاز بالذات والقبيلة، مما جعلهم صعبي المراس، يستعصون على الإخضاع والانقياد، لكن جهود النبي، وكفاءته العظيمة، نجحت في استقطابهم للدعوة الإلهية، وخلقت منهم أمة إسلامية رائدة، تحمل رسالة اللّٰه إلى شعوب الأرض.

لم يتحقق ذلك النجاح الباهر لنبينا الكريم نتيجة امتلاكه عند بعثته قوة عسكرية قبلية، تفرض دعوته على قبائل العرب، بل كان في موقع ضعف واضح، ويكفي أن قريشًا فرضت عليه وعلى أسرته الحصار والمقاطعة الاجتماعية والاقتصادية ثلاث سنين، ولم تكن له ثروة يستميل بها الزعامات والعشائر، بل كان يتيمًا فقيرًا أسعفته أموال زوجته خديجة في تسيير أمور حياته، لكنه نجح في استمالة النفوس بعظيم أخلاقه، واستطاع كسب العقول بفصاحة بيانه، وقوة حجته، وحسن منطقه، وسلوكه طريق البلاغ المبين، وأسلوب الحوار الهادئ، ونهج الإقناع الصادق، ومن يقرأ سيرته الكريمة، ويتأمل تخاطبه وتعامله مع الناس، في طرح دعوته ورسالته، يُدهش لتلك القدرة الفائقة، والأدب الرفيع، حيث وصفه اللّٰه تعالى بقوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾.[1]

إن السعي إلى تجاوز أخلاقيات التعصب والتحجّر والتزمت وضيق الأفق وفرض

(١) من كتاب السياسة النبوية ودولة اللاعنف. ص ٩١

الوصاية والإرهاب الفكري، لن يتحقق إلا بفهم واستيعاب تعاليم الدين ومفاهيمه وقيمه الأصيلة، ونشر معانيه التي تُعلي من مفاهيم الحرية وقيم التسامح واحترام الرأي الآخر، فتعاليم الدين وقيمه ترتكز دائمًا على نهج الحوار، ومنهج الإقناع في الدعوة إلى اللَّه، والتعامل مع الآخرين بالتي هي أحسن، فالنصوص القرآنية والنبوية تؤكد حقّ الإنسان في اعتناق العقيدة التي يطمئن لها قلبه ويستريح لها ضميره، فاللَّه سبحانه وتعالى يؤكد في قرآنه الكريم أنه ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾، ويعطي الإنسان حرية الاختيار حتى بين الإيمان والكفر ﴿**فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾، ويوجه رسوله الكريم إلى ترك حرية اختيار العقيدة للإنسان بعد أن يوضح له طريق الحق والخير ويقول له: ﴿**أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾.

ضرورة التأسيس لمنظومة مبادئ وضوابط أخلاقية جديدة

لا يمكن الإيمان بقيمة الحرية، والتعبير عنها بكل أشكال التعبير الإنساني والمألوف، والإفصاح عن مكنونات الإنسان، وحاجته إلى البوح عن معتقداته وأفكاره ومشاعره، من دون ضوابط أخلاقية في السلوك والتعامل؛ لأن حركة الأمور من دون ذلك تسير في اتجاه الفوضى المدمرة، التي لن تكون عواقبها إلا التهلكة، خصوصًا في تلك البيئات الاجتماعية والسياسية التي تعيش التوتر والقلق وعدم الاستقرار.

والشيخ الصفار يحرص دائمًا في خطابه على تأكيد أهمية أن تتصف شخصية الإنسان المسلم بالخصال الأخلاقية الرفيعة، لكونها معيارًا أساسيًّا في مدى التزامه بالقيم العليا للدين، حيث لا ينبغي التفكير فقط في التأسيس لقيم الحرية والتعددية والتنوع وغيرها من قيم، من دون التأسيس لمنظومة مبادئ أخلاقية، وتعاليم تربوية، تضبط حركة الإنسان وتوجهه نحو السلوك القويم، فالإنسان المسلم يجب أن يجسد في شخصيته البعد الأخلاقي، ليكون مثالًا وقدوة في الأخلاق، وفي حسن التعامل مع الآخرين أيًا كانت انتماءاتهم.

كما يلفت الشيخ الصفار إلى أن الآداب والأخلاق الإسلامية، التي يربي الإسلام

عليها أبناءه، ليست خاصة بالمسلمين فيما بينهم، بل هي تعمّ كافة أفراد المجتمع، مهما تنوعت أديانهم وانتماءاتهم. ولأن القانون الإسلامي يحمي حقوق الجميع، يسجّل التاريخ بإكبار، كيف أن مواطنًا يهوديًا نازع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في درع، فحضر الإمام معه مجلس القضاء عند شريح القاضي، وجلس في جنب خصمه اليهودي.

ويروى أيضًا بأن غلامًا لابن عباس ذبح شاة، فقال له ابن عباس: إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي، ثم كررها حتى قال له الغلام: كم تقول هذا؟ فقال: إن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لم يزل يوصينا بالجار، حتى خشينا أنه سيورثه، فابن عباس بنصّ هذا الخبر كان مجاورًا ليهودي، وكان يهتم بالإهداء إليه، كما يهتم بسواه، مراعاة لحرمة الجوار، ومعنى هذا أن الإسلام لا يفرق في مكارم الأخلاق وحقوق الاجتماع بين مسلم وأي مخالف آخر، فالكل في نظره سواء.[1]

إن معنى احترام الإنسان المسلم لغيره من الناس يعني حرمة حقوقه المادية، كجسده وماله، وحقوقه المعنوية، كحريته وكرامته، واختياره لدينه، فاضطهاد الناس على أساس دينهم أو اعتقاداتهم، سلوك منحرف عن قيم الدين، وممارسة لا يرضاها الإسلام، بل الإسلام يوصي أبناءه بأن يكونوا المثل الأعلى في الأخلاق وحسن التعامل مع الآخرين، حتى لا تحسب تصرفاتهم غير اللائقة على الإسلام، فتشوه سمعته وتنفر الآخرين منه.

ويتحدث الشيخ الصفار أن في تشريعات الإسلام وآدابه، ما يكرس حالة الانسجام والتعايش بين المواطنين المتنوعين دينيًا، فالتمايز الديني لا يؤثر في التكافل الاجتماعي والاحترام المتبادل، فالفقير والمحتاج يستحقان المساعدة من المجتمع، دون النظر لدينه وعقيدته، حيث تحلّ الصدقة أيضًا على فاسق وكافر، من يهودي أو نصراني أو مجوسي، ذمّي أو حربي، لقوله تعالى: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا**﴾، والتمايز الديني لا يمنع المشاركة في تحصيل المكاسب، والاستفادة من فرص التنمية والإنتاج، فمثلا من بادر لأرض مهملة غير مملوكة فأحياها بجهده ونشاطه، ببناء أو زرع أو ما أشبه

---

(١) من كتاب التنوع والتعايش. ص ١٠٦

من طرق الاستفادة من الأرض، فإنه يتملكها بإحيائها.[١]

إن قيم الإسلام ومفاهيمه وتعاليمه، كما يشرح الشيخ الصفار، ذات أفق إنساني عالمي، تستوعب كل القوميات والأعراق والشعوب، فمنذ بداية الإسلام كانت الصفوة التي سبقت إلى الإيمان به، وجاهدت وناضلت من أجله، تضم عناصر من أعراق وقوميات مختلفة، فكان ذلك نواة وأرضية، لبناء المجتمع الإسلامي على أساس من التنوع العرقي والقومي.

ويضيف الشيخ الصفار بأن قيم الإسلام وتعاليمه الإنسانية العالمية، هي التي اجتذبت هذه العناصر المختلفة الأعراق، وصهرتهم في بوتقة إيمانية واحدة، وشجعت بروز الكفاءات، وأن يأخذ الإنسان موقعه، ويمارس دوره، بكفاءته وإيمانه، دون النظر إلى عرقه أو لغته أو لونه، وبالطبع ما كان ذلك ليتم بيسر وسهولة، في تلك الأجواء التي كانت محكومة بالعصبية القبلية، والانتماءات العرقية، ولكن مفاهيم الإسلام، ومواقف الرسول القائد ﷺ التوجيهية الإرشادية، صنعت جوًّا جديدًا، وأشاعت ثقافة جديدة.[٢]

إنه لمن الحري بكل إنسان ينتمي إلى دين الإسلام وحضارته، ويدّعي أن رسالته تكمن في هداية الناس وإرشادهم إلى الخير والرحمة والمحبة والمعاشرة الحسنة، أن يحسن التأسي والاقتداء بالنبي ﷺ في سلوكه وممارساته وأفعاله، باعتباره مدرسة الأخلاق الفاضلة والسلوك الحضاري الفاعل والقيم العالية والآداب الحسنة، حيث كان سلوكه مطابقًا لما يدعو إليه، وهي صورة مشرقة بتعاليم القرآن حتى وصف بأن خلقه القرآن، وكان يكثر من الدعاء بتحسين أخلاقه وتهذيبها، وأن يجنبه منكر الأخلاق ويهديه إلى أحسنها بقوله: (**اَللَّهُمَّ كَمَا أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي**).

إن كبح جماح حالات التطرف والحدّية في التعامل بين الناس، ومنع نموها وتفاقمها

---

(١) من كتاب التنوع والتعايش. ص ١٠٨

(٢) من كتاب التنوع والتعايش. ص ١٢٢

في مجتمعات اليوم، يتطلب الرجوع إلى سيرة الرسول والاقتداء به، والسير على خطاه، والالتزام بخلق القرآن الداعي إلى سعة الصدر، والانفتاح على الآخرين، وتذويب الحواجز والفواصل بين المؤمنين، حيث نوّه الإسلام بالخلق الحسن، ودعا إلى تربية المسلمين عليه وتنميته في نفوسهم، والقرآن الكريم أمر بمحاسن الأخلاق عندما قال سبحانه وتعالى: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾.

وحول هذا الأمر يشير الشيخ الصفار إلى أن مراجعة سريعة للتعاليم الدينية والنصوص الإسلامية سوف تكشف لنا بوضوح مدى حرص الإسلام على طهارة ونقاء نفس الإنسان المؤمن، ليتمكن من النهوض بمسؤولياته العظيمة ودوره الخطير في هذه الحياة، لكن حينما تتفاقم الصراعات الداخلية بين أبناء الدين الواحد، وتسود بينهم العداوة والبغضاء والضغينة، فإن ذلك يستلزم تلوث النفوس بالكراهية، وإثقال القلوب بالأحقاد، مما يؤدي إلى الفتك بطهارة القلوب والنفوس؛ لأن الحقد ورم خبيث وجرثومة مقيتة تجعل النفس مظلمة متآكلة.

وإذا ما كانت المصالح الدنيوية توقع الإنسان في الخصومات والأحقاد، فإن رحابة الدين وسماحته لا تسمح للمتدينين بأن يخاصموا في دينهم، وهؤلاء الذين يجعلون اعتقادهم بفكرة دينية أو اقتناعهم بعمل ديني، سببًا لمخاصمة الآخرين وعداوتهم، بدلًا من السعي للحوار معهم ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة، هؤلاء بعيدون عن روح الدين ومخالفون لأخلاقه الكريمة.(١)

إن العزوف عن الانفتاح على الآخر، وغياب الحوار بين القوى والأطراف المختلفة في مجتمعاتنا، يعتبر مكمنًا أساسيًّا من مكامن الداء في هذه المجتمعات، ومظهرًا صارخًا من مظاهر التخلف، حيث تشترك عدة عوامل في تكريس هذه الحالة المرضية كما يقول الشيخ الصفار، متوقفًا عند العامل التربوي، حيث تزرع العائلة في نفوس أطفالها الحذر من الاختلاط بالآخرين بشكل مبالغ فيه، وتمارس مع أبنائها أسلوب الأمر والزجر دون

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ١٧٣

إعطائهم فرصة للتفكير والنقاش، كما تعتمد أغلب مناهج التعليم طريقة التلقين وفرض الرأي الواحد، ورفض ما سواه لأنه باطل وكفر وشرك وابتداع.

لا يكتفي الشيخ الصفار بتلك الملاحظات، بل هو يتهم التوجيه الديني في مجتمعاتنا بأنه ينتهج في معظمه أسلوب الحدّية والتطرف تجاه الآخر، على أساس أنه (فماذا بعد الحق إلا الضلال)، وأن فرقة واحدة هي الناجية، والباقين في النار، مع تطبيق ذلك على تفاصيل موارد الاختلاف وتنوع الاجتهادات، حيث يدفع هذا النمط من التوجه الديني إلى مقاطعة الآخر المخالف والمختلف، معاقبة له على ضلاله، وإنكارا لمنكره، ولردعه عن بدعته، وللتحصين من تأثيراته المختلفة، والتزامًا بواجب البراءة من أعداء اللَّه.[١]

غرس القيم في الأجيال الناشئة

كم نحن اليوم أحوج ما نكون إلى تجدد أخلاقي وبناء ثقافة جديدة، تجسد تلك المفاهيم والقيم النبيلة التي جاء بها الإسلام على أرض الواقع وفي حياتنا المعيشة بشكل عملي وتطبيقي، بعدما ابتعدت مجتمعات الأمة عن التجسيد العملي لهذه القيم، وساد بدلًا عنها ثقافة الإقصاء والإكراه والفكر الأحادي، الرافض لتعدد الآراء وتنوع الأفكار، وادّعاء امتلاك الحقيقة المطلقة والانفراد بها، حيث يفترض البعض أن الحقيقة دائمًا ملكًا حصريًا لهم، وهم الوحيدون فقط من يمثلونها، ويرفضون أي مخالفة لهم، ولا تتسع صدرهم لتعدد الآراء، ولا لاختلاف وجهات النظر معهم، ويعدُّ الخروج عن رأيهم شذوذًا تجب مواجهته، فالحقيقة كما يرونها واحدة لا ثاني لها، مهما امتلك أحد آخر دليلًا داحضًا يثبت به رأيه ووجهة نظره، حيث لا قيمة لذلك عندهم.

إن الحديث عن القيم وتنميتها وتربيتها وغرسها في النفس البشرية، هو دعوة إلى تمثل مكارم الأخلاق التي جاء الرسول ليتممها من أجل بناء الإنسان الصالح في كل أبعاده الروحية والاجتماعية والثقافية، ليكون النموذج الذي يمثل أخلاق الإسلام في

---

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر، ص ٧.

عيشه ووجوده وحياته من خلال تجسيده قيم التسامح والمسؤولية، وقيم احترام الآخر والتعامل معه، وقيم التعاون والتقدير والتعايش، وقيم احترام الثقافات الأخرى، وقيم احترام الذات، وقيم العدالة والحوار والسلام والصدق.

لقد سادت مجتمعاتنا ثقافة التعصب والاستبداد بالرأي، وتحولت إلى سلوك عملي يمارس على أرض الواقع، من خلال قمع الرأي الآخر، وسلب حقه في التفكير وحرية الاختيار، وفرض العقائد بالإكراه على الآخرين، بدعوى أن ذلك يأتي دفاعًا عن الدين والوطن، مما ساهم في تذكية مفاهيم التعصب والمغالاة، وتسبّب في إشعال التوترات الطائفية، وزيادة المدّ الطائفي والتكفيري، وزيادة منسوب التطرف والعنف، وبروز الصراع بين الهويات واقتتالها، وإثارة البلبلة بين أبناء الأمة الواحدة واضطراب أحوالها، وانتشار ثقافة الكراهية والتطرف والغلو، وتقويض الاجتماع الأهلي والسياسي في المجتمعات، حيث تعلو وترتفع أصوات الغلو والتطرف التي تتخذ الدين ستارًا من أجل فرض قناعاتها وتمرير مآربها.

والشيخ الصفار يعبر عن هواجسه مما يسود الساحة الدينية من تعصب ومغالاة، مقرًّا بحاجتها إلى الاعتراف بحق الاختلاف، وتعزيز حرية الرأي، ونشر ثقافة التسامح وقبول الآخر، داعيًا إلى رفع الصوت عاليًا ضد الإرهاب والقمع الفكري، ومحاولات الهيمنة، وفرض الوصاية على عقول الناس وأفكارهم، باسم العقيدة والدين. فليس من الخطأ أن يقتنع الإنسان برأي، أو ينتمي إلى مدرسة، أو يؤمن بقيادة، أو يثق بمرجعية، كما أن من حقه أن يعبر عن رأيه، وأن ينتصر لتوجهه، وأن يبشر بأفكاره، لكن الخطأ هو في أن يحتكر هذا الحق لنفسه وينكره على الآخرين.[١]

إن صناعة جوٍّ ثقافي جديد ومختلف عما هو كائن، وتجسيد تعاليم الدين وقيمه، يحتاج إلى تنشئة وتربية وتعليم وتدريب الأجيال الجديدة منذ صغرها على حرية الاختيار وإبداء الرأي دون قهر أو خوف، واحترام آراء الآخرين دون تسفيه أو تحقير، حيث يجب أن

---

(١) من كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. ص ٩

يدرَّب الطفل منذ صغره على التعايش مع ما حوله من تعدد وتنوع بشري وفكري وديني ومذهبي، والتسامح مع اختلافات الرأي ووجهات النظر وتباينها، وتذكيره برفض أي نوع من أنواع الإقصاء للرأي الآخر، والتفريق بين تباين الآراء وبين العداء والمواجهة للرأي الآخر.

إن شخصية الإنسان وبنيته الثقافية تتشكل وتتبلور منذ مرحلة الطفولة المبكرة في أحضان عائلته، ومن خلال ما يتلقاه من برامج تعليمية، وطبقًا لما لاحظه الباحثون في علم النفس والاجتماع، كما ينقل الشيخ الصفار، فإن الأطفال في سن الخامسة وما قبلها، لا يستوعبون حالات التمييز فيما بينهم على أساس أي انتماء عرقي أو ديني أو طبقي، بل ينجذبون إلى بعضهم، ويشتركون في اللعب، دون وجود مشاعر تمييزية، لكنهم في سنّ السادسة وما بعدها يتأثرون بأجواء محيطهم العائلي، في تكوين الانطباعات والمشاعر للفرز بين أقرانهم وأندادهم من الأطفال، على أساس اختلاف الانتماءات.

أما في مرحلة الشباب، من سنّ الثانية عشرة إلى السادسة عشرة وما بعدها، يكون استعداد الأبناء أكثر للتعاطي مع حالات الفرز والتمييز، واتخاذ المواقف تجاه الآخرين، حيث تكون حالة الاندفاع والحماسة، والعنفوان العاطفي في مرحلة الشباب، أرضية مساعدة للاستجابة للاتجاهات التعصبية، لذلك تهتم مختلف التيارات والتوجهات باستقطاب الشباب، للاستفادة من قوة حماسهم واندفاعهم في خدمة خططها وبرامجها.

وهنا، كما يتابع الشيخ الصفار، يأتي دور التربية العائلية، والمناهج التعليمية، في توجيه مشاعر الأبناء، وترشيد توجهات الشباب، ليستقبلوا الحياة بروح منفتحة، ونفسية طيبة، غير ملوثة بالعقد والأحقاد، حيث يظهر من دراسة حالات التعصب القائمة في مجتمعاتنا، أن التربية العائلية، وبعض المناهج التعليمية، تتحمل قسطًا كبيرًا من المسؤولية في زرع بذور هذه الاتجاهات التعصبية، وتنميتها في نفوس الأبناء والطلاب.

فالإمعان في تشويه صورة الآخر أمام الأبناء والطلاب، ووصفه وتعريفه بطريقة غير موضوعية، ثم التعبئة والتحريض ضده، بإثارة مشاعر الكراهية والعداء، الذي قد يصل

إلى حدٍّ تجريده من كلّ قيمة وحق، كل ذلك يهيئ المتلقي (الابن/ الطالب) للاستجابة للتوجهات التعصبية، والانخراط في صفوفها، والتفاعل مع ممارساتها العدائية.

كما لم تسلم مناهج الكليات والجامعات هي أيضًا من هذا المطب الخطير، على حدّ قول الشيخ الصفار، مستشهدًا برأي باحث أكاديمي في مقال له تحت عنوان **التنمية الأكاديمية للاتجاهات التعصبية** عندما يقول: «يسعى القائمون على التعليم بداخل الكليات إلى تنمية الاتجاه الواحدي بما يتضمنه من قيم سلبية تتجسد في الأنا، وجعل الآخر شرطًا للنجاح بالقضاء عليه أو إبعاده أو إقصائه، فتسود في المجتمع الاتجاهات العصبية»، ثم يضيف هذا الباحث: «يظهر من الكتاب التدريسي المقرر نصًا، الرغبة في تكوين القوالب النمطية للجماعات الأخرى المذهبية، ويلحظ في ذلك التكوين قيامه على صورة مشوشة أو مختزلة في شخصيات معينة، أو تلفيقها من جمع كثير قد لا يصدق على تلك الجماعة، أو إدراكات خاطئة».

إن ما يحاول الشيخ الصفار التذكير به هو أن مكامن القوة في ديننا وعقيدتنا الإسلامية كبيرة وعظيمة، ولسنا بحاجة إلى الأساليب الملتوية لإقناع أبنائنا بصحة مبادئنا وأفضليتها، كما أن تعاليم الإسلام في التعاطي مع الآخرين، تنطلق من احترام إنسانيتهم، وإنصافهم، وإظهار الأخلاق الرفيعة لهم، اتباعًا لقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ**﴾، وقوله تعالى: ﴿**وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾.

لذلك من الضرورة بمكان، إعادة النظر في أساليب التربية العائلية، ومناهج التعليم، لتنقيتها من كل ما يخالف قيم التسامح، وأخلاق التعامل الإنساني، من أجل توفير تربية سليمة، وتعليم صحيح، يؤهل أبناءنا للنجاح في تطوير قدراتهم، وخدمة أوطانهم، وتنمية مجتمعاتهم، وإعطاء صورة مشرقة عن دينهم أمام العالم.[١]

إن بناء مجتمع جديد قادر على تمثل قيم الإسلام الأصيلة والراسخة، يتطلب التأسيس للتربة الصالحة التي تُغرس فيها المثل العليا والقيم الفاضلة، حتى تنبت أخلاقًا كريمة

---

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ٧٩

ونبيلة، فتثمر كمالًا إنسانيًّا رفيعًا، يشعّ من خلاله السلوك الحضاري الفاعل، والقيم العالية، والآداب الحسنة، لكي تتأسّس الأجيال الجديدة على قاعدة متينة من الأخلاق الكريمة، وتكون بها قادرة على التعامل مع الواقع بثقافة جديدة وبأخلاق رفيعة، مقتبسة ومستلهمة من قيم الدين وتعاليمه، التي تُعلي من قيمة الإنسان وتحترم فيه عقله.

إن التربية التي يتعرض لها الإنسان، والأجواء التي ينشأ فيها، سواء كان ذلك في الأسرة أو المدرسة أو البيئة الاجتماعية، ستكون عاملًا أساسيًّا في عملية بناء القيم في مجتمعاتنا، ما بقي هذا الإنسان صافي الفطرة ولم يتلوث بالثقافة السلبية الضارة، وظلّ وجدانه نقيًّا لم تشوهها حجب الغفلة والشهوة، كما يقول الشيخ الصفار، «ذلك أن اللَّه سبحانه وتعالى أودع في أعماق نفس كل إنسان فطرة صافية ووجدانًا قويًّا، وبالفطرة والوجدان يهتدي الإنسان إلى الخير ويكتشف موارد الشر، وبها يتفق أبناء البشر على المبادئ الخيرة والبديهيات العقلية».[(١)]

إذا كان الكثير من القيم الفاضلة قضية محسومة في المنهج الإسلامي، ودعا إليها القرآن الكريم في كثير من آياته، ومارسها الرسول الأكرم وطبقها في حياته، وتجسَّدت عمليًّا من بعده في سلوكيات خلفائه والكثير من أصحابه، فلماذا لا نجدها تتجسد اليوم عمليًّا وواقعيًّا في حياتنا ومعاملاتنا وعلاقاتنا، حيث تطغى على ممارساتنا سلوكيات التعصب والاستبداد والتعسف في التعامل مع الآخر، وتغييب رأيه ومصادرة فكره، وانتهاك حرمته وكرامته؟

لن يتم القطع مع ثقافة الجهل والتخلف، وقيم التعصب والاستبداد، والسعي بدلًا عن ذلك إلى نشر ثقافة التسامح، إلا من خلال التدريب الأخلاقي والتربوي المستند على تعليم الفرد مكارم الأخلاق، وزراعة القيم الفاضلة لديه، وتعريفه بالقيم الثقافية الإيجابية، وتعويده على قبول حالة التنوع والتعدد، والانفتاح على الآخر واحترامه، واحترام أفكاره، وعدم التعسف بالرأي ومصادرة رأي الآخر.

---

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ١٤٣

والصراحة تقتضي القول إن مسؤولية الحكومات مضاعفة في نشر ثقافة التسامح وزرع قيم الفضيلة ومكارم الأخلاق، من خلال إطلاق برنامج ثقافي تنويري واسع، تربويًّا وإعلاميًّا، يهدف إلى تغيير وتطوير السياسات الإعلامية والتربوية والتعليمية ومناهج التدريس، حيث يعتقد الشيخ الصفار أننا نحتاج إلى حالة طوارئ على هذا الصعيد، نتيجة ما عانيناه من ثقافة الإقصاء، والحضّ على الكراهية، ووضع الحواجز بين المواطنين، بسبب اختلاف آرائهم أو مذاهبهم أو توجهاتهم، وذلك من أجل تدشين مرحلة جديدة تتجاوز فيها الأوطان آثار تلك الثقافة الإقصائية المريرة والمؤلمة.(١)

إن الإعلاء من شأن القيم الإيجابية في واقعنا المعاصر، يحتاج إلى بسط وشرح الشواهد القرآنية الدالة على ذلك، والأحاديث والسيرة النبوية، والأحداث التاريخية الدالة على أصالة هذه القيم في الدين والشريعة، وأنها قيم أصيلة، وفي الوقت نفسه قابليتها لمواكبة التطور والتقدم الحادث في الحياة الإنسانية، وأنها لا تتعارض مع الكثير من القيم الحديثة، بل إن الاجتهاد فيها يشكل إضافة حقيقية إلى التراث الإنساني في هذه الحياة.

معوقات التغيير

إن الجوانب السلبية الموجودة في تراثنا جميعًا، تشكل خطرًا على مستقبل أبنائنا وناشئتنا دينيًّا، حيث لم تعد عقولهم المنفتحة على تطور العلم والعصر تقبل الآراء المتزمتة، والأفكار المتشددة، والمرويات السيئة، على أن من أخطر المعوقات التي تمنع عمليات التغيير والإصلاح في مجتمعاتنا، هو التشبث بمفاهيم وممارسات نشأت بفعل حوادث التاريخ، ولا تمثل قيمة دينية ثابتة وراسخة. ومن القضايا المثارة في هذا السياق، كما يشير الشيخ الصفار، هو التمترس بالإسلام لتبرير واقع الاستبداد من جهة، ولتسويغ ممارسات الإرهاب والعنف من جهة أخرى، فينبري من يدّعي أن الديمقراطية مخالفة للإسلام، والمجتمعات الإسلامية لها خصوصيتها، والجهاد ضد الكفار فريضة، وإرهاب

(١) من كتاب المشكل الطائفي والمسؤولية الوطنية. ص ٣٥ ـ الطبعة الثانية ٢٠٠٩، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت لبنان.

الأعداء واجب.

ومما يساعد على ترويج هذه الأقاويل هو اتّصاف المساحة الأوسع من تاريخ المسلمين بسمة الاستبداد، فهناك جذور تاريخية للاستبداد، والى جانبه مدرسة دينية لتأصيله وتشريعه، حيث كان الأمويون والعباسيون والعثمانيون يحتكرون السلطة ويتداولونها وراثيًا بالقوة والغلبة، وكان إلى جانبهم فقهاء يمنحونهم الشرعية الدينية.

إلا أن الباحث الموضوعي، كما يجزم الشيخ الصفار، يستطيع أن يفصل بين الواقع التاريخي السيئ للمسلمين، وبين حقيقة مفاهيم الإسلام وتشريعاته، وأن هناك مسارًا آخر في التاريخ الإسلامي يعارض ما كان قائمًا، ويبشر بقيم العدالة والحرية وحقوق الإنسان برؤية دينية واعية، ويؤكد مصداقية هذا الفرز المطلوب، حيث يتجلى الدليل الأوثق والأصدق في سيرة الرسول ﷺ، فإذا كان النص الديني يحتمل أكثر من قراءة وتفسير، وإذا كان رأي الفقيه قابلًا للأخذ والردّ، فإن سيرة الرسول وممارسته الفعلية لإدارة المجتمع الإسلامي الأول، تقدم الصورة الصحيحة الواضحة التي لا لبس فيها عن رؤية الإسلام ومنهجه في السياسة والحكم.(١)

خلاصة القول: إن الشيخ الصفار يرى أن القراءة الواعية للسيرة النبوية الشريفة يمكنها أن تساعد الأمة في تجاوز آثار تاريخ الاستبداد، وفي مواجهة الآراء المحافظة المتزمتة، كما يمكنها أن تؤصّل لتوجّهات الإصلاح والتطوير، فهو صاحب أنصع سيرة في تاريخ البشرية، جسدت مكارم الأخلاق، والتزمت مبادئ الحق والعدل، وسيرته الشريفة تحكي عن أروع مواقف الالتزام باحترام حقوق الإنسان وكرامته، ومراعاة المشاعر والأحاسيس الإنسانية، وإضفائه العطف والحنان حتى على المناوئين، والاقتصار في استخدام القوة على ما تفرضه الضرورة وتدعو إليه الحاجة الملحة.

إن السعي إلى التعريف بحقيقة إعلاء الإسلام للقيم والتبشير بها، يحتاج إلى جهد وعمل ثقافي وفكري يبين الفرق بين الإسلام دينًا وعقيدة سماوية خالصة، وبين تاريخ

(١) من كتاب السياسة النبوية ودولة اللاعنف. ص ٢٩

المسلمين وتراثهم الفكري والثقافي، والقيام بعمل نقدي ومراجعة للتراث، توضح الفرق بين الإسلام كما في مصادره الأصيلة، والإسلام كما فهمه الناس في العصور والأزمان المختلفة، عندما ساد في بعضها الجهل واضمحلال الفكر، وتم إعطاء النصوص تفسيرات ومفاهيم هي في الأساس نتاج تاريخي، أنتج لحساب أوضاع سياسية/ اجتماعية يراد بها مواجهة المنافسين أو الخصوم.

سادساً:

بين أخلاقيات التعصب وأخلاقيات التسامح

التعدد والتنوع سمة أصيلة من سمات هذه الحياة التي نحياها، وهو أمر واقع لا فكاك منه، ولا قدرة لأحد على إلغائه وادّعاء تجاوزه. ويمكن أن يكون هذا التعدد سلبيًّا عندما يتحول إلى صراعات ونزاعات طاحنة وقاتلة بين أبناء الأمة الواحدة من أهل العقائد والمذاهب والملل والفرق المختلفة، مما يؤدي إلى تمزيق مجتمعات الأمة، وتعطيل ركب التقدم الإنساني فيها.

ومن جانب آخر، يمكن أن يكون هذا التنوع والتعدد إيجابيًّا وخلّاقًا في حياة الأمة، عندما تدار هذه الاختلافات الطبيعية بطريقة حيوية وخلاقة، تؤدي إلى استثارة العقول، واستثمار الطاقات البشرية، وتحريك قوى الخير والنهوض، وتدفع الجميع نحو التنافس الشريف للرقي بمجتمعاتهم، على الرغم من كل حالات الاختلاف في العقائد والأيدلوجيات والاتجاهات والآراء والمواقف.

ولكي ينتج هذا التنوع والتعدد ثماره الإيجابية، وتكون له نتائجه المفيدة، من الضروري أن يعمل كل المختلفين من أجل صالح المجموع، وخلق الأرضية المناسبة التي تساعد على التلاقي والتعاون، والاتفاق على ما هو مشترك في الأصول والأسس، والتعامل مع مسائل الاختلاف بروح وحدوية وإيجابية متسامحة، مع عدم تضخيم قضايا الخلاف في الفروع والجزئيات حتى لا يهدد ذلك وجود المجموع.

القبول بتفاوت درجات الإيمان ومستوى التدين

إن من أهم أسباب انهيار الحضارات وهزيمة الأمم، بروز الخلافات ووقوع النزاعات بين فئاتها، وهو الأمر الذي يشكل مصدر الخطر الأول الذي يكبِّل المجتمعات عن القيام بمسؤولية عمارة الأرض، ويعيق حركة النهوض والتطور فيها، فمع انتشار وتفشي النزاعات والصراعات، وخصوصًا تلك الصراعات ذات الخلفية الدينية والعقائدية، سوف تؤول الأوضاع إلى الفوضى وتهوي إلى الحضيض، وتنقلب الأرض عاليها سافلها، وتشتعل الحرائق الهائلة، التي تأكل الأخضر واليابس، وتهلك الحرث والنسل، وتكون نتيجتها حدوث كوارث إنسانية، وإبادات بشرية.

والإسلام، كما يشرح الشيخ الصفار، لا يرضى أن تسود مجتمعاته مثل هذه الصراعات الدموية والقاتلة، بل يريدها أن تكون مجتمعات قائمة على التسامح والرحمة، وأن تكون أبوابها مفتوحة ومشرعة حتى على أبناء البشرية جمعاء لاستقطابهم واحتوائهم تحت راية الإيمان باللّٰه والخضوع لشريعته، حيث لم يتشدد الإسلام في وضع شرائط ومؤهلات الانتماء لكيانه الاجتماعي، فمجرد إعلان الشهادتين **(لا إله إلا اللّٰه محمد رسول اللّٰه)** كافٍ لقبول عضوية الفرد في مجتمع المسلمين، بأن يصبح جزءًا منهم له ما لهم وعليه ما عليهم، ثم يبقى المجال مفتوحًا لتفاوت مستوى الإخلاص ودرجات الإيمان والتقوى بين أفراد المجتمع.

إلا أن المشكلة، كما يوضح الشيخ الصفار، هي أن هناك من الناس من يحاول إلباس الدين ثوب أنانيته ونظرته الضيقة، أو المصلحية، في الوقت الذي حارب فيه الإسلام ورفض، أي دور «بوليسي» على بوابة الإسلام، بأن ينصِّب أحد من نفسه شرطيًّا يطرد الراغبين في الدخول إلى رحاب المجتمع الإسلامي، أو يحكم بإخراج أحد ممن يعيش في ظلال الإسلام.

ويجزم الشيخ الصفار أنه بنصّ قاطع صريح، ينهى اللّٰه سبحانه وتعالى عن رفض من يتظاهر بقبول الإسلام، وإن كان ذلك المتظاهر قد خاض لتوّه معركة ضد الإسلام وقاتل

المسلمين، حيث يقول تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾**.[١]

لذلك من المهم أن يكون الإنسان المسلم صاحب قلب رحيم مع أخيه الإنسان، ولا يقسو معه في أفعاله، وأن يكون عادلًا في أحكامه، وأن يقبل سائر المسلمين على ما هم عليه من ظاهر الإيمان، ومستوى التدين، بعيدًا عن الإقصاء والنبذ والتحقير والتكفير، فالجميع له حق الإسلام، وحرمة الدين، وأخوة لا إله إلا اللَّه.

وإذا كان من الطبيعي والمسلّم به أن الناس في هذه الحياة الدنيا يختلفون في أفكارهم وآرائهم ومواقفهم وعاداتهم وأذواقهم، فإنه ليس من الغريب أيضًا أن يختلف الناس في المجتمعات المسلمة في مستوى التزامهم الديني، وفي تمسكهم بالتفاصيل الدينية والشعائر العبادية، وفي سلوك وتطبيق الآداب الإسلامية، «فضمن دائرة الإيمان باللَّه، وفي إطار الاعتقاد بدينه وشريعته، تتفاوت درجات إيمان المؤمنين، فهناك من يكون في أدنى درجة من الإيمان، وهناك من يوفقه اللَّه تعالى لتسلق القمة والارتقاء إلى أرفع الدرجات، وبالطبع فإن تفاوت درجات الإيمان بين المؤمنين قد تسبب تمايزًا واختلافًا في بعض الأفكار والمواقف والممارسات.

وهذا التفاوت يُعدُّ شيئًا مقبولًا، يجب أن تتسع له صدورنا، ولا يجوز لنا أن نسقط اعتبار أناس مؤمنين لأنهم يختلفون معنا في بعض الجوانب والتفاصيل، فلعلّ مردّ ذلك إلى تفاوت درجات الإيمان بيننا وبينهم، بأن نكون أعلى أو أدنى منهم مرتبة **﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾**».[٢]

ويتفق مع هذا الطرح عائض القرني واصفًا تفاوت مستويات التدين في المجتمعات المسلمة بقوله: «المسلمون منهم العالم الرباني والعابد القانت الخاشع والملتزم بالواجبات

---

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ٢٤٣

(٢) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ١١٤

التارك للكبائر، ومنهم الظالم لنفسه بارتكاب بعض المنهيات وترك بعض الواجبات، فهم على درجات متفاوتة بالالتزام بالدين، وهم بحاجة إلى من يدعوهم برحمة ويعاملهم برفق لاختلاف عقولهم ومداركهم وتباين أفكارهم وكثرة الشبهات والشهوات وضعف اليقين والصبر عند الكثير منهم، وليس بصحيح أن يقال في المجتمع المسلم: فئة المتدينين أو رجال الدين؛ لأننا كلنا رجال دين من العلماء والمسؤولين والأطباء والمهندسين والكتاب والجنود والتجار وغيرهم، فعلى المسلم أن يتعامل مع إخوانه المسلمين ويقبلهم على اختلاف مستوياتهم في التدين».

ويتابع القرني شرحه قائلًا: إنه لو اتسعت صدورنا وارتفعت هممنا لخاطبنا إخواننا المسلمين بألطف العبارات وأجمل الأساليب، فالآراء لا تصحح بالسبّ والشتم، والبراهين لا تعرض بالتهديد والوعيد؛ لأن الحجة الصادقة الناصعة تكفي بنفسها في إثبات الحق، لذلك علينا أن نعترف بمستويات التدين وأن نقبل الناس على علّاتهم، ولا نزكي أنفسنا، واللَّه أعلم بمن اتقى، ولسنا نحن من يحاسب الناس، وليست في أيدينا الرحمة أو العذاب، وليست في جيوبنا مفاتيح الجنة، ونحن لم نخلق الناس ولم نرزقهم، بل نحن عبيد مثلهم.[1]

التمتع بحصانة الإسلام

من الطبيعي إذًا أن تتعدد الآراء، وتتنوع التوجهات ضمن المجتمع الإسلامي الكبير، سواء في مجال فهم الدين، الذي هو عبارة عن النص الشرعي المنقول، المتمثل في الكتاب العزيز، والسنة الشريفة، وذلك إما للاختلاف في ثبوت النص، كما هو الحال بالنسبة لبعض أحاديث السنة النبوية، أو للاختلاف في فهم دلالته، وإن كان صدوره قطعيًا ككتاب اللَّه المجيد، أو في مجال تشخيص المصالح الخارجية، حيث يبتني على الاختلاف فيها، تنوع المواقف السياسية، والانتماءات الاجتماعية.

---

(١) المسلمون على درجات في التدين. عائض القرني. جريدة الشرق الأوسط، ١٤/ ٦/ ٢٠١١م.

لكن هذا التنوع، كما يشدّد الشيخ الصفار، لا يصحّ أن يؤثر على الإقرار بالهوية المشتركة، والانتماء الواحد، لجميع أبناء الأمة وهو الإسلام. فكل من آمن بالإسلام دينًا، وأقرّ بأصوله وأركانه فهو عضو في المجتمع الإسلامي، وجزء لا يتجزأ من الأمة، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، يتعاملون معه كأخ لهم، ويتمتع بالحصانة الكاملة، من حرمة دمه وماله وعرضه، إلّا بحقّ، ضمن ضوابط القانون الذي ينطبق على الجميع، حيث لا يصحّ لأي جهة أن تحتكر الهوية الإسلامية لنفسها، وتسلبها عن الآخرين المختلفين معها، في الآراء أو المواقف، ولا أن تنتهك شيئًا من حرماتهم، ماداموا يعلنون انتماءهم للإسلام، والتزامهم بأركانه.

لقد تضافرت النصوص الشرعية بتأكيد هاتين الحقيقتين بشكل مطلق عام، وهما عضوية معلن الإسلام إلى المجتمع المسلم، وتمتع كل أبناء الأمة بحصانة الإسلام، ولا يؤثر اختلاف الآراء والمواقف على شيء من مقتضيات هاتين الحقيقتين. ومن النصوص التي تقرر الحقيقة الأولى، قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَقُولُوا لِمَن أَلقَى إِلَيكُمُ السَّلاَمَ لَستَ مُؤمِنًا تَبتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنيَا**﴾، فالآية الكريمة نصّ صريح في النهي عن التشكيك في إسلام من أعلن إسلامه، ولو كانت هناك قرائن تستدعي الشك، كظروف الحرب، وكونه قد أظهر الإسلام لمجرد السلامة والنجاة.

والأحاديث الواردة في شأن نزول هذه الآية الكريمة، تؤكد هذا الأمر، ومنها ما أورده البخاري عن أسامة بن زيد بن حارثة رضي اللَّه عنه أورده البخاري عن أسامة بن زيد بن حارثة (رضي اللَّه عنهما) قال: **بعثنا رسول اللَّه ﷺ إلى الحَرقَة من جُهينة ـ قبيلة من القبائل ـ قال: فصبحنا القوم فهزمناهم، قال: ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلًا منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا اللَّه، قال: فكفّ عنه الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ، فقال لي: (يا أسامة، أقتلته بعد ما قال لا إله إلا اللَّه؟) قلت: يا رسول اللَّه، إنما كان متعوذًا، قال ﷺ: (أقتلته بعد أن قال لا إله إلا اللَّه؟) قال: فما زال يكررّها عليّ، حتى تمنّيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.**

وفي صحيح البخاري أيضًا عن المقداد بن عمرو الكندي، حليف بني زهرة، وكان شهد بدرًا، مع النبي ﷺ، **أنه قال: يا رسول اللَّه، إن لقيت كافرًا فاقتتلنا، فضرب يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ بشجرة وقال: أسلمت للَّه، أقتله بعد أن قالها؟ قال رسول اللَّه ﷺ: (لا تقتله)، قال: يا رسول اللَّه، فإنه طرح إحدى يدّي، ثم قال ذلك بعدما قطعها، أقتله؟ قال ﷺ: (لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال).**

وفي تفسير الآية الكريمة يقول ابن عاشور محمد الطاهر: وقد دلت الآية على حكمة عظيمة في حفظ الجامعة الدينية، وهي بثّ الثقة والأمان بين أفراد الأمة، وطرح ما من شأنه إدخال الشك؛ لأنه إذا فتح هذا الباب عسر سدّه، وكما يَتهم المتهمُ غيره فللغير أن يتهم من اتهمه، وبذلك ترتفع الثقة، وانظر معاملة النبي ﷺ المنافقين معاملة المسلمين. وقال الشيخ محمد جواد مغنية في تفسيره: إن كل من نطق بكلمة الإسلام، وقال أنا مسلم، فحكمه حكم المسلمين من حيث الزواج والإرث، وما إلى ذلك من الأحكام التي تترتب على مجرد إظهار الإسلام، لا على نفس الإسلام حقيقة وواقعًا.(١)

وخلاصة القول: إن تعاليم الدين وقيمه تقدم لنا دروسًا أخلاقية في تصنيف الناس والتعامل معهم، حيث لا ينبغي للإنسان المسلم الملتزم بدينه، ممارسة الإقصاء والنفي للآخر، وممارسة الاغتيال المادي أو المعنوي تجاه أي أحد أو جماعة، نتيجة اختلاف الأفكار والمفاهيم والاعتقادات، أو بسبب صراعه وعدائه لهم، فتسوِّل له نفسه الادّعاء أنه وحده على الحق، وأن الآخرين على الباطل، فينزلق به الأمر إلى التعدي عليهم، وإسقاط اعتبارهم وقيمتهم ومكانتهم، وتجاهل حقوقهم وشخصياتهم، والتبرؤ منهم، والتجرؤ على إخراجهم من دائرة الإيمان، وتفسيقهم وتكفيرهم، لا لشيء إلا لأنهم لا يوافقونه في كل ما يعتقد ويقول ويعمل.

---

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ١٦٢

التخلق بأخلاق الدين ومعاييره

لقد أراد الإسلام لأبنائه أن يتربوا على سعة الأفق ورحابة الصدر وروح التسامح، كما يقول الشيخ الصفار، ليستوعبوا ما قد يحدث بينهم من اختلاف في الرأي وتفاوت في الأفكار، فما دام الجميع يرفعون شعار الإسلام ويعلنون الالتزام به، فهم مسلمون مهما تعددت مذاهبهم وتنوعت فرقهم، حيث الأصول واحدة متفق عليها بين المذاهب، والأسس واحدة ينطلق منها الجميع.

إلا أن ما يثير الخوف والفزع أن مرضًا خبيثًا تفشى في بعض الأوساط الإسلامية، وهو مرض التسرع في تكفير من يخالفهم في المذهب أو الرأي، فالإسلام عند هؤلاء المرضى محدود النطاق، ضيّق الإطار، يتلخص فيما يرونه ويعتقدونه هم وحدهم، ومن حاد عنه قيد شعرة خلعوا عنه رداء الإسلام، وحكموا بكفره وزندقته.[١]

إن نطق وقول لا اله إلا اللّه تكفي لنحكم لشخص ما، أو قوم ما، بالإسلام، أو إذا ظهر لنا من أحواله أو في أي إشارة ترشد إلى ذلك، ليحرم علينا بعدها دم قائلها، حتى لو قطعنا بيقين أنه كاذب في هذه الكلمة، إلا أن الغلاة لا يكفُّون عن نصب الحواجز بين أبناء الدين الواحد، من خلال تكفير من لا يرى رأيهم، ويعملون على إثارة خصومهم واستفزاز من يخالفهم بالشتيمة والكلمات الجارحة، وباستعمال الألفاظ النابية، والتنابز بالألقاب، والسبّ والشتم بأبشع الأوصاف وأقبح الألفاظ، مما يقسم المجتمع ويثير في النفوس العداوة والبغضاء.

لقد مرّ على تاريخ المسلمين أيام عصيبة ومؤلمة عندما «ابتلي الخوارج بمرض تكفير المسلمين المخالفين لهم في الرأي، وكانت ظاهرة جديدة في الأمة، حيث لم يتجرأ عليها أحد قبلهم، مع حصول الاختلاف في الرأي والموقف، والذي قد يصل إلى حدّ الاقتتال، كمقتل الخليفة عثمان، وحرب الجمل، وحرب صفين، دون أن يكفر أحد من الطرفين الآخر.

---

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ٢٤٩

وتسرب هذا الداء الوبيل منهم لغيرهم، وصار التكفير سلاحًا في معارك الخلاف المذهبي والفكري لدى الفئات المتعصبة المتطرفة، حيث تعتبر كل جهة متعصبة أن الإسلام محصور في عقيدتهم وفهمهم، وأن من خالف ذلك الفهم، ولو بأدنى مخالفة، فهو خارج عن حظيرة الإسلام، محكوم عليه بالكفر أو الشرك».(١)

إن شيوع ظاهرة التكفير، وتفشي لغة الشتيمة، والتقاذف بالألفاظ النابية والجارحة بين أبناء الدين الواحد، هو سلوك مشين وبعيد كل البعد عن تعاليم الإسلام وشريعته، التي حرصت على إشاعة خلق الرحمة والتعاطف والتوادد والسلام بين الناس، وترسيخ هذه القيم في النفوس والعقول، حيث يخبرنا القرآن الكريم بأن الهدف الأساس من الرسالة المحمدية هو ترسيخ قيمة الرحمة في النفوس، وجعلها سلوكًا حياتيًا للناس جميعًا. وفي هذا المعنى يقول القرآن الكريم موجّهًا الخطاب إلى النبي ﷺ: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾، ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾.

إن مشكلة كثير من المتدينين في علاقاتهم مع الآخرين، يكمن في عدم استعمالهم للمقاييس الدينية في التعامل، حيث تخضع علاقتهم بالآخرين للمزاج والمصلحة والفئوية الضيقة، بعيدًا عن معايير الدين الخلاقة في القياس، فتراهم يهتمون ويدققون في المظاهر الخارجية والشكليات الظاهرة، ويهملون المضمون والمحتوى والجوهر.

ويكمن السبب في هذه التصورات الساذجة، كما يقول الشيخ الصفار، في اعتقاد كثير من المتدينين أن الدين ينحصر في القضايا الاعتقادية، والأمور العبادية، أما شؤون الحياة العامة وأوضاع المجتمع فذاك أمر آخر، فتراهم يهتمون بمسائل الطهارة والصلاة بشكل تفصيلي ودقيق، ويراعون الاحتياطات والمستحبات في هذه الأمور، بينما يتجاهلون أدنى مبادئ الأخلاق في التعامل مع الآخرين، ويتجاوزون الحقوق الاجتماعية.

وينتقد الشيخ الصفار مقاييسنا في تقويم الناس، التي تتأثر أيضًا بهذا الفهم الساذج للدين، فلكي نثبت عدالة إنسان ما، نهتم بمعرفة التزامه بالصلاة والصيام وسائر العبادات،

---

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ٢٥١

ولا يهمنا بعد ذلك أخلاقه في التعامل مع الآخرين، وكأن هذه القضية لا تؤثر في العدالة ولا تخلّ بها. فلو رأينا شخصًا يترك صلاة أو فريضة، أو صيام يوم أو يأكل، أو يشرب شيئًا محرمًا، لحكمنا عليه بالفسوق وأسقطنا عدالته، ولكن لو رأينا شخصا يستغيب مؤمنًا أو يفترى عليه أو يشهر به، فإن ذلك يمر مرور الكرام، ولا يؤثر على عدالته من وجهة نظرنا، ولا يزعزع الثقة به في نفوسنا.(١)

التغيير الجذري

في الوقت الذي أصبحت فيه حرية الرأي شعارًا ومطلبًا لكل المجتمعات والشعوب، وأصبح الانفتاح والحوار بين الحضارات والثقافات نهجًا يتطلّع إليه عقلاء البشر على مستوى العالم، يتساءل الشيخ الصفار: كيف سيقدم المتدينون أنفسهم أمام الآخرين، وهم لا يتحمّلون بعضهم بعضًا، ولا يحتكمون للحوار في خلافاتهم، ولا يستطيعون التعايش فيما بينهم واحترام بعضهم بعضًا؟

يشير الشيخ الصفار إلى أن السّمة الغالبة على من يمارسون الوصاية الفكرية هي في استثارتهم لانفعالات المتدينين وتجييشهم لعواطفهم، بعنوان حماية العقيدة والدفاع عن الثوابت والمقدسات، لكنهم لا يبذلون جهدًا يناسب التحديات المعاصرة في تبيين أصول العقيدة، وكأن العقيدة تتلخص عندهم في القضايا الجزئية التي يختلفون فيها مع الآخرين، كما أن بعضهم يخلطون الأوراق في تحديد الثوابت والمقدسات، وكأنها قضايا اعتبارية، فالثابت والمقدس ما يعتبرونه هم كذلك دون مقاييس واضحة متفق عليها. لذلك ومن أجل تجاوز عقلية الوصاية يطالب الشيخ الصفار بالرقي بمستوى الوعي والثقافة من خلال العمل على تنوير العقول بالبحث العلمي والطرح المنطقي، وليس مجرد تجييش العواطف وإثارة الأحاسيس.(٢)

إن الرقي بمستوى الوعي والثقافة، يتطلب ممارسة التنوير ونشر الوعي والتبشير

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ١٥٣

(٢) من كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. ص ٣٦

بثقافة الحوار والانفتاح، من خلال التغيير الجذري في عملية التثقيف والتعليم، بتبني برامج تعليمية وتثقيفية تعنى بقبول الآخر المختلف، وقابلة للمنهج النسبي في النظر إلى أمور الحياة، من أجل تجاوز حالة الاستئثار بالرأي والحقيقة، وفرض الوصاية على الآخرين، أو ممارسة حالة الإقصاء والإلغاء ضدهم، حيث تبرز هذه الثقافة الإقصائية وتتمثل، كما يقول الشيخ الصفار، في التربية والأعراف الاجتماعية التي تربي الفرد على أساس أن إبداء الرأي المخالف للأب أو لشيخ القبيلة أو للرئيس في الإدارة أو لعالم الدين هو إساءة أدب وخلافًا للاحترام والتقدير، قد تترتب عليه ردود فعل غاضبة وإجراءات عقاب.

ومن أجل تجاوز هذه المأزق، يطالب الشيخ الصفار بمعالجة العوامل التي أنتجتها وفرضتها على واقع مجتمعاتنا، حيث لا بد من إعادة النظر في هذا الفهم السائد للدين في أوساطنا، فإذا كان المسلم يثق بصحة عقيدته ورأيه الديني، ويرى أنه مطالب شرعًا بمحاربة الضلال الذي يمثله الرأي الآخر، فعليه أن يعرف أن مواجهة الرأي تكون بالرأي، أما المنع والقمع والإلغاء والإقصاء، فهو يؤدي إلى نتيجة عكسية، حينما يمارس الرأي الآخر دوره في الخفاء ويتقوى بعامل التحدي، وقد تفاجأ بانتشاره وكسبه لمقومات القوة التي راكمها بعيدًا عن الأضواء.

لقد دعا القرآن الكريم إلى مواجهة الرأي الآخر بأفضل أساليب الحوار وأخلاقيات التعامل: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾، بل نهى عن استخدام لغة الإساءة للآخر عند الحوار معه ﴿**وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾، والقرآن الكريم يدعو الآخرين لإبداء رأيهم وإظهار حججهم وأدلتهم ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ**﴾، ﴿**قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا**﴾.

ومن ناحية أخرى، فإن باب الاجتهاد في فهم الدين مفتوح، ولا يصحّ لأحد أن يحتكر تفسير الدين وفهمه، ويتهم كل رأي آخر بأنه ضلال وابتداع، لأن من حقّ الآخرين أن يواجهوه بنفس المنطق، وإذا كان يعتقد أنه يمتلك الأدلة القاطعة على صواب وصحة رأيه،

فإن الآخرين يعتقدون لأنفسهم ذلك أيضًا.[١]

إنه لمن المهم التفريق بين الدين عقيدة سماوية خالصة، وبين عملية تفسير الدين وفهمه، فالفكر الديني كنتاج اجتهادات بشرية قابل للنقد والمساءلة، فحرية التفكير والتعبير وإبداء الرأي وممارسة دور النقد، تتيح الفرصة لحرية الاجتهاد بعيدًا عن منطق الوصاية، مما ينتج عن عملية الاجتهاد أحكامًا متعددة في المسألة الواحدة، وهذه هي طبيعة الفكر الإنساني في كل زمان ومكان.

لذلك لا ينبغي الانزعاج من تعدد الآراء والأفكار والاجتهادات، أو ممن يدعي أن رأيه هو الصحيح، بل ينبغي احترام هذا الرأي، ودعوة أصحابه إلى احترام الرأي الآخر المخالف لهم، وعدم فرض رأيهم بالقوة والإكراه، فالإكراه مرفوض مطلقًا؛ لأنه المنطلق لإنتاج حالة الركود والجمود، وتكريس واقع التنافر والتباعد، والخصومة والنزاع، بين قوى الأمة وفئاتها الفكرية والاجتماعية المختلفة، وما ازدهرت الحضارات المتقدمة، إلا في ظلّ تعدد الآراء، وتباين الاتجاهات الفكرية في جميع المجالات.

فالنظر في الآراء المختلفة، كما يرى الشيخ الصفار، يتيح فرصة البحث عن الرأي الأفضل، ويوفر درجة أعلى في فهم ومعرفة الرأي المختار، فحين تجد نفسك أمام رأي واحد في معالجة فكرة أو قضية أو مشكلة ما، فقد تعتنق ذلك الرأي دون كثير من التأمل والتفكير، أما إذا تعددت أمامك الآراء والأفكار، فسيدفعك ذلك للدراسة والمقارنة فيما بينها، والبحث عن الرأي الأفضل والفكرة الأصح، لتكون أكثر إدراكًا ووعيًا بالرأي الذي تعتنقه، حيث الفارق بين الحالتين واضح وبيّن، ففي **الأولى** أنت لا تضمن الحصول على الأفضل، وقد لا تهتم لمعرفة خصائص ما تختار، أما في **الحالة الثانية** فإن تعدد الخيارات في كل مجال يوفر لك أفضل الفرص في البحث والمقارنة، ويجعلك أكثر فهمًا لما تختار، ويمنحك أعلى درجة من المصلحة.[٢]

---

(١) من كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. ص ٨٠

(٢) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ٩

ومن أجل تنمية حالة الحوار والانفتاح والتعايش بين فئات الأمة وأطيافها، يدعو الشيخ الصفار إلى أن تتضافر الجهود الواعية، لصناعة أجواء صالحة، ولخلق أرضية جديدة، تنمو فيها بذور الانفتاح والحوار، لتتعارف الجهات فيما بينها، وتكتشف نقاط الالتقاء، وموارد الاختلاف، ولتثري كل جهة معارفها وأفكارها من خلال انفتاحها وحوارها مع الآخرين، وليأخذ الاختلاف مساره الإيجابي في إذكاء حالة التنافس المعرفي، وشحذ الإرادات والهمم لتقديم العطاء الأفضل، والقيام بالدور الأنفع.(١)

من المسؤول عن مكافحة ثقافة التكفير والتعصب؟

منذ أن ابتليت الأمة بظاهرة التكفير أيام الخوارج، لم تخفت أو تضمحلّ التوجهات التعصبية طوال التاريخ الإسلامي، حيث كادت مآسي وويلات خط التعصب والإرهاب أن تغطي صفحات تاريخ الأمة على حدّ قول الشيخ الصفار، لولا وعي وتضحيات المخلصين الذين شكلوا خط الوعي والتحرر والانفتاح في تاريخنا الإسلامي، ونحن الآن مطالبون بمتابعة هذا الخط وإحيائه في الواقع المعاصر، والوقوف أمام من يريدون إعادة وتكرار تلك المآسي الطائفية، في وقت تشتد فيه حاجة الأمة إلى التماسك والالتحام لمواجهة التحديات الحضارية والأخطار المعادية.(٢)

لقد تعامل أهل العلم السائرون على خط الوعي في الأمة، بسعة أفق ورحابة صدر مع الاختلافات المذهبية، لتجنيب الأمة مآسي وويلات التوجهات التعصبية، التي ألغت الآخر ومارست العنف ضده وارتكبت الجرائم بحقه، حيث عانت الأمة الويلات من تصرفات وممارسات السائرون على خط التعصب المذهبي والإرهاب الطائفي، أولئك الذين كانوا يعتقدون أن الحق حصرًا في آرائهم، والجنة لا تتسع لغيرهم، ويجيزون لأنفسهم محاسبة الناس ومحاكمتهم على اعتقاداتهم وانتماءاتهم، ويعتبرون الرأي الآخر جريمة لا يطيقون

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ٨

(٢) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ٢٧٤

سماعه، فضلا عن نقله واحترامه.[١]

وفي ظلّ هذه الحالة من التردي والانهيار والتخبط والضعف والفوضى، ما هو السبيل للخروج من هذا المأزق التاريخي المزمن الذي تعيشه مجتمعاتنا، وتنحدر فيه العلاقات بين مكونات الاجتماع الأهلي والسياسي إلى درجات ومستويات متدنية من الهبوط والتردي، حيث تنبري جماعات وفئات مختلفة تأخذ على عاتقها ممارسة العنف المادي والمعنوي ضد الذات والآخر والمختلف، سعيًا إلى تغيير قناعات الآخرين، والواقع المعيش، وفق تصوراتها الأحادية والمنغلقة؟

إن الخروج من هذا الوضع المأساوي الذي تتخبط فيه مجتمعاتنا، والرغبة في التخلص من هذا الخراب والتطرف الذي يعصف بالحياة في بلداننا، والسعي إلى تغيير خط سيرها ومسارها في هذه الحياة، يكمن في نشر الوعي العميق، والثقافة الجادة، والفكر التنويري، ومكافحة التفكير الضيق والمغلق، الذي يلغي الآخر ويهمّشه، ويضعه في خانة العدو، أو يتعامل معه على هذا الأساس.

وبصراحة متناهية يحمل الشيخ الصفار المرجعيات والجهات الدينية المنتجة للفكر والثقافة الدينية، المسؤولية العظمى عما تعانيه الأمة من حالة تردٍّ، وهو في الوقت نفسه أيضًا يحمّلها مسؤولية العمل على إخراج مجتمعاتنا من حالة التيه والضياع والتخلف والعوز التي هي فيه، والسعي إلى تجاوز معضلاتها.

يشير الشيخ الصفار إلى أنه في مواجهة التحديات المعرفية الخطيرة أمام الفكر الديني، وفي مقابل الطوفان الثقافي العالمي الجارف الذي يقتحم كل زوايا مجتمعنا وغرف بيوتنا، ويستقطب بوسائله الإعلامية والمعلوماتية المتطورة اهتمامات أبنائنا وبناتنا، هناك حاجة ماسة لتكثيف العطاء الفكري والثقافي من قبل المرجعيات والجهات الدينية، فتطور الحياة وتقدم مستوى العلم والمعرفة، يستوجب تطوير استراتيجيات الطرح الديني، وتجديد خطط التثقيف والتوجيه.

---

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ٢٦٩

كما أن على الساحة الدينية أن تثبت أيضًا قدرتها على مواكبة التغيرات والاستجابة للتحديات. وذلك لا يتحقق إلا بتوجيه الاهتمام نحو التحديات الكبرى، وتضافر الجهود نحو الأهداف المشتركة، أما الانشغال بالخلافات الجانبية والقضايا الجزئية، فإنه يشكّل هروبًا من المعركة الأساس، ويضعف كل القوى الدينية.[١]

---

(١) من كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. ص ٣٥

الفصل الخامس

من أجل تأسيس مفاهيم جديدة وخلق وعي معاصر

أولًا:

من أين يبدأ التغيير

دائمًا ما يشير الشيخ الصفار في خطابه الإصلاحي إلى أن خريطة الطريق لحل مشكلة الطائفية تمر عبر نشر الوعي، والتبشير بثقافة التسامح والتعايش السلمي والوحدة والتقارب، والتعارف الموضوعي، والفهم المتبادل، وقبول التعددية، والاعتراف ببعض، والقبول بالتنوع والتعدد المذهبي، واحترام الرأي الآخر، والاحترام المتبادل بين الطوائف، وحسن الظن في الآخرين، وإقرار حقوق المواطنة والإخوة الإسلامية، واعتماد مفهوم المواطنة، والمساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات، وتبني قضية حقوق الإنسان، ونبذ المشاحنات والمهاترات المذهبية والطائفية، وإقرار التعددية الفكرية والسياسية، بالإضافة إلى تجريم التحريض على الكراهية، والتأكيد على حرمة دم كل مسلم وعرضه وماله، أو الإساءة من أي طرف للآخر بالتكفير، أو التحريض، أو النيل من رموزه ومقدساته، مع حق كل طرف بأن يطرح رأيه ورؤيته.

هذه المفاهيم وغيرها من مفردات وتعابير، سواء كانت حديثة المنشأ، أو هي تنتمي إلى تراثنا الحضاري، ودائرتنا الثقافية والدينية، دائمًا ما ترد وتتكرر في سياق خطاب الشيخ الصفار، باعتبارها ركيزة أساس في إطار عملية التغيير والإصلاح، والتحديث والتطوير، التي يجب أن تمر بها مجتمعاتنا، وتسلكها في الزمن الحديث والمعاصر، من أجل الارتقاء بهذه المجتمعات والوصول بها إلى مصاف الدول الراقية والمتقدمة على كافة الصّعد والمستويات، وخصوصًا من خلال الاهتمام بالإصلاح السياسي، لكونه الرافعة والمنطلق والمدخل لباقي

الإصلاحات المرجوة، «فخلاص مجتمعاتنا من كثير من مشاكلها يتوقف على حلّ المشكل السياسي، من خلال تحقيق المشاركة الشعبية في الحكم، والتداول السلمي للسلطة، وسيادة النظام والقانون، وتجسيد مفهوم المواطنة، بأن يتساوى المواطنون في الحقوق والواجبات، بعيدًا عن أي تصنيف عرقي أو قومي أو ديني أو مذهبي أو قبلي».[١]

ويذكّر الشيخ الصفار دائمًا بأهمية الجهر بكلمة الحق في الدعوة إلى الوحدة والتقارب والتآلف والاعتصام بحبل اللّٰه، والتعارف والتعاون على البر والتقوى، ومجابهة باطل التفرقة والتمزق والانقسام، وعدم الانجرار إلى التفرقة والتنازع، من أجل الوقوف أمام المدّ الطائفي، وتصاعد المشاعر المذهبية العارمة عند الجمهور،[٢] معتبرًا أنه لا نجاة للأمة من هذا النفق المظلم، إلا بالسير في طريق الانفتاح والتقريب، لتجتمع الأمة على أصول دينها، ولتتحد في خدمة مصالحها المشتركة، داعيًا إلى الاعتراف بالتعددية المذهبية، والاحترام المتبادل بين الطوائف، وإقرار حقوق المواطنة والأخوة الإسلامية، حيث إن ذلك هو جوهر دعوة التقريب والوحدة.[٣]

الإصلاح السياسي أولًا

إذا كانت التجزئة والصراع الطائفي في بعض مجتمعاتنا، هي الممرّ لتحقيق استراتيجيات التجزئة السياسية، وفرض واقع التقسيم، فإن وأد هذه الاستراتيجيات التفتيتية والتقسيمية، لن يتحقق إلا بالعمل على «تسريع عملية الإصلاح السياسي، وتوسيع المشاركة الشعبية من خلال انتخاب أعضاء مجلس الشورى، ومجالس المناطق، وتشجيع تأسيس النقابات والجمعيات التطوعية، ومؤسسات المجتمع المدني»، كما جاء في المادة الثالثة من توصيات اللقاء الوطني الثاني الذي انعقد في مكة المكرمة.[٤]

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٩٠.
(٢) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٨.
(٣) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٣٣.
(٤) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٦٤.

ومن أجل تجاوز حالة الجفاء والقطيعة والصراعات بين أبناء الوطن الواحد، والتقريب والتقارب فيما بينهم، وتشجيع حالة التعايش والتواصل والتعاون، يحتاج الأمر إلى مظلة سياسية تشجعها وترعاها وتقودها، وتكسر حاجز القطيعة وعدم الثقة، وتساعد على تخطي الصعوبات، وتتيح الفرصة لجميع أبناء الوطن على اللقاء والتحاور وتبادل الرأي خدمة لمصالح الوطن العليا، من خلال مشروع واقعي يكرس العلاقة الإيجابية بين الجميع، ويشعرهم بدرجة من التساوي والندية، بعيدًا عن التمايز والتفاضل الديني والمذهبي.

ولعل شرط تجاوز هذه الحال من الجمود والتكلس الذي تعيشه بعض مجتمعاتنا، والنجاح في بعث الخطاب الوحدوي والتقريبي فيها، يبدأ بالإصلاح السياسي الذي يجعل نظام الحكم ملتزمًا بالعدل والمساواة بين المواطنين على اختلاف مذاهبهم، كما يقول الشيخ الصفار ذلك بصراحة، فالتحدي الأكبر الذي تواجهه المنطقة العربية والإسلامية اليوم هو في التوفر على النظام السياسي الديمقراطي، القائم على أساس المواطنة، وتوسيع المشاركة الشعبية، والتداول السلمي للسلطة. وإذا ما افتقد هذا النظام لن يتحقق الاستقرار السياسي، وسيكون الباب مفتوحًا على مختلف الصراعات العرقية والقومية والمذهبية. وقيام الحكم الصالح يساعد على معالجة مختلف المشاكل والصراعات، ويعطي الفرصة المناسبة لمؤسسات المجتمع الأهلي ومشاريع الوحدة والتقريب.[١]

في كل الأحوال، كم يحدونا الأمل في التأسيس لبنية ثقافية حديثة، تنمو على قاعدتها هذه المفاهيم والرؤى الجديدة، ويتم تعميم ونشر وإشاعة قيمها، والتبشير بها بيننا وفي أوساطنا، وأن تتحول إلى جزء من ثقافة الفرد ووعيه، وجزء من طبيعة سلوكه أيضًا، فمن الناحية النظرية لا أحد ينكر أهمية العلاقة والتعايش بين أتباع المذاهب، والتعاون فيما بينها لخدمة الجوامع المشتركة والمصالح العامة، وذلك عن طريق إشاعة روح التسامح، وثقافة التعددية، والتزام أخلاقيات الحوار العلمي، والاختلاف المشروع، إلا أن السؤال الملحّ

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٦٠.

دائمًا، ونحن نطرب لهذه المفاهيم، هو الخوف من أن تظلّ هذه الرؤى مجرد مفاهيم مجردة ومتعالية وعابرة ومؤقتة، يمكن أن تقال أو تكتب، وتدغدغ المشاعر، وتشطح بالخيال والأحلام، لكنها على الجانب الآخر يصعب تنزيلها وتجسيدها على أرض الواقع، الذي يشهد انشقاقات وتمزقات لا يبشر بأن تتحول فيه هذه المفاهيم والرؤى إلى نهج حقيقي يتبع، أو تصبح منهجًا للحياة يقتدى، وإنما هي مجرد أقاويل وأحلام يصعب الوصول إليها ويستحيل تحقيقها؟

ثانياً:

حول أصالة المفاهيم الحديثة

تصمّ أسماعنا اليوم مقولات ومفاهيم جديدة وحديثة، دائمًا ما تستعمل على نطاق واسع على ألسن الكثير من النخب بكل أنواعها وأشكالها، وتقام لها الندوات والمؤتمرات، ولا تخلو وسائل الإعلام المختلفة من التحدث عنها وتسليط الضوء عليها، وتقديم التحقيقات حولها، إلا أن السؤال لماذا هذا الاهتمام المبالغ فيه بها؟ هل هو نتيجة التأثير والتأثر بالحضارة الغالبة في هذا الزمن، الذي يضطّرنا إلى اقتباس هذه المفاهيم والمقولات، والتزود بها واستيرادها من تلك الحضارة، نتيجة ما نعانيه من تردٍّ حضاري وتخلف ثقافي، أم أن الأمر هو حالة طبيعية تحدث بين الشعوب والأمم من خلال الاحتكاك والتبادل الثقافي، خصوصًا في ظلّ انتشار وقوة وسائل الإعلام والاتصال الحديثة؟

عندما تطرح اليوم وتثار مفاهيم وموضوعات التعددية والحرية والتسامح وحقوق الإنسان، وغيرها من مفاهيم، تقفز إلى الذهن الكثير من الأسئلة حول مدى أصالة هذه المفاهيم، ليس فقط في تراثنا الديني، وإنما أيضًا في النص الديني ذاته، وهل النصوص الدينية المعتبرة تحتوي على هذه المفاهيم وتزخر بها؟ وهل هذه المفاهيم الجديدة تمتلك جذورًا راسخة في الفكر الإسلامي، خصوصًا ونحن نعرف أن المساحة الأوسع من تاريخنا كان مسرحًا للاستبداد والطغيان والجور والأحادية؟

يؤكد الشيخ الصفار أنه «بحث موضوع التعددية والحرية في الإسلام، ووجد أمامه عددًا هائلًا من النصوص الدينية من آيات محكمات، وأحاديث وروايات تؤكد هذا المفهوم

كمنهجية ومسار في نظام الاجتماع الإسلامي»[١]، إلا أنه بعدما سادت عصور التخلف «اختفت عناوين كثيرة لمبادئ وتشريعات إسلامية أساسية، تحت ضغط هذا الواقع المتخلف، المناقض لتلك القيم والمبادئ والتشريعات، لكن حين أفاقت الأمة على واقعها الفاسد، كما يشرح الشيخ الصفار، وتحركت تطلّعات التغيير والإصلاح في نفوس أبنائها، وانفتحت الأمة من جديد على مفاهيم دينها، عادت لساحة الأمة تلك العناويين الغائبة والمغيبة، كعنوان حقوق الإنسان، وحقوق المرأة، والديمقراطية، والتعددية، والحرية، والشفافية، وسيادة القانون، وإلى غيرها من عناوين إسلامية أصيلة قد أُغفلت، وأصبح البعض ينظر إليها بريبة، كأنها أفكار دخيلة، ومفاهيم مستوردة».[٢]

لماذا تَغيب أو تُغيب المفاهيم والقيم الأصيلة؟

لا يشك الشيخ الصفار في أن بروز أي عنوان من هذه العناوين اليوم، إنما يكون بسبب الحاجة إلى موضوع ذلك العنوان، أو لأن هناك تيارًا أو جهة تتبنى ذلك العنوان وتسعى لإبرازه وإظهاره، ففي الفكر والثقافة الإسلامية عناوين كثيرة، يأخذ بعضها مكانه وحظه في الظهور، بينما بعضها الآخر قد يكون ضامرًا أو خافتًا لا يبرز، وحينما تظهر هذه العناوين، قد تواجهها بعض علامات الاستفهام بسبب ملابسات الواقع المعيش.

ويلفت الشيخ الصفار النظر إلى أن عنوانًا مثل عنوان حقوق الإنسان، الذي لا يستطيع مسلم أن يتنكر لأصالته إسلاميًّا، ولا يستطيع أن يدّعي أنه ليس من الإسلام، أو أن الإسلام لا يدعو إلى احترام وحفظ حقوق الإنسان، قد خفت في المجتمع الإسلامي، وبرزت بدلًا عنه عناوين أخرى بسبب الأوضاع السياسية، التي تصرف النظر عنه لصالح تسلط الضوء والتركيز على حقوق اللّه، أو حقوق ولاة الأمر، أو حقوق العلماء وما شابه ذلك، لأسباب ومصالح ترتبط بالنخب المهيمنة، حيث ظلت شرائح معينة في المجتمع تحتل، بسبب مكانتها الاجتماعية، هذه العناوين، حيث كانت الأحاديث عن احترامهم

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٤٣

(٢) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٢١

وحقوقهم بارزة وواضحة، فيما الحديث عن حقوق الإنسان كإنسان عنوانًا خافتًا، وهو الأمر الذي ينطبق أيضًا على موضوع حقوق المرأة، حيث كان الحديث فيه عنوانًا هزيلًا وخافتًا، بسبب طبيعة الأجواء الثقافية والاجتماعية التي كانت تعيشها الأمة.

يضاف إلى ذلك، أن عناوين مثل الانفتاح والتقارب والوحدة بين أبناء الأمة الواحدة، هي أيضًا من العناوين الإسلامية الأصيلة التي لا تحتاج إلى مزيد من الحديث لتأكيد أصالتها، لوضوح الأدلة والبراهين على ذلك في الفكر والثقافة الإسلامية، إلا أن الواقع الثقافي والاجتماعي والسياسي الذي عاشته الأمة جعل هذه العناوين في الظلّ، حيث بدت حين طرحها وكأنها غريبة وتثير القلق، أو أنها تحتاج إلى إثبات، وتثار حولها التساؤلات، وتطرح عنها الكثير من الإشكاليات والتشكيكات، وكأن الأصل هو الانغلاق والخصومة والتفرق المذهبي، وأن من يدعو إلى الانفتاح أو إلى التقارب عليه أن يأتي بالدليل والبرهان، وعليه أن يبرر موقفه.[١]

إذا كانت هذه العناوين وغيرها من عناوين مما يمكن إدراجه ضمن قائمة القيم الإسلامية الأصيلة، فالسؤال هو: لماذا غابت هذه المفاهيم والقيم، أو لماذا غُيِّبت واندثرت طوال قرون عديدة، ولماذا ساد وانتشر الطغيان والاستبداد والجور السياسي والديني، وسادت المفاهيم المغلوطة وانتشرت الظواهر السلبية؟ فهل الابتعاد عن القيم وانتهاكها هو أساس المشكلة التي تنخر في البنية التحتية لبناء هذه الأمة؟ وما هو العمل لاستعادة هذه القيم من المجهول، وإعادة زرعها في نفوس وقلوب وعقول أبناء هذه الأمة؟

صحيح أن الشيخ الصفار دائمًا ما يؤكد على أن الدين يدعو إلى الرحمة والسلم والسلام والتسامح والإخاء والمحبة، وأن هذه القيم هي قيم أصيلة في الدين، إلا أن السؤال: أين يذهب الالتزام الديني، وها نحن نرى انتشار قيم التشدد والغلو والتعصب والتطرف والإرهاب باسم الإسلام والدين؟ فمن أين جاء هذا الفهم ولماذا انتشر؟ وهل هناك في الدين ونصوصه ومفاهيمه ما يحث ويشجع ويستحسن هذا السلوك، أم أن المسألة هي مجرد

(١) من كتاب الانفتاح بين المصالح والهواجس. ص ١١

فهم واجتهاد في فهم الدين؟ وهل هذا الاجتهاد مقبول وله مؤيدوه، أم هو فهم خاطئ للنصوص الدينية، وهو اجتهاد غير مقبول ومنبوذ جملة وتفصيلًا؟ وكيف يمكن تعرية وتحجيم هذا الفهم الخاطئ للدين من جانب، ونشر وتوسيع قاعدة الإسلام الوسطي من جانب آخر؟

ثالثاً:

من أجل قراءة معاصرة لمفاهيم الدين وقيمه

على الرغم من أن ماضي هذه الأمة يلقي بأثقاله على حاضر أوضاعها، حيث الأمة ما زالت تعيش إلى اليوم في أسوء حالاتها مرارة، وتمرّ بظروف شديدة الصعوبة والتعقيد، في ظلّ استمرار حالة الخلاف والنزاع وتصاعد الفتن بشكل مخيف، فإن الشيخ الصفار، مع كل هذه المؤشرات السلبية المقلقة، ما زال يشعر بالأمل في مستقبل مختلف، وخصوصًا مع توالي مظاهر التحرك الإصلاحي، باتجاه التقارب بين المذاهب، وإنتاج خطاب وحدوي يؤكد القواسم المشتركة ويحلّ محلّ النزاع، حيث يغمره التفاؤل بأن تتغلب الأمة على مشكلة الخلاف المذهبي في هذا العصر.

وينطلق الشيخ الصفار في تفاؤله هذا من خلال ما يلمسه من بروز حقائق جديدة يتنامى فيها مستوى الإيمان والوعي بحقوق الإنسان، وفي طليعتها حريته الفكرية والدينية، ذلك أن الصراعات المذهبية إنما تنبثق من وجود تصور بحقّ الوصاية والفرض على عقول الآخرين وأفكارهم، وأن عليهم أن يؤمنوا بهذه الفكرة، وأن يرفضوا ذلك الرأي، وأن يسلكوا هذا النهج، وأن يتخلوا عن تلك الطريقة.

إن وجود هذه التصورات السلبية عند أتباع المذاهب تجعلهم يقفون من بعضهم بعضًا موقف المحاكمة والمحاسبة والتفتيش العقائدي، بينما حين يسود الإيمان باحترام حقوق الإنسان وحريته في اختياراته الدينية والفكرية، فلن يسمح أحد لنفسه بمحاولة الهيمنة والفرض على أفكار الآخرين، وذلك هو منطق العقل والشرع، يقول تعالى: ﴿**لَآ إِكۡرَاهَ فِي**

الدِّينِ﴾، ويقول تعالى: **﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾**. نعم هناك مجال للدعوة لما يعتقده الإنسان حقًّا، وللحوار والنقد والتقويم للآراء والمذاهب في حدود الاحترام المتبادل كما يقول تعالى: **﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾**.(١)

إن تجاوز إرث الماضي الثقيل والتخلص من أثقاله ومشكلاته، وتقويم أحداثه والتباساته، يحتاج من الجميع إلى عقلية حواريه موضوعية، بعيدة كل البعد عن مطبّ ومنزلق المهاترات الطائفية والانحدار إلى لغة الوعيد والنذير والتهديد والكلام الحاد والجارح وأساليب السبّ والشتم، بل من واجب الجميع التعبير عن آرائهم وأفكارهم ومواقفهم بلغة هادئة وخطاب عقلاني وبإسلوب منطقي وموضوعي التزامًا بأوامر القرآن الكريم حيث يقول سبحانه: **﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾**، وبقوله تعالى **﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾**، هذا فضلًا عن أن سيرة الأئمة فيها الكثير من الشواهد بهذا الاتجاه.

من المؤمل أن تترسخ هذه المبادئ والمفاهيم والقيم كنمط حياة في سيرة ومسيرة هذه الأمة، وأن تتبناها كل الأطراف والأطياف والفئات كنهج وأسلوب عملي في التعاطي مع الآخر والمختلف، وأن تترجم إلى لغة حوارية عقلانية هادئة، ومرونة عملانية منفتحة، تتيح تحويل هذه اللغة الهادئة في الحوار، إلى أسلوب وحيد في المخاطبة والمعاملة، وفي التفكير أيضًا، بلا تهديد وبلا تخوين وبلا تسقيط وبلا تسفيه.

نحو قراءة جديدة لمفاهيم الدين وقيمه

دائمًا ما يتحدث الشيخ الصفار باهتمام في كتاباته وخطاباته عن التعددية والحرية والتسامح والتنوع والتعايش والوحدة وأهمية التلاقي والحوار والسلم الاجتماعي والتعاون بين أبناء الأمة بمختلف اتجاهاتهم ومذاهبهم، بالإضافة إلى ما هنالك من مفاهيم ومصطلحات جديدة وحديثة، إلا أن السؤال: هل أن هذه الاطروحات لها جذور صلبة

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع موقع إيلاف.

وثابتة وراسخة في التراث، أم أنها مجرد ضرورات اضطرتنا إليها تحولات الزمن، أو تماهيًا مع ما يرفع من شعارات ضمن الدوائر الحضارية الأخرى؟

يجيب الشيخ الصفار عن هذا التساؤل بقوله: «إنه لمن المؤسف جدًّا أن تكون المساحة الأوسع من تاريخنا كانت مسرحًا للاستبداد والأحادية، كما أن القسم الأكبر من الثقافة الرائجة في أوساطنا تغذي حال التشدد والتطرف وإقصاء الآخر وإلغائه، ما يعطي الانطباع والتصور بأن ذلك هو الأصل والطبيعي في تراثنا الإسلامي كفكر وتشريع. لذلك حينما يطرح الآن موضوع التعددية والحرية والتسامح يأتي السؤال عن مدى أصالة هذه المفاهيم في تراثنا الديني، وهل أن لها جذورًا في الفكر الإسلامي، أم أن طرحها يأتي استجابة للتحديات؟

يكرر الشيخ الصفار الإشارة إلى أنه قد بحث موضوع التعددية والحرية في الإسلام قبل أكثر من خمسة عشر عامًا، وحين كانت الصحوة الإسلامية والحركات الإسلامية في أوج تألقها وظهورها، ووجد أمامه عددًا هائلًا من النصوص الدينية من آيات محكمات، وأحاديث وروايات، تؤكد هذا المفهوم، كمنهجية ومسار في نظام الاجتماع الإسلامي. فالقرآن الكريم يعتبر حرية الإنسان سقفًا لا يمكن تجاوزه حتى بالنسبة إلى أنبياء اللّه ورسله، فهم مكلفون بتبليغ رسالة اللّه والدعوة إليها، من دون أن يكون لهم حق الإلزام أو الفرض، أو ممارسة الهيمنة على أحد من الناس، لقوله تعالى: ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ**﴾، ولقوله تعالى: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾.

ويتابع الشيخ الصفار حديثه بالقول: إن النبي ﷺ كتب صحيفة المدينة كدستور مدني لأول مجتمع يقيمه الإسلام في المدينة المنورة بعد الهجرة، وهي تتضمن الاعتراف الصريح بالوجود اليهودي وحريتهم في عباداتهم، وخصوصيتهم الدينية والاجتماعية، وأنهم شركاء مع المسلمين في المسؤوليات العامة من الحقوق والواجبات.

ويشير الشيخ الصفار إلى أنه في عهد الخلافة الراشدة، نجد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، حينما بايعه المسلمون كخليفة رابع بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، يعلن

بصراحة ووضوح حقوق المعارضة، المتمثلة في الخوارج آنذاك، كما جاء في تاريخ الطبري: **قام علي في الناس يخطبهم ذات يوم، فقال رجل من جانب المسجد: لا حكم إلا للَّه، فقام آخر فقال مثل ذلك، ثم توالى عدة رجال يرفعون الشعار نفسه، فقال علي: اللَّه أكبر، كلمة حق يلتمس بها باطل، أما إن لكم عندنا ثلاثًا ما صحبتمونا: لا نمنعكم مساجد اللَّه أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدؤونا، ثم رجع إلى مكانه الذي كان فيه من خطبته.**

وبذلك يكون الإمام علي قد ألزم نفسه حماية حقوق المعارضة الذين يرفعون أمامه شعارات المخالفة، فهل يوجد مثل أوضح من ذلك في إقرار التعددية واحترام الرأي الآخر؟».[١]

كم هي الحاجة اليوم إلى إعادة قراءة الإسلام وتاريخه من جديد، ومناقشة تعاليمه وقيمه بوعي مختلف ومتجدد، قراءة لا تركن إلى قراءة الأسلاف والماضين، ولا تخرج من الدين أو عليه بادّعاء التحديث والحداثة والعولمة، وإنما قراءة تعي النصوص وتفهمها من أجل إعطاء قراءه مختلفة واستخراج معاني جديدة، في مقابل تلك التي تعطي للإسلام أبعاد عنفية، وروح عدائية، وتحمله وزر ما يحدث من أعمال سلبية وتجاوزات مشينة باسمه. ومن الحري بهذه القراءة الجديدة الإجابة عن الكثير مما يطرح اليوم من أسئلة حول الإسلام وماهيته، حتى يبرز وجه الإسلام الآخر، ذو الطبيعة المسالمة، والحامل لقيم السلام والتسامح والأخوة والوحدة والتعاون.

يقول الشيخ الصفار: إن الإسلام كما يقرؤه ويفهمه مليء بكمٍّ هائل من التعاليم والقيم والأخلاقيات والمفاهيم التي تعالج مشكلات الحاضر والقضايا الملحة فيه، وتساهم في تعزيز أخلاقيات التعامل بين إخوة الدين، وبين الإنسان وأخيه الإنسان. والشيخ الصفار في حديثه عن المفاهيم الجديدة والحديثة، وتبنيه للكثير منها، لا يبتعد عن مضمون الدين وأهدافه كما يقول، بل هو يؤكد على أنه ينطلق في تبنّيها واستحسانها من قاعدة ومنطلقات

---

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع صحيفة الوسط البحرينية.

دينية، «ومن مفاهيم الإسلام وتعاليمه، فالقرآن الكريم يشرّع للتعايش السلمي مع الكفار المخالفين لنا في الدين، ويشجع على التعامل معهم بعدالة وإحسان، فسبحانه وتعالى يقول: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

والقرآن يأمرنا أن نلتزم بأفضل آداب الحوار حينما نتناقش مع اليهود والنصارى في أمور الدين بقول تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، كما أن القرآن يدعو المسلمين إلى عدم التنازع فيما بينهم حتى لا تهدر طاقاتهم وقدراتهم في الصراعات الداخلية، ويفشلون في إثبات وجودهم بين الأمم، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

التوظيف المعاصر لتعاليم الدين الفاضلة

لا يكتفي الشيخ الصفار فقط بهذه الأسس والمعايير في حديثه عن التقارب والتعاون بين أبناء المجتمع، بل هو ينطلق من معطيات العقل والواقع أيضًا، فنحن نعيش عصر العولمة والانفتاح، حيث أصبح العالم قرية واحدة، فهل من المعقول أن ننغلق تجاه بعضنا بعضًا، بينما تنفتح كل غرفة من غرف بيوتنا على العالم كله عبر أجهزة التلفاز وقنوات البث المباشر، في الوقت الذي يدور فيه حديث عن حوار الحضارات، لذلك هل من المنطق أن نتحاور مع الحضارات الأخرى، ونتردد في الحوار الداخلي فيما بيننا؟

إن الأخطار المشتركة التي نواجهها كأمة عربية وإسلامية، ولعل أبرزها تحدّي العدوان الصهيوني الذي يسرح ويمرح في مقدساتنا، ويحتلّ أراضينا، وينتهك حرماتنا، ويقتل النساء والأطفال، ويهدم البيوت، ويحرق المزارع في فلسطين، يجب أن تدفعنا إلى التقارب والتعاون، كما يؤكد الشيخ الصفار، حيث إنه من المعيب والمخجل أن نتشاغل عن هذا العدو بالخلافات الجانبية حول قضايا جزئية، وأحداث تاريخية، أكل عليها الدهر وشرب.

كما لا يغفل الشيخ الصفار أيضًا عن ذكر تحدّي العولمة والحفاظ على الهوية، وتحدّي التخلف العميق الذي نعيشه، الذي يجب أن نفكر في تجاوزه، كما هي المشاكل التي تواجهها مجتمعاتنا في كل المجالات والميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي نشترك فيها جميعًا، وتهدد واقعنا ومستقبلنا. ويتساءل الشيخ الصفار مستغربًا؛ ألا يدعونا كل ذلك للاقتراب من بعضنا بعضًا، وللتعاون من أجل المصلحة المشتركة، والمستقبل الواحد؟

إذا كان الشيخ الصفار يركز ويكثر من تناول موضوع التقارب والتعاون وكأنه يمثل هاجسه الدائم، فإن ذلك بسبب ما يلحظه من وجود تعبئة في بعض الأوساط باتجاه الخلافات والفتن المذهبية الطائفية، فبين فترة وأخرى تصدر فتاوى، وتوزع منشورات، وتلقى خطب، لإثارة النزاع المذهبي، ولتعبئة هذه الطائفة ضد تلك، ولاجترار مآسي الماضي، وخلافات التاريخ المنقرض، وهناك ممارسات طائفية من قبل البعض تهدّد وحدة أوطاننا، وتشكل خطرًا على السلم في مجتمعاتنا، لذلك يجب مواجهة هذه التعبئة وهذا التوجه ببث الفكر الوحدوي الصحيح، ونشر ثقافة الألفة والتعاون والإصلاح، لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**﴾، وقوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾.(١)

كم هي الآمال التي تحدونا لتجاوز إرث الماضي الثقيل، وخلافات التاريخ المنقرض ومآسيه، وأن نكون أبناء الزمن الحاضر، والمنتمين إلى ثقافة الزمن المعاصر، لا ننظر إلى الماضي عندما تتوجه أنظارنا إليه من أجل التعلق به والاستئناس به، واستنساخ مصطلحاته وشعاراته التي تجاوزها الزمن، ومن ثم إسقاطها على واقعنا المعيش، وإنما من أجل الإلمام بتجربة الماضي، وأخذ العبرة منه، حتى نوقف دعاوى الفرقة والشقاق والخلاف، ونوئد شعارات الفتنة وسمومها، وثار العداوات المنقرضة، واستبدالها بشعارات الوحدة والتماسك، وإشاعة ثقافة التسامح، والإعلاء من مبدأ التعايش السلمي واحترام الآخر، وترسيخ المفاهيم الإسلامية الفاضلة، وتعميق المبادئ الإنسانية الرفيعة.

---

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول ـ من حوار مع مجلة المواقف البحرينية.

لقد خسر المسلمون الفرصة الحقيقية لتوظيف دينهم اجتماعيًّا، كما يقول الكاتب علي الخشيبان، حين تنافست طوائفهم وجماعاتهم في تقديم أقسى وأشدّ مؤشرات التشدد في تعاليمه، بل إن بعض التعاليم في كثير من المجتمعات تشعر وأن هدفها ترويض الإنسان، وليس مساعدته على تفهم حياته والتكيف معها، مضيفًا بأن الإسلام كما يفهمه الكثير هو تنظيم طبيعي بين الإنسان وحياته، ومتى ما تحول إلى أداة لنزع الإنسان من حياته الحقيقية، فهو يصبح خطرًا على معتنقيه، والدليل على ذلك أن الإرهاب والقتل باسم الإسلام هو أحد الأفكار السلبية التي تعمل على ممارسة فصل الإنسان عن واقعه الحياتي، مما يساهم في تبنيه فكرة التخلص من الواقع الذي انفصل عنه من خلال تخلصه هو من الحياة وتدمير الآخرين عبر مهاجمة واقعهم.

ويتحدث الخشيبان عن النقص الكبير الذي يعاني منه الإسلام في توظيف تعاليمه اجتماعيًّا بسبب المسلمين أنفسهم، لعدم قدرة المسلمين على تشكيل واقع اجتماعي تنعكس من خلاله تعاليم دينهم التي تحولت بفعل الزمن إلى شعارات سياسية طغت على المشهد الاجتماعي، وساهمت في طمس أهم تعاليم الإسلام وقيمه المنظمة لحياة البشر.[١]

إنه لمن المهم عندما نعيد قراءة خطاب الإسلام وتعاليمه من جديد، أن نتجاوز تلك التفسيرات المختزلة والبالية، من التي تجاوزها الزمن وتعداها، من خلال قراءة متجردة، تحيد التاريخ وتحزباته، وتفتح المجال للأجيال الجديدة من أبناء اليوم والغد، وإعطائها الفرص وإتاحتها لهم، من أجل تقديم قراءات واجتهادات جديدة، تبرز ما في الإسلام من قيم حسنة، وتعاليم سمحة، ومفاهيم جميلة، وأخلاقيات فاضلة، ذات أبعاد قيمية رفيعة وسامية ومثالية ومتعالية.

---

(١) هل يعاني الإسلام من توظيف اجتماعي لتعاليمه؟. علي الخشيبان. جريدة الرياض، ١٥/ ١١/ ٢٠١٠م.

رابعاً:

قيم الحوار والحاجة إلى تفعيلها وتجسيدها

مفهوم الحوار وقيمه أيضًا من المفاهيم التي دائمًا ما ترد وتتكرر في خطاب الشيخ الصفار، باعتباره قيمة دينية وإنسانية رفيعة يجب التمسك بها وتجسيدها عمليًّا، لما لذلك من آثار رائعة وإيجابية على الفرد والمجتمع، إلا أنه مع الأسف الشديد أن هذه القيمة لا تحظى بالمكانة اللازمة في ثقافة وسلوك الإنسان في بيئاتنا الاجتماعية، مما انعكس سلبًا على طريقة وأسلوب التعامل فيما بيننا، وأصبحت القطيعة والتنافر وعدم التواصل مع الذات والآخر سمة من سمات أخلاقياتنا.

انه لمن الضروري والملحّ أن يتدافع أبناء هذه الأمة من أجل تكريس قيمة الحوار، واعتباره أسلوبًا قرآنيًا وإرشادًا دينيًا، واتخاذه طريقًا ومنهجًا في التعاطي مع الآخر، فالشرع والعقل، كما يؤكد الشيخ الصفار، يدفعان إلى الحوار، فاللَّه سبحانه تعالى يقول: ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾، ويقول تعالى: ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ**﴾، ويقول تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا**﴾، ويقول تعالى: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾، هذا فضلًا عن الأحاديث والروايات التي تأمر بالشورى والتشاور وطلب الحكمة، (**فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها**)، والحوار هو من أوضح مصاديقها ومواردها.

وفي موازاة ذلك فإن كل عاقل يدرك أهمية معرفته واطّلاعه على رأي الآخرين، بمقدار ما يحرص هو على طرح رأيه وعرضه، وتجارب الشعوب المتقدمة أمامنا، وقد

اتخذت الحوار منهجًا في حياتها على كل الصُّعد العلمية والسياسية والثقافية والاجتماعية، فأصبحت ساحاتها ثرية بالمعارف والأفكار، وتوفرت أمامها الخيارات والبدائل المتعددة تجاه كل قضية من القضايا.

وقد ساعد منهج الحوار على تكريس الاستقرار السياسي والاجتماعي لدى تلك الشعوب، حيث تصبح كل الآراء تحت الأضواء الكاشفة، وعلى منضدة النقد والتشريح، بينما تنمو بعض الآراء السلبية في جنح الظلام، وبعيدًا عن النقد والتقويم في المجتمعات التي ينعدم فيها الحوار وحرية التعبير عن الرأي. وهذه الدوافع الإيجابية تحفز كل إنسان فردًا ومجتمعًا لمسلك الحوار، بعد غفلة مجتمعاتنا عن قيمة الحوار، وتخندق كل طرف في خندق رأيه السياسي أو الفكري.(١)

القبول بالرأي الآخر واحترامه

إذا ما سلك أحد طريق الحوار فليس حتمًا أن يصل مع من يتحاور إلى رأي واحد، فقد يعجز كل منهما عن إقناع الآخر بوجهة نظره، وقد يفشلان في الالتقاء عند منتصف الطريق، ويبقى كل منهما متمسكًا برأيه، عن حق أو لشبهة، أو مكابرة وعنادًا، إلا أن المهم في كل هذه الحالات، كما يرى الشيخ الصفار، هو ضرورة القبول بالتعددية، والاعتراف بوجود الرأي الآخر؛ لأن الدنيا تتسع للجميع، والحياة فيها حق مشترك، وحرية العمل والحركة متاحة لبني البشر.

إن اللَّه سبحانه وتعالى أراد أن تكون هذه الحياة الدنيا دارًا يتمتع فيها الإنسان بحرية الإرادة والاختيار، حتى يتحمل مسؤولية قراره أمام اللَّه تعالى، يقول تعالى: ﴿**فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾، ويقول تعالى بعد الحديث عن انقسام البشر إلى ماديين شهوانيين، ومؤمنين إلهيين: ﴿**كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**﴾.

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع صحيفة الجزيرة السعودية.

ويضيف الشيخ الصفار موضحًا أن ليس من حق أحد في الدنيا أن يصادر حرية الإنسان في الاختيار، حتى الأنبياء لاحق لهم في إجبار الناس على الإيمان، يقول تعالى: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ**﴾، ويقول تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾، فالنبي يعرض رسالته، ويدعو الناس إليها، ويحاورهم ويجادلهم بالتي هي أحسن، فمن اقتنع واستجاب دخل حظيرة الإيمان، ومن أبى وامتنع فهو يتحمل مسؤولية رفضه أمام اللّه تعالى، وليس للنبي به شأن، يقول تعالى: ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ**﴾.

ويبقى في الأخير أن من لا يؤمن بالدين إنسانًا له حقوقه الإنسانية، يتعامل معه بالعدل والإحسان ما لم يمارس العدوان والظلم، يقول تعالى: ﴿**لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾.

ويبقى السؤال: أين هذه السماحة التي تبشر بها آيات القرآن الكريم، مما يمارسه بعض المتدينين، من محاولتهم فرض آرائهم على الناس بالقوة والعنف، ورفض وجود الرأي الآخر؟[١]

الحوار مع الآخر، كما يقول الشيخ الصفار، قد ينطلق من حالة وعي حضاري، وإيمان بإنسانية الإنسان وحقوقه وكرامته التي أقرها اللّه تعالى بقوله: (**ولقد كرمنا بني آدم**)، وهنا يكون الحوار نهجًا وخلقًا ثابتًا، مع كل آخر نختلف معه، في الدين أو المذهب، أو الرأي أو الانتماء الحضاري، بل يصبح الحوار أوثق وأعمق كلما اقترب الآخر من دائرتك، لكن بعض من يطرحون الحوار مع الغرب، لا ينطلقون من هذه الحالة، وإنما من واقع الشعور بالضعف تجاهه، والإحساس بالحاجة له.

أما على مستوى الأمة فهناك استئساد على بعضنا بعضًا، وممارسة للقهر والفرض والإصرار على التشرذم والقطيعة الداخلية، وليس هناك من سبيل لتجاوز هذه الحالة

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ٥٨

السلبية إلا بالوعي الحضاري، والفهم الصحيح للدين، والنضج السياسي والأخلاقي، فنحن بحاجة لثقافة إنسانية عميقة تعرفنا بحقوق الإنسان بيننا، وبحاجته إلى وعي مبدئي، يدفعنا إلى احترام الرأي الآخر داخلنا، ويقنعنا بالإقلاع عن الاستبداد والتعصب، الذي لم نجن منه إلا التخلف والدمار.[١]

إذا كان هناك من أحد يمارس ازدواجية المعايير في تطبق القيم وتجسيدها، ويمارس أسلوب الصدام والفرض والقسر والهيمنة والتهديد والتحريض والتشويه من أجل الرضوخ له، والاستسلام لقيمه، والخضوع لمفاهيمه، بعيدًا عن كل قيم وأخلاقيات الحوار الموضوعي والإيجابي، فإن هذا الأسلوب الصدامي لن يكون ذا جدوى، ولن يجدي نفعًا مع الأمم الحرة التي تعتز بدينها وقيمها.

إن قيمنا الدينية تدعونا للانفتاح على الآخرين والتحاور معهم واحترام خصوصيتهم، وإذا كان الآخرون بدافع الهيمنة على العالم، يطرحون قضية صدام الحضارات ويعملون من أجل إذكاء صدام الحضارات، فنحن يجب أن نكون منسجمين مع مبادئنا، بأن نطرح حوار الحضارات، وأن يكون هذا هو منهجنا، وهذا هو توجهنا مهما كانت التحديات والصعاب.

«وفي الوقت الذي نواجه فيه هذا التحدي على الصعيد العملي، يجب علينا من الناحية الفكرية والسياسية والإعلامية أن لا نقع في مخطط الصدام، بل علينا أن تبقى أيدينا مفتوحة وممدودة للحوار، ونرفع شعار حوار الحضارات؛ لأن هذا هو ديننا، الذي يدعونا إلى أن نتحاور مع الآخرين، ويدعونا إلى أن نكون رسل سلام إلى الآخرين، وإلى أن نعتمد قوة المنطق لا منطق القوة في علاقاتنا مع الآخرين، إن اللّه تعالى يقول: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾».[٢]

---

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول ـ من حوار مع جريدة المدينة السعودية ـ ملحق الرسالة.

(٢) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع موقع المعصومين الأربعة عشر.

كم هو رائع وجميل جدًا الاهتمام بالحوار وقيمه، والتشجيع على ممارسته مع أيًا كان، وتعميق حالة التواصل والتحاور والتعارف، فذلك منسجم مع دعوة القرآن الكريم ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾، فحينما يكون الحوار نابعًا من قناعة الإنسان باحترام الرأي الآخر وأهمية الاطّلاع عليه، وإيصال وجهة نظره كما يراها للآخرين، وتلّمس القواسم المشتركة من أجل بلورة الأفكار، ومعالجة ثغراتها، وإثراء الحياة وتنوعها، فإن هذه القناعة تتحول إلى منهجية لدى الإنسان في التعاطي مع الآخر، سواء كان قريبًا أو بعيدًا، داخل محيطه أو خارجه، إلا أن الشيخ الصفار يشعر بالأسف من أن البعض يتعامل مع مسألة الحوار ليس كقناعة ومنهجية، وإنما كاستجابة لظروف معينة، وتفاعل مع مقتضيات وقتية، لذلك يصبح الحوار هنا انتقائيًا ضمن دائرة دون أخرى، وباتجاه الخارج مثلًا وليس الداخل.

ويشدد الشيخ الصفار على حاجة الأمة الإسلامية الماسّة إلى تنشيط وتفعيل حالة الحوار الداخلي بين الحكومات والشعوب، منعًا للاحتقان الذي يؤدي إلى الانفجارات، ووقاية من اللجوء إلى القوة والعنف، وكذلك تنشيط حالة الحوار بين قيادات المذاهب الدينية ليتعرفوا توجهات بعضهم بعضًا بشكل مباشر، وليس من خلال كتابات مغرضة أو نقولات قديمة، ولتدرك كل جهة مقدار التطور في فكر الجهة الأخرى وتقومها، من واقع فكرها المعاصر لا على أساس أفكار وتوجهات سابقة، وأيضا لتعرّف خلفيات ومبررات وأدلة هذه التوجهات والآراء عند كل مذهب. كل ذلك من أجل أن نتجاوز فتاوى التكفير والتبديع والتهم المتبادلة بين المذهب الإسلامية. كما نحتاج أيضًا إلى تفعيل حالة الحوار بين المدارس الفكرية والتيارات السياسية لنصل إلى صيغة تمكننا من التعايش والاهتمام بالبناء والتنمية في أوطاننا، بدلًا من الاسترسال في هدم قوانا وهدر إمكاناتنا وتضييع جهودنا في النزاع والاحتراب الداخلي.[١]

الحوار كوسيلة للتعارف

إن تنشيط الحالة الحوارية بين أي مكونات اجتماعية، أو ثقافية، أو دينية، أو سياسية،

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع جريدة الشرق الأوسط.

ضرورة تفرضها طبيعة التنوع في هذه الحياة، الناتج عن التمايز في الخلفيات، أو الثقافات، أو أنماط وظروف الحياة، أو غير ذلك، من جوانب الاختلاف والتمايز، وهو الأمر الذي يجب أن يكون دافعًا نحو التعارف والتواصل بين هذه المكونات والمجاميع البشرية المختلفة، حيث يشير الشيخ الصفار إلى أهمية هذا التواصل للأسباب التالية:

أولًا: لكي تطّلع كل مجموعة بشرية، على واقع المجاميع الأخرى، وتتعرف خصوصياتها ومميزاتها، فالإنسان مجبول على حبّ الاطّلاع، والرغبة في المعرفة والعلم، كما أنه يميل إلى أبناء جنسه، وذلك يشكل حافزًا للتعارف والتواصل بين أبناء البشر في الوضع الطبيعي.
ثانيًا: إن تعرف كل أمة ودراستها لواقع الأمم الأخرى، يثري تجربتها، ويتيح لها فرصة الاستفادة من نقاط قوة الآخرين، وتلافي مكامن الضعف لديهم.

لذلك يشير القرآن الحكيم، إلى حقيقة أن التنوع ينبغي أن يكون دافعًا للتعارف لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾، بيد أن الاهتمام بالتعارف بين الأقوام والأمم، إنما ينبثق من أرضية الاحترام المتبادل، أما حينما تستهين مجموعة بالآخرين، وتنظر إليهم نظرة احتقار وازدراء، ويمتلكها تجاههم الشعور بالتعالي، فإنها لن تتجه لاستكشاف ما لدى الآخرين من نقاط القوة، وصفات الخير، لذلك فإن القرآن الحكيم يمهّد للدعوة إلى التعارف، بإدانة نظرة السخرية والازدراء بين الأمم والأقوام، حيث جاء في سياق الآيات الكريمة التي سبقت تلك الآية قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ**﴾.

وهذا الكلام، كما يشرح الشيخ الصفار، ليس عن سخرية شخص من شخص، وإن كان ذلك مرفوضًا ومدانًا، إلا أن الحديث هنا يأتي في سياق العلاقة والتعامل بين المجاميع، أي قوم من قوم، حيث يلفت القرآن الحكيم الأنظار، إلى عدم الوقوف في تقويم الآخرين عند حدود المظاهر والأشكال، بل يجب البحث عن الصفات الفاضلة والسمات الكريمة:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.(١)

وعلى الرغم من قيمة الحوار وأهميه للتعايش والتعارف والتواصل فيما بيننا، إلا أن الشيخ الصفار يشعر بالإحباط نتيجة عدم أخذ هذه القيمة موقعها الصحيح في حياتنا كمسلمين، وخاصة على المستوى الداخلي، مع أن آيات القرآن تدفع الإنسان وتربي الإنسان المسلم على اعتماد منهج الحوار، حيث نجد أن القرآن الكريم يعرض علينا حوار اللّٰه تعالى مع ملائكته، والحوار بين اللّٰه جل وعلا وبين إبليس المتمرد، ويعرض علينا قصصًا كثيرة لمحاورة الأنبياء مع أممهم وأقوامهم وبعض المؤمنين، كما يقول القرآن الكريم ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾، وفي الروايات والنصوص تأكيد على هذا الجانب، إلا إننا استبدلنا الحوار بالقطيعة وبالنزاع والخصومة، وهذه مشكلة كبيرة تكرس تخلفنا.

ينبغي لنا أن نعتمد منهجية الحوار من أجل أن نتعرف إلى بعضنا بعضًا، ويعرف كل واحد منا بالضبط ما هي وجهة نظر الآخر، ولا يكوّن عنه نظرة مبتسرة مشوهة، وأن يعرف مبرراته في هذه النظرة وهذا الموقف، فالحوار طريق للمعرفة وطريق للتعارف، تتعرف وجهة نظر الطرف الآخر، وهو يتعرف وجهة نظرك. إذا لم يكن هناك حوار مباشر، فسوف تكون معرفتك به ومعرفته بك عن طريق طرف ثالث، عن طريق معلومات قد لا تكون دقيقة وصحيحة وسليمة، وهو الأمر الذي نجده الآن بين المسلمين، فكل مذهب يأخذ نظرته عن المذهب الآخر من خلال ما يسمع من كلام، أو من كتابات مشوهة أو غير سليمة.

ومع أن الحوار طريق للسلام؛ لأنه ينقل الخلاف من دائرته النفسية، كصراع وكأحقاد، إلى دائرته الفكرية العقلية، كوجهات نظر مختلفة، وكدوافع مختلفة لهذا الموقف أو لذلك الموقف، إلا أن الشيخ الصفار يكرر أسفه في أن الحوار بين المسلمين، خاصة على المستوى المذهبي، لم يرقَ إلى هذه الدرجة، اللّٰهم إلا بعض الومضات المضيئة في تاريخنا المعاصر، كما حصل من خلال دار التقريب الإسلامي في القاهرة، حينما ذهب بعض علماء الشيعة

---

(١) من كتاب التنوع والتعايش. ص ٧٦

إلى هناك، كالشيخ محمد تقي القمي، وأجرى حوارًا مع بعض العلماء في مصر، وأيضًا ما حصل أخيرًا من قبل (إسسكو) المنظمة الإسلامية للعلوم والثقافة، وحصلت لقاءات على هذا الصعيد، إلا أن المحبط هو ما نشاهده في بعض الأحيان من أعمال تمثل انتكاسة عن هذا المستوى المتقدم، حيث نشاهد في بعض القنوات الفضائية، وعلى بعض مواقع الانترنت، ما هو أقرب إلى المهاترات منه إلى الحوار، أو ما هو أقرب إلى المنافرة من المناظرة، حيث يعكس هذا الأسلوب مستوى التخلف الذي تعيشه الأمة، والحالة السلبية التي يجب أن يعمل الواعون حتى تتجاوزها الأمة.(١)

من الطبيعي وجود التعدد والاختلاف حول الكثير من المسائل والقضايا، ليس فقط مع من نختلف معهم في الانتماء الحضاري والثقافي، بل هو موجود حتى مع من ننتمي نحن وإياهم ضمن دائرة حضارية واحدة، بل وحتى مع من ننتمي وإياهم إلى الدوائر الأصغر فالأصغر من الانتماءات، إلا أن المهم في كل ذلك، القدرة على تقبل هذا الاختلاف والتعامل معه بطريقة إيجابية، بعيدًا عن التشنج والتنافر وادّعاء امتلاك الحقيقة المطلقة، وذلك بوضع مسائل الخلاف والاختلاف على طاولة الحوار والنقاش، ومن ثم تبادل الرأي، والصراحة في الحوار، والجرأة في طرح الأفكار.

الحوار بين أبناء الوطن الواحد

الحوار الموضوعي المرغوب فيه والمؤمل في تحقيقه بين فرقاء الصف الواحد، لن يتحقق ويؤتي ثماره الإيجابية، إلا من خلال تهيئة الظروف والأجواء المناسبة التي تساعد على النقاش الحر، والحوار المنتج والنقد البنّاء، أما إذا كان هذا الحوار يتم في ظلّ أجواء التشنج الطائفي والمذهبي، وتقاذف التهم والتراشق الإعلامي، وخطابات التحريض والإثارات الجماهيرية، وحالات التمييز والقطيعة الاجتماعية، فإن الحوار لن يكون إلا سلبيًا، ويبتعد عن هدفه الصحيح، وغاياته المرجوة والمرغوبة.

---

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع شبكة الرفيعة الثقافية.

وعندما يلتف أبناء الوطن الواحد حول طاولة حوار واحدة، فإن ذلك يعني مناقشة القضايا المرتبطة بمصالح الوطن والمواطنين، كما يقول الشيخ الصفار، وأن يبدي كل طرف رأيه حولها، ويصغي إلى آراء الآخرين، ثم يكون هناك دراسة لهذه الآراء لتلمس الطريق إلى أفضل الحلول والمعالجات، ذلك أن كل طرف قد يعيش ضمن تصور معين لمسألة من المسائل لأنه يراها من زاوية معينة، ومنظور محدود، بينما يراها الآخرون من زاوية أخرى ومن منظور آخر، وحينما يطّلع كل طرف على رأي الآخر ورؤيته، ويتدارسان الأمر بموضوعية، فإن ذلك يقرب المسافات بين الأفكار، ويساعد على تكاملها وتطويرها، ويجعل كل طرف متفهمًا لوجهة نظر الآخر وإن لم يقتنع بها.

على أن من أهم القضايا والموضوعات التي يجب أن توضع على قائمة أولويات أي أجندة حوار وطني وأهلي، كما يرى الشيخ الصفار، هي مسائل الإصلاح العام، من توسيع المشاركة الشعبية، وحماية حقوق الإنسان، وتحقيق المساواة بين المواطنين، واحترام حرية التعبير عن الرأي، وتطوير الخطاب الديني لتجاوز حالة الغلو والتطرف، والاستفادة من تعدد المذاهب والمدارس الفكرية، في تأكيد نهج التسامح والاعتدال، ومعالجة مشاكل جيل الشباب على صعيد التعليم وتأمين فرص العمل، وتسهيل مطالب الحياة.

إن التفاف أبناء الوطن الواحد حول طاولة الحوار ليس بالأمر السهل والهيّن، خصوصًا بعد سنين طويلة من الانقطاع والقطيعة، وكأي نهج جديد لم يكن مألوفًا من قبل، يحتاج إلى وقت لتتسع القناعة به أولًا، ومن ثم تتشكل له أساليبه وتقاليده وتتراكم التجربة حوله بعد التعود على ممارسته مع مرور الوقت، وتتالي الأيام والسنين، إلا أن الأهم من ذلك كله هو وجود الأداة السياسية التي تحمل مشروع التغيير، وتمتلك إرادة الإصلاح وتتطلّع للرقي بمجتمعها نحو الأفضل.[١]

يشدد الشيخ الصفار على أهمية الحوار ودوره في عملية الاندماج الوطني، موضحًا أن كل أطياف وفئات الوطن الواحد هم جزء لا يتجزأ من أبنائه، ويشكلون شعبًا واحدًا في

---

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع جريدة الجزيرة السعودية.

هذا الوطن، وأي مستوى من الانفتاح والتطوير يكون في البلاد، من الواجب أن يستفيد منه سائر المواطنين، مضيفًا أن أهم ما يفيد الأقليات اندماجها الوطني، وتهميش أي فئة سيؤدي إلى الانكفاء والانطواء على الذات، ويشكل خسارة لهم وللوطن، مطالبًا بالحوار معهم لكونه يفيد عملية اندماجهم الوطني، ومدخلًا لتجاوز ما قد يعانونه من تهميش، بسبب ما قد يوجد من حواجز مذهبية نشأت بفعل ظروف وأوضاع غير إيجابية، ولن يتم تجاوز مخلفات خوالي الأيام وسلبياتها إلا بالانفتاح عليهم، وانفتاحهم على الآخرين، والمشاركة في معالجة الهموم والقضايا الوطنية العامة، فالحوار بين الأطراف المختلفة يمثل اعترافًا متبادلًا، واتفاقًا على الاحترام، ويوفر إمكان التعارف المباشر، وينهي عهود القطيعة وظنون السوء، وفي ذلك مكاسب عظيمة للوطن بشكل عام، ولفئاته المختلفة بشكل خاص.[١]

---

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع جريدة الجزيرة السعودية.

خامساً:

في ضرورة إحياء مفاهيم الوحدة والأخوة والتقارب وتجديدها

تواجه الأمة منذ زمن مشاكل متراكمة وأمراض مزمنة، ازدادت تعقيدًا مع توالي الأيام وتقادم السنين، وخصوصًا في هذا الزمن المعاصر، فمن تحدّيات الخارج بكل أنواعها، إلى مشكلات الداخل بكل أشكالها، حيث تتعرض الأمة إلى احتلالات أجنبية، وأطماع خارجية، كما تعصف بالأمة العديد من النزاعات والفتن الداخلية والدخيلة، والانقسامات والخلافات بين أبنائها، وانعدام العدل والمساواة بين مواطنيها، وانتهاكات للحقوق، وعمليات تمييز وفرز وتهميش وحرمان واضطهاد، بسبب اختلاف انتماءاتهم العرقية والقومية، أو الدينية والمذهبية، واستفحال خطابات التعبئة والشحن، وتأجيج المشاعر ودغدغة الأحاسيس وإثارة الضغائن والأحقاد، حيث تصبّ كل هذه الأمور في سرعة اشتعال النار وامتدادها في هشيم واقع الأمة الهشّ والرقيق والحسّاس.

يتساءل الشيخ الصفار: كيف يمكن تحقيق الوحدة السياسية والاجتماعية في مجتمع يعيش انقسامات حادة على أساس قومي أو ديني/ مذهبي، أو مناطقي أو قبلي؟ هل يكون ذلك بالمراهنة على تذويب الهوّيات وإلغاء مشاعر الانتماء الخاص؟ أو بغلبة طرف وإخضاعه لسائر الأطراف؟ أم أن هناك أساليب وخيارات أصوب؟[1]

وبالرغم من تصاعد أمواج الفتن الداخلية في الأمة، واتساع حالات النزاع والاحتراب في أكثر من بلد ووطن إسلامي، قد يبدو طرح موضوع التضامن الإسلامي وكأنه ضرب

(١) من كتاب السياسة النبوية ودولة اللاعنف. ص ٧٦

من ضروب الخيال، أو نسج في عالم الأوهام والتمنيات، على حدّ قول الشيخ الصفار، لافتًا إلى أن العودة إلى سيرة الرسول ﷺ، واستحضار شخصيته العظيمة، يمكن أن تنعش الأمل بالوحدة في نفوس المخلصين الواعين من أبناء الأمة، ويرفع معنوياتهم، ويرفدهم بالأفكار الهادية، ويفتح أمامهم آفاق البرامج والمشاريع القادرة على إنقاذ واقع الأمة، والارتقاء بحالها إلى مستوى أفضل.

ذلك أن السيرة النبوية الشريفة تحفل بأعظم إنجاز وحدوي تحقق في تاريخ البشرية، حيث يجمع المؤرخون أن مجتمع الجزيرة العربية قبل الإسلام كان ممزقًا لا يجمعه كيان، ولا يلم شمله نظام، كانوا قبائل متناثرة، في أجواء علاقات مضطربة، غالبًا ما تفضي إلى العداء والاحتراب، ومن يقرأ أيام العرب، وهو ما يطلق على معاركها وحروبها، تدهشه تلك المعارك الضارية، التي كانت تنشب لأتفه الأسباب.

ويرى الشيخ الصفار أن قراءتنا للسيرة النبوية، واستحضارنا لعظمة هذا الإنجاز الوحدوي، يجب أن يمنحنا الأمل، وأن يحفِّزنا لتجديد المحاولات، وابتكار الخطط والمشاريع للقيام بخطوات عملية على طريق وحدة الأمة، واستعادة تضامنها الإسلامي، على الرغم من أن واقع الأمة اليوم، وأوضاع العالم المعاصر، أشدّ تعقيدًا وأبلغ صعوبة من أوضاع الجزيرة العربية يوم انطلقت الدعوة الإسلامية، وستكون المقارنة سطحية ساذجة لو لم تأخذ هذه المفارقات بعين الاعتبار، لكن هناك أيضًا مفارقات إيجابية، يمكن توظيفها لصالح مشروع الوحدة والتضامن، إذ ليس مطلوبًا الآن أن نبدأ من الصفر، بل الانطلاق من تجربة رائدة في تاريخ تأسيس الأمة، ومن صحوة إيمانية تهبُّ على جماهير الأمة المسلمة، التي تمتلك الكثير من مقومات القدرة والقوة، كما يمكن الاستفادة من التجارب المعاصرة لسائر الأمم والشعوب، وأبرزها تجربة الاتحاد الأوروبي».[(١)]

إن ما تنتهجه الآن المجتمعات الغربية المتقدمة، من اعتماد الوطن كهويّة مشتركة، ومن احترام التنوع في مجتمعاتها، وتجريم الطروحات العنصرية، والممارسات التمييزية بين

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٣٤

المواطنين، وتحقيق الشراكة والمشاركة عبر النظام الديمقراطي، إنما يمثل إدراكًا لأفضل سبل التقدم والحضارة التي سبق إليها الإسلام بقرون. ومع تلافي الكثير من الثغرات والسلبيات التي تعاني منها الحضارة الغربية، فإن المسلمين اليوم هم الأولى بمثل هذا النهج السليم، النابع من تعاليم دينهم، والمنسجم مع تاريخهم وثقافتهم الأصيلة.(١)

وحدة الأمة ضرورة استراتيجية دائمًا وليس عملًا مرحليًا مؤقتًا

إن الواقع المتردي والمزري والمتهالك الذي تمر به أمتنا، لشيء يؤسف له، وأمر يؤلم القلب، ويشكل عقبة أمام تطور الأمة وتقدمها على طريق التنمية والبناء، ويزيد من بعد الشقة وحِدّة الخلاف والفرقة بين فئاتها وأطرافها، ويعمق النزاع بينها، ويهدد وحدتها واستقرارها، ويفتح الباب أمام الإرادات الأجنبية والأطماع الخارجية للتدخل في شؤونها والهيمنة على قرارها وتكبيل إرادتها وتوجيه خياراتها وتحديد مصيرها، فضلًا عن السعي إلى تقسيم أراضيها.

مثل مجتمعات كهذه تكثر فيها النقائض والاختلالات، سيكون من السهل اختراقها وبث روح الفرقة بين أبنائها، لكنها لو اتحدت واجتمعت وتضامت ونسقت جهودها، واستجمعت قواها وثرواتها لحماية نفسها من الأزمات الداخلية والمؤامرات الخارجية، لاستطاعت مواجهة كل التحديات، ومعالجة ما تعانيه من متاعب وانهيارات وأزمات.

إن من أهم أسباب النزاعات والخلافات في بعض البلدان الإسلامية، كما يشير الشيخ الصفار، هو غياب المشاركة الشعبية، وسياسة التمييز القومي والطائفي، فحين تشعر فئة من المواطنين بالتهميش والحرمان والانتقاص من حقوقها، وتكون فئة أخرى في موقعية الاستئثار والاستعلاء، فإن ذلك يدفع إلى النزاع والاضطراب عاجلًا أو آجلًا. ولن يكون لتراكم هذه المشكلات واستفحالها مع الزمن، إلا المزيد من التهديد لوحدة البلدان واستقرارها، وإعاقة مشاريع وخطط التنمية والبناء، وفتح الأبواب على مصارعها أمام

(١) من كتاب السياسة النبوية ودولة اللاعنف. ص ٨٦

الإرادات والأطماع الأجنبية.

«والحكومات الواعية المخلصة لمصلحة الوطن ووحدته، هي التي يجب أن تعزّز من شأن التعاون والوحدة بين المواطنين، تدعيمًا لأمن الوطن من الخلافات الداخلية، ولاستقراره الدائم، الذي ينعكس على عزة ونمو البلد ورفعته وتقدمه، وقد ورد في الحديث (**خير الولاة من جمع المختلف، وشرّ الولاة من فرق المؤتلف**)».(١)

إن الواقع السلبي والمزري الذي تمر به الأمة، لا يجب أن يسلب أصحاب الإرادات الصلبة استقلالية قراراتها، أو يفرض عليها الاستسلام للأمر الواقع، بكل ما فيه من خراب ومآسٍ وحروب دمار، بل إن هذا الواقع المأساوي يشكل عامل استفزاز لكل أصحاب الإرادات الطيبة، التي يؤلمها ما تمر به الأمة من تردّي، ويزيد في عزيمة رواد خطاب الوحدة، وقادة الوسطية والاعتدال في الأمة، ويدفعهم إلى التشمير عن سواعدهم، وخوض معركة الوحدة والتوحد، والسعي إلى تجديد خطاب الوحدة وتطويره والترويج له، والعمل على تجسيده عمليًّا على أرض الواقع، بعدما مرّ علينا حين من الدهر عانى فيه هذا الخطاب من السكونية والجمود والتقوقع، وكاد أن يخبو فينا، ويضعف في ضمائرنا، ويزول من تفكيرنا، ويجمد ويتراجع مضمونه ومحتواه في ثقافتنا، وتبهت مستوى فاعليته بين أبناء الأمة، وإمكان تأثيره فيها.

فهل يا ترى أصبحت عناوين الوحدة والتوحد والتقارب والانفتاح غير ذات جدوى، ومجرد شعارات وهمية براقة بلا معنى أو قيمة أو مضمون، تضللنا وننخدع بها بعد أن بهتت، وتراجع مضمونها ومحتواها في ثقافتنا وضمائرنا؟

يدعو الشيخ الصفار بأن تكون وحدة هذه الأمة والحوار والتقارب بين فئاتها، على اختلاف مذاهبهم وتوجهاتهم، غاية نبيلة وهدفًا مقدسًا، وليس مجرد وسيلة لتحقيق مصالح محدودة، كما يجب أن تصبح استراتيجية دائمة لا مجرد تكتيك مرحلي. إنها غاية وهدف؛ لأن اللّه تعالى قد تعبدنا بها، وأمرنا بتحقيقها، حسب آيات القرآن الكريم،

(١) من كتاب الوطن والمواطنة.. الحقوق والواجبات. ص ٥٠

وأحاديث السنة الشريفة، وهي نهج ثابت واستراتيجية دائمة؛ لأن العقل يهدي إلى أنه الخيار الأفضل لتنظيم العلاقة في المجتمعات البشرية، وأن بديله هو التنازع المفضي إلى الفشل والدمار.[١]

لقد مرّ على أمتنا حين من الدهر اختفت فيه مفاهيم ومبادئ وتشريعات إسلامية، كما يقول الشيخ الصفار، نتيجة حالة التخلف التي مرت بها الأمة، «ومن تلك العناوين الغائبة المغيبة عنوان الوحدة والتقارب والانفتاح بين طوائف الأمة ومدارسهم المذهبية والفكرية. وإن أي مسلم لديه شيء من المعرفة بمبادئ الإسلام لا يستطيع إنكار مبدأ الدعوة إلى وحدة الأمة، فهو مبدأ أساس نصّت عليه آيات محكمة من كتاب اللَّه، وأحاديث صحيحة من سنة رسول اللَّه ﷺ، كما يؤيده العقل والوجدان، وتؤكد عليه تجارب الأمم القوية الناجحة.

ويشير الشيخ الصفار إلى أن قضية وحدة الأمة ليست من القضايا النظرية التي تقبل الأخذ والردّ، وتحتاج إلى البرهنة والاستدلال، بل هي من ضروريات الدين المسلّم بها عند فقهاء المسلمين، إلا أن عصور الاستبداد والتخلف، التي عاشت الأمة في ظلها انقسامًا مذهبيًا حادًا، على الصعيد الثقافي والنفسي والاجتماعي، صيّر الفرقة والقطيعة والانطواء واقعًا مقبولًا، وكأنه الحال الطبيعي الذي يجب أن يستمر في حياة الأمة».[٢]

ويؤكد الشيخ الصفار أن مسألة الوحدة الإسلامية ليست مجرد واجب ديني فقط، بل هي أصل من أصول الدين، وهي من مقاصد الشريعة الإسلامية، مضيفا أن أحد كبار علمائنا قال: إن الدين قام على شيئين: كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة، فهي أصل أساس، لا يصح أن نتعامل مع مسألة الوحدة وكأنها مسألة كمالية أو مسألة جانبية، وإنما هي مسألة أساس والأصل الأساس في مفاهيم الدين، وفي الفكر الإسلامي.

ويشدّد الشيخ الصفار على أن الوحدة أصبحت ضرورة لحماية مصالح الأمة، ولإنقاذ

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٨٤

(٢) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٢١

الأمة من الواقع المتخلف الذي تعيش فيه، إلا أن مشكلة البعض انه يفهم الوحدة على أنها تذويب الفئات والجهات في بوتقة واحدة، على الصعيد الفكري، أو على الصعيد السياسي، فحينما يقال الوحدة يتبادر إلى الذهن أن هذه الأمة تكون كلها تحت قيادة واحدة مثلًا، أو ضمن دولة واحدة، وأن التوجهات المذهبية على الصعيد الفكري كلها تلتقي عند مذهب واحد، وتصوير الوحدة بهذا الشكل، وإن كان هذا طموح نتطلع إليه، ولكن الوحدة بهذا الشكل أمر غير ممكن، وغير وارد في الواقع المعيش، وليس هو المقصود من الوحدة، الوحدة يعني أن تجد الأمة صيغة لكي تتعايش بمختلف قواها، وبمختلف توجهاتها، إذا كانت هناك مذاهب متعددة، إذا كانت هناك أحزاب متعددة، وتوجهات متعددة تعيش ضمن إطار واحد، وتخدم كلها مصلحة مشتركة.

ويلفت الشيخ الصفار النظر إلى التجارب الوحدوية لبعض الشعوب الأخرى، مثل الشعوب الأوروبية، المختلفة الأعراق واللغات، وفي توجهات حكوماتها السياسية، إلا أنها مع ذلك صنعت الآن الاتحاد الأوروبي، وهي تخطو خطوات حثيثة وسريعة نحو الوحدة، فليس المقصود من الوحدة ذوبان هذا الطرف مع ذاك الطرف، وإنما المقصود من الوحدة أن نتفق على صيغة للعيش المشترك، والاحترام المتبادل، وخدمة المصالح المشتركة، الوحدة بهذا المعنى أمر ممكن، يدعو إليها العقل، وتدعو إليها الفطرة، ولا يمكننا أن نتجاوز هذا التخلف الذي نعيشه إلا إذا خطونا خطوات بهذا الاتجاه.(١)

إن الواقع الذي نعيشه لا يخلو ممن لا تروقه دعوات الوحدة والتقارب، ويثير الشكوك والإشكاليات والاتهامات تجاهها، حتى يمنع جماهير الأمة من التفاعل معها والالتفاف حولها. ومن أجل الالتفاف على هذه المطالب يطرح بعض المتشددين شرطًا تعجيزيًّا لتحقيق الوحدة، كما يلفت الشيخ الصفار، وهو إلغاء الطرف الآخر، «إنه شرط تعجيزي، إذ كيف يمكن إلغاء أي من الطرفين؟ هل بالإبادة الجماعية؟ أم بإجبارهم على اعتناق المذهب الآخر؟ أم بالسعي لإقناعهم بالتنازل عن مذهبهم؟ وماذا إذا لم يقتنعوا أو

---

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع موقع المعصومين الأربعة عشر.

لم يقتنع بعضهم؟»[١]

الوحدة كالتزام ديني

إن مفاهيم الوحدة والتقارب والتعارف والتواصل والتعايش والتسامح والتآلف والتآخي والأخوة الإسلامية ووحدة الأمة والتقريب بين أتباع المذاهب، وغيرها من جمل ومفاهيم ومصطلحات، دائمًا ما يحتفي بها الشيخ الصفار وترد وتتكرر في خطابه، في تأكيد منه على عمق هذه القناعة لديه، وإيمانه الصادق بها، والتزامه المطلق الأكيد بقيم الإسلام وتعاليمه، فالإسلام، كما يقول، يريد من المسلمين أن يكونوا أمة واحدة، ويحثهم على تحقيق مفهوم الأمة في الواقع، وأن يعيشوا ضمن كيان يجمعهم ويعيشوا في كنفه دون حواجز أو حدود جغرافية، ولا يقبل بحالة التمزق والتشرذم والانشطار إلى كيانات متعددة ومختلفة.

إلا أن ما يقلق الشيخ الصفار هو وجود أصوات دائمًا ما تتعامل مع هذه المفاهيم الدينية الأصيلة كونها غريبة، وكأن الخصومة والتفرق المذهبي وتشتت الأمة وتمزق أشلائها هو الواقع الذي ينبغي أن يتكرّس، وأن الدعوة إلى الوحدة والتقارب يصبح مثارًا للسخرية، وهذا بحدّ ذاته دلالة على عمق الانحراف الذي يعيشه قطاع كبير من أبناء الأئمة، وعلى امتداد مساحة واسعة من مجتمعاتها، ونحن هنا لسنا بحاجة إلى إثبات أصالة هذه العناوين في الفكر والثقافة الإسلامية، فهناك الكثير من الآيات الكريمة التي يحفظها الجميع تؤكد على هذه الثوابت، منها قوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ**﴾، و: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾، و: ﴿**وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ**﴾، وقوله: ﴿**وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾، هذا بالإضافة إلى الروايات التي تدعو إلى الانفتاح والتقارب والوحدة، حيث تؤكد هذه النصوص الشرعية أن الانفتاح هو الأصل في العلاقات بين بني الإنسان مهما اختلفت الأديان، فضلًا على

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٢٤

المذاهب والمدارس والآراء.[١]

ويؤكد الشيخ الصفار أنه «ضد أي محاولة للتصنيف الطائفي في أي مكان في الأمة الإسلامية، وضد أي مسّ لكيانات الأوطان الإسلامية، ويتمنى أن نعيش في حال من الوحدة الحقيقية الواقعية، وأن تندمج هذه الدول وتقترب في ما بينها، وفي الحد الأدنى أن نحافظ على الحال القائمة، ولا قبول لأي تصنيف يعمّق التشرذم والتمزق في الأمة والمنطقة».[٢]

والأخوة الإسلامية حسب رأيه تعني التفاعل العاطفي بين جميع المسلمين، كل مسلم يجب أن يتفاعل نفسيًّا وعاطفيًّا مع قضايا المسلمين، أفرادًا ومجتمعات، وتعني كذلك الاشتراك في الدفاع عن مصالح الأمة ومصالح أفرادها، والأخوة الإسلامية هي بشكل عام مشاركة في الآمال والآلام والمصالح، والتناصر والدفاع عن الحقوق، فأي اعتداء يقع على أي مسلم، فمن الواجب أن يهبّ بقية المسلمين للدفاع ورفع الظلم عنه؛ لأن الأخوة مسؤولية كاملة تجاه جميع الإخوة في الدين والعقيدة، فهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له بقية الأعضاء بالسهر والحمى.

لذلك فإن «الدعوة إلى الانفتاح والتقريب والوحدة إنما جاءت لإنقاذ الأمة من هذا الواقع السيئ، ولإصلاح خلل العلاقة بين أتباع المذاهب، بما يضع حدًا لتلك الإفرازات البغيضة، وصدور إساءات ضد هذا المذهب أو تلك الطائفة يجب أن يشكل مبررًا ودافعًا للاهتمام بدعوة التقريب والوحدة، وللتدليل على ضرورتها وإلحاح الحاجة إليها؛ لأنها تقدم المعالجة الجذرية، وتبشر بعهد جديد من الأخوة والتفاهم والتعاون».[٣]

إن الالتزام بروح الأخوة والوحدة بين أبناء الأمة يتطلب تبني المواقف التي تجمع ولا تفرق، والالتفات إلى القضايا الجوهرية التي تهم الأمة، وعندما يختلف أبناء الأمة فيما

(١) من كتاب الانفتاح بين المصالح والهواجس. ص ١٢
(٢) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع جريدة الحياة.
(٣) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٣١

بينهم على أمرٍ ما، وفي الوقت نفسه يتربص بهم عدو خارجي، فإن الواجب والأولوية تحتم تأجيل قضايا الخلاف الداخلية والفرعية، والتفرغ لمواجهة العدو الخارجي، وعندما ننتهي من هذه المواجهة، نجلس ونتحدث بالتفصيل في اختلافاتنا الداخلية.

ويُفترض في الخطاب الإسلامي، كما يعتقد الشيخ الصفار، أن لا يكون إلا وحدويًا؛ لأن الوحدة قيمة أساس، ومبدء ثابت في الإسلام، وهي في الصدارة والمقدمة من قيم الإسلام ومبادئه، ومن أهم الثغرات ونقاط الضعف في واقع الأمة الإسلامية انحراف بعض الخطابات الإسلامية عن محور الوحدة، واعتمادها لغة التفريق والتمزيق بعناوين مذهبية أو سياسية أو حزبية.

لذلك فإننا بحاجة إلى ميثاق شرف إسلامي نلتزم به في خطابنا، وخاصة في هذا الظرف الخطير، حيث تواجه الأمة هذه التحديات الكبيرة، ويرتكز هذا الميثاق، من بين ما يرتكز عليه، التأكيد على الوحدة قيمة أساس من قيم الإسلام، وليس مجرد صفة أخلاقية كمالية، وأن لهذه القيمة حاكمية على سائر القيم والمفاهيم، فلا يصحّ أبدًا تمزيق وحدة الأمة من أجل التمسك بهذه الفكرة أو تلك، أو الالتزام بهذه المسألة الشرعية أو غيرها، بل يجب اعتبار الوحدة أساسًا ومحورًا لا يجوز المساس به أو إضاعته.(١)

والوحدة بين المسلمين من الأولويات والأصول، وهي مطلب أساس لكل من يتمنى ويريد الخير لهذه الأمة، وأن من أولى الأولويات في هذا الزمن مواجهة الفتن ووأدها في مهدها، والعمل على منعها وفضح صناعها وعملائهم، والوقوف صفًا واحدًا ضد مشعليها ودعاتها والمحرضين عليها. وعندما يخطئ البعض من أبناء هذه الأمة وينجرّ إلى التقاذف بأقاويل التضليل والتفسيق والتبديع، وتبادل التهم والكلمات الجارحة ضد بعضهم بعضًا، فإنما هم بذلك يفرحون أعداء هذه الأمة، ويخيبون ظن الذين تهفوا أنفسهم إلى وحدة الأمة، وتلهج ألسنتهم بالدعاء من أجل عزتها ورفعتها واستقلالها وحريتها وكرامتها وتماسكها وتعاضدها ووقوفها صفًا واحدًا ضد الطغيان والعدوان.

---

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع جريدة الشرق الأوسط.

يقول الشيخ الصفار: إنه لمن المهم في مقومات الخطاب الإسلامي الحديث والجديد، الذي يتصدى لتحديات واقعنا المعاصر أن يكون ذا توجهات إنسانية واضحة المعالم، وأن يعكس طبيعة المفاهيم والقيم الإسلامية، التي تنطلق من التأكيد على كرامة الإنسان، وتقر له بحريته في الاختيار، وتملأ نفس المسلم بالحبّ والاحترام لأبناء جنسه من البشر، فحينما يتخاطب المسلم مع الآخرين، عليه أن يكون حريصًا على مراعاة مشاعرهم، واحترام إنسانيتهم، وذلك هو ما نفهمه من قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾، فمن لا يجيد أفضل أساليب الطرح والعرض، ويتحدث مع الآخرين بانفعال وتشنج عليه أن يصمت ويسكت؛ لأنه غير مؤهل للتخاطب مع الآخرين، فليلتزم بالنهي والمنع القرآني: ﴿**وَلاَ تُجَادِلُوا**﴾.

ولعل من نقاط الضعف في خطابنا الإسلامي المعاصر مع الآخرين وجود أصوات متشنجة، كأنما تنبعث من حقد وكراهية للآخرين، وتتحدث من موقع الفرض والتعالي، وهذا مخالف لسمات الخطاب الدعوي الذي يصفه اللَّه تعالى بقوله: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾.

ومن ناحية أخرى، ينبغي أن نعرض الإسلام من خلال تقديم معالجات للمشاكل التي تعاني منها البشرية، ومن خلال طرح برامج ورؤى تقدمية في مجالات الحياة المختلفة، فذلك هو الذي يستقطب إنسان العصر، ويجعل الإسلام في موقعه الريادي، باعتباره يقدم شيئًا جديدًا ومفيدًا للإنسانية.[١]

إن تحقيق صيغة مناسبة للتضامن بين جميع مكونات هذه الأمة ليس بالأمر المستحيل على الرغم من أنه ليس بالأمر اليسير، حيث يكتنف هذا الأمل والطموح الكثير من التحديات الجسام والصعوبات الكبرى. إلا أن ما يختزنه الوجدان الإسلامي في نفوس أبناء الأمة من تطلع للوحدة، وما تحمله مفاهيم الإسلام من قيم وتعاليم دافعة نحو التضامن والتماسك والتوحد، سيكون مصدرًا للدفع والتحريض على المضي قدمًا في تعبيد

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع جريدة الشرق الأوسط.

الطريق نحو هدف الوحدة والتآخي، مهما علت الصعاب وتراكمت المشقات.

علينا أن نصرّ على نهج الوحدة والتقارب والحوار، كما يدعو إلى ذلك الشيخ الصفار، «وأن نواجه السلبيات والعوائق والنكسات التي تعترض المسيرة، فوجودها أمر طبيعي متوقع، لتأثيرات التاريخ ومؤثرات التراث المذهبي عند مختلف الأطراف، ولخطط الأعداء لتمزيقنا وضرب بعضنا ببعض، إلا إنه لا يصح لنا أن ننهزم أو نتراجع عما نعتقده مبدأ شرعيًا، ومصلحة عقلية واضحة، وضرورة حياتية، لحصول عقبة هنا أو نكسة هناك، ولا يجوز لنا أن نخضع لضغوط المتطرفين في مختلف الساحات الذين هم في الأصل ضد فكرة الحوار والتقارب، ويسعون لإفشالها، ويستغلون الأحداث السيئة لذلك».(١)

الوحدة كقيمة حضارية

إن بناء مشروع إنساني حضاري يستهدف بناء مجتمع متماسك، ويحمل رسالة الحرية والعدل والكرامة، ويبشر بها على مستوى العالم أجمع، لن يتحقق إلا بإحياء المفاهيم الإسلامية الأصيلة، وإعادة إنتاجها، والتجديد فيها، بما يتناسب والتطور الحادث في جميع مجالات الحياة في الزمن المعاصر، مع التأسيس لمفاهيم جديدة، تكون بديلًا عما هو سائد من مفاهيم بالية، وأنماط علاقات بليدة وعقيمة ومتوارثة، منذ عهود وأزمنة التحجر والتخلف التي مرّت بها الأمة.

إن واقع أمتنا المتردي والمأزوم والمتفجر، وما يحدث من تحولات وتقلبات في واقع الحياة المعاصرة من حولنا، يفرض على قادة هذه الأمة وعقولها المفكرة، وقفة تأمل ومراجعة ونقد ذاتي، لكشف هذا الواقع، والخطابات التي تنطلق منه، وتتحرك فيه، وتعبر عن مكوناته المختلفة، وتقييم مدى فاعليتها وتأثيرها، والارتقاء بها إلى مستوى ضخامة التحديات التي تثقل كاهل الأمة، من أجل الارتقاء بطاقات الأمة إلى مستوى مواجهة التحديات، ووقف ما تعانيه من نزف مجاني في ثرواتها، وحماية مجتمعاتها من حالة النزاع والشقاق والتمزق،

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٨٦

ومواجهة مختلف الأخطار الداخلية والخارجية، ليعيش الجميع في أمان واستقرار وسلم داخلي وأهلي، وتوفير طاقات الأمة وتكريسها من أجل البناء والإعمار والتنمية.

وإذا كنا نطالب بالجرأة في نقد خطابنا الوحدوي وتقويمه، والمطالبة بتجديده، كما يصرح الشيخ الصفار، فإن ذلك يأتي من أجل الارتقاء به إلى مستوى التحديات، ولكي يؤدي دوره المطلوب في ساحة الأمة، إلا أن ذلك لا يعني التنكر لدوره الإيجابي، وأثره المهم في تاريخنا المعاصر، حين حافظ هذا الخطاب على ديمومة هذا المفهوم والمبدأ الإسلامي، وإبقاء هذا التطلع والأمل حيًّا في وجدان وثقافة الأمة، وكان للخطاب الوحدوي وجهود التواصل والتقارب المبذولة، دور في الحد من اتجاهات التعصب والشقاق، والتقليل من الخسائر والأضرار.(١)

يبقى القول ختامًا إنه لا بد من توافر أرضية سياسية واجتماعية وثقافية متطورة ومتوازنة في أي مجتمع ينشد الوحدة ويتطلع إليها، ورفع شعار الوحدة بحدّ ذاته لا يكفي أو يجدي نفعا، إذا لم يقم على قواعد صلبة ومتينة البناء يمكن الركون إليها والارتكاز عليها، أما إذا ارتكز الأمر فقط على حجج وأفكار طوباوية وعاطفية أو إلى معطيات تاريخية ودينية مجردة، فمن يضمن بعد ذلك أن لا ينفرط العقد بنا وتبرز الفوارق، ونتحول إلى أقوام وقبائل وعشائر وممالك وإمارات متخاصمة لا يجمع بينها الكثير من المشتركات.

إن مجرد الدعوة إلى الوحدة والتقارب لا يكفي، حسب قول الشيخ الصفار، بل لا بد من أن تتحول هذه الدعوة إلى برامج عملية على أرض الواقع، وبين الناس أنفسهم، وخصوصًا فيما يرتبط بواقعنا المحلي في هذا البلد، حيث يدعو الشيخ الصفار الناس للدخول طرفًا فاعلًا ومؤثرًا في تجسيد حالة الوحدة والتقارب بشكل عملي، وأن لا تصبح القضية وكأنها محصورة فقط بين العلماء، أو شريحة معينة، بل من المهم أيضًا أن يكون للمثقفين ورجال المجتمع دور جاد في هذا الطريق؛ لأن ما نراه في البلدان الأخرى من فرقة وتشتت وصراعات، يدفعنا للخوف والقلق على مستقبل الأوضاع في بلادنا، وفي

(١) من كتاب خطاب الوحدة نقد وتقويم.

منطقتنا الخليجية، وهو الأمر الذي يحتم علينا تحصين حالة الوحدة فيما بيننا وداخل أوطاننا بمزيد من التداخل والتقارب على مستوى الناس والجمهور، من خلال القيام بالأعمال والمشاريع المشتركة في جميع المجالات الإنسانية والخيرية والاجتماعية والثقافية والعلمية والاقتصادية، بعيدًا عن كل أشكال الفرز والتمييز بين الناس.(١)

فلا شيء يحقق وحدة المجتمع كالشراكة الفعلية بين أطرافه في البناء واتخاذ القرار وإدارة الأمور، فذلك، كما يشير الشيخ الصفار، هو ما يشعر الجميع بمصلحتهم المشتركة في الحفاظ على كيان الوحدة، ورفض ما يمسّ بها، كما يجسد واقع المساواة في الحقوق والواجبات، أما إذا استأثرت بعض الأطراف بذلك، فإن الآخرين سيتملكهم الإحساس بالغبن والظلامة، وسيدفعهم شعورهم بالإقصاء والتهميش إلى القيام بردود فعل ليست في صالح الوحدة واستقرار المجتمع، فإقصاء أي طرف يحرم المجتمع من فاعليته وعطائه، ويفتح ثغرة في جدار وحدته وأمنه.

ويعتقد الشيخ الصفار أن من مفاخر الإسلام العظيمة سبقه إلى إقرار مبدأ المشاركة الشعبية، والشراكة الاجتماعية، في وقت كانت ترزح فيه المجتمعات البشرية في ظلّ أنظمة الاستبداد والعنصرية والطبقية البغيضة، مضيفًا أن الرسول كان يمارس الشورى على الصعيد الاجتماعي العام، ليدلي كل مسلم برأيه، كبيرًا كان أو صغيرًا، من الأحرار أو الموالي، من المهاجرين أو الأنصار، ومن أي قبيلة كان، وحتى العناصر غير العربية أخذت موقعها دون أي تفاوت، بل احتلّ بعضها موقعًا متميزًا بجدارته كصهيب الرومي وسلمان الفارسي، وحتى في مجال الوظائف والمهام القيادية، كان رسول اللّه يسندها إلى الأكفاء المؤهلين من مختلف القبائل.

ويرى الشيخ الصفار أنه لو أُعطي هذا الجانب من السيرة النبوية حقه من الدراسة، لتجلت لنا وللبشرية روعة تعاليم الإسلام، وعظمة القيادة النبوية، فهذا النهج الوحدوي الذي اعتمده رسول اللّه في بناء الأمة، بتركيز الهويّة المشتركة، وهي الإسلام، لتكون فوق

(١) من كتاب الانفتاح بين المصالح والهواجس. ص ٤١

سائر الهويّات والانتماءات، التي لم يتنكر الإسلام لوجودها، كالقبيلة والوطن والقوم، وإنما حارب التوجهات السلبية فيها، وضخّ في المجتمع الجديد ثقافة وحدوية، تعالج آثار المفاصلة القبلية السائدة. بالإضافة إلى ذلك فقد حرص الرسول على تحقيق الشراكة الاجتماعية بين مختلف الأطراف في البناء واتخاذ القرار وإدارة الأمور، إن هذا النهج هو ما يؤدي إلى الوحدة الحقيقية، وهو ما يؤهل المجتمع للرقي الحضاري.[١]

---

(١) من كتاب السياسة النبوية ودولة اللاعنف. ص ٨٣

سادساً:

تحقيق مفهوم المواطنة

يقترح الشيخ الصفار في سياق تناوله لمسألة التقريب بين المذاهب، تبديل هذا العنوان إلى ما هو أقرب للصحة من وجهة نظره، من خلال استعمال عنوان ومصطلح آخر يكون أقرب للواقع، وهو التقريب بين أتباع المذاهب. فعنوان التقريب بين المذاهب قد يثير مخاوف البعض وهواجسه، من خلال الاعتقاد أن ذلك سيقود إلى تقديم تنازلات في القناعات والآراء العقدية، بينما الحقيقة الواقعية أنه ليس مطلوبًا من أحد التنازل عن أي من قناعاته الدينية المبدئية، لذلك فإن استعمال وتداول عنوان التقريب بين أتباع المذاهب، سيكون أكثر ملائمة وجدوى، ولا يستفز قناعة أحد، كما يرى الشيخ الصفار.

لقد تسبب ضعف الوعي بالدين وسماحته وأخلاقياته، وسيادة أخلاقيات التعصب والتطرف والغلو، في نشوء حالة من التباعد والانفصال بين أتباع المذاهب. ومما زاد بعد الشقة بينها وجود قوى مغرضة منتفعة من انتشار حالة الخلاف والشقاق، بالإضافة إلى تآمر الأعداء لتمزيق شمل الأمة ووحدتها، لذلك يبقى السؤال: لماذا لا نعيد صياغة عنوان التقريب بين أتباع المذاهب من جديد، وطرح المسألة بشكل جديد وبعنوان آخر وبصياغة مختلفة، تحمل مفهوم التقريب بين أبناء الوطن الواحد، حيث الأوطان اليوم في الاصطلاح السياسي المعاصر، تضم وتحتوي على العديد من التكوينات المتعددة والمختلفة، والعمل على صهرها ضمن مفهوم المواطنة والمواطنية والإعلاء من قيمتها؟

تجسيد مفهوم المواطنة

يثير الشيخ الصفار العديد من التساؤلات حول قضية التقريب، وما يبذل في سبيل تحقيقها من جهد وعمل، ويتساءل: «لماذا يكون تعدد المذاهب مشكلة؟ ولماذا يسبب تباعدًا ونزاعًا نسعى لتجاوزه؟ متى نحترم حقوق الإنسان فيما بيننا، حتى يعترف كل منا للآخر بحريته الدينية والفكرية؟ ومتى نعي مفهوم المواطنة، حتى يتساوى المواطنون في حقوقهم وواجباتهم دون النظر إلى مذاهبهم وتوجهاتهم؟ فسواء تقاربنا في مذاهبنا أو لم نتقارب، وسواء اتفقنا على هذه المسألة العقدية والفقهية أو لم نتفق، لماذا يكون لذلك تأثير على علاقتنا وارتباطنا وتعايشنا، ونحن أبناء وطن واحد، وننتمي إلى دين واحد؟ هذا هو السؤال الذي يجب أن نطرحه على أنفسنا بإلحاح؟»(١)

لقد أفرز تطور الحياة البشرية في هذا العصر العديد من المفاهيم الجديدة، كمفهوم المواطنة ومفهوم حقوق الإنسان، حيث يمكن توظيفهما في توطيد العلاقة والترابط والتعايش بين أبناء الدين الواحد، والوطن الواحد، وتصحيح العلاقة فيما بينهم، وحماية هذه العلاقة من الانزلاق إلى منحدرات النزاع وهوة الشقاق. ويشير الشيخ الصفار، «إلى أن مفهوم المواطنة ومصطلح مواطن، قد برز بعد الثورة الفرنسية، وهو مفهوم يرتبط بحدود جغرافية، أي بتراب أرض تشترك فيه جماعة من البشر، في ظل دولة تمثلهم، وتنظم تبادل الحقوق والواجبات فيما بينهم، على أساس القانون والنظام، بعيدا عن الفروقات والخصوصيات العرقية والدينية».(٢)

وإذا ما تحقق مفهوم المواطنة في أي بلد من بلدان المسلمين، فإن ذلك يعني تساوي المواطنين في الحقوق والواجبات، والتمتع بالحقوق والالتزام بالواجبات التي يفرضها انتماءهم إلى الوطن، ومشاركتهم في إدارة شؤون بلادهم، وسيادة القانون، كما هو الحال في البلدان المتقدمة. فكل مسلم اليوم ينتمي إلى وطن ذي حدود جغرافية، وحكومة سيادية،

(١) الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع جريدة الشرق الأوسط.
(٢) من كتاب خطاب الوحدة نقد وتقويم.

وفي معظم هذه الأوطان تنوع عرقي وقومي، ديني ومذهبي، وسيادة مفهوم المواطنة، سوف يصنع أرضية صلبة للوحدة، ويوفر السلم والاستقرار على الصعيد الوطني.

والإنسان المسلم، كما يعبر الشيخ الصفار، يتطلّع ويتمنى أن تندمج الكيانات السياسية المتعددة ضمن كيان إسلامي واحد كبير، بعيدًا عن حالة التجزئة، والحدود الجغرافية الفاصلة والمصطنعة، فقد كانت هذه الأمة تعيش تحت قيادة واحدة، وفي وطن واحد، يتعايش فيه جميع المسلمين كمواطنين متساوين في حقوقهم السياسية، ولكن هذه الأمة الواحدة، والدولة الواحدة، والوطن الواحد، تحولت الآن إلى أكثر من ٤٣ دولة ووطن، ولكل دولة علم وشعار وحدود وعملة خاصة وقوانين معينة، وأصبح انتقال المسلم من بلد إسلامي إلى بلد إسلامي آخر تكتنفه العديد من المشاكل والتعقيدات، فلا بد من تأشيرة دخول وجواز وجمارك وتفتيش وإلى ما هنالك من قوانين ما أنزل اللَّه بها من سلطان.

إلا أن هذا التمني لا يعني أن لا يتحمل هذا الإنسان مسؤولية تجاه الكيان الوطني الذي يعيش ضمن حدوده، ويلتزم بالواجبات التي يفرضها عليه انتماؤه إلى الوطن الذي يحمل جنسيته، ويتأثر بواقعه وأوضاعه ويشترك مع سائر المواطنين فيه سلبًا وإيجابًا، على الرغم من هذا التمزق السياسي العجيب الذي تعيشه الأمة الإسلامية، والذي هو سبب رئيس في تخلفها وضياع ثرواتها وخيراتها وهيمنة الأعداء والطامعين عليها، وهو الأمر الذي عادة ما يؤدي إلى نشوب الحروب والخلافات بين حكام هذه الدويلات المصطنعة، ويكون ضحيتها مصالح المواطنين، حيث يقع عليهم التهجير ومصادرة الأموال، ويتقاتل الحكام بهم.[١]

إلا أن المشكلة التي تعيق تحقيق حالة الاندماج بين سائر المواطنين، والفشل في تجسيد مفهوم المواطنة وفكرة التوحيد والتقريب في الكثير من بلداننا، يرجع إلى مسألة «التمييز الذي تعتمده الأنظمة السياسية في العالم الإسلامي بين مواطنيها، وإلى الآن لم يتحقق مفهوم المواطنة في الكثير من البلدان الإسلامية، وإنما يتعاملون مع المواطنين بالتمييز، يصنفونهم

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ١٤٧

حسب قومياتهم وأعراقهم ومذاهبهم، فتكون هناك فئة مميزة تعتبر مواطنين من الدرجة الأولى، وفئة أخرى تعتبر مواطنين من الدرجة الثانية، وما دامت حالة التمييز هذه قائمة وموجودة بين المواطنين في بعض الدول الإسلامية، فإن ذلك لا يعطي التوحيد والتقريب مصداقية».(١)

إن الانتماء إلى وطن واحد يجعل من الضروري مراعاة ما يضمّه من تنوع فكري ومذهبي بين المواطنين والإقرار به، على الرغم من كل ما يمكن أن يجمع بينهم من مشتركات، والحكومات مسؤولة عن تأمين حقوقهم جميعًا كمواطنين متساويين في الحقوق والواجبات، وعندما تسود الأحادية، كما يقول الشيخ الصفار، «وسياسات الإلغاء والإقصاء، والتمييز بين المواطنين على أساس انتماءاتهم المذهبية أو القبلية، التي تمارسها بعض الجهات، هو إجحاف بحقوق المواطنة، وإضرار بصلابة الوحدة الوطنية، وحرمان للوطن من الاستفادة من ثراء التنوع الفكري».(٢)

وعندما يتجسّد مفهوم المواطنة بشكل حقيقي على أرض الواقع، وتعيش بلداننا حالة الانفتاح والتآخي، وتتجاوز حالة الجمود السياسي، وينفتح المواطنون فيها على بعضهم بعضًا، ويتجاوزون حالة التخندق المذهبي والطائفي، ويعيش المواطنون كلهم وبدون استثناء مجتمعًا واحدًا، ومندمجين في بوتقة واحدة وضمن وطن واحد، وتكون حقوقهم متساوية في جميع المجالات، وفي تحمل واجبات المواطنة، والتنعم بحقوقها، فإن كل ذلك بالتأكيد سينعكس ايجابيًا على كل أوضاع البلد، وتتحسن فيه الأمور في كل المجالات وعلى مختلف الصُّعد.

إذا لم تحصن الأوطان ذاتها من الداخل، وتعالج مشاكلها الداخلية، فإن ذلك يشكل الأرضية الخصبة التي تتقبل البذور السيئة، التي تمنح المغرضين الفرصة للتدخل والعبث بمقدرات الوطن وزع الشقاق والفتن بين مواطنيه وأهله، وعندما يقوم «النظام السياسي في

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٦٦ من مقابلة مع مجلة الوحدة.

(٢) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٦٧

العالم الإسلامي على أساس المساواة بين الرعية، وعلى أساس تحقيق مفهوم المواطنة بينهم، لاغيًا كل ما يميز بينهم على أساس قومياتهم أو مذاهبهم، فإنه بلا شك يسدّ الثغرات أمام المؤامرات والفتن الداخلية، أما وجود التمييز بين المواطنين، فإن ذلك يعطي فرصة كبرى للأعداء، ليستفيدوا من تلك الحالة، ما دامت هناك فئة غالبة، وأخرى مضطهدة. والمطلوب لتحقيق مفهوم الوحدة، هو تحقيق مفهوم المواطنة في البلدان والأوطان الإسلامية، حتى يعيش المواطنون على قدم المساواة في الحقوق والواجبات».[1]

إن الوطن كالسفينة الواحدة، كما يقول الشيخ الصفار، التي إذا تعرضت لأي خطر، فالخطر على الجميع والنجاة للجميع، وهذا الشعور المشترك بالخير والخطر بين من يشتركون معًا في وطن واحد وأرض واحدة، «يجب أن يجعل الجميع في حالة تعاون دائم لدرء الخطر، والعمل من أجل حصد الخير والمكاسب الحسنة، ومن السخف بمكان أن يؤدي اختلاف الرأي، أو اختلاف المذهب، أو اختلاف التوجه، للانقسام والصراع داخل البلد الواحد، هذا غير صحيح، وهو خلاف للدين والعقل، فالدين والعقل يدعوان للتعاون ولتضافر الجهود من أجل الخير، كما يدعوان أيضًا إلى التوحد والوحدة، ما دام هناك سبب مشترك، وحتى لو لم يكن هناك عقيدة كاملة مشتركة في كل التفاصيل، فالاشتراك في الأرض الواحدة والوطن الواحد، لا بد أن يخلق علاقة طيبة وإيجابية.»[2]

الدولة وضرورة الإعلاء من قيمة مفهوم المواطنة

لقد أصبحت المسألة الطائفية من أبرز عناوين الصراع والشقاق، ومدخل الفتنة، في واقع الأمة المعاصر، ولمعالجة المسألة الطائفية في أي بلد، يشدد الشيخ الصفار على وجوب البدء بإقرار المساواة بين المواطنين، ورفع أي تمييز طائفي، وهذا ما يقتضيه مفهوم المواطنة، بأن تنظر الدولة لأبنائها مواطنين قبل أي شيء آخر، وبغض النظر عن

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٣١

(٢) من كتاب الوطن والمواطن الحقوق والواجبات. الطبعة الأولى ١٩٩٦، دار الصفوة، بيروت ـ لبنان.

هوياتهم الفرعية.(١)

إن النجاح في مسألة التقريب بين أبناء الوطن الواحد، وصهرهم ضمن بوتقة واحدة، مرهون بإعلاء قيمة مفهوم المواطنة، وأن يأخذ أي حوار حول هذا الموضوع أهمية مسألة الإصلاح العام، كما يشير إلى ذلك الشيخ الصفار، من خلال «توسيع المشاركة الشعبية وحماية حقوق الإنسان وتحقيق المساواة بين المواطنين، واحترام حرية التعبير عن الرأي، وتطوير الخطاب الديني لتجاوز حالة الغلو والتطرف، والاستفادة من تعدد المذاهب والمدارس الفكرية، في تأكيد نهج التسامح والاعتدال، ومعالجة مشاكل جيل الشباب على صعيد التعليم وتأمين فرص العمل، وتسهيل مطالب الحياة».

ويضيف الشيخ الصفار موضحًا «أن أبناء الشيعة في المملكة هم جزء لا يتجزأ من الوطن والشعب، وأي مستوى من الانفتاح والتطوير يكون في البلاد، فسيستفيدون من ذلك كسائر المواطنين، إن أهم ما يفيد الشيعة اندماجهم الوطني، فتهميشهم وانطواؤهم على أنفسهم خسارة لهم وللوطن، والحوار مدخل لتجاوز ما قد يعانونه على هذا الصعيد، لوجود حواجز مذهبية نشأت بفعل ظروف وأوضاع غير إيجابية، فينبغي تجاوزها بانفتاحهم على الآخرين، وانفتاح الآخرين عليهم، وبمشاركتهم في معالجة الهموم والقضايا الوطنية العامة، فالحوار بين الأطراف المختلفة يمثل اعترافًا متبادلًا، واتفاقًا على الاحترام، ويوفر إمكانية التعارف المباشر، وينهي عهود القطيعة وظنون السوء، وفي ذلك مكاسب عظيمة للوطن بشكل عام، وللشيعة بشكل خاص».(٢)

ويوضح الشيخ الصفار معنى حقوق المواطنة بقوله إنه «حينما تنتمي أمة من الناس لوطن واحد، بما يعنيه الوطن من حدود جغرافية، وكيان سياسي، فإن هذا الانتماء يخلق بينهم عيشًا مشتركًا، ومصلحة متداخلة، مما يوجب وجود صيغة عادلة للتعايش والتعاون، تتحقق بها المشاركة في المكاسب، والوحدة أمام الأخطار والتحديات. وحينما تختلف

---

(١) من كتاب خطاب الوحدة نقد وتقويم.

(٢) الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع جريدة الجزيرة السعودية.

الانتماءات الدينية والعرقية والسياسية للمواطنين، فمن المهم أن يبقى الوطن إطارًا جامعًا لكل أبنائه، بمختلف انتماءاتهم، وهو الأمر الذي يستدعي الاعتراف المتبادل بين الجميع، بالشراكة والتساوي في حقوق المواطنة وواجباتها.

أما إذا اختلت هذه الشراكة، وحدث شيء من الاستئثار أو التمييز بين أبناء الوطن، بسبب تنوع التوجهات، فإن ذلك يهدد وحدة الوطن، وأمن المجتمع واستقراره، كما تدلّ على ذلك حوادث التاريخ في الماضي والحاضر، فأخطر شيء على وحدة الأوطان ومصالحها، أن تتضخم الانتماءات الأخرى كالدين والمذهب والقبيلة على حساب الانتماء للوطن، فتنظر كل جهة للجهات الأخرى عبر دائرة انتمائها الخاص، وهنا تضيع المصلحة العامة، وتضعف وحدة المجتمع.

ولمواجهة هذا الخطر لا بد من وجود وعي وطني، ومساواة حقيقية بين جميع المواطنين، فقد وضع رسول اللّه صحيفة المدينة، في بداية هجرته إليها، لإقرار صيغة تعايش مشترك بين مواطني المدينة آنذاك من المسلمين واليهود، على أساس العدل والإنصاف، فتعاليم الإسلام في حسن الجوار وحقوق الجار، وفي حقوق الصحبة، حتى مع اختلاف الدين، تشير إلى أن اشتراك المصلحة يوجب حقوقًا متبادلة بين المشتركين».[(١)]

إذا أصبح الواقع السياسي والاجتماعي الذي تعيشه مجتمعاتنا واقعًا تحت ظلّ قانون واحد، وهناك مساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات، وأصبح الإنسان يعامل إنسانًا ومواطنًا بغض النظر عن مذهبه وعن توجهه، فإن عقد وهواجس وخوف الأقليات والأكثريات من بعضهم بعضًا، سوف يزول لصالح حالة التعايش وحقوق المواطنة، أما إذا ما شعرت فئة أو طائفة أنها تعيش وضعًا غير طبيعي، تفقد فيه المساواة مع غيرها، ولا تتمتع بحقوقها الكاملة والمتساوية مع الآخرين، فإن ذلك مدخل لإثارة الجدل حول إشكالية الأكثرية والأقلية، فيدعي فيه البعض ويشعر بأنه يمثل الأصل، وأنه الجانب المهيمن، فيما يبقى فيه الطرف الآخر يشعر أو يعتقد بأنه أقلية تعيش حالة غبن وتتعرض

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ١٦٩

للاضطهاد.

لقد سادت في مجتمعاتنا العربية والإسلامية دعوات واتجاهات تركز على الحدود الفاصلة بين الجماعات والانتماءات المتنوعة، لتصنع من خلالها جدارًا سميكًا يعزل كل جماعة عن الأخرى، ويوجد لها عالمها الخاص في الأفكار والمشاعر والمصالح، مع أنها تعيش على صعيد وطن واحد. ويجري هذا في عالم تهاوت فيه الحدود، وانهارت الحواجز، وانعدمت المسافات، حيث أصبح قرية واحدة حسب التعبير الشائع، وكأن هذه الدعوات لا تعترف بكل هذا التطور الواقع، وتصرُّ على طروحاتها الضيقة المنغلقة، منطلقة من فهم ديني خاطئ، لا ينسجم مع إنسانية الإسلام، وعالمية دعوته، ولا يتوافق مع ثوابت نظامه الاجتماعي، كالوحدة والعدل والإحسان.[١]

مفهوم المواطنة في أبحاث الفقهاء

إن تحقيق مفهوم المواطنة بشكله الحديث والمعاصر، الذي يتساوى فيه الناس الذين يعيشون على أرض واحدة، في ظل نظام سياسي واحد، وإن اختلفت أعراقهم وأديانهم ومذاهبهم وتوجهاتهم، لم يأخذ حقه من البحث في اهتماماتنا الفكرية والفقهية، كما يعتقد الشيخ الصفار، حيث «بقينا نتعامل مع الوطنية والمواطنة باعتباره مفهومًا وافدًا أجنبيًا دخيلًا على حياتنا، وبالتالي لم نحدد مواقفنا تجاه تفصيلاته ومستلزماته».

ويضيف الشيخ الصفار متسائلًا: لماذا تعيش بعض الأمم في ظل نظام المواطنة، الذي يحقق بينهم المساواة والمشاركة في الحقوق والواجبات، والتنمية والبناء، على الرغم من التنوع والتعدد العرقي والديني فيها، بينما يتعذر علينا في غالب بلداننا مثل ذلك؟ ونعيش صراعات عرقية ودينية ومذهبية وسياسية؟

إن بعض أوساطنا الدينية، كما يشرح الشيخ الصفار، «لا تزال تنظر بارتياب لواقع الأوطان والدول القائمة ضمن الحدود السياسية في العالم الإسلامي، وتعيش صراعًا

---

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ١٥٩

بين المفهوم الديني للوطن، والذي يتسع لكل شبر من الأراضي الإسلامية، وبين الواقع المعيش في ظل الدولة القومية، لافتًا إلى أن التفاوت في بعض الحقوق والواجبات بين المسلم وغيره في الدولة الدينية الإسلامية الذي يطرحه الفقهاء ضمن أحكام أهل الذمة، لا يزال عائقًا نظريًا أمام فكرة المواطنة والمساواة، إلا أن الأسوأ من ذلك وجود حالات من التمييز الرسمي الطائفي بين المواطنين المسلمين في بعض البلدان الإسلامية، والذي يستمد تبريراته من فقه وثقافة مذهبية، وكذلك توجد حالات من التمييز العرقي والقومي بين المواطنين المسلمين في بعض الأوطان الإسلامية بسبب معادلة الأكثرية والأقلية».

يشدد الشيخ الصفار إلى أننا بحاجة لمقاربة هذه المشاكل الواقعية ومعالجتها نظريًا ضمن أبحاث العلماء والفقهاء، داعيًا إلى طرح الرأي الشجاع الجريء، الذي يمكّن الاجتماع الإسلامي من تجاوز حالة الفرقة والصراع، ويهيئ أرضية التقارب والوحدة. أما الدعوة إلى التقارب ورفع شعارات الوحدة في ظل واقع يعاني فيه الناس من التمييز والتفاوت، وانعدام المساواة، فلن يحقق أي إنجاز أو نتيجة، ولن يوقف الخلافات والصراعات.[1]

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١١٥

سابعاً:

تبني قضية حقوق الإنسان وتعميم ثقافتها

وإلى جانب أهمية مفهوم المواطنة، بصفته مفهومًا حديثًا، ومنسجمًا مع جوهر الدين ومقاصد الشريعة، وليس غريبًا بشكل مطلق عن مبادئ الإسلام وتعاليمه، يضيف الشيخ الصفار، مفهوم حقوق الإنسان أيضًا، كمفهوم حديث ينصّ على حقّ كل إنسان في التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة بالعهود والمواثيق الدولية والالتزام بها، وفي طليعتها حق الحياة والحرية والمساواة، وحرية التفكير والمعتقد والتعبير عن الرأي.

ومع حداثة وبروز هذا المفهوم في زمننا المعاصر، لا يستطيع مسلم أن ينكر أصالته إسلاميًّا، أو أن يدّعي أحد أنه ليس في الإسلام، أو أن الإسلام لا يدعو إلى احترام وحفظ حقوق الإنسان. لقد خفت عنوان حقوق الإنسان في المجتمع الإسلامي وبرزت بدلًا عنه عناوين أخرى بسبب الأوضاع السياسية التي مرت بها الأمة، كما يقول الشيخ الصفار، حيث كان التركيز على حقوق اللّه تعالى، أو على حقوق ولاة الأمر، أو حقوق العلماء، فيما ظل الحديث عن حقوق الإنسان ضامرًا وخافتًا، كما هو الحال عن حقوق المرأة، بسبب طبيعة الأجواء الثقافية والاجتماعية التي كانت تعيشها الأمة.[1]

والشيخ الصفار يطالب بتبنّي قضية حقوق الإنسان، ومناقشة وثيقة حقوق الإنسان المعتمدة دوليًا، والاتفاقيات الملحقة بها، وتسليط الأضواء عليها برؤية دينية إسلامية، وإذا كان هناك تحفظ على مادة أو مادتين مثلًا، فلا يصحّ تجاهل كل تلك الجهود، خاصة

(١) من كتاب الانفتاح بين المصالح والهواجس. ص ١١

وأن مجتمعاتنا بحاجة ماسّة لتفعيل هذه القضية، وإغفال الاهتمام بحقوق الإنسان هو الذي يفتح المجال لتيارات التطرف والتشدد، وللتوجهات التعصبية، التي تسيء فهم الدين، وتمارس العدوان على الحقوق المادية والمعنوية للمخالفين لها في الدين أو المذهب أو الاتجاه الفكري والسياسي.

ويلفت الشيخ الصفار أن هذه الجهات لا تعترف ولا تلتزم بالحقوق الإنسانية لمخالفيها، وقد تهدر دماءهم أو تستبيح حرماتهم المادية والمعنوية، مضيفًا أن فقهاءنا يصرفون جهدًا كبيرًا في بحث مسائل الطهارة والنجاسة والعبادات، وهو جهد مطلوب يشكرون عليه، لكن قضايا حقوق الإنسان لم تنل من جهودهم واهتمامهم بمقدار ما نحتاجه في الساحة الداخلية وعلى المستوى العالمي، و حين يكون هناك إقرار رسمي وديني واجتماعي بحقوق الإنسان، فإن ذلك يكرّس حالة الاحترام المتبادل، ويساعد على الابتعاد عن حالات الإساءة والعدوان، وذلك هو ما يصنع أجواء التقارب والوحدة.[١]

ويعتبر الشيخ الصفار أن الكثير من حالات العدوان والإساءات المتبادلة بين أتباع المذاهب، تمثل مظاهر صارخة لانتهاك حقوق الإنسان، كمصادرة الحريات الدينية والثقافية لأتباع مذهب ما، أو ممارسة التمييز ضدهم بسبب انتمائهم المذهبي، إلا أن التزام الحكومات بهذه المواثيق الدولية، والتزام الناس باحترامها تجاه بعضهم بعضا، يخلق مناخًا للسلم والاستقرار، ويطمئن الناس في علاقاتهم البينية، فيكونون أقدر على التعاون وأقرب على الاتحاد.[٢]

إن التزام الحكومات بالمواثيق الدولية، والتعاون بينها وبين جميع مواطنيها من أجل توفير مناخات تساعد على تعميم حالة السلم الاستقرار، من واجبات الجميع تجاه الوطن، فالإنسان منا، كما يشرح الشيخ الصفار، «لا يعيش في وطنه وعلى أرضه وحيدًا

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٩١

(٢) من كتاب خطاب الوحدة نقد وتقويم.

كفرد، ولكن هناك آخرون يعيشون ويشتركون معنا في ظل هذا الوطن، لنا ما لهم، وعلينا ما عليهم، وهم يحبون الوطن كما نحبّ، وينشدّون إليه كما نحن منشدّون إليه، وعلاقتنا بأرض الوطن هي كعلاقتهم به أيضًا، وهي القاسم المشترك بيننا وبينهم، وإن كانت العقيدة هي القاسم الأكبر والأعظم في إطار علاقتنا جميعًا، ولكن حتى لو لم تكن العقيدة واحدة، فالاشتراك معهم في العيش على أرض واحدة ووطن واحد، يوجد علاقة معينة، وارتباطًا إنسانيًا لا بد منه، مع اختلاف العقيدة والدين».[١]

لذلك فإن الشيخ الصفار يدعو الحكومات إلى الاهتمام بموضوع حقوق الإنسان، وحقوق المواطنة، وأن تتعامل مع شعوبها ورعاياها على هذا الأساس، دون تمييز بين المواطنين على أساس قومي أو عرقي أو مذهبي، لأن سياسات التمييز الطائفي في بعض البلدان الإسلامية هي الأرضية الخصبة لقيام الفتن الطائفية المذهبية.[٢]

حقوق الإنسان بين القرآن والفقه

لا يشك الشيخ الصفار بأن مجمل مسائل الفقه الإسلامي تستهدف حماية الحقوق بين الناس وإقامة العدل، ورفض الظلم والجور، إلا أن المشكلة أن هناك تفاوتًا واضحًا وبونًا شاسعًا بين مستوى الاهتمام القرآني بحقوق الإنسان، وبين موقعيتها في الفقه الإسلامي، ذلك لأن نتاج العملية الاجتهادية للفقهاء، كان في الغالب محكومًا بالبيئة السياسية والثقافية السائدة في مجتمعات الأمة، تلك البيئة الخاضعة لواقع الاستبداد والتخلف.

ومع الاعتراف بأن قضية حقوق الإنسان لم يظهر الاهتمام بها على المستوى العالمي، إلا في القرنين الأخيرين، حيث تبلورة صياغة نظرية عامة متكاملة للحريات العامة، وتكرّست موقعيتها عالميًا بعد صدور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان من الأمم المتحدة عام ١٩٤٨م، إلا أن اللافت للنظر، حسب رأي الشيخ الصفار، عدم مواكبة الفقه الإسلامي لتطور مسيرة حقوق الإنسان في هذين القرنين، مع ما حققته هذه المسيرة من

---

(١) من كتاب الوطن والمواطن الحقوق والواجبات.

(٢) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٠٩

تقدم على الصعيد المعرفي في أوساط المفكرين الغربيين، وكذلك تتابع التقدم السياسي باعتماد مواثيق حقوق الإنسان على المستوى الدولي، ثم تصاعد الاهتمام بحقوق الإنسان إعلاميًا وشعبيًا، بتكوين منظمات المجتمع المدني المهتمة بحقوق الإنسان في مختلف أنحاء العالم، بينما لم تبدِ حركة الفقه الإسلامي أي تفاعل يذكر مع هذه المسيرة الصاعدة لقضية حقوق الإنسان.

فالإعلان العالمي لحقوق الإنسان وملحقاته، كما يشير الشيخ الصفار، لم يحظ بدراسة علمية ناقدة تؤصل موادّه وفق موازين الفقه الإسلامي، ولم يتبنَّ الفقهاء حقوق الإنسان كعنوان لباب من أبواب الفقه يبحثون فيه ما يرتبط بجوانب هذه الحقوق من مسائل شرعية، كما لم تجر مراجعة الفتاوى والآراء الفقهية التي يبدو منها التصادم مع ما أقرّته المواثيق الدولية لحقوق الإنسان، على صعيد حرية المعتقد، والعلاقة مع الآخر الديني، وفي مجال الإدارة السياسية، وحول دور المرأة ومشاركتها العامة.

وفي الوقت الذي لا يصح لنا أن نتجاهل بعض المبادرات التي قام بها بعض العلماء والمفكرين لمقاربة موضوع حقوق الإنسان على ضوء الشريعة الإسلامية، وكذلك انعقاد بعض المؤتمرات واللقاءات العلمية المهتمة بهذا الموضوع، إلّا أنها لم ترقَ إلى مستوى الاهتمام العالمي بقضايا حقوق الإنسان، فضلًا عن قصورها عن مقاربة الواقع الاجتماعي والسياسي الذي تعيشه أغلب المجتمعات الإسلامية في مخالفته لمبادئ ومواثيق حقوق الإنسان، ولم تصل إلى حدّ تركيز هذا الموضوع في منهجية ومنظومة البحث الفقهي.

ويتمنى الشيخ الصفار على الحوزات والمراكز العلمية الدينية بأن تضع مقررًا لتدريس حقوق الإنسان ضمن برامجها الدراسية، وأن يشرع الفقهاء بتناول موضوع حقوق الإنسان في أبحاثهم العالية، (بحث الخارج)، كما يبحثون سائر أبواب الفقه، وأن تضم الرسائل العملية التي يصدرها الفقهاء متضمنة لفتاواهم فصلًا حول حقوق الإنسان، ومن الأهمية بمكان إعادة بحث المسائل الفقهية التي يبدو منها التعارض مع

مواثيق حقوق الإنسان بجرأة وشجاعة، تلتزم ضوابط الشرع، وتتجاوز تحفظات الأجواء الفقهية السائدة والخاضعة لرأي الأسلاف.[١]

بكل هذه الصراحة يتحدث الشيخ الصفار عن أهمية موضوع حقوق الإنسان، وضرورة تجاوز معوقات تعميم ونشر ثقافتها، حيث هي في الأساس مبادئ إسلامية أصيلة، وليست مفهومًا غربيًا وافدًا، كما قد تطرحه بعض الجهات، وإذا كانت هناك نقاط معينة نتحفظ عليها في وثيقة حقوق الإنسان من الناحية الشرعية، وإذا كانت بعض الدول الكبرى تستغل موضوع حقوق الإنسان، لتبرير تدخلاتها وضغوطها على الدول النامية، فإن ذلك لا يبرر تجاهل قضية حقوق الإنسان، وضعف حضورها في الخطاب الإسلامي، بل إن بعض ألوان الخطاب الإسلامي تبدو وكأنها ترفض الاعتراف بأدنى الحقوق الإنسانية لمن يخالفها في الرأي، حيث يكون مهدور الدم، محرومًا من جميع حقوقه المادية والمعنوية، مع أن القرآن الكريم ينص على تكريم اللّٰه تعالى للإنسان، باعتبار إنسانيته وقبل أي شيء آخر، حيث قول سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَقَد كَرَّمنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلنَاهُم فِي البَرِّ وَالبَحرِ وَرَزَقنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلنَاهُم عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّن خَلَقنَا تَفضِيلا**﴾.[٢]

مشكلة سياسات التمييز الطائفي

حينما يتنوع الانتماء المذهبي بين المواطنين، حسب قول الشيخ الصفار، فلا يصح أن يؤثر ذلك على واقع المساواة بينهم، وذلك فيما يرتبط بنظام الحقوق والواجبات؛ لأن تمييز فئة على أخرى لاعتبار مذهبي، يخلق أرضية المشاحنة والعداء، ويكرّس الخصومة والنزاع، بينما يبدد العدل المساواة كل آثار الاختلاف، ويؤكد الوحدة الوطنية ويحمي أمن المجتمع.[٣]

إن من أهم منافذ الفتن وعوامل النزاع الداخلي غياب العدل والمساواة، واعتماد

---

(١) من كتاب موقعية حقوق الإنسان في الفقه الإسلامي. ص ٢١

(٢) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ١٦١

(٣) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ١٨١

سياسات التمييز بين المواطنين، على أساس تنوعهم القومي والديني، وكما يقول الشيخ الصفار فإنه «إذا كانت سياسات الحكم منبثقة من تعاليم الإسلام، فذلك يعني اعتمادها لمبدأ المساواة والعدل بين الناس، عندها لن يكون هناك تمييز ولا حيف من فئة على أخرى؛ لأن العدل مقصد أساس لجميع الأنبياء والشرائع الإلهية، يقول تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾، حيث أن القسط هو العدل. ويقول تعالى أيضًا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾، وفي ظلّ الإسلام لا يجوز أن يُبخس أحد شيئًا من حقوقه المادية أو المعنوية، مهما كان دينه أو مذهبه، يقول تعالى: ﴿**وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ**﴾، وقد ورد عن رسول اللَّه ﷺ قوله: **(الناس سواء كأسنان المشط)**.

ويعتبر الشيخ الصفار أنه إذا كانت الدولة دولة قومية تعتمد المواطنة أساسًا في نظام الحكم وسياساته، فإنها أيضًا لن تفرّق بين مواطن وآخر، لكن مشكلة بعض الأنظمة في عالمنا الإسلامي خرقها لهذا المبدأ العظيم، وممارستها للتمييز بين مواطنيها على أساس قومي أو مذهبي، فتكون هناك فئة مميزة وأخرى مهمّشة، مما يكرّس الشعور بالتفوق والتعالي عند فئة، والإحساس بالغبن والحرمان عند الفئة الأخرى، وهذا الشعور بالتمييز والتعالي يدفع إلى الاستئثار، والتجاوز على الحقوق، والنظر إلى الآخر بدونية واحتقار، كما أن الإحساس بالحرمان والغبن يدفع إلى الحقد والتفكير في الانتقام.

وهنا، كما يحذّر الشيخ الصفار، تجد الجهات الخارجية فرصتها للتدخل، فتثير قلق الفئة الأولى من إمكان انتفاضة الفئة الأخرى، كما تغذّي مشاعر الانتقام عند هذه الفئة المضطهدة، وتستثيرها للمطالبة بحقوقها، وتغريها بالدعم والحماية، تحت شعار حماية الأقليات والدفاع عن حقوق الإنسان، وهكذا يستعر أوار الفتنة.

لذلك فإن سياسات التمييز الطائفي هي من أهم منافذ المحاولات الخارجية لإثارة الفتن المذهبية في أوطان المسلمين، مما يحتم إغلاق هذا المنفذ الخطير، بتحقيق مفهوم المواطنة، وتساوي المواطنين في الحقوق والواجبات، وأن يبادر الجميع إلى الإعلان عن

رفضهم لسياسات التمييز الطائفي، وكفاحهم من أجل تحقيق العدالة وإحقاق الحقّ، والتبشير بمبدأ المساواة بين المواطنين، ومواجهة أي تمييز طائفي تتعرض له فئة من فئات المجتمع الواحد.[1]

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٤

ثامناً:

ثقافة التعبئة المذهبية والتحريض على الكراهية

الخلل في العلاقة بين أتباع المذاهب الإسلامية أنتج ثقافة من التعبئة المتبادلة، حيث انشغلت الأمة كثيرًا بخلافاتها المذهبية، وأصبح لها تراث ضخم من الجدل المذهبي، فكل طائفة لا تزال إلى اليوم تشعر بالحاجة إلى الحديث عن إثبات أحقية مذهبها، في مواجهة إشكالات وطعون أتباع المذهب الآخر، وأنها معنية بتحصين أبنائها حتى لا يتأثروا بالاتهامات التي تستهدف مذهبهم.

وتتجلى هذه الثقافة التعبوية، كما يشير الشيخ الصفار، في التركيز على مواقع الخلاف المذهبي، وتجاهل مناطق الاشتراك الواسعة، وافتعال قضايا الخلاف في مسائل جزئية جانبية، وتلمّس نقاط الضعف في تراث المذهب الآخر والتشهير بها، حتى لو كانت رأيًا شاذًا أو موقفًا لفرد أو فئة من المذهب، فإنه يجري تعميمها ومحاكمة المذهب وكل أتباعه على أساسها، وأيضًا من خلال نبش حوادث التاريخ، للتذكير بمعارك النزاع والصراع السابقة، مما يغذي الأحقاد والضغائن ويورثها للأجيال، وتعميق النظرة الدونية على المستوى الديني لأتباع المذاهب الأخرى، باعتبار أن أتباع المذهب هم وحدهم الفرقة الناجية، أما الفرق الأخرى فكلها هالكة وفي النار.

وعلى خلفية هذا الطرح، كما يقول الشيخ الصفار، تصدر أحكام التكفير والتفسيق والتبديع والاتهام بالشرك والضلال لمذاهب وجماعات كبيرة من المسلمين. لذلك فإن هذه الثقافة التعبوية تمثل تحريضًا على الكراهية، وتأجيجًا لمشاعر العداء والبغض والجفاء،

وتهيئ الأجواء القابلة للاشتعال بنار الفتنة.

ويطالب الشيخ الصفار الواعين المخلصين داخل كل مذهب، وضع حدٍّ لهذه التعبئة المذهبية، وتوجيه أنظار أبناء الأمة لهموم الحاضر وتحدياته، وليتحرك الناس للبناء والتنمية الشاملة في أوطانهم، ولمواجهة الأخطار المحدقة بهم، حيث إن الحاجة ماسة لنشر ثقافة التسامح وقبول التعددية واحترام الرأي الآخر، وحسن الظن في الآخرين، فلا أحد يختار مذهبًا أو معتقدًا يعلم بخطئه وبطلانه، لكنها البيئة العائلية والاجتماعية التي ينشأ كل واحد منا ضمن المذهب السائد في أجوائها.(١)

إن هذه الثقافة التعبوية التحريضية تمثل عقبة كأداء على طريق بناء الوحدة الوطنية في بعض البلدان، حيث يشير الشيخ الصفار إلى أن هذه الثقافة، التي تنتجها المؤسسة الدينية، وينتجها علماء الدين والخطباء، ثقافة لا تساعد على التقريب، وإنما توغر صدور بعض المسلمين على بعضهم، كما يلاحظ في بعض الفتاوى، وبعض خطب الجمعة وعلى المنابر، وهذه الثقافة التعبوية تشكل عقبة أمام جهود التقريب والتوحيد.(٢)

ضرورة تجريم ثقافة الكراهية والتحريض عليها

إن تمسك أي مجتمع بقيمه وأعرافه وتقاليده غير المسيئة للآخرين، ليس تعصبًا سلبيًا، بل هو نوع من الأصالة، والحفاظ على الهوية، وممارسة حق التعبير عن الذات، فالإنسان الذي يتمسك بدينه الذي اختاره بقناعة وإدراك، ويلتزم بتعاليمه وأحكامه، فذلك أمر مرغوب ومطلوب، وإذا ما اعتبر ذلك تعصبًا، فهو من النوع الإيجابي، وكما يقول الإمام علي: (**فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الأمور**).

لكن المشكلة التي تعاني منها جميع الأديان، كما يشير الشيخ الصفار، هو في بروز توجهات تعصبية سلبية في أوساط معتنقيها ضد الآخرين، حيث تعتقد هذه التوجهات

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٦

(٢) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٦٦

بأنها مكلفة من قبل اللَّه تعالى بفرض ديانتها على الناس، وأنها مخولة بمعاقبة المخالفين لها، فهي تمتلك الحقيقة المطلقة، والآخرون في كفر وضلال، وعليهم الخضوع والاتّباع، وإلّا استحقوا الردع والتأديب، حيث تمارس هذه التوجهات نزعاتها التعصبية ليس ضد أتباع الديانات الأخرى فقط، بل تمتد إلى داخل دائرتها الدينية أيضًا، فهي لا تقبل بوجود الرأي الآخر، وتريد فرض فهمها للدين على جميع معتنقيه، دون أن تفسح المجال للمذاهب والاجتهادات الأخرى. ويجزم الشيخ الصفار أن الدين في مفاهيمه وتعاليمه الواقعية، التي أوحى بها اللَّه تعالى لأنبيائه، لا يمكن أن يسمح أو يجيز حالة من التعصب العدائي ضد أحد من أبناء البشر، إلا أن يكون معتديًا ظالمًا.(١)

لذلك فإنه ليس مقبولا أبدًا أن يكون هناك تحريض على الكراهية، والإساءة إلى شرائح من المواطنين في وسائل الإعلام الوطنية، وفيما ينشر من فتاوى، في الوقت الذي لا تحرك فيه الدولة ساكنًا، كما يشير الشيخ الصفار، مستغربًا كثرة الكلام وإصدار البيانات من كبار العلماء ضد التكفير وتخطئة المكفرين، وفي الوقت نفسه يصدر من بعض هؤلاء العلماء ما مضمونه التكفير ضد شرائح من المواطنين، وكأن التكفير المحظور والممنوع هو تكفير الدولة فقط، وجماعة الدولة، أما إذا كفرت الآخرين فإنه ليس ممنوعًا، وتمر المسألة مرور الكرام ولا أحد يعترض.(٢)

إنه لمن المهم في ظلّ تفشي ثقافة التحريض على الكراهية، أن يكون هناك قانون ونظام يحاسب ويعاقب كل من يروج لهذه الثقافة ويدعو لها، فمن أهم أسباب الفتن والصراعات الداخلية، وجود دعاة دينيين يصدرون فتاوى وينتجون خطابات تعبوية تتضمن الإساءة للمخالفين لهم، وتبيح هدر حقوقهم، ويتم التغاضي عن هذه الجهات، بل ويحصل التشجيع لها في بعض الأحيان، بمبرر أنها تعكس رأيًا شرعيًا، أو كما يقول عنها أصحابها إنها تكليف شرعي، وهو الأمر الذي يعني توفير أجواء الفتنة والاحتراب، إلا

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ٧٤

(٢) من كتاب المشكل الطائفي والمسؤولية الوطنية. ص ٣٦

أنه ومهما كان شأن هؤلاء، لا بد من تجريم التحريض على الكراهية، كتجريم من يحرض على الإرهاب والسرقة والفساد.

ومن هذا المنطلق يدعو الشيخ الصفار إلى البحث في مثل هذه الآليات القانونية، وتأصيلها من الناحية الشرعية، وتحويلها إلى صيغ قانونية نظامية، على أن توعية جمهور الأمة بالبرامج العملية المنبثقة عنها، سوف يرسم لنا خارطة طريق لتحقيق التقارب والوحدة، وينقلنا من حالة التطلّع والأمل، إلى واقع الممارسة والتطبيق.(١)

يفترض الشيخ الصفار أن من أولى مهام السلطة القانونية في أي بلد، وضع التشريعات والقوانين لحماية حقوق الناس، ورعاية مصالحهم، وحماية الأمن الاجتماعي، وذلك لا يتحقق إلا بمنع وتجريم حالات الإساءة والاعتداء، والتحريض عليها أو الدفع باتجاهها. لأن فسح المجال للاتجاهات التعصبية، لكي تنشر أفكارها السلبية، وتوزع اتهاماتها الخاطئة، التي تثير نوازع الكراهية، وتكرس الانقسام والأحقاد بين الناس، لن يؤدي إلا إلى استحكام هذه الاتجاهات، ونموها في مختلف الأوساط، مما يهدد أمن الوطن واستقرار المجتمع.

ويستنتج الشيخ الصفار من الأحاديث الواردة عن رسول اللّٰه ﷺ في التحذير من الإساءة لغير المسلمين من أهل الذمّة، اهتمام الإسلام بالحدّ من أيّ توجه تعصبي سلبي، فقد جاء في سنن أبي داود أنه ﷺ قال: **(ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة)**.

وهكذا يعتبر نبي الإسلام أن الإساءة إلى مواطن غير مسلم، ولو بانتقاصه أي التقليل من شأنه، خصومة مع رسول اللّٰه، تستوجب المحاسبة يوم القيامة، وقد حدث مرة في مجلس حفيد رسول اللّٰه الإمام جعفر الصادق عليه السلام أن رجلًا سبّ مجوسيًا، فزجره الإمام جعفر ونهاه، فقال الرجل: إنه مجوسي نكح أخته، فأجابه الإمام: **(ذاك عندهم نكاح في دينهم)**.

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٢٠

إن قوانين الدول الغربية، ومواثيق حقوق الإنسان، تمنع وتجرّم أي دعوات تحريضية على الكراهية، أو تشجيع على ممارسة الإرهاب والعنف ضد الآخرين، أو أي تصرف تمييزي، في حين أن مجتمعاتنا الإسلامية أولى بمثل هذه التشريعات لوضع حدٍّ للخطابات التعبوية التحريضية المثيرة للفتن والانقسام، والمهددة لأمن المجتمع واستقراره، ولمنع أي ممارسات تمييزية بين المواطنين.[١]

كم هو رائع وجميل بلورة قانون ونظام يجرِّم التمييز بين المواطنين، مهما كانت انتماءاتهم، وإلى أي ملة انتموا، من دون استثناء أو محاباة، وسيكون من الجدير بالأهمية أن يتجاوز هذا القانون العادل، الذي يتساوى تحت سقفه الجميع، فكرة حقوق الأقليات إلى أفق الاعتماد على مبدأ الكفاءة والاقتدار لأهل الخبرة في الوصول إلى أي منصب كان في ظلّ الدولة الوطنية الحاضنة لجميع مواطنيها، دون تحيز إلى أصحاب الدين الواحد، أو المذهب الواحد، أو أهل الحظوة والثقة؛ لأن هذه العدالة والمساواة تساعد على تشجيع المشاركة الحقيقية لكافة أبناء الوطن في البناء والتعمير.

---

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ٨٣

تاسعاً:

التواصل الاجتماعي وكسر حواجز القطيعة

لقد أدى التحريض على الكراهية إلى التباعد والقطيعة بين أتباع المذاهب، وقلّل فرص التواصل والتعارف المباشر فيما بينها، ومنح الفرصة لانتشار الانطباعات الخاطئة والصور السلبية في أوساط كل طرف تجاه الآخر، اعتمادًا على النقولات المتوارثة، والشائعات المتداولة. ويُدهشك، كما يقول الشيخ الصفار، حين تسمع كلام فئة عن أخرى تعيش معها في منطقة واحدة من وطن واحد، وكأنه حديث عن قوم يعيشون في كوكب آخر.

لقد أنتجت القطيعة جفاف مشاعر الودّ المتبادل، فأصبحت كل طائفة كيانًا اجتماعيًا مستقلًا بذاته، لا ارتباط له بكيان الطائفة الأخرى. فلكل طائفة مساجدها ومرجعياتها ومؤسساتها الاجتماعية والثقافية الخاصة بها دون وجود جسور من التعارف والتعاون والتنسيق، أما التزاوج بين أبناء الطوائف، وخاصة بين السنة والشيعة، فتحول دونه موانع دينية عند البعض، وعوائق اجتماعية عند البعض الآخر، إلا في حالات نادرة تتم بعد كفاح مرير. وامتدت حالة القطيعة والانفصال الاجتماعي إلى ميدان الحركة السياسية، فلكل طائفة رموزها وتنظيماتها وبرامجها ومرشحوها في الانتخابات.

إن هذه القطيعة، التي يأسف لها الشيخ الصفار، تشكل مخالفة صريحة لمبدأ قرآني عظيم، هو مبدأ الأخوة الإيمانية، حيث يقول تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾، كما إنها تشكل انحرافًا صارخًا عن نهج نبوي قويم أكد فيه رسول اللَّه ﷺ على روح المودة والتعاطف بين أبناء هذه الأمة، حيث يقول: (**مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد،**

إذا اشتكي منه عضو، تداعي له سائر الجسد بالسهر والحمى).

وتكرّس هذه القطيعة حالة من الانفصال النفسي والعاطفي، وتخلق قابلية لنمو مشاعر العداء والكراهية، التي يمكن أن يفجرها أبسط حوادث الاختلاف بين فرد من هنا وآخر من هناك. وحين يشاء العدو إثارة النزاع بين هذه الكيانات الاجتماعية المنفصلة فليس بحاجة إلى جهد كبير.

ويدعو الشيخ الصفار إلى خلق مبادرات جريئة وثقافة واعية لتجاوز هذه الحواجز المصطنعة، ولتطبيع العلاقة بين أبناء مجتمعاتنا على اختلاف مذاهبهم، ضمن التواصل الاجتماعي، والتداخل الأسري، والاندماج المؤسساتي، والتعاون في المجال الديني، والانفتاح على المستوى الثقافي، وصولًا إلى المشاركة السياسية.[١]

فليس من العدل الاعتماد على الأقاويل والشائعات لفهم الآخر وتكوين صورة عنه والحكم عليه من خلالها، والموضوعية كما يرى الشيخ الصفار، تقتضي البحث عن حقيقة رأي الطرف الآخر من مصادره المعتمدة، ومرجعياته البارزة، وليس من خلال الاستشهاد بالغثّ والسمين والمقبول والمرفوض، والمشهور والرأي الشاذ مما ورد في تراث هذا المذهب أو ذاك، حيث لا يصح إلزام أتباع مذهب بما لم يلتزموا به، ولم يقروا باعتماده في مذهبهم، أو لأن قلة منهم يرونه، بينما مشهور المذهب غير ذلك[٢].

لذلك فإنه من المهم في سبيل تجاوز حالة القطيعة الاجتماعية، وتعزيز حالة التآخي والتعاون والتداخل الاجتماعي، السعي إلى معرفة الآخر وفهمه بشكل مباشر، والتعرف إليه بشكل صحيح، وتصحيح الفهم عنه؛ لأن ذلك سوف يختصر لنا الطريق ويفتح لنا أبواب الحوار، ويساعدنا على التقريب والتقارب وتجاوز حالة القطيعة والجفاء.

ويعتبر الشيخ الصفار أن الجزء الأكبر من معوقات حالة التواصل الاجتماعي بين أبناء المجتمع الواحد، أو الوطن الواحد، أو الدين الواحد، تنطلق من أمور نفسية، وإلا

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٨

(٢) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٧٨

فنحن لا نجد أن الخلاف في الدين أو المذهب أو الرأي مبررًا للقطيعة، فالقرآن الكريم في آية واضحة وصريحة يقول: **﴿إذا سمعتم آيات اللَّه يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾**، أي إنه لا مانع من أن يجلس المسلم في مجلس الكفار، ولكنه إذا سمعهم يكفرون باللَّه يتركهم في هذا الوقت حتى يخوضوا في حديث غيره، ولا يوجد لدينا تشريع للقطيعة، إلا في بعض الحالات، حينما يكون هناك منكر أو بدعة خارج الدين، حيث لا يصح أن نعدّ الاختلاف في الاجتهاد بدعة.

أما فيما يتعلق بالحالة النفسية من تحاسد وحالة الأنفة والإحساس بالضعف، فهناك من الناس من لا يحب أن يتواصل معك؛ لأنه حين يراك يشعر بضعف ولا يملك الثقة في التعاطي معك، فيضع نفسه بعيدًا ضمن هالة معينة؛ لأن شعوره بالضعف يجعله لا يلتقي معك، وإلا فإن الإنسان الذي يثق في نفسه يلتقي بالآخرين مهما اختلف معهم، ومهما اختلفوا معه، لكن مع الأسف الشديد نجد هذه الحالة المتخلفة هي التي تدعو البعض إلى أن يسلك القطيعة؛ لأنه يختلف مع هذه الجهة أو تلك في رأيها أو موقفها.[١]

التعدد المذهبي ليس حائلًا أمام الاندماج والترابط الاجتماعي

اختلاف المذاهب وتعدّد الآراء ليس أمرًا جديدًا طارئًا في حياة المسلمين، فجذور هذا الاختلاف المذهبي نشأت في العقود الأولى للقرن الأول من تاريخ الإسلام، وبمرور الزمن وبفعل العوامل السياسية، والمناظرة والتنافس والبحث العلمي، تجذّرت المذاهب والتوجهات الرئيسة في الأمة، إلا أن هذا الأمر لم يؤثر على وحدة كيان الأمة، ولم يصنع الحواجز الاجتماعية بين أتباع تلك المذاهب والتوجهات.

ويلفت الشيخ الصفار إلى أن المبادئ الإسلامية للدين، والمعالم الرئيسة للشريعة كانت حينها تعتبر حدًّا جامعًا وإطارًا مشتركًا، يستوعب تعدّد المذاهب والاتجاهات، فالجميع يؤمنون باللَّه ربًّا، وبمحمد ﷺ نبيًّا، وبالآخرة معادًا، وبالقرآن كتابًا، وبالكعبة قبلة،

(١) من كتاب الانفتاح بين المصالح والهواجس. ص ٢٩

ويلتزمون بالأخذ بسنة الرسول، ويقيمون الصلاة بفرائضها الخمس، ويؤتون الزكاة، ويصومون شهر رمضان، ويؤدون فريضة الحج في وقتها المقرر، ويتفقون على تحريم الخمر والزنا والربا وسائر المحرمات المعروفة بين المسلمين، أمّا اختلاف الرأي في بعض التفاصيل العقدية والفقهية، أو تباين المواقف السياسية، فلا يصح أن يحوّل الأمة إلى كتل منفصلة عن بعضها.

وأبعد من هذا الاعتبار، يشير الشيخ الصفار إلى أن التزاوج والتداخل في والأحساب والأنساب كان مظهرًا من مظاهر وحدة المجتمع الإسلامي واندماجه، حيث لم تكن الاختلافات حائلًا ولا حاجزًا دون ذلك، فالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام تزوج أسماء بنت عميس زوجة الخليفة الأول أبي بكر بعد وفاته، وتربى محمد بن أبي بكر في حجره، والخليفة الثاني عمر بن الخطاب تزوج أم كلثوم بنت الإمام علي، كما ورد في الكافي، وتزوج الإمام الحسن جعدة بنت الأشعث، وبين شمر بن ذي الجوشن وأبناء الإمام علي من أم البنين العباس وأخوته علاقة خؤولة، وليلى أم علي الأكبر بن الحسين حفيدة أبي سفيان، من ابنته ميمونة، وورد أن الإمام زين العابدين والإمام الباقر كانت لهما زوجتان خارجيتان، وما طلقاهما إلا لإظهارهما التنقّص من علي وسبّه، كما تزوج الإمام الرضا والإمام محمد الجواد من ابنتي الخليفة المأمون العباسي.

ومع كل ذلك فإن ظروف التشاحن المذهبي، التي عاشتها الأمة فيما بعد، أوجدت ميلًا إلى القطيعة والتباعد الاجتماعي بين أتباع المذاهب، فحصلت فتاوى التكفير، وتحريم التزاوج بين المسلمين عند اختلاف مذاهبهم، ولم ينجُ من التأثر بهذه الظروف، إلّا من أوتي البصيرة في دينه، والوعي بأهمية وحدة الأمة وأنها أولوية، وأصل لا يمكن تجاوزه والتفريط فيه.

الاختلاف المذهبي لم يكن حائلًا أمام حالات التزاوج

يبني الشيخ الصفار آراءه الجريئة هذه اعتمادًا على ما أكده الفقهاء في أن الأصل هو جواز التزاوج بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم، فالمسلم كفو المسلمة، فقد قال المحقق

الحلي (٦٠٢-٦٧٦هـ) في شرائع الإسلام: (**الكفاءة شرط في النكاح وهي التساوي في الإسلام، وهل يشترط التساوي في الإيمان؟ فيه روايتان، أظهرهما الاكتفاء بالإسلام، وإن تأكد استحباب الإيمان، وهو في طرف الزوجة أتم؛ لأن المرأة تأخذ من دين بعلها، نعم لا يصح نكاح الناصب المعلن عداوة أهل البيت** عليهم السلام **لارتكابه ما يعلم بطلانه من دين الإسلام**).

وقال الشيخ محمد حسن النجفي في الجواهر بعد مناقشته للآراء والروايات التي يظهر منها المنع من التزاوج بين الشيعة وغيرهم، قال ما نصه: (**المدار على الإسلام في النكاح، وإن جميع فرقه التي لم يثبت لها الكفر بنصب أو غلّو أو نحو ذلك ملة واحدة، يشتركون في التناكح والتوارث وغيرهما من الأحكام والحدود**). وقال الشيخ محمد جواد مغنية: (**الكفاءة بين الزوجين عند الإمامية هي الإسلام، وكفى به جامعًا من غير فرق بين المذاهب الإسلامية وفرقها جميعًا**).

وجاء في صحيح عبد اللَّه بن سنان قال: سألت أبا عبد اللَّه الصادق عليه السلام: بم يكون الرجل مسلمًا يحلّ مناكحته وموارثته وبم يحرم دمه؟ قال: (**يحرم دمه بالإسلام إذا ظهر ويحلّ مناكحته وموارثته**)، وعن القاسم الصيرفي شريك المفضّل قال: سمعت أبا عبد اللَّه عليه السلام يقول: (**الإسلام يحقن به الدم، وتؤدى به الأمانة، وتستحل به الفروج، والثواب على الإيمان**).

كما جاء في (فقه السنة) عن ابن حزم قوله: (**أي مسلم ما لم يكن زانيًا فله الحق في أن يتزوج أية مسلمة ما لم تكن زانية، وأهل الإسلام كلهم أخوة**). كما نقل عن الشوكاني قوله: (**اعتبار الكفاءة في الدين أصلًا وكمالًا، فلا تزوج مسلمة بكافر، ولا عفيفة بفاجر، ولم يعتبر القرآن والسنة في الكفاءة أمرًا وراء ذلك، فإنه حرم على المسلمة نكاح الزاني الخبيث**).

يتابع الشيخ الصفار حديثه عن إشكالية التباعد والقطيعة بين أتباع المذاهب بالقول: إن أهل كل مذهب يعتبرون مذهبهم هو الحق والأصح، لذلك فإنهم يحرصون على تجنيب أبنائهم وبناتهم الأجواء والظروف التي قد تؤثر على التزامهم المذهبي، كاشفًا ما تشير إليه

بعض فتاوى الفقهاء بعنوان خوف الضلال، أو وجود محذور، يقول السيد الشيرازي في إجابته عن سؤال: هل يجوز للمرأة الشيعية الزواج من الرجل السني؟ الجواب: (**المشهور الجواز إلا إذا كان هناك محذور ـ كما لو عُلم بأنه يجبرها على التبري من أهل البيت عليهم السلام، أو أنه لا يسمح لها بأداء طقوسها وشعائرها المذهبية ـ**).

ويقول السيد السيستاني: (**يجوز زواج المؤمن من المخالفة غير الناصبية، كما يجوز زواج المؤمنة من المخالف غير الناصبي على كراهة، نعم إذا خيف عليه أو عليها الضلال حرم**).

ونقل ابن أبي قدامة الحنبلي في المغني عن الإمام أحمد بن حنبل قوله: (**لا يزوج بنته من حَرُورِيّ مرق من الدين، ولا من الرافضي، ولا من القدَرِيّ، فإذا كان لا يدعو فلا بأس**)، وقوله: (**فإذا كان لا يدعو فلا بأس**) إشارة إلى أن المنع هو للخوف من التأثير المذهبي، فإذا لم يحذر ذلك من الزواج فلا بأس من التزويج وإن كان من تلك الفئات.

خلاصة القول، كما يستنتج الشيخ الصفار، أن المسألة مرتبطة بأجواء التعايش السلمي، والاحترام المتبادل، أما المنع والتحفظات القائمة، فهي بسبب العلاقات غير الطبيعية بين أتباع المذاهب، فإذا ما سادت الحالة الإيجابية، فلن يكون مبرر للمنع والتحفظات.[1]

---

(١) من كتاب رؤية حول السجال المذهبي. ص ٤١

عاشرًا:

التعايش من أجل البناء والتعمير

مفردة التعايش من الكلمات التي دائمًا ما ترد وتتكرر أيضًا في خطاب الشيخ الصفار الإصلاحي، حيث لا بديل عن التعايش السلمي لكل الذين يعيشون على أرض واحدة، مهما تنوعت وتعددت انتماءاتهم ومشاربهم، بعيدًا عن المراهنة على تغيير المعتقدات والقناعات بالترغيب أو الترهيب، فلا بديل للجميع عن الانصهار في بوتقة الوطن الواحد، مع الإقرار بالتنوع المذهبي والفكري.

والتعايش، كما يقول الشيخ الصفار، لا يتحقق إلا بالمساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات، وتكافؤ الفرص، دون تمييز أو تصنيف، وبالاحترام المتبادل، والتوقف عن التعبئة والتحريض من كل جهة تجاه الأخرى، فالتعايش هو الخيار المنطقي الصحيح، ولا بديل عنه إلا التفريط بمصلحة الوطن، وتمزيق وحدة الأمة، ومساعدة الأعداء على نيل أطماعهم ومآربهم.[١]

إن نمو وتصاعد حالات التباعد والتباغض والكراهية بين أبناء الوطن الواحد، وخاصة في المجتمعات المتباينة طائفيًّا ودينيًّا، يجعل فرص التعايش والسلام تتضاءل وتخبو، حيث تتباعد خلالها المسافات الإنسانية، وتتسع فرص التعصب، وتطغى على الجميع الكراهية المتبادلة، وقد تنزلق فيه الأمور إلى ما لا يحمد عقباه من عنف وفوضى قاتلة.

---

(١) من كتاب السلفيون والشيعة نحو علاقة أفضل. ص ٤٤

ولن يتحقق التعايش السلمي وتسود روح المحبة بين أبناء الوطن الواحد، إلا على أساس الاعتراف والاحترام المتبادل، وحفظ الحقوق الإنسانية والوطنية، ونبذ المشاحنات والمهاترات المذهبية والطائفية، مع التأكيد على «**حرمة دم كل مسلم، سنيًا كان أو شيعيًا، وحرمة عرضه وماله، والتبرؤ من كل من يسفك دمًا حرامًا أيًا كان صاحبه**».[١]

ويرى الشيخ الصفار أن نهج المساجلات المذهبية في حلّ ومعالجة الخلافات العقدية ليس صحيحًا ولا مجديًا ولا يوصل الأمة إلى نتيجة، بل يكرّس واقع الصراع، ويشعل ساحة الأمة بالفتن، ويشغلها عن مصالحها الحاضرة، ويعطي الفرصة لتدخلات الأعداء، مضيفًا أن هذا النهج قد أخذ فرصته الطويلة الكافية طيلة العقود والقرون الماضية، فكانت نتيجته تراثًا ضخمًا من المساجلات والمماحكات والمناظرات، التي استهلكت وقتًا طويلًا من العلماء وطاقات الأمة، إضافة إلى سجل من الأحداث في النزاعات والصراعات التي عادة ما ترافق مثل تلك المناظرات.

وبناءً على هذه الرؤية يفضل الشيخ الصفار الابتعاد عن المساجلات المذهبية، أو وضع أي مذهب على المحك، ويرى أن التعايش بين أتباع المذاهب، وبقاء أهل كل مذهب على ما اقتنعوا به واختاروه لأنفسهم، مع ضرورة وقف الإساءة من أي طرف للآخر بالتكفير أو التحريض، أو النيل من رموزه ومقدساته، مع حقّ كل طرف بأن يطرح رأيه ورؤيته.[٢]

إنه لمن المهم ونحن نتحدث عن مفهوم التعايش، أن يكون لدينا الاستعداد لقبول الاختلاف في الرأي، فمقتضى تعدد المذاهب، كما يوضح الشيخ الصفار، هو تعددية الآراء، حيث ألفت الأمة الاختلاف في الرأي منذ عهد الصحابة والتابعين وتابعي التابعين والى يومنا هذا، ويكفي الاتفاق في أصول العقيدة وأركان الإسلام وفرائضه، أما التفاصيل العقدية والفروع الفقهية فميدان الاختلاف فيها واسع عند الأئمة والمجتهدين، لا يُخرج

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٥٦

(٢) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٨٩

من الملة ولا يستوجب التكفير، ولا يبرر القطيعة والعدوان.[١]

وفي الوقت الذي لا جدوى فيه من إلزام الآخرين بما نراه ونلتزمه من عقيدة ونهج، يرى الشيخ الصفار أنه يمكن للجميع الاتحاد والتعاون على الأصول والمشتركات الدينية التي يجمعون عليها، مع احتفاظ كل طرف بقناعاته ومتبنياته، وكما قيل: **نتعاون في ما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه.**

ويلفت الشيخ الصفار إلى أن عهود الخلاف والفرقة ومعارك النزاع والصراع كانت من وحي عقلية الوصاية على الآخرين، ومحاولة فرض الرأي عليهم، وقد رأينا نتائج ذلك في الواقع السيئ الذي تعيشه الأمة، وفي عدم استطاعة أو قدرة أي طرف على إلغاء الآخر، مما يحتم علينا التعامل مع الواقع القائم كما هو، والتركيز على الأصول والمصالح المشتركة، والاتجاه لبناء أوطاننا ومجتمعاتنا، فقد انشغلنا بخلافاتنا المذهبية كثيرًا، على حساب التنمية والتقدم العلمي والتكنولوجي الذي سبقتنا إليه أمم الأرض وشعوب الدنيا بمسافات كبيرة، وأصبحنا أمة مستضعفة، تعاني من الاستبداد والتخلف الداخلي، وتنتهك حرماتها القوى الخارجية.[٢]

التعايش طريق إلى التنمية والتقدم

ويعتقد الشيخ الصفار أن أول خطوة تضعنا على طريق التنمية والتقدم، هي امتلاك إرادة التعايش والقدرة على تحقيقه، فإذا ما اعترفنا ببعضنا بعضًا، واحترم كل واحد منا الآخر، واقر بشراكته ودوره، حينئذٍ يمكننا العمل معًا لتجاوز حالة التخلف العميق والانطلاق نحو أفق الحضارة الواسع، فالمسافة بيننا وبين ركب الحضارة والتقدم بعيدة شاسعة، ونحتاج إلى بذل أقصى الجهود، وتفعيل كل الطاقات والقدرات، حتى نقطع شوطًا من ذلك الطريق الطويل.

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٨٠

(٢) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٨١

فالتنمية تحدٍّ صارخ، حتى للأقطار التي تنعم بالسلام والاستقرار، كما أن هناك سباقًا عالميًا محمومًا بين الدول الصناعية والمتقدمة نفسها، كما هو واضح اليوم بين أمريكا واليابان، فلو تحركنا ومشينا بنفس السرعة التي يمشي بها الآخرون، لما استطعنا اللحاق بهم، لوجود مسافة كبيرة فاصلة، فمن يقطع أمامك ألف كيلو متر ويسير بسرعة ١٢٠ كم في الساعة، لن تدركه أبدًا إذا مشيت أنت بنفس السرعة، بل لابد لك من مضاعفة السرعة، لعلك تعوّض ما فاتك من المسافة التي قطعها أمامك.

إلا أن ما يعطّل سير الأمة على طريق التنمية والتقدم، كما يجزم الشيخ الصفار، هو واقع التنافر والاحتراب الداخلي الذي يعوّق أي محاولة للنهوض والإقلاع، فشعوبنا كسائر المجتمعات البشرية، تتنوع ضمنها الاتجاهات، وتتعدد الانتماءات، دينيًا وقوميًا وسياسيًا، لكن مشكلتنا أن كل اتجاه أو انتماء يعيش القلق من الآخرين في محيطه، حيث تسود أجواءنا حالة من الشك والارتياب، تجاه بعضنا بعضًا، مما يدفع كل طرف للحذر من الآخر، والاستعداد لمواجهته، والعمل على إضعافه، مما يحول بيننا وبين التعاون الجاد المخلص، بل ويوجه طاقاتنا نحو الهدم بدل البناء.

المشكلة أن أذهاننا وأفكارنا مشغولة بمعاركنا الداخلية، وأن الجزء الأكبر من إمكاناتنا تستنزفه تلك المعارك، ومن الطبيعي أن يستفيد أعداؤنا من هذا الواقع السيئ، وأن يشجعوا حالة التمزق والتشرذم في مجتمعاتنا، لتستمر في الخضوع لهيمنتهم، وليأمنوا خروج المارد الإسلامي من قمقمه؛ لأن القوى المسيطرة في العالم، لا تريد لنا السير على طريق التنمية والتقدم، لتحقيق قدر من الاكتفاء الذاتي، بل تريدنا محتاجين لها دائرين في عجلة اقتصادها.

والسؤال التحدّي الذي يطرحه الشيخ الصفار هنا، هو: متى سنتجه لمعركتنا الحقيقية، في ميدان التنمية، إذا ما ظللنا منشغلين بمعارك خلافاتنا المزمنة والزائفة؟ ومتى سنتصدى لأعدائنا الواقعيين، ما دمنا مستغرقين في العداوات الداخلية الوهْم؟

يشعر الشيخ الصفار بالغضب؛ لأن جراحات الاحتراب الداخلي لا تزال تنزف من

جسم أمتنا الإسلامية في أكثر من مكان، وبدرجات متفاوتة، وهو الأمر الذي يؤكد على ضرورة التوافق على مبدأ التعايش، والقبول بالآخر ومشاركته، بدل التفكير في إلغائه أو تجاهله أو تهميشه. والشيخ الصفار يقول إنه لا يألو جهدًا في سبيل التبشير بمبدأ التعايش، انطلاقًا من أن التنوع ظاهرة كونية واجتماعية، شاءتها حكمة الخالق جلّ وعلا، وأن مفاهيم الدين وتعاليمه توجهنا للتعاطي الإيجابي مع واقع التنوع والاختلاف، مثلما هو في تاريخنا الإسلامي المجيد، الذي نجد فيه صفحات رائعة، ونماذج مشرقة، التي يمكن استلهام منها العبرة منها والقدوة، في تطبيق منهج التعايش الكريم.(١)

إن أبناء البشرية في هذه الحياة الدنيا، على تنوعهم وتمايزهم، يعيشون ضمن حياة مشتركة، متداخلة المصالح والمنافع، ولا يمكن لأي نوع من أنواع البشر أن يختاروا لأنفسهم زاوية من زوايا الدنيا، فيقبعون فيها بعيدًا عن الآخرين، دون أي تأثر أو تأثير، وخصوصًا مع هذا التطور العلمي والتكنولوجي الهائل في حياة الإنسان، حيث المسافات قد ألغيت، والحدود قد تساقطت، وأصبحت الدنيا قرية واحدة، مما يفرض على الناس أن يتعايشوا مع بعضهم، مهما تنوعت انتماءاتهم، وتعددت هوياتهم، من أجل مصالحهم المشتركة، وقد جاء في الحديث عن الإمام محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام: (**صلاح شأن الناس التعايش**).

وجاء في رواية أخرى أن رجلًا دعا بحضرة الإمام علي ابن الحسين زين العابدين عليه السلام قائلًا: (**اللَّهم أغنني عن خلقك، فردّ عليه زين العابدين: ليس هكذا إنما الناس بالناس، ولكن قل: اللَّهم أغنني عن شرار خلقك**). فالناس بالناس، ولا تصلح شؤونهم إلا بتعايشهم مع بعضهم بعضًا، مهما تنوعت انتماءاتهم وتوجهاتهم، ولكن كيف يتحقق التعايش مع التنوع؟

هناك شرطان أساسيان، كما يقول الشيخ الصفار، يمكن بهما تجاوز ما تفرزه حالة التنوع غالبًا من إشكاليات في التعاطي والتعايش: **الأول: هو ضمان الحقوق والمصالح**

---

(١) من كتاب التنوع والتعايش. ص ٢٦

للأطراف المختلفة، فإذا ما شعر طرف من الأطراف بانتهاك حقوقه، أو التعدي على مصالحه، من قبل طرف آخر فلن تتوفر حينئذٍ أجواء التعايش، وما يحصل غالبًا من تنازع وصراع بين الجهات المتنوعة في المجتمع، إنما هو بسبب طغيان وتعدّي فئة على حقوق ومصالح فئة أخرى، والفئة المضطهدة حتى وإن كانت أقلية أو ضعيفة، إلا أن شعورها بالغبن والظلامة، يمنعها من التفاعل الإيجابي مع بقية الفئات، بل يدفعها إلى التفكير في الثأر والانتقام.

لذلك يشدد القرآن الحكيم، على لزوم رعاية حقوق الآخرين، وعدم الاعتداء على المخالفين، فالمؤمنون يحق لهم أن يدافعوا عن أنفسهم، حينما يواجههم الكافرون، ولكن عليهم أن يقفوا عند حدود الدفاع ولا يتجاوزون ذلك اعتداءً: ﴿**وقاتلوا في سبيل اللَّه الذي يقاتلونكم ولا تعتدوا إن اللَّه لا يحب المعتدين**﴾، وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿**ولا يجرمنكم شنآن قوم إن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا**﴾.

إن وجود حساسية ما، عند فئة تجاه فئة أخرى، لا يصح أن يؤثر على الالتزام بالعدل في الحقوق، يقول تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين للَّه شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شَنَآنُ قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى**﴾، ولا يجوز للإنسان المؤمن أن ينحاز في موقفه على حساب الحق والعدل، لصالح انتمائه أو انشداده العاطفي، يقول تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء للَّه ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيًا أو فقيرًا فاللَّه أولى بهما فلا تتبعوا الهوى إن تعدلوا**﴾.

أما **الشرط الثاني** الذي به يمكن تجاوز إشكاليات حالة التنوع، كما يشرح الشيخ الصفار، فهو: **الاحترام المتبادل**، فالإنسانية جوهر واحد مشترك عند أبناء البشر، فعليهم أن يحترموا إنسانيتهم باحترام بعضهم بعضًا، وحتى إذا ما اختلفت اتجاهاتهم، لكنهم نظراء ومتساوون في إنسانيتهم، وكما يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: (**فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق**).

ويشجع القرآن الحكيم المسلمين على حسن التعامل مع المخالفين لهم في الدين، وأن

يتواصلوا معهم، على أساس الإحسان والاحترام، وحفظ الحقوق، ما داموا مسالمين لم يبدؤوا المسلمين بعدوان، يقول تعالى: (**لا ينهاكم اللَّه عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن اللَّه يحب المقسطين**). وما الأحلاف والمعاهدات السلمية، التي عقدها رسول اللَّه ﷺ مع قبائل اليهود، وتجمعات النصارى، وفئات المشركين من العرب، إلا نموذج لما يريده الإسلام من قيام علاقات إنسانية إيجابية، بين المختلفين من أجل تعايش مشترك.[١]

(١) من كتاب التنوع والتعايش. ص ٩١

أحد عشر:

إقرار التعددية الفكرية والسياسية والدينية

يعترف الشيخ الصفار بأن مشكلة الأوساط الدينية أنها تخلط بين اعتقادها بأحقية معتقدها، وبين الإقرار بحق الآخرين في تبني معتقداتهم، إن اعتقاد أي جهة بأنها على الحق والصواب أمر طبيعي، لكنها يجب أن تعرف وتعترف بأن الآخرين ينظرون لأنفسهم كذلك، ويرون أنهم على الحق والصواب. وإذا كان اللّه سبحانه لم يأذن لأنبيائه أن يفرضوا دينه ورسالته على الناس، وقصر مهمتهم على البلاغ والتذكير ﴿**وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**﴾، ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ. لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**﴾، بل دعاهم للاعتراف بحرية الآخرين في أديانهم ومعتقداتهم: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾، ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾.

إذًا، كيف يحق لأيّ جهة أن تفرض رأيها أو وصايتها على الآخرين؟ أو تصادر حريتهم في الاعتقاد أو التعبير عن الرأي؟

يقول الشيخ الصفار: إن القبول بالتعددية الفكرية مبدأ مهم، إلا أننا مع الأسف الشديد نفتقده في أوساطنا الدينية، ليس بين المذاهب فقط، وإنما حتى بين المدارس والتيارات داخل المذهب الواحد، وكذلك الأمر بالنسبة للشأن السياسي، فلا زالت غالب أوطاننا تخضع لسياسة الرأي الواحد والحزب الواحد، ولا مجال للمعارضة ولا لتعدد الأحزاب والتوجهات السياسية.

ويعرب الشيخ الصفار عن اعتقاده في أن القمع الفكري والسياسي لا يحقق الوحدة، كما قد يتوهّم البعض، بل يؤسِّس للصراع والاحتراب، وما قد يظهر على السطح من

وحدة قسرية، هو غطاء رقيق لبراكين وحمم غاضبة تستقر في أعماق المجتمع، لا تلبث أن تنفجر عند أول فرصة سانحة، بينما يوفر إقرار التعددية حالة من الاطمئنان والثقة بين الأطراف المختلفة، ويمكنها من صنع إطار جامع، تحافظ من خلاله على المصالح المشتركة، وهذه ليست فرضية علمية، ولا أطروحة نظرية، بل هي واقع قائم تعيشه سائر المجتمعات البشرية، التي يتنوع أبناؤها في أديانهم ومذاهبهم وتوجهاتهم وأحزابهم.

لذلك فإن إقرار التعددية الفكرية والسياسية يترتب عليه الاعتراف بحقّ مختلف الأطراف في التعبير عن آرائها وإعلان مواقفها، وممارسة شعائرها الدينية وأنشطتها السياسية، وإقامة مؤسساتها الاجتماعية، ضمن قانون يخضع له الجميع، دون هيمنة واستعلاء من أحد، أو تهميش وإقصاء لأحد.(١)

موقف الإسلام من حالات التنوع والتعدد

ومن هذا المنطلق دائمًا ما يطرح السؤال التالي: ما هو موقف الإسلام من وجود حالات التنوع والتعدد، وهل هو موقف إيجابي أم سلبي؟ وهل يعطي الإسلام شرعية الوجود للعقائد والمذاهب والاتجاهات الفكرية المخالفة له؟ وهل يفرض على أصحابها الإذعان له من دون قناعاتهم؟ وهل يكره الناس على اعتناقه؟

يلاحظ الشيخ محمد مهدي شمس الدين أنه من خلال واقع التاريخ، ومن نصوص التشريع، وأحكام الجماعات غير المسلمة، أن دار الإسلام تتسع لغير المسلمين، وهؤلاء يتمتعون في دار الإسلام بالحقوق السياسية والإنسانية الكاملة، مضيفًا أن هذا الأمر يكشف بصورة غير قابلة للريب على الظاهر، أن الإسلام شرّع مبدأ التنوع العقائدي في المجتمع، على أن يكون هذا التنوع في الدولة الإسلامية تحت سلطة الإسلام، وتحت شرعية السلطة الإسلامية التي تقبل بوجود هذه التنوعات، وتعطي لأصحابها الحق في أن يمارسوا التنظيمات والتعابير الملائمة عن مضمونهم الاعتقادي فيما بينهم، ولا يؤثر تنوعهم

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١١٨

العقائدي عن المسلمين في استحقاقهم للتمتع بالحقوق الإنسانية الأساس، سياسية كانت أو غير سياسية؛ لأن هذه الحقوق كفلها لهم الإسلام.

فمن الناحية الفقهية يرى الشيخ شمس الدين أن الشريعة الإسلامية تقر مبدأ التنوع، وأن الانطباع السائد خطأ عن أن الإسلام يلغي جميع التنوعات في داخله، ولا يسمح لمجتمعه بأن يحتوي على أية تنوعات، وأن أي تنوع من هذه التنوعات إذا سمح به فإن المنتمين إليه يكونون مواطنين من الدرجة الثانية، أو الثالثة، بحيث يكونون مسلوبي الحقوق التي يخولها لهم النظام الإسلامي العام للمواطن، فإنه أمر لا يوافق عليه من الناحية الفقهية، وأن بعض ما يبدو أنه مسلمات فقهية في المسألة السياسية، وفي الفقه السياسي، وفي الفقه الإداري والتنظيمي، قد أخضعه للنقاش بقصد فهم صحته، وذلك في أبحاثه الفقهية، حيث خلص فيها إلى أن كثيرًا مما يبدو أنه مسلمات في الفقه السياسي والفقه التنظيمي الإداري، ما هو إلا من الظواهر التنظيمية والتشريعية التدبيرية، التي اقتضاها ظرف تاريخي خاص، حيث كان وضع المجتمع، وعلاقات دار الإسلام، أو دول الإسلام بالأغيار تقتضي هذه التدابير، أما في زماننا، كما يستنتج الشيخ شمس الدين، فإن المجال يتسع، ووفقًا للأدلة الشرعية من الكتاب والسنة، لرؤية فقهية أخرى حول هذا الموضوع.

إن السعي إلى بحث مشكلة عالم الأفكار خارج الإسلام، يتطلب قبل كل شيء البحث عن مشكلة عالم الأفكار داخل الإسلام أولًا، حسبما يرى الشيخ شمس الدين، حيث ينبغي أن ننهي المشكلة التي عاشها المسلمون منذ قرون طويلة، منذ نهايات القرن الأول للّهجرة وبدايات القرن الثاني، وهي مشكلة نظر فيها أبناء المذاهب الإسلامية إلى بعضهم وكأنهم ينتمون إلى عوالم مختلفة، حيث وصلت هذه النظرة السلبية تجاه الآخر إلى حدِّ سلب شرعية الوجود أو الشرعية الكاملة عنه، وفي بعض الحالات سلبت الشرعية المطلقة عن المذهب المخالف، وفي حالات أخرى يعطى فيها شرعية ناقصة، تحرم معتنقيه من كثير من حقوقهم الإنسانية الشرعية، التي أقرتها لهم الشريعة العامة والشرائع الخاصة.[1]

---

(١) من المقدمة التي كتبها الراحل الشيخ محمد مهدي شمس الدين لكتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ١٣.

وردًّا على سؤال حول أسباب التوتر المذهبي والطائفي الذي تعيشه الأمة الإسلامية، وهل هو قدرٌ محتومٌ، علينا أن ندفع ثمنه إلى يوم الدين، أم أنه حالة طارئة ويمكن التعايش معها، عبَّر الشيخ الصفار عن اعتقاده بأن هذا التوتر المذهبي ما هو إلا مفردةً من مفردات التوترات العديدة التي تشهدها وتعيشها مجتمعاتنا، فهناك إلى جانب هذا التوتر المذهبي، توترات عرقية، قومية، قبلية، سياسية وفكرية بين مختلف التيارات، والمشكلة أن مجتمعاتنا لم تصل بعد إلى مستوىً من النضج والتقدم يُمكنها أن تقبل حالة التعددية في المجالات المختلفة. والتوتر المذهبي هو مظهرٌ من مظاهر هذه الحالة التي تعيشها مجتمعاتنا، وليس هي حالة وحيدة، إلا أن ما يجدر الإشارة إليه هو أن التوتر حينما ينبعث من حالة دينية، تكون خطورته وتأثيره أكبر، وإلا فهي مظهرٌ من مظاهر عدم النضج والاستقرار الذي تعيشها مجتمعاتنا.

ويلفت الشيخ الصفار النظر إلى أن التعدد المذهبي ليس أمرًا جديدًا أو طارئًا في تاريخ الأمة، فما مرَّ قرن من الزمان على الأمة الإسلامية كانت منصهرة فيه ضمن مذهبٍ واحد أو اتجاهٍ واحد، فمنذ القرن الأول للإسلام بدأت بذور هذه التعددية، وهذا التنوع المذهبي، على المستوى الفكري والسياسي، أو على المستوى الفقهي. المذاهب الإسلامية الموجودة اليوم ليست وليدة هذا القرن أو هذا العصر، فالسنة والشيعة موجودان منذ القرن الأول بناءً على مسألة الخلاف حول الخلافة والإمامة، وما انجرّ إليه من أحداثٍ طوال تاريخ الأمة في الفترات الماضية، وكذلك وجود الخوارج -أيضًا- بمذاهبهم المتعددة، والمدارس التي كانت موجودة من أشاعرة ومعتزلة وقدرية ومرجئة، ومن مختلف التوجهات، كلها كانت موجودة منذ القرون السابقة، فهي حالةٌ قديمة، قدم تاريخ الأمة، وهي واقعٌ قائم تعيشه الأمة في هذا العصر، وسيبقى إلى أن يشاء اللَّه سبحانه وتعالى.

التعدد وخيار التعايش

وفي ظلّ هذا الواقع التعددي الذي نعيشه اليوم ليس أمامنا إلا أحد ثلاثة خيارات، كما يفترض الشيخ الصفار، شأننا في ذلك شأن بقية المجتمعات البشرية في تعدداتها وتنوعاتها

الدينية والفكرية والسياسية:

الخيار الأول ـ المراهنة على إلغاء حالة التعدد، وأن تتوحد الأمة، ويتوحد المسلمون ضمن مدرسة عقدية واحدة، حيث يطمح البعض ويراهن على أن تجتمع الأمة وتتفق على رأيٍ واحدٍ في كل هذه التفاصيل، لكنه طموحٌ مثالي، إذ كيف يُمكن إلغاء هذه التعددية المذهبية العريقة في تاريخ الأمة، والمستند إلى اجتهادات وآراء علمية مختلفة.

وبدعوى تحقيق هذا الطموح قد يلجأ البعض إلى أحد الاتجاهات التالية، كما يشرح الشيخ الصفار:

الأول: القوة، بأن يُفرض على الناس أن يتجهوا باتجاهٍ واحد، إلا أنه من الواضح والمسلم به أن المعتقدات والآراء الدينية لا يُمكن أن يُتعامل معها بالقوة، فهناك كثيرٌ من المجتمعات التي فُرضت عليها بعض الآراء والمعتقدات الدينية أو المذهبية، إلا أن ذلك زال بمجرد انتهاء عامل القوة والقهر. والقرآن الكريم يؤكد هذه الحقيقة، فيقول تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾، فالمراهنة على أن توحد الأمة على أساس القهر والفرض، مراهنة غير ممكنة وغير عملية، وقد جُربت في داخل الأمة وخارجها فلم توصل إلى نتيجة.

الثاني: الترغيب، بمعنى أن أحد المذاهب يُقنع بقية أتباع المذاهب الأخرى بأن يتنازلوا عن آرائهم ومذاهبهم، وهذا أيضًا أمرٌ غير عملي وغير فعلي. وهذا لا يرتبط بمسألة حق وباطل فقط، فنحن نؤمن بأن الإسلام هو الحق، وبأن أقدر الناس على تبيين هذا الحق هو رسول اللَّه ﷺ، ومع ذلك فقد كان في عهده يهود ونصارى لم يُغيروا دينهم وعقيدتهم. فالمسألة إذًا لا تقف عند الحق والباطل، ولكن هناك عوامل عديدة لها دور في وجود وبقاء الآراء والمعتقدات الدينية والمذهبية، والقرآن الكريم يوضح هذه الحقيقة بجلاء، فيقول تعالى مخاطبًا نبيه: ﴿**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ**﴾، لذلك فإن المراهنة على أن تتغير المذاهب أو يترك أصحاب المذاهب الأخرى مذاهبهم ومدارسهم ويقتنعوا بمذهبٍ واحدٍ سنيًّا كان أو شيعيًّا هذه مراهنةٌ غير واقعية.

الخيار الثاني: استمرار حالة الصراع والتوتر، التي قد تنخفض في بعض الأحيان، وقد تطفو على السطح أحيانًا أخرى. واستمرار هذه الحالة من التوترات لا تنسجم مع القيم والأخلاقيات الدينية التي ينبغي أن يحملها كل إنسان مسلم يقرأ القرآن، ويقرأ أحاديث رسول اللَّه ﷺ، فالقرآن يدعو الناس إلى السلم: ﴿**ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً**﴾، كما أن استمرار الصراع الطائفي والمذهبي له آثار ومضاعفات سيئة، وهو ما رأيناه في تاريخ الأمة، ونعيشه الآن في واقع الأمة، ومن أهم تلك المضاعفات، أن الصراع في حال استمراره يؤدي إلى إعاقة مسيرة التنمية **أولا**، ويُفقد أوطاننا حالة الاستقرار **ثانيًا**، كما يؤدي **ثالثًا** إلى تشويه سمعة الإسلام، عند أجيالنا الناشئة، وأمام العالم، وهو الأمر الذي يدفعنا للتساؤل: ماذا يمكن أن نقول للعام الذي ينظر إلينا ونحن نتقاتل فيما بيننا، على أساس اختلافاتنا المذهبية والفقهية؟

وأخيرًا، فإن حالة التوتر والصراع المذهبي تُعطي أفضل الفرص للتدخلات الخارجية؛ لأن العالم لن يتركنا كثيرًا في هذه الحالة غير المستقرة وضمن الأوضاع المتشنجة، وسوف يستفيد منها كفرصة لممارسة نفوذه وهيمنته وللتدخل في شؤوننا الداخلية، وها نحن نرى كيف أن الآخرين ينتظرون أي فرصة للنزاع لكي يتدخلوا، لذلك فإن استمرار حالة الصراع لا تنسجم مع مبادئنا الدينية التي نحملها، وتضرنا في واقعنا الحياتي حالًا ومستقبلًا.

الخيار الثالث: هو **التعايش،** كما تعايش المسلمون في عصورهم الأولى، فقد كان أئمة المذاهب يلتقون مع بعضهم بعضًا، ويحترمون بعضهم بعضًا، ولم تكن هذه الحالة من التوتر هي الحالة السائدة والدائمة، وإن كانت تبرز في بعض الأحيان نتيجة عوامل معينة، سياسية أو اجتماعية، ولكن كان هناك مستوىً من التوحد، ومستوىً من التعايش السياسي والاجتماعي، وقد ورد في رواية عن الإمام محمد الباقر، وهو من أحفاد الرسول ﷺ أنه قال: (**صلاح شأن الناس التعايش**)، أي أن يتعايشوا مع بعضهم بعضًا، وهو الخيار الذي

ينبغي أن نسير باتجاهه وننحو نحوه.[١]

التنوع والتعدد حقيقة دينية

لقد تحدث القرآن الحكيم عن تعدد الديانات، وأثبت ذكر أهم الديانات السماوية والوثنية، معتبرًا ذلك التعدد والاختلاف ظاهرة طبيعية في هذه الحياة، لما منح اللَّه تعالى الإنسان من حرية اختيار، وأودع في نفسه من نوازع الخير والشر، أما الحسم والفصل بين أتباع هذه الديانات فهو مؤجّل إلى ما بعد الحياة الدنيا، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّه يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾.

يشير الشيخ الصفار إلى أن المتمعن في جوهر المعنى القرآني في هذا المجال، وضمن سياقه الموضوعي، يلاحظ دون أدنى شك، طبيعة الإقرار القرآني بحقيقة الاختلاف الديني بين بني البشر، بل ويبسط مدارات الحديث عن ذلك في أكثر من جهة وموضوع، **فأولًا**: لا يـمكن إلغاء حـالة التعدد الديني بالقوة والفرض حيث ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾، و ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾. **ثانيًا**: المؤمن بدين اللَّه، عليه أن يعتمد الأسلوب اللائق المناسب في الدعوة إلى دينه، دون تهريج أو تجريح أو تشنج وانفعال: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾.

وثالثًا: يفترض أن يستهدف الإنسان من تدينه الوصول إلى الحقيقة، فلا بدّ له حينئذٍ من الانفتاح عـلى الديانات والآراء الأخرى، بحثًا عن الحـقّ والصواب، ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾. ولا يصحّ له أن ينكفئ على عقيدته الموروثة، دون تفكير أو نقاش ﴿**الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ**﴾، لذا ينبغي أن يسود الحوار السليم بين الديانات المختلفة، اعتمادًا على الدليل والبرهان ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ**﴾، والحوار بين الأديان يجب

---

(١) من كتاب رؤية حول السجال المذهبي. ص ٦٩

أن يكون موضوعيًا هادئًا، على أساس الاحترام المتبادل ﴿**وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾.

ورابعًا: الاختلاف الديني بين الناس لا ينبغي أن يؤدي إلى الصراع والنـزاع، فالأصل في العلاقة بين أبناء البشر، هو التعايش والانسجام، والاحترام المتبادل، أما من تسوّل له نفسه الاعتداء على المختلفين معه، فلا بدّ من ردعه ومواجهة عدوانه: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾.

والخلاصة التي ينتهي إليها الشيخ الصفار هي أن الإسلام ينهى عن جرح مشاعر أتباع الديانات حتى لو كانت وثنية، بسبب مقدساتهم؛ لأن ردّ فعلهم الطبيعي سيكون سبّ مقدّسات المسلمين ﴿**وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ**﴾.[1]

التنوع من أجل التعارف والتواصل الإنساني

إذا كان التنوع ناتجًا عن التمايز في الخلفيات، أو الثقافات، أو أنماط وظروف الحياة، أو غير ذلك، من جوانب الاختلاف والتمايز، فإن هذا التنوع يجب أن يكون دافعًا نحو التعارف والتواصل، بين المجاميع البشرية المختلفة، وذلك من أجل **أولًا**: أن تطلّع كل مجموعة بشرية، على واقع المجاميع الأخرى، وتتعرف خصوصياتها ومميزاتها، فالإنسان مجبول على حبّ الاطّلاع، والرغبة في المعرفة والعلم، كما أنه يميل إلى أبناء جنسه، وذلك يشكل حافزًا للتعارف والتواصل بين أبناء البشر في الوضع الطبيعي.

وثانيًا: أن تعرُّف كل أمة لواقع الأمم الأخرى ودراستها لها، يثري تجربتها، ويتيح لها فرصة الاستفادة من نقاط قوة الآخرين، وتلافي مكامن الضعف لديهم. لذلك يشير القرآن الحكيم، إلى حقيقة أن التنوع ينبغي أن يكون دافعًا للتعارف لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا**

---

(١) من كتاب التنوع والتعايش. ص ٥٨

النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

بيد أن الاهتمام بالتعارف بين الأقوام والأمم، ينبغي أن ينبثق من أرضية الاحترام المتبادل، أما حينما تستهين مجموعة بالآخرين، وتنظر إليهم نظرة احتقار وازدراء، ويمتلكها تجاههم الشعور بالتعالي، فإنها لن تتجه لاستكشاف ما لدى الآخرين من نقاط القوة، وصفات الخير، لذلك فإن القرآن الحكيم يمهّد للدعوة إلى التعارف، بإدانة نظرة السخرية والازدراء بين الأمم والأقوام، فيقول سبحانه وتعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾**، مع التأكيد على أن تقويم الآخرين، لا ينبغي أن يقف عند حدود المظاهر والأشكال، بل يجب التعمق في البحث عن الصفات الفاضلة والسمات الكريمة: **﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾**.[١]

التنوع الإنساني والتنافس الإيجابي

من الطبيعي أن تسعى كل جماعة بشرية لتعزيز موقعها، وتأكيد ذاتها، أمام الجماعات الأخرى، ولكن السؤال: ما هو الطريق والأسلوب المناسب لتحقيق هذا التعزيز والتأكيد؟

هناك منهجان وأسلوبان لتحقيق ذلك، كما يقول الشيخ الصفار، **الأول**: من خلال العمل على إضعاف الآخر، وتدمير نقاط قوته، وإعاقة تحركه وتقدمه، وحينها ينهار الآخر، أو يضعف، ليبقى ذلك الطرف بارزًا قويًا في الساحة، إذ لا توجد قوة أخرى تزاحمه، أو في مستوى مزاحمته. أما المنهج **الثاني**: فينطلق من خلال التركيز على تقوية الذات، وتنمية القدرات الذاتية، لإحراز التقدم عمليًا على الآخر.

ومن البديهي القول إن المنهج الأول هو أسلوب الصراع والنزاع، وأما المنهج الثاني فهو طريق التنافس الإيجابي، بيد أن أسلوب الصراع والنزاع يكلّف البشرية الكثير من

---

(١) من كتاب التنوع والتعايش. ص ٧٦

الضحايا والخسائر، فهو يشغل كل جهة بالجهة الأخرى، وبدلًا من أن تنصبّ جهود كل من الطرفين في إعمار الأرض، وتقدم الحياة، تصرف في التحطيم المتقابل للمكاسب والإنجازات، وتهدر في المواجهة والصراع.

والقرآن الكريم يوجه البشرية إلى أن تستفيد من واقع التنوع في إذكاء روح المنافسة الإيجابية، بأن تسعى كل جهة لبناء ذاتها، وأن تثبت تفوقها وتقدمها عبر ما تنجزه من أعمال الخير والصلاح، وما تحققه من عمارة للأرض وخدمة للحياة، فسبحانه وتعالى يقول: **﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾**.

وتأكيدًا على محورية الإنتاج والعمل، بين الجماعات المتنوعة، بدل إضاعة الجهد، والاهتمام بالنزاع والجدال، وردت آيات عديدة في القرآن الحكيم، تعتبر العمل هو المفصل والمحور، يقول تعالى: **﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾**، والمؤمنون الواعون لا يسفّون بأنفسهم إلى مستوى تبادل السّباب والشتم، مع المخالفين لهم، بل يركزون على قضية العمل كحدٍّ فاصل: **﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾**. وأساسًا فإن الحياة الدنيا ميدان لتفجير طاقات الإنسان، وتفعيل كفاءاته، والتقدم والفوز هو للأكثر كفاءة، والأحسن عملًا وإنتاجًا **﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾**.[(١)]

التنوع الثقافي الخلّاق

يجب التأكيد على أولوية علاقات التواصل والتفاعل بين الجماعات البشرية، وسلوك طريق التنافس الإيجابي فيما بينها، من أجل إعمار الأرض وتقدم الحياة البشرية، بعيدًا عن علاقات التصادم وافتعال الأزمات والتحطيم المتبادل للمكاسب والإنجازات البشرية وهدر الإمكانات في مواجهات وصراعات مكلفة وباهظة الثمن والتكاليف على الجميع،

(١) من كتاب التنوع والتعايش. ص ٧٩

بل من المهم أن تسود العلاقات البشرية روح الأخوة والحميمية وإبراز ما تحمله من قيم إنسانية، والحرص على تكريم الإنسان مهما اختلف جنسه ولغته ودينه، واحترامه ورعايته وتقديره واحتضان مواهبه وتفجير طاقاته وتفعيل كفاءاته.

كما يجب التمييز بين التفاعل والتواصل، الذي يحدث نتيجة الاحتكاك والتواصل بين الشعوب التي تتمازج فيما بينها، وهو ما يؤدي إلى التأثير والتأثر المتبادل فيما بينها، كلٌّ حسب غزارة وقوة أو تواضع وضعف مكوّنه الثقافي، وبين الهيمنة التي تحاول فيها جماعة ما أن تفرض نمطها الثقافي على الآخرين، وجعله النمط الوحيد الذي يجب أن يسود ويخلد، وهو ما يؤدي إلى اضطراب العلاقة وتوترها بين الجماعات البشرية في كثير من الأحيان، فالثقافة لا يمكن أن تندمج قصرًا في فكر الآخر أو تذوب فيه مهما قُدّم من مغريات وبدائل وخيارات مختلفة؛ لأن المعتقدات والآراء الدينية لا يُمكن تفرض بالقوة على الآخرين.

وعلى هذا الأساس فإن التنوع الثقافي الخلّاق، كما يقول جابر عصفور، يقوم على مبدأين نقيضين لمبدأي التنميط: فرض نمط واحد، والتوحيد البشري لكلّ من الاقتصاد وأشكال السياسة والثقافة في العالم. وتنطوي أفكار التنوع الخلّاق على الإيمان بضرورة التعاون والتفاعل والاعتماد المتبادل بين الشعوب، وإلغاء المبدأ القديم عن المركز والأطراف، وتحويل كل العواصم إلى مراكز متكافئة، لا ميزة فيها لأحد على أحد إلا بالعطاء الذي يهدف إلى صالح البشرية، وفي الوقت نفسه الإعلاء من ثقافة الحوار التي تقوم بالتقريب بين الشعوب، ويضاف إلى ذلك مبدأ الاعتماد المتبادل، خصوصًا في الأخطار الطبيعية الكبرى التي لا تستطيع دولة واحدة أن تواجهها بمفردها، وأخيرًا، ما يترتب على قبول التعددية واحترام الاختلاف واحترام الخصوصية الثقافية والهوية الحضارية، فكل أمة لها تاريخها الثقافي وتراثها الحضاري الذي تتميز به عن غيرها، وهو ملكها من ميراثها النوعي الذي صنعته أجيال وأجيال من الأسلاف عبر عصور متطاولة، وهو ملك البشرية في الوقت نفسه؛ لأنه من صنع أمة تتصل بغيرها في علاقة الإنسانية التي تجعل من أبناء الكوكب الأرضي عائلة واحدة متشعبة الأجناس، مختلفة في الصفات

الظاهرة، لكنها متحدة في الجوهر وفي البعد الإنساني الذي يقارب بين أبناء الإنسانية، ولهذا فإن احترام كل تراث إنساني، والحفاظ على كل ميراث حضاري وإبداعي هو حفاظ على التراث الإنساني والحضاري للإنسانية جمعاء، فالتنوع مصدر غنى، والتعدّد علامة ثراء للإنسانية التي جعلها اللّٰه شعوبًا وأوطانًا لتتعارف وتتحاور وتتبادل النفع والتعاون دون تمييز أو استعلاء أو استغلال، ودون مركز وأطراف، فقد انتهى ذلك كله عند العقلاء على امتداد العالم.[١]

إن تعزيز ونشر ثقافة التعدد، والقبول بقيم التنوع الثقافي الخلّاق، سينعكس إيجابًا على عملية النهوض والتقدم والتطور، ويعزز المسار الحضاري في مجتمعاتنا، فثقافة التعددية قيمة أساسية في المجتمعات المتطورة، وهي ميزة الإنسان فيها، فالمجتمعات التي كرّست هذه القيمة اليوم هي الأكثر تقدّمًا. فالاختلاف والتنوع والتعدد هي من دون أدنى شك مصدر غنى ثقافي وحضاري وإنساني، ويخلق بيئة ينطلق فيها الإبداع إلى آفاق معرفية وفكرية متجددة مطردة، بعكس المجتمعات التي كرّست نهج التفرد والدكتاتورية والاستبداد، وألغت ورفضت قيم التعدد والتنوع والاختلاف، حيث كان لهذا الرفض انعكاساته السلبية على مستوى تقدمها وتطورها.

(١) جابر عصفور. الأحادية والثنائية، جريدة الاتحاد الإماراتية، ٧/ ٤/ ٢٠١١م.

اثنا عشر:

التعرف إلى الآخر والتحاور معه

الاختلاف والتنوع والتعدد في الفكر والثقافة حقيقة إنسانية ساطعة لا يمكن حجبها، وهي قيمة ثقافية عظيمة عندما تكون صيغة للتعايش والتواصل والتعارف بين المكونات والمجموعات البشرية المختلفة والمتنوعة، حيث يمكن لكل مجموعة بشرية أن تُعلّم وتتعلم من الأخرى ضمن ديناميكية الحوار والتبادل الثقافي، وهو ما يعدّ بحقّ مصدر إثراء وغنى ثقافي وحضاري واقتصادي واتصالي، الأمر الذي يخلق إبداعًا متجددًا وفاعلًا، تستطيع معه الجماعات البشرية الانطلاق إلى آفاق معرفية وفكرية وتواصلية مضطردة، ويؤدي إلى تسريع وتيرة التقدم والتطور الحضاري، بعكس الثقافات أو المجتمعات الرافضة لقيم التعدد والتنوع، حيث إن هذا الرفض ينعكس سلبًا على مستوى التقدم ووتيرة التطور فيها ويعيق مسارها الحضاري.

ومن الطبيعي أن تتعدد الأفكار والآراء الدينية والسياسية في مجتمعات الأمة الإسلامية، كأي مجتمع بشري آخر، كما يقول الشيخ الصفار، مشيرًا إلى أنه قد تعددت المذاهب الدينية والتيارات السياسية، في وقت مبكر من تاريخ الأمة، ويفترض في أمة تتلقى توجيهها من القرآن الكريم، أن تسود أجواءها حرية الفكر، وأن تتوفر بين أبنائها فرص الاطّلاع على الرأي الآخر، ضمن الدائرة الإسلامية في الدرجة الأولى.

لقد كان من أخلاق علماء الأمة السابقين، حرصهم على معرفة الرأي الآخر في المسائل المختلف فيها، تأكيدًا منهم على منهجية الانفتاح في ميدان العلم والمعرفة، فاهتم بعض

العلماء في التأليف والتصنيف حول مسائل الخلاف عرضًا ومقارنة، وأصبح ذلك لونًا من ألوان المعرفة والبحث في الثقافة الإسلامية، حيث صار من مقاييس قوة العالِم ومستوى معرفته، هو مدى إحاطته بمختلف الآراء وأدلة استنباطها.

لكن الشيخ الصفار يشعر بالأسف لانحسار هذه المنهجية في هذا الزمن لدى الكثيرين في الأوساط الدينية، التي ابتليت بداء الانغلاق الفكري، حيث ترفض مجرد الاطّلاع على الرأي الآخر ودراسته، وتعمل على محاصرته ومنع انتشاره. ففي المعاهد الدينية وكليات الشريعة، وفي مناهج التعليم، ووسائل الإعلام، وكتب الفتاوى، يعرض رأي واحد فقط، وتتجاهل بقية الآراء الإسلامية، وكأنها خارج دائرة الإسلام، بل ويتم تسفيه الرأي الآخر، وتشويهه، والتشكيك في نيّات أصحابه، ورميهم بالكفر أو الشرك أو الابتداع، مما أنتج جيلًا من أبناء الأمة يجهلون بعضهم بعضًا، وتتفشى بينهم الكراهية والتعصب.

إلا أن ما يخدم حركة العلم والمعرفة الإسلامية، ويساعد على تقدمها وتطويرها، هو إقرار حرية الفكر، ورفع الحواجز والعوائق عن انتشار الرأي، بالإضافة إلى أن التعارف والانفتاح المتبادل بين المذاهب والاتجاهات الإسلامية، هو الطريق إلى تحقيق وحدة الأمة، ورصّ صفوفها أمام الأخطار والتحديات الكبيرة.

إننا اليوم ونحن نعيش عصر العلم والانفتاح، وتطور وسائل الاتصالات والإعلام، يتساءل الشيخ الصفار متعجبًا: هل يصحّ أن ننغلق تجاه بعضنا بعضًا؟ وأن تنعدم وسائل التعارف والاتصال فيما بيننا؟[(١)]

القطيعة المعرفية

إن المشكلة التي تلبّد أجواء مجتمعاتنا وتعكر صفاءها، تتمثل في أن بعض الجماعات منا لا زالت تنزع إلى الانعزال والانطواء والانغلاق على الذات، أو أنها تشعر بالغرور والتعالي، وتدعي استغناءها عن الآخرين نتيجة تفردها واكتفائها الذاتي، إذ ليس لها حاجة

---

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ١٩

في التواصل والتعارف وتبادل المعارف مع الآخرين كلهم. ويعبر محمد فتحي عثمان في مقدمته لكتاب الشيخ الصفار **التعددية والحرية في الإسلام** عن هذا المرض بالقطيعة المعرفية عن الآخر ومعه بقوله: إنه «لما كان من (جهل شيئًا عاداه)، فإن اطّلاع كلّ صاحب رأي على الرأي الآخر في مصادره يقي مزالق النقل، وما يسود ويتواتر من مفتريات وأباطيل، والغريب أن يسعى المسلمون إلى (الحوار) مع كل صاحب دين للتعرف على وجهة النظر الأخرى في حين يغضون الطرف عن (الحوار) مع الرأي الآخر بين جماعة المسلمين والأخوة في العقيدة».[١]

وبناءً على هذا الرأي يمكن القول أن من أهم عوامل الصراع وسوء التفاهم بين أتباع المذاهب الإسلامية هو القطيعة المعرفية والجهل المتبادل، وعدم الانفتاح الفكري فيما بينهم، حتى على مستوى العلماء والقيادات، حيث يحتفظ كل طرف لنفسه بانطباع وموقف سلبي تجاه الطرف الآخر، دون أن يكلف نفسه عناء البحث والتأكد من صحة انطباعه وموقفه، وكأنه ليس مسؤولا أمام اللّه عن سوء ظنه بالآخرين وخطأ حكمه عليهم، أو غير مدرك لما ينتجه هذا الموقف الجاهلي من أخطار وتبعات على وحدة الأمة وتماسك صفوفها.

لذلك يحذّر الشيخ الصفار من أن هذا الجهل، وعدم الانفتاح بين المذاهب، هو الذي يتيح الفرصة للأعداء والمغرضين ليصطادوا في الماء العكر، ويشوهوا سمعة كل مذهب أمام المذاهب الأخرى، ويعبئوا كل طائفة تجاه الطوائف الأخرى. كما ينبّه الشيخ الصفار في الوقت ذاته من أن هناك إشكالًا عميقًا يكمن في مناهج الدراسة في الحوزات والجامعات والمعاهد الدينية، حيث تقتصر كل مؤسسة على تدريس اتجاه معين في العقائد والفقه والعلوم الدينية، متجاهلة سائر الاتجاهات والمذاهب، والأخطر من ذلك هو تعبئة الطلاب في كل معهد ديني ضد ما يخالف مذهبه ومنهجه عبر أسلوب التهريج والإسقاط والدعاية السوداء، فيتخرج طلاب العلوم الدينية بفكر منغلق وعقلية ضيقة جاهلين

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ٣٤

بالرأي الآخر منحازين بتعصب ضده.[١]

إن هذا التعصب المقيت لا تنمو جذوره إلا في أرضية الجهل والانغلاق، حيث تتأسس القناعات، وتُتخذ المواقف، بناءً على تصورات خاطئة، وتقويمات نمطية، ونظرات ناقصة، وفي أجواء انفعالية تعبوية، على حدّ وصف الشيخ الصفار، متهمًا قادة الاتجاهات التعصبية بالحرص على إبقاء أتباعهم في ظروف كهفية انطوائية، بعيدًا عن وسائل المعرفة الحرّة، وتأثيرات الرأي الآخر، ويصنعون حولهم سياجًا من المحرمات والمحظورات، فيفتون ويصرحون بأن الاطّلاع على كتب الآخرين حرام؛ لأنها كتب ضلال، ومخالطة المخالفين إثم باعتبارهم مبتدعة.

وأبعد من ذلك يجري ترويض عقول الأتباع وأفكارهم، لمنعها من الحركة والنشاط خارج سياق ما يلقنونهم إياه، حيث لا يحق الاعتراض، ولا يصح النقاش؛ لأن ذلك نوع من التمرد على الشرع، وتشكيك في النص المقدس، حيث تصبح اجتهادات بعض أعلام السلف، وقيادات هذه التوجهات، سقفًا لا يمكن تجاوزه، ولا مجال للعقل في مناقشتها، أو التفكير في بدائل لها.

العلاج المعرفي

وبمقدار ما تتسع رقعة ومساحة الجهل والانغلاق، يزداد إمكان نمو الاتجاهات التعصبية، لذلك فإن أفضل السبل لتضييق مساحة التخلف والجهل، يكون من خلال الإعلاء من قيمة المعرفة والثقافة، لتأخذ دورها في محاربة الجهل ونشر الوعي، فانتشار المعرفة وتوفر مصادرها المتنوعة، يشكل وقاية وحصانة لأبناء المجتمع من تأثير اتجاهات التعصب، ويساعد في إنجاح جهود المعالجة والخلاص من المرض، إلا أن فرض الحدود والقيود على النشاط المعرفي والثقافي، حين لا تتاح الفرصة في وسائل الإعلام، وحركة الإنتاج والنشر إلا لاتجاه أحادي، يعتبر عاملًا مساعدًا يصبّ في خدمة الموقف التعصبي.

---

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ٢٧٩

وللخروج من هذا النفق السوداوي المظلم والملبّد بالجهل، يراهن الشيخ الصفار على العلاج المعرفي، حيث لا بديل عن ضخ ثقافة إيجابية تدعو إلى التسامح واحترام حقوق الإنسان، وتركز على المشترك الديني والوطني، فقد تجاهل الخطاب الديني المعاصر في معظمه، طرح كثير من القيم والمفاهيم والآداب الإسلامية، التي تنظم العلاقة مع الآخر، والتعامل معه على أساس إنساني قويم، يمثل الأصل في رؤية الدين للإنسان، واهتمامه بحفظ حقوقه وكرامته، حيث بالغ هذا الخطاب في التركيز على أحكام وضعها الإسلام للحالات الاستثنائية في التعامل مع الآخر.

وعلى سبيل المثال، يشير الشيخ الصفار إلى مثل من أحكام الحالات الاستثنائية في التعامل مع الآخر بقوله: عندما يكون الآخر معتديًا يجب جهاده ومواجهته، لقوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ**﴾، وكما يقول تعالى أيضًا: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾. أما في الحالة الطبيعية، وحينما لا يكون هناك عدوان، فالعلاقة مع الآخر تأخذ مسارًا إيجابيًا قائمًا على الإنصاف والإحسان، حيث يقول تعالى: ﴿**لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾.

ومن هنا يستنتج الشيخ الصفار بأن البر والقسط هو الأصل في العلاقة والتعامل مع الآخر، أما المواجهة والعداء فهي ردّ فعل على عدوان الآخر إذا حصل، داعيًا إلى بعث مفاهيم الإسلام حول أصول التعامل الإنساني، وضوابط العلاقات الاجتماعية بين بني البشر، والتأكيد على نشر ثقافة حقوق الإنسان، وآداب التخاطب مع الناس.[١]

دكتاتورية الرأي الأوحد

من الطبيعي أن يعتقد كل إنسان بصحة ما يعتنقه من دين أو مذهب، لكن ذلك يجب

---

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ٨١

أن يتأسّس على الدراسة والبحث الموضوعي، فقد وهب اللّه تعالى للإنسان عقلًا يدرك به الحقائق، ويهتدي به إلى الصواب. والعقيدة لا ينبغي أن يأخذها الإنسان كموروث عائلي، أو كاستجابة لأعراف البيئة الاجتماعية، وإنما عليه أن يستخدم عقله بالشكل الصحيح، بعيدًا عن تأثيرات الأهواء والمصالح، وأن يعتمد على لغة الدليل والبرهان، فسبحانه وتعالى يقول: ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾.

فمتى ما أعليت مرجعية العقل، واعتمدت حجيّة البرهان، كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة، فإن على الإنسان المتدين أن لا يخشى من الانفتاح على مختلف الآراء، بل يدرسها ويمحصّها ليكتشف الأحسن والأقرب إلى الحقيقة والصواب، لقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾.

إن هذا هو مقتضى التدين الواعي، أما المصاب بمرض الغرور الديني، فعادة ما يرفض أي بحث أو نقاش، ويكتفي بادّعاء الأحقية المطلقة، فهو وحده على الحقّ، والآخرون كفار مبتدعون وفي ضلال مبين، وبذلك يخدع نفسه قبل أن يخدع الآخرين، سواء كان ذلك النقاش في أصل الدين، أو في قضية من قضاياه.(١)

عندما تتعدد الآراء وتتعارض الأقوال حول قضية معينة، حينها لا يمكن أن تكون كلها صحيحة صائبة، وإنما يمكن أن تتفاوت درجة الصحة في عدد من الآراء، يحمل كل منها نسبة معينة من الصواب. وإذا كان الإنسان يستهدف الحقيقة، ويسعى مخلصًا لإدراكها فإن عليه أن يبذل جهدًا كافيًا لتمحيص هذه الآراء المتعارضة، ودراسة الأقوال المختلفة، معتمدًا على عقله الذي حباه اللّه تعالى قدرة التمييز بين الصحيح والخطأ، بين الحق والباطل، بين الخير والشر، شريطة أن يعمل العقل بحرية واستقلال، بعيدًا عن تداخلات الأهواء، وضغوط المصالح والشهوات.

وهنا لا بد أن تفتح كل الملفات المتعلقة بالقضية أمام العقل، وأن لا يحجب عنه شيء من المعلومات والآراء الواردة، تمامًا كما يحرص القاضي النزيه على الاطّلاع على ملف أي

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ١٢٦

قضية ينظر فيها، بشكل كامل، وأن يسمع شهادات الشهود مباشرة، ويلتقي مع أطراف القضية مورد النزاع، ليحكم فيها بعد ذلك بعلم وثقة.

إلا أن المشكلة هنا، كما يشير الشيخ الصفار، أن الكثير من الناس يخونون عقولهم، بمنعها وحجبها عن الاطّلاع على الرأي الآخر، ومعرفة أدلته ومبرراته، مع احتمال أن يكون الرأي الآخر هو الحق، أو فيه نسبة من الحق، وذلك بسبب وجود بعض الدوافع الشهوانية والمصلحية، التي تشيع الغرور الزائف والثقة الساذجة بما لديه من رأي، أو ما يرغب فيه من موقف، فتصرفه عن البحث والتقصي.

والقرآن الكريم يحذِّر الإنسان من الاسترسال في ثقته الساذجة برأيه ونهجه، دون بحث موضوعي، فيصبح في مهاوي الضلال، وهو يتصور نفسه على أفضل عقيدة، وأصحّ طريق، لأن الإنسان بذلك السلوك يلحق بنفسه أفظع خسارة نتيجة غروره وتقصيره في البحث عن الحقيقة حيث يقول تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾، ويقول تعالى: ﴿**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا**﴾.

البحث عن حقيقة الرأي الآخر بالحوار معه

إن من أهم سبل البحث الموضوعي عن الحق والحقيقة، الانفتاح على الرأي الآخر ومحاورته، فالحوار له أكثر من قيمة ودور على الصعيد المعرفي، فالحوار يدفع الإنسان للمراجعة، وتفحص آرائه ومواقفه أثناء حواره مع الآخرين، ومواجهته لتساؤلاتهم ونقدهم، فيتأكد حينئذٍ من صحة رأيه، وثباته أمام الاعتراض، وقد يكتشف بعض الثغرات ونقاط الضعف في وجهة نظره من خلال الحوار، فيسعى لمعالجتها وتجاوزها، ليكون رأيه أكثر قوة وتماسكًا، وقد يتضح له خطأ رأيه، فيستنهض إرادته وعزمه للتخلي عنه واعتناق الصواب.

إن كثيرًا من الناس يعيشون الاسترسال مع آرائهم ومواقفهم، في حالة من الجمود

والركود، ويتصورونها مسلمات قطعية لا مجال فيها للأخذ والرد، بل ويستغربون من وجود رأي مخالف لها، فالقرآن الكريم ينقل عن المشركين استغرابهم من نفي رسول الله ﷺ لتعدد الآلهة، ودعوته لتوحيد الله تعالى: ﴿**أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**﴾.

يولي الشيخ الصفار موضوع الحوار أهمية كبرى لكونه يحرك راكد فكر الإنسان ويجدّد نشاطه وحركته المعرفية، كما يتيح له فرصة الاطّلاع على الرأي الآخر، بشكل مباشر وواضح، إلا أن المعضلة التي يعاني منها واقعنا، إنه دائمًا ما يصاحب الاختلافات الفكرية، صراعات ونزاعات، تؤدي إلى التعتيم على رأي كل طرف في ساحة الطرف الآخر، وتشويهه، وتحريفه، ونقله مبتورًا مضطربًا، لكن حينما يطّلع الإنسان على الرأي من منابعه، وينفتح على مصادره، ويناقش أصحابه مباشرة، تكون الرؤية أمامه أوضح وأجلى.

والشيخ الصفار يشعر بالأسف الشديد لما تعيشه وتمرّ به مجتمعاتنا من عجز وقصور، حيث تنعدم فيها مبادرات الحوار بين الأطراف المختلفة، فتصبح صورة كل طرف غير جلية أمام الطرف الآخر، ويعيش الناس في منطقة واحدة وبلد واحد، قريبين متجاورين بأبدانهم وأجسامهم، لكنهم على صعيد الآراء والتوجهات، يبدون وكأن مسافات شاسعة واسعة تفصل بينهم، وتحول دون تلاقيهم وتحاورهم، فتراهم يتحدثون عن آراء بعضهم بعضًا، وكأن كل طرف منهم ينتمي إلى عصر آخر، أو قارة أخرى.(١)

شروط الحوار وآدابه

إن للحوار مع الآخر شروطه وآدابه، فالاحترام المتبادل بين أطراف العملية الحوارية، يعني إبداؤها الترحيب ببعض، والمخاطبة باحترام، والإصغاء لكلام الآخر، وعدم مقاطعته، وعدم تجريح شخصيته، أو إهانة رموزه ومقدساته. وقد بلغ من آداب الوحي والنبوة في الحوار، كما ينقل الشيخ الصفار، أن النبي ﷺ، كان يخاطب الكفار بقوله: ﴿...

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ٣٣

وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، فنبي اللَّه مع ثقته ويقينه بدينه، يدعوهم إلى الحوار على أساس تساوي احتمال الصحة والخطأ بينه وبينهم، فحينما يقول عن جهته: **﴿لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾**، يقول عنهم: **﴿وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾**، ولم يقل (عما تجرمون)، إظهارًا للأدب، ومراعاة للاحترام.

إن هذه هي تعاليم الإسلام في التعامل والتخاطب مع المخالفين في الدين والسياسة، وخاصة في إطار الحوار والتفاوض، لكي يجري النقاش والبحث في جوٍّ من الاحترام المتبادل، لكن ما يثير أسى وحزن الشيخ الصفار، أن ما نراه في واقع كثير من الحوارات في مجتمعاتنا، على العكس من ذلك تمامًا، حيث تتبارى الأطراف في توجيه أقذع الاتهامات لبعضها بعضًا، وتتبادل أبشع الأوصاف، ففي الحوارات الدينية هنالك ابتذال في تكفير الآخر، واتهامه بالشرك والبدعة والفسق، وفي الحوارات السياسية تبادل الاتهامات بالخيانة والعمالة والإفساد والتخريب.

ومن أجل إنجاح أي عملية حوارية بين طرفين، والمساعدة على وصولها لأهدافها ومراميها، يشدد الشيخ الصفار على أهمية أن يبحث الطرفان عن نقاط الالتقاء بينهما، وموارد الاتفاق، ويبدآن من التأكيد عليها أولًا، ومن ثم الانطلاق منها لمناقشة قضايا الاختلاف؛ لأن ذلك يشكل الأرضية المناسبة للتقارب الفكري والنفسي، ويذّكر الطرفين بوجود قضية مشتركة، يمكنهما التفاهم والتعاون من أجلها، وإن اختلفا فيما عداها.

وهذا ما عرضه الرسول ﷺ على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، من خلال التأكيد على الأصول المشتركة للديانات الإلهية، والتعامل في ظلّها بسلام واحترام، حيث يقول تعالى: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾**، كما يأمر اللَّه تعالى المسلمين بأن يبدأ برنامج حوارهم مع اليهود والنصارى بالتأكيد على المشتركات ونقاط الالتقاء: **﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾**.

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا، ويشكل مصدر استغراب الشيخ الصفار، هو أنه إذا كنا مأمورين كمسلمين بالبحث عن نقاط الالتقاء مع أتباع الديانات الأخرى، فلماذا نرفض استكشاف موارد الالتقاء بيننا كأمة واحدة، وأتباع دين واحد؟ ولماذا يصرّ المذهبيون الطائفيون على اجترار مسائل الخلاف بين المذاهب الإسلامية، ويجعلون منها مبررًا للفرقة والانقسام، مع أنها محدودة جانبية، ويتجاهلون مساحات الاتفاق الواسعة بين كل المذاهب الإسلامية على أصول الإيمان وأركان الإسلام؟ ولماذا يبدأ الحوار دائمًا بين السنة والشيعة، على سبيل المثال، حول ما يختلف فيه الطرفان، دون تناول ما يتفقون عليه، والانطلاق منه كأرضية مشتركة، وإطار جامع؟[1]

إن الاختلاف في المنطلقات والرؤى وفي القناعات والآراء والمواقف بين أهل المذاهب الإسلامية، هو حقيقة تاريخية موضوعية، وهو حقيقة واقعية ما تزال قائمة، ولا يمكن نكرانها أو القفز فوقها، كما يلفت الى ذلك سعود المولى، موضحًا أن هذا الاختلاف التاريخي لم يعد اليوم اختلافًا في مناهج النظر العقلي والفقهي، ولا في الآراء الكلامية والفلسفية، بقدر ما أنه صار اختلافًا بين عصبيات وعشائر وأقاليم وطوائف،... والاختلاف بذاته ليس مشكلة؛ لأنه من لوازم الحياة التي أرادها الخالق لنا هكذا ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾[سورة الحجرات، الآية:١٣] ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾[سورة هود، الآيتان:١١٨-١١٩].. إنما المشكلة تكمن في عدم مراعاة حقوق الاختلاف وموجباته، وعدم معرفة كيفية إدارته، حفظًا للتنوع والتعدد، واحترامًا للحقوق، ودرءًا للانقسام، وصيانة للوجود، وإعمارًا للدنيا.[2]

ضرورة التواصل والتلاقي وكسر حالة القطيعة

حينما تتنوع فئات المجتمع وشرائحه، كما هي طبيعة كل مجتمع بشري، فإن التلاقي

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ٥٦

(٢) نحو حوار إسلامي إسلامي قبل الطوفان. سعود المولى. جريدة المستقبل اللبنانية، ٢٧ كانون الأول ٢٠١١م.

والتواصل بين هذه الفئات المتنوعة عرقيًا أو فكريًا أو سياسيًا، هو الحرف الأول من أبجدية تعايشها، وحفظ كيانها الاجتماعي، فالتواصل يحقق أُلفة النفوس، ويربط وشائج العواطف، ويصنع لغة العلاقة الإنسانية، المنبثقة من حالة فطرية تجذب الإنسان إلى أخيه الإنسان، وهذه الألفة والعلاقة العاطفية التي ينتجها التواصل، تعطّل أي مفعول سلبي لجهة الاختلاف والتنوع، وتبقيه ضمن حدوده الطبيعية المقبولة.

أما إذا انعدم التواصل بين فئة وأخرى، وحتى بين شخص وآخر، فإن الجفاء النفسي، والجفاف العاطفي، يصبح أرضية لنمو بذور التنافر والكراهية، لذلك اعتبر الحديث النبوي الشريف أن الألفة مع الآخرين مقياس لخيرية الإنسان، حيث روي عنه ﷺ أنه قال: (**خياركم أحسنكم أخلاقًا الذين يألفون ويؤلفون**)، وفي حديث آخر: (**رأس العقل بعد الإيمان باللّٰه عزّ وجلّ التحبّب إلى الناس**).

إن التلاقي بين الأطراف المختلفة، يوفّر فرصة الانفتاح الفكري بينها، حيث يتعرف كل طرف حقيقة وواقع الطرف الآخر، ويتحاور معه، ويتبادلان الرأي، فيكتشفان مساحات الاتفاق، ويحددان مناطق الاختلاف، مما يهيئ الأجواء المناسبة للوصول إلى صيغة تفاهم وتعامل، من أجل خدمة المصالح المشتركة، وإقرار السلم الاجتماعي.

وعلى العكس من ذلك، حينما تسود حالة القطيعة والتباعد بين الأطراف المختلفة، فتكون صورة كل طرف غير واضحة ودقيقة أمام الطرف الآخر، تشوّهها ظنون السوء، وخطأ المعلومات الواردة، والنقولات المغرضة، حينها يجد أعداء المجتمع فرصتهم لتعبئة كل جهة ضد الأخرى، والتأسيس لمشاريع الفتنة والنزاع والاحتراب، فمخططات الأعداء لتمزيق الأمة وتفريقها لا تأتي من فراغ، ولا تبدأ من الصفر، وإنما تبحث عن الثغرات والمنافذ، وتعمل على توسيع رقعتها، وتفعيل آثارها، لإشعال نار الفتنة والانقسام، إلا أن تواصل فئات المجتمع وتلاقيها، يجعل مهمة الأعداء في التفرقة صعبة عسيرة، بينما تكون سهلة ميسرة في حال القطيعة والتباعد.

وعلى الجانب الآخر من المسألة، فإن مصدر الفتنة والنزاع ليس خارجيًا دائمًا، بل قد

يكون باعثها قوى داخلية جاهلة أو مغرضة، تتيح فرصة الاستثمار الأجنبي، حيث تنمو داخل هذا الطرف أو ذاك، قوى تبحث عن دور ونفوذ، من خلال المزايدة، وإظهار البطولة، في الدفاع عن عقيدة الجماعة وهويتها، بإثبات الأفضلية والتفوق على الآخر، بالغلو في تمجيد الذات، والإمعان في النيل من الآخر وتحقيره، لذلك تنتعش هذه القوى المتطرفة في حال القطيعة والتباعد، بينما يتعذر عليها العمل والنجاح حين تتواصل الأطراف، وتتلاقى الجهات، وتتداخل المصالح.

فعندما يكون هناك خطوط اتصال وتواصل بين هذه الأطراف، ووشائج ارتباط، وتشابك مصالح، فإنها بالتأكيد ستقف بالمرصاد لكل من يسعى للوقيعة بينها، وتوقفه عند حدّه، وتمنع تصرفاته المسيئة وتردعه، كما أنها أيضًا ستقطع دابر الشرور والفتن من أساسها وجذورها قبل استفحالها وتناميها. أما في ظل القطيعة والتباعد، فإن القوى المتطرفة لدى الجهات المختلفة سيخلو لها الجو لتسرح وتمرح كيفما تشاء، وسوف تجد لها المبررات الكافية، والأجواء المشجعة، للتمادي في سلوكها وغيّها، عند ذاك يصبح الواعون المدركون في حرج من معارضتها ومخالفتها، كي لا يوصموا بالجبن والخذلان، وممالأة الأعداء.(١)

إن اللقاء والحوار والتعارف والفهم المتبادل لخلفياتنا الفكرية والثقافية من أهم عوامل وقاية جسم المجتمع من جراثيم الفرقة والنزاع، بتفعيل وتنشيط جهاز المناعة الذاتية، وهو أيضًا من أقوى وسائل حماية الوحدة والاستقرار الاجتماعي، «فواقعنا الإسلامي المعاصر يمرّ بأوضاع خطيرة تحتاج إلى مصارحة ومكاشفة، وإلى حوار صادق مخلص شفاف، قبل أن يجرفنا الطوفان، وكي لا نكون كمن يبكي على شيء كان بالإمكان تجنبه. لقد غرقت البلاد العربية والإسلامية خلال العقد المنصرم في بحر الظلمات، وكان سهلًا إذكاء روح العصبية المذهبية العشائرية المقيتة، وبث السموم الطائفية، واستخدام لغة التخوين والتكفير، وصولًا حتى إلى تشريع سفك الدم وقتل المخالف أو المعترض،.. ولقد عشنا عقدًا طائفيًا مذهبيًا دمويًا بامتياز، جرى فيه نبش وتوتير كل الأحقاد الدفينة،

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ١٤٥

وكل العصبيات الجاهلية، وكل العنعنات الضيقة والتحزبات الغرضية،... وذلك باسم الإسلام وباسم الانتماء إلى مذهب معين أو الدفاع عن تاريخ مضى ومضت معه ظروفه وشعاراته ورجاله.. ودفع الأفغان والعراقيون والباكستانيون ثمن هذه الطائفية المقيتة... كما بدأ اللبنانيون والسوريون يعيشون على حافة السقوط فيها بما ينذر بأشد الأخطار وبأفدح الأثمان... ما يستدعي وقفة حق وجرأة كلام...»[١].

---

(١) نحو حوار إسلامي إسلامي قبل الطوفان. سعود المولى. جريدة المستقبل اللبنانية، ٢٧ كانون الأول ٢٠١١م.

الفصل السادس

المسألة الطائفية والتدخلات الخارجية

أولًا:

الاستثمار الخارجي في الضعف الداخلي

عندما تعاني أمة من الأمم ضعفًا داخليًّا مزمنًا، وعدم قدرة على حلّ مشاكلها، ووضع الحلول لها، بل تزداد وتستفحل يومًا بعد يوم، فإن هذه الحال من التردي هي البيئة المناسبة التي تغري الآخرين وأصحاب الأيادي الخارجية على التسلل والتغلغل واحتلال أرضها واستغلالها والطمع في خيراتها وثرواتها، خصوصًا عندما تكون هذه الأرض زاخرة بالثروات الهائلة والإمكانات الضخمة.

إنه لمن الطبيعي في ظلّ حالة كهذه من الضعف والتردي تخيّم على أوضاعنا الداخلية، أن تتربص القوى الأجنبية بنا الدوائر، وتكيد لنا المؤامرات، من أجل الهيمنة على إرادتنا والسيطرة على أراضينا وثرواتنا، إلا أن السؤال: لماذا تتيح أمتنا الفرصة للإرادة الخارجية، للنفاذ إلى قلب نسيجنا الاجتماعي، والتلاعب بإرادتنا وإمكاناتنا وثرواتنا وخيراتنا؟

وعلى الرغم من حقيقة وجود مؤامرات الأعداء، وعدم الشك في خطط الاستكبار والاستعمار، إلا أن ذلك الاختراق لم يكن ليتحقق، كما يشرح الشيخ الصفار، لو لا وجود الأرضية الخصبة التي تتقبل تلك البذور السيئة، التي تمنحهم الفرصة لتحقيق مبتغاهم، مضيفًا أنه ما لم يكن هناك استعداد داخلي، فإن المؤامرات والخطط تفشل، لذا فمن الواجب التركيز على حلّ المشكلات الداخلية، وأن نكون على قدر كافٍ من الحصانة والاستعداد للتصدي ومواجهة الفتن، وعدم إتاحة الفرصة للأعداء للنفاذ من خلال نقاط ضعفنا والثغرات التي ترهق كاهلنا، فالمجتمع الصحيح من الأمراض والأسقام، الذي يملك

الوعي والنضج الروحي والثقافي، لا يجد هؤلاء الأعداء طريقًا ومنفذًا يعبرون منه لإلحاق الأذى أو الضرر به.

أما في حالة ما كانت جبهتنا الداخلية تعاني من الضعف والهوان والتشوه، وتنتشر فيها أمراض الطائفية، ويسودها الشحن والتعبئة الطائفية والمذهبية، من خلال رواج فتاوى التكفير وبيانات التشكيك والتجريح وخطب التحريض وإثارة الضغائن، التي تخلق أجواء التشنج والخصام والتباعد بين أبناء الأمة الواحدة، فإن هذه الأمراض، كما يؤكد الشيخ الصفار، هي الأرضية الخصبة الحاضنة لبذور الفتن التي تساعد الأعداء على تحقيق هدف تمزيق الأمة وإشغالها بخلافاتها؛ لأن «من مصلحتهم إشغال الأمة بالخلافات الداخلية، لإعاقة إرادة التنمية والتقدم، ولهدر طاقاتها وإمكاناتها، ولتوفير فرص النفوذ والهيمنة على الأمة».[١]

لماذا تنجح المؤامرات الخارجية؟

بلداننا تتعرض منذ زمن إلى مخططات خارجية مشبوهة، تسعى لضرب استقرارها والنيل من الوحدة الوطنية بين أبنائها، من خلال استغلال مناخ التوتر والاحتقان الطائفي والعرقي في بعض البلدان، بل هي في الحقيقة تعمل على تسعير هذه الأجواء المحتقنة بمزيد من الضخ في نار الفتنة لتبقى مشتعلة، حتى تتمكن من توظيف موضوع الأقليات والتنوع الطائفي، خدمة لأغراضها المعلومة والغير معلومة.

وما كان لهذه الفتن أن تنجح ويتّقد أوارها وتفعل فعلها في تمزق مجتمعاتنا وشعوبنا وأوطاننا لو لم تكن لها بذور، أو لو لم تتوفر لها الأرضية الخصبة لنموها، لذلك من المهم سدّ المنافذ والثغرات داخل ساحة الأمة، وتعطيل دور قابلية الاستجابة، من خلال نبذ الخلاف والفرقة وعقلية الاستحواذ والوصاية وفرض الرأي على الآخرين، والتعامل مع الواقع كما هو بدون إلغاء طرف لآخر، بل على الجميع التعاون في الأصول والمشتركات،

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٦

والسعي لتحقيق المصالح المشتركة، مع احتفاظ كل طرف بقناعاته ومتبنياته، مع العمل بشكل مشترك في بناء مجتمعاتنا وأوطاننا بعيدًا عن الانشغال بالخلافات المذهبية على حساب التنمية والتقدم العلمي والتكنولوجي.

ويتساءل الشيخ الصفار، إن كان يقبل منا الشرع أو العقل، أن نبقى منشغلين بخلافات أكل عليها الدهر وشرب، وأن نعطي الفرصة للأعداء ليشقوا صفوفنا من خلال هذه الخلافات، وليغزوا أوطاننا بشعار حماية هذه الأقلية المذهبية أو تلك، أو بمبرر الدفاع عن الحريات الدينية وحقوق الإنسان؟[١]

وعلى الرغم من أن هذا التنوع المذهبي ليس جديدًا وطارئًا، بل هو أمر قائم عريق في تاريخ الأمة، إلا أن جهات خارجية وداخلية تعزف على هذا الوتر الحسّاس، وتخلق أجواءً من التشنج والخصام، وتعمل على إثارة الصراعات المذهبية لمنع تلاحم قوى الأمة وتمزيقها، وإشغالها بخلافاتها وضرب بعضهم ببعض.

إن استمرار حالة التوتر والمشاحنات والعنف بين بعض فئات الأمة، لأيّ سبب كان، يتحول إلى عبء على الدولة التي تعاني من مثل هذه الحالة، عندما يتم تدويل المسألة في الخارج، وتتصدر التقارير الدولية كمؤشر على وجود اضطهاد وتمييز بين المواطنين، على أساس الدين والمذهب والعرق والجنس، وإلى غير ذلك من الأمور، التي باتت محلّ رصد ومراقبة الكثير من الدول والمنظمات المهتمة بحقوق الإنسان في عالم اليوم، مما يؤدي إلى أن تصبح هذه التقارير مصدرًا للتوظيف السياسي، وأداة للمساومة الخارجية، تدفع ثمنها الدول الضعيفة على حساب سيادتها وأمنها واستقرارها.

ودائمًا ما تجد الجهات الخارجية في سياسات التمييز بين مواطني بعض الدول، على أساس تنوعهم القومي والديني وغياب العدل والمساواة فيما بينهم، فرصتها للتدخل في شؤونها الداخلية والاستفادة من تلك الحالة في إثارة النزاعات وزرع الفتن بين فئاتها، خصوصًا عندما يكون هناك فئة غالبة وأخرى مضطهدة، وكما يقول الشيخ الصفار، أن هذه

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٨٢

الجهات الخارجية تعمل على «إثارة قلق الفئة الأولى، من إمكانية انتفاضة الفئة الأخرى، كما تغذي مشاعر الانتقام عند هذه الفئة المضطهدة، وتستثيرها للمطالبة بحقوقها، وتغريها بالدعم والحماية، تحت شعار حماية الأقليات، والدفاع عن حقوق الإنسان، وهكذا يستعر أوار الفتنة».(١)

وليس سرًّا القول إن الكثير من القوى الخارجية تعمل على تجنيد الكثير من العملاء والخبراء ومراكز الأبحاث لدراسة أوضاع الأقليات في شتى العالم العربي والإسلامي، وتقديم مختلف الدعم والمساعدة لها، لإثارتها وتحريضها على التمرد والانفصال، وإيجاد المبررات للتدخل في شؤون هذه الدول وقضاياها الداخلية، ودفع بعض فئاتها وطوائفها على التمرد والمطالبة بالانفصال، وإقامة كيانات خاصة، والهدف النهائي من كل ذلك هو تفتيت أوطاننا.

إن المرحلة التي تمر بها الأمة الإسلامية، كما يصفها الشيخ الصفار، ليست عادية ولا طبيعية، بل إنها مرحلة جدّ حسّاسة وخطيرة، حيث تتآمر وتتكاتف قوى الشرق والغرب لإجهاض صحوة الأمة، ولمنع تحرك الأمة باتجاه دينها واستقلالها وحريتها، والمستهدف الرئيس في تآمر الأعداء، هم طلائع الأمة والفئات العاملة لتوعية الأمة وقيادتها في معركتها المصيرية الحاسمة.

والأعداء، كما يضيف الشيخ الصفار، يسعون بكلّ قوة ونشاط لتصفية الحركات والنشاطات الثورية في الأمة، أو على الأقل، العمل على إضعافها وعزلها عن التفاعل مع جماهير الأمة، إلا أنه في مقابل توحّد الأعداء وتعاونهم على إثم ظلمنا والعدوان على استقلالنا وحرياتنا، رغم كل ما بينهم من اختلافات أيديولوجية وسياسية ومصلحية، هل يصحّ لنا نحن المتصدين للعمل في سبيل اللّه والذين تجمعنا رابطة الإيمان والجهاد أن نواجه عدونا المتوحد المتكاتف بصفوف ممزقة ورايات متصارعة؟

فمهما كانت أسباب الخلاف وموجباته فيما بيننا، فإن الخطر الذي يحدق بنا من

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٤

الأعداء يفرض علينا التعاون والاتحاد، وتأجيل الاختلافات الجانبية والتفصيلية حتى إشعار آخر، وإلا فوجودنا وديننا ومستقبلنا وأوطاننا كل ذلك مهدد بالفناء والدمار. إن المعركة والقتال يستوجبان التلاحم والتراص في مواجهة الأعداء، ولذلك يؤكد ربنا سبحانه على اتحاد المؤمنين وتكاتفهم في المعارك حتى يكونوا كالبنيان المرصوص.. ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ**﴾[سورة الصف، الآية:٤]. وإذا ما كان الأعداء متوحدين أمامنا، وكنا عاجزين عن تجاوز وتجميد خلافاتنا في مقابلهم، فإن الهزيمة الشنعاء هي المستقبل الذي ينتظرنا لا سمح اللّه.(١)

تصليب الوحدة الداخلية ورص الصفوف

عندما يكون النزاع والاحتراب الداخلي سببًا في ضياع الثروات والإمكانات والقدرات والطاقات، ويؤدي إلى توقف مسيرة التنمية، ويعطي الفرصة للقوى الأجنبية للتدخل والهيمنة على مقدرات أمتنا، وبسط النفوذ فيها، فكيف يمكن بعد كل ذلك جمع وتوحيد أبناء هذه الأمة، المتعددة الطوائف والمذاهب، على مشروع إنساني وحضاري واحد، يستهدف بناء مجتمع متماسك، ويحمل في مضمونه قيم التسامح ورسالة الحرية والعدل والكرامة لكل البشرية، ويبشرهم بها ويدعوهم إليها؟

يشير الشيخ الصفار إلى «أنه لا يمكن إنكار دور الأعداء في تمزيق الأمة، كما لا يجدي شجب ذلك الدور، وإنما المطلوب تعطيل دور القابلية للاستجابة لتلك المحاولات الخارجية داخل ساحة الأمة بمعالجة الأسباب وسدّ المنافذ والثغرات، لأن بقاءها مشرعة ستغري كل عدو بالتسلل من خلالها، أي وقت يشاء».(٢)

إنه لمن الطبيعي أن يسعى الأعداء للاستفادة من الثغرات ونقاط الضعف، وأن يبحثوا عن مختلف وسائل الضغط والتدخل في الشؤون الداخلية، طالما ظلت الجبهة الداخلية هشّة وقابلة للاختراق، وهو الأمر الذي يتطلّب تصليب الوحدة الوطنية، وسدّ الثغرات

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ١٦٥

(٢) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١١

التي ينفذ منها العدو، وليس تبادل الاتهامات التي تعمّق الهوّة بين أبناء الوطن.

يتفق الشيخ الصفار مع الرأي القائل أن الموقف في منطقتنا حسّاس، ويبعث على القلق، ويثير الخوف عند كل مسلم واعٍ ومواطن مخلص؛ لأن المشاريع الأجنبية للّهيمنة على المنطقة جدّ خطيرة، وأن الأعداء سيحركون كل أوراق الضغط، وسيعزفون على وتر الأقليات والصراعات الطائفية، إلا أن السؤال الملحّ الذي يتوقف عنده الشيخ الصفار هو كيف نواجه هذا التحدّي؟ وكيف نفوّت الفرصة على الأعداء؟

يعتقد الشيخ الصفار أن هناك **أمرين أساسيين** يجب الالتفات إليهما من أجل تفويت الفرصة على الأعداء، وهما: **أولًا**: معالجة الثغرات ونقاط الضعف، والجد في مسيرة الإصلاح والتطوير. **والثاني**: تصليب الوحدة الوطنية، وتجاوز آثار الصراعات المذهبية والتمييز الطائفي، بدلًا من إثارة الشكوك في ولاء هذه الجهة أو تلك؛ لأنه ينطلق عادة من الأوهام والظنون وأساليب التنميط والتعميم غير الموضوعية، ويقدم أفضل الخدمات للأعداء.[١]

إن القوى الخارجية، الطامعة في السيطرة على أراضينا وخيراتنا، لم تتوقف يومًا عن ممارسة المكائد من أجل الهيمنة على بلادنا وتقسيمها، وإعادة رسم خرائطها من جديد، فهي اليوم إذا كانت تتجنب ممارسة الاحتلال أو السيطرة المباشرة على أراضينا، إلا أنها في الحقيقة لا تفتأ تمارس دورها التخريبي عن طريق التفجير من الداخل، بديلًا عن العدوان عليها من الخارج، وذلك بإشعال الفتن الطائفية والمذهبية والعرقية بأيدي أبنائها ومواطنيها.

عندما تعجز الأطراف الخارجية عن تحقيق مآربها بالحروب والاحتلال المباشر، لا تنفك هذه الأطراف عن تحقيقها بطرق ووسائل أخرى، من خلال استخدامها لجهات متطرفة، تعمل بطريقة ربما لا يدركها هؤلاء، وذلك بزرع من يوجه أفكارهم وتطرفهم من داخلهم، والعمل على نشر الرعب وزعزعة استقرار المجتمعات من الداخل، مستغلة

(١) من كتاب المذهب والوطن. ص ٨١

مناخات التوتر، ليس بين أطياف المجتمع فقط، وإنما بين بعض أطياف المجتمع والدولة على خلفية تراكمات وقضايا مزمنة.

إن مواجهة مكائد الأعداء ومواجهة مؤامراتهم، وصدّ محاولات زرع الفتن الدينية والطائفية داخل أوطاننا، لن يتحقق، كما يقول ممدوح طه، إلا بإعلان دولة الحقّ والقانون، واحترام الدستور، وتأكيد الحريات والحقوق الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، لجميع المواطنين بغير تمييز، وبسيادة القانون، واحترام أحكام القضاء.

ويشدّد طه على أنه لا بدّ من إضاءة الأنوار لتبديد الظلام ومحاصرة التطرف الطائفي، ليس بإقصاء الدين عن دوره في توجيه الحياة، ولكن بملء الفراغ الديني لدى الشباب، بتمكين علماء الدين الكبار، من شرح صحيح الدين الداعي إلى الأخوة الإنسانية والعدالة والسلام، في المساجد والكنائس والمدارس والجامعات، وفي أجهزة الإعلام، وتأكيد حقيقة الأخوة بين الأنبياء والأديان، وبناء الوحدة الوطنية على أساس القواسم المشتركة.[1]

---

(١) مصر في مواجهة الإرهاب.. الكل في واحد. ممدوح طه. جريدة البيان الإماراتية، ٧/ ١/ ٢٠١١م.

ثانيا:

الإصلاح والتغيير بين الإرادة الذاتية والتوسل بالخارج

يمرّ العالم اليوم بتغيرات هائلة وسريعة على كافة المستويات والصُّعد، خصوصًا وأن مجتمعاتنا تتأثر أكثر من غيرها بتداعيات هذه التحولات العالمية، نتيجة لارتباطها الوثيق بحركة العولمة والاقتصاد العالمي، وحالة الاستهلاك المرتفعة الوتيرة، نتيجة الوفرة المالية التي وفرتها عائدات النفط، والفائض المالي الذي تسيل له اللعاب، حيث أصبحت أسواقنا مرتعًا لكل أنواع وأصناف السلع من جميع أرجاء المعمورة، هذا فضلًا عن القيمة الاستراتيجية والمعنوية التي تحتلها هذه المنطقة، التي تعاني من حالة عدم الاستقرار، نتيجة الحروب والصراعات المتوالية والمستمرة عليها، وتفاقم المشكلات الأمنية والسياسية فيها، نتيجة رسوخ نزعات الاستبداد والقمع والتهميش، وضيق هوامش الحريات المدنية والسياسية، وتدنّي مستويات التمثيل والمساءلة.

إن سوء الأوضاع الداخلية للأمة قد تفاقم إلى حدٍّ لا يقبل الإنكار والتبرير، كما يقول الشيخ الصفار، حيث تجاوزت آثاره ومضاعفاته حدود الأمة إلى المستوى الدولي، عبر ظاهرة الإرهاب العابر للقارات والمنتسب للإسلام والمسلمين، وعبر التجاوزات والانتهاكات لحقوق الإنسان، وتدني مستوى المشاركة الشعبية والحريات العامة، والتخلف العلمي والاقتصادي.

وقد تحول هذا الواقع المتخلف الذي تعيشه المجتمعات العربية والإسلامية إلى مصدر قلق وإزعاج على المستوى العالمي، لما يفرزه من بؤر توتر واضطراب، تتمثل في توجهات

العنف والإرهاب، وتيارات التعصب والتطرف، التي امتدت أنشطتها وممارستها الخطيرة إلى مختلف بقاع العالم، كأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م في أمريكا، وتفجيرات جزيرة بالي في إندونيسيا ٢٠٠٢م وتفجيرات قطار مدريد ٢٠٠٤م والتهديدات المستمرة في مختلف بلدان العالم.

إنه لمن المؤسف جدًّا أن تكون الأوضاع الداخلية لشعوب ودول الأمة الإسلامية، هي الساحة التي تتبارى مختلف القوى العالمية لإبداء الرأي حولها، وطرح المشاريع لتغيير واقعها، وصياغة مستقبلها، حيث دائمًا ما يجري الحديث عن إصلاح الشرق الأوسط والتدخل في شؤون دوله بشتى الحجج والطرق والوسائل، وبحجة عدم أهلية قادة هذه الدول لممارسة دور القيادة، أو لفقدانهم الشرعية.

ويثير الشيخ الصفار العديد من التساؤلات حول أهداف ومبررات هذه السياسات قائلا: لماذا يدور الحديث عن إصلاح أوضاع البلدان العربية والإسلامية، بينما لا يتحدث أحد في العالم عن إصلاح أوضاع اليابان أو الهند أو الدول الأوربية أو غيرها، فيما تنعقد المؤتمرات وتطرح المشاريع لإصلاح أوضاع البلاد الإسلامية، فهل يعني ذلك أن العالم يعتبرنا في حالة قصور ونقصان في الأهلية للاستقلال بشؤوننا، مما يستدعي رعاية الآخرين وتدخلهم؟

عندما يتعرض أي مجتمع أو يخضع لحالة غير سوية في إدارته السياسية والاجتماعية، كأن يسيطر عليه واقع من الظلم والفساد الذي لا يحتمل، فإن ذلك بالتأكيد يعطي المبررات والدوافع للجهات الأخرى، من مؤسسات دولية وقوى عالمية، لكي تتدخل في أوضاعه وشؤونه، بغض النظر عن نياتها ومقاصدها، فتبرر تدخلها بالدوافع الإنسانية، كمساعدة ذلك المجتمع على التحرر والخلاص من واقع الظلم والفساد، أو لدواعي حفظ المصالح الدولية وحماية الأمن والاستقرار العالمي، على أساس أن الوضع الشاذ في أي بلد من العالم، ينتج آثارًا سلبية على المستوى الدولي، ويضرّ بمصالح البلدان الأخرى.[1]

---

(١) من كتاب السياسة النبوية ودولة اللاعنف. ص ١٥

الإصلاح الذاتي

إن واقع التخلف المزري الذي تعيشه أمتنا لم يعد مقبولًا ولا مستساغًا، وهو مخالف لحركة البشرية نحو التطور والتقدم، ولا بديل لنا اليوم عن السعي لتحصيل ما يؤهلنا ويساعدنا على تغيير هذا الواقع، وإصلاح شؤوننا السياسية والثقافية والاجتماعية من داخل مجتمعاتنا وبإرادة ذاتية، من أجل تجاوز آثار تاريخ الاستبداد، ومواجهة الآراء المحافظة المتزمتة، والتأصيل لتوجهات الإصلاح والتطوير، بعيدًا عن كل أشكال التدخلات الخارجية، الإملاءات الاستعمارية، والوصاية الأجنبية.

إن هذه المعطيات تجعل من عملية الإصلاح الشامل ضرورة ملحّة، من خلال مراجعة مسيرة المراحل السابقة ووضع تصورات وخطط بديلة من أجل تنمية مجتمعاتنا والرقي بها إلى ما هو أفضل، حيث اختلف وعي الناس اليوم عما كان عليه في عقود سابقة، وازداد مستوى آمالها وتطلّعاتها، وهو ما يستوجب تحركًا سريعًا نحو الإصلاح الشامل، كما يقول الشيخ الصفار، حيث لم يعد التدرّج السلحفائي، وطريقة الخطوة خطوة أمرًا مقبولًا، فقد تأخرت الإصلاحات كثيرًا، وتقسيطها يفقدها المصداقية في وعي الناس، ويفتح الباب أمام التفسيرات المختلفة، وبأن الجدية ليست متوفرة للإصلاح.[١]

الرغبة في التغيير والتطلّع نحو الإصلاح هو أمر مشروع وفعل مباح، من خلال الاعتماد على الذات بعيدًا عن تعليق الآمال على الإرادات الخارجية والأجنبية أيًا كانت، لأن ذلك ليس من صالح شعوب المنطقة، كما يؤكد على ذلك الشيخ الصفار، بل من الأفضل لها أن تعمل على تطوير نفسها، وتحقق التغيير والإصلاح لنفسها، أما تعليق الآمال والرغبات والأحلام على قوى خارجية، فإن ذلك دليل عجز وفشل وضعف فينا، وينبغي لهذه الشعوب وللحكومات أن تتعاون وتستجيب لتطلعات شعوبها، حتى يكون التغيير داخليًّا وليس نتيجة ضغط أو تدخل خارجي.[٢]

---

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني. من حوار مع جريدة الأيام البحرينية.

(٢) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني. من حوار مع مراسل وكالة رويتر للإنباء.

ويحذّر الشيخ الصفار من تعليق الآمال على القوى الخارجية بقوله، إنه لا يمكن الوثوق بدعاوى الأمريكيين بأنهم يريدون نشر الديمقراطية والحرية في المنطقة، مضيفًا أن المواطنين الشيعة في المملكة يتمتعون بروح وطنية قوية، وولاء وطني عميق، ووعي بمعادلة الصراع الأمريكي الإسلامي، ولذلك فهم أوعى من أن ينخدعوا بتلويحات الأمريكيين أو أطروحاتهم، متابعًا كلامه بالقول إننا لسنا في وارد أي اتصال بالأمريكيين، فنحن جزء لا يتجزء من وطننا، ونرفض أي تدخل أجنبي، ونراهن على الوحدة الوطنية، وعلى معالجة مشاكلنا الداخلية بالتواصل مع المسؤولين في بلادنا. ونأمل أن نرتفع جميعًا إلي مستوى التحدّي الخطير، حكومة وشعبًا، لتفويت الفرصة على أي إرادة أجنبية، تريد العزف علي الوتر الطائفي والتلويح بالأوراق المذهبية، عبر سدّ الثغرات وتحقيق المساواة بين المواطنين والاستجابة للتطلعات المشروعة.[١]

وفي كتابه **المذهب والوطن** يكرِّر الشيخ الصفار رفضه للتدخلات الخارجية، أو المراهنة على الأمريكان في عملية الإصلاح الداخلي، بقوله «أعلنها بصوت واضح لكل المسلمين، ولكل أبناء المنطقة، بمختلف اتجاهاتهم، بأن المراهنة على الأمريكيين مراهنة على سراب، فالأمريكيون وهم يعلنون ذلك، إنما يريدون حماية مصالحهم، وهم في تحالف معلن مع إسرائيل، ويعلنون دعمهم ورضاهم وغطاءهم لكل الممارسات الصهيونية العدوانية، لذلك لا يمكن المراهنة على الأمريكيين، فهم لم يأتوا من أجل الديمقراطية وحماية حقوق الإنسان، ولن يأتوا من أجل حماية هذه الأقلية أو تلك الأقلية، وإنما يأتون من أجل مصالحهم، ولذلك أنا أحذر كل المسلمين وكل العرب وكل أبناء المنطقة بأن لا ينخدعوا بهذا السراب الأمريكي، وأوجه اللائمة أكثر لحكوماتنا لتبادر هي باستعادة شعوبها، وأن لا تترك الفرصة أمام المخططات الأمريكية، بل أن تكون هي صاحبة المبادرة في الإصلاح السياسي، ومعالجة المشكلات المطروحة. أما إذا بقيت الأمور في المنطقة العربية والإسلامية كما هي عليه، فهذا هو ما يخدم الأمريكان، والذي يتعامل مع الأمريكيين لا

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني. من حوار مع جريدة الأيام البحرينية.

ينفع الأمريكيين أكثر مما تنفع الأنظمة، حين تحافظ على الواقع كما هو، هذه الأنظمة إذا لم تبادر للإصلاح، وإذا لم تبادر للتغيير، فهي تخدم الأمريكيين أكثر مما يخدمهم هذا العميل أو ذاك المخدوع».[١]

قطع طريق التدخلات الخارجية وتفويت الفرصة عليها

إذا كان التوسّل بالأجنبي والاعتماد عليه في عملية الإصلاح والتغيير مرفوض وغير مقبول على الإطلاق، فإن التوسّل بالأساليب العنيفة لخدمة أهداف سياسية هو الآخر أمر غير مقبول ومرفوض أيضًا، ومن حق الدولة أن تتخذ الإجراءات الأمنية تجاه من يتوسل بالعنف والإرهاب لخدمة رأيه السياسي، فاستخدام العنف داخل المجتمع ليس مقبولًا أو مبررًا، لكن الإجراءات الأمنية وحدها لا تكفي لمحاصرة العنف والإرهاب، بل يجب معالجة الأزمات التي يعاني منها الناس وتشكل أرضية لهذه التوجهات، ومن أبرزها أزمة المشاركة السياسية والتعبير عن الرأي، فحين تتوفر فرص المشاركة والتعبير تكون هي الخيار لكل صاحب رأي سياسي.

والأسوأ من ذلك، أن تتخذ الإجراءات الأمنية القمعية تجاه أصحاب الرأي؛ لأنهم يعبرون عن رأيهم بطريقة سليمة، فهو يفاقم المشكلة ولا يحلها. ولا بد أن تدرك هذه الجهات التي تراهن على هذا النوع من الأساليب، أن هذه اللغة أصبحت قديمة، وقد استنفذت مفعولها ولم يعد العالم يسمح بممارستها بلا حدود.

والشيخ الصفار يعبر عن إيمانه أن التغيير والإصلاح في بلدنا لا يتم إلا من الداخل، ومن خلال التواصل مع المسؤولين، وأن الأجواء أصبحت مناسبة لتحقيق بعض التطلعات عن طريق الحوار والتواصل، وأنه آن الأوان أن يفكر الجميع ويتحرك ليس من منطلقات مذهبية وطائفية، بل من خلال قيمة المواطنة ومصلحة الوطن العليا، وعندما تقوم الدولة بحلّ ومعالجة بعض الإشكاليات والهموم الخاصة بتكوينات مذهبية، فإن ذلك ينطلق من

(١) من كتاب المذهب والوطن. ص ٨٤

أسباب وطنية يتيح قدرًا أكبر من الانسجام والاندماج الوطني، ويفوت الفرصة على أي مغرض وعلى أي جهة أجنبية للتدخل في الشؤون الداخلية للوطن واللعب بوحدة التراب الوطنية.[١]

وينبه الشيخ الصفار إلى أن ما تعيشه الأمة من ضعف عام وتخلف شامل، هو الذي يغري الآخرين بالاعتداء عليها، وهو الذي يثير أطماع الطامعين في الاستحواذ على خيراتها وثرواتها، فما تتعرض له الأمة الإسلامية من اعتداءات ومؤامرات من قبل الأعداء والمستكبرين هو أمر واضح، لكن مجرد التنديد بما يجري، والتحريض والتعبئة ضد الأعداء لا يكفي لمعالجة الوضع.

ويلفت الشيخ الصفار إلى أن هناك أُممًا أخرى تعرضت للعدوان والظلم، ووقعت تحت هيمنة المستعمرين والمستكبرين، وأصابتها الهزائم والنكسات، لكنها تجاوزت كل ذلك ببناء قدراتها وتنمية طاقات شعوبها، حتى أصبحت في مصاف الدول الكبرى. وهذا ما نلحظه لدى اليابانيين الذين تعرضوا لهزيمة نكراء في الحرب العالمية الثانية، وفرض عليهم الاستسلام بشروط مذلّة، لكنهم لم ينشغلوا بالبكاء على ظلامتهم، ولم يستهلكوا طاقتهم بالتعبئة والتحريض العاطفي ضد العدو، بل اتجهوا للبناء والتنمية وهم الآن في مواقعهم المتقدمة الواضحة.. وكذلك الحال بالنسبة لألمانيا. وأعداؤنا اليهود اليوم حجة علينا، فقد كانوا يعيشون منبوذين مهمشين في مختلف أنحاء العالم، لكنهم الآن يمتلكون وسائل قوة وتأثير عالمي بارز مكنتهم من ممارسة عدوانهم البشع على العرب والمسلمين.[٢]

أما بخصوص المواطنين الشيعة في هذا الوطن فقد أكد الشيخ الصفار أنه ليس لهم مشروع خاص بهم كطائفة، ونخبتهم المثقفة تتفق مع مثيلاتها على مستوى الوطن ككل في التطلع نحو إصلاحات شاملة من أجل حاضر الوطن ومستقبله، فأبناء هذا الوطن ملتزمون بالثوابت والقيم، ولن يحيدوا عنها، وتطوير أساليب الحكم، وتوسيع إطار

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني. من حوار مع جريدة الحياة.
(٢) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني. من حوار مع جريدة الشرق الأوسط.

المشاركة الشعبية، وضبط الإنفاق للمال العام، وحرية التعبير عن الرأي، واحترام حقوق الإنسان، والمساواة بين المواطنين، لا يتنافى شيء منها مع الثوابت الدينية، بل يعتبر استجابة صحيحة لها، وتطبيقًا سليمًا لمقاصدها.[١]

---

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني. من حوار مع جريدة الأيام البحرينية.

الفصل السابع

المسألة الطائفية والإصلاح الديني

أولًا:

نقد التراث وإعادة كتابة التاريخ من جديد

يسعى الشيخ الصفار دائمًا في خطابه الإصلاحي إلى تأصيل ما يتبناه من آراء، ويقوله من أفكار، ويناقشه من موضوعات، ويطرحه من رؤى، وينظِّر له من اجتهادات، ويمارسه من فعل وعمل، ويضطلع به من دور، وذلك في القضايا والهموم التي يشتغل أو اشتغل عليها خلال مسيرته الثقافية والفكرية والعملية، سواء كان ذلك في تأكيده على القيم الإيجابية وأهمية تعزيزها، أو في نقده للظواهر السلبية وكشف عيوبها، من خلال الرجوع إلى الشواهد والإثباتات، والاستناد إلى الدلائل المستقاة من القرآن والسنة، والعودة إلى الوقائع والشواهد التاريخية التي يستخرج منها الخلاصات والدلائل، لإثبات صحة ما يسير عليه من نهج ويتبعه من منهج.

وغالبًا لا تجد للشيخ الصفار من بحث أو مقالة أو كتاب أو خطاب أو حوار أو نقاش، إلا وتراه فيها يستشهد بالنصوص الدينية من الكتاب والسنة، إلى الاستشهاد بالسيرة النبوية، أو بسيرة الأئمة والأولياء والصالحين، واستدعاء الشواهد التراثية والتاريخية، حيث تجد كل هذه النصوص والشواهد حاضرة في ذهنه، وتتصدر أحاديثه، وتحضر في خطابه وخطاباته وعلى لسانه، بشكل بديهي غير متكلف، بل هي دائمًا ما تكون مصدر قوة في طرحه، وأكثر إقناعًا في خطابه، يزيده قوة ومتانة، في محاولة منه لإثبات صحة قناعاته، وتقديم الدليل والبرهان على ما يثبت صحة أقواله، ولإلقاء الحجة على غيره من مستمعيه ومحاوريه.

وفي شهادة له حول كتاب الشيخ الصفار «**التنوع والتعايش**» يشير منصور القطري إلى أن القارئ للكتاب يلمس درجة عالية من التكثيف في إقحام للآيات والروايات، مما يخلق شعورًا بالرؤية الشمولية لنظرة الإسلام في علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، ويجذر تلك الشمولية بأن الإسلام قانون وممارسة يومية، وقواعد للعلاقات العامة، ومصدر لفرز الأنماط المعاملاتية، حيث استفاد المؤلف من السيرة النبوية للرسول (ص) وآله الأطهار وصحابته الكرام.

ويضيف القطري أن المؤلف يتجول في واقع الأمة تاريخيًّا، ويضع من تلك الجولات أداة للمقارنة والتحليل، فيستل مواقف مضيئة من تاريخنا، كما يتوقف أحيانًا ليستنكف من حالات التنافر ومعارك الاحتراب الداخلي في مسيرة الأمة، ويركز على معضلة قائمة وهي أزمة الثقة المستشرية بين الطوائف والمذاهب الإسلامية، وتجعل أعداء الأمة يوظفون ذلك المرض الاجتماعي في إرباك الصفوف.

وعندما يعتمد الشيخ الصفار، كما يشير القطري، على التراث الروائي التاريخي والفكري، فإن الاعتمادية ليست مجرد دعوة إلى الماضي؛ لأن الاهتمام بالماضي نابع من الرغبة في فهم الحاضر وإضاءته، وقراءة الماضي لا تكتسب أهميتها إلا من كونها أداة لفرز أشكال التصورات عن نمط المعاملات والعبادات، وهي بالتأكيد لا تطمح إلى منافسة كتابات المؤرخين بقدر ما تهدف إلى تعامل منهجي مع تراثنا الروحي، ومن جانب آخر فهي تعكس تجربة المؤلف الميدانية في الحقل الاجتماعي، وتتجاذب مع تطلعاته وطموحاته في غد أفضل لأمته. وهناك حالة من الموضوعية في صدق مشاعر المؤلف ونبل رسالته التي يطمح في إيصالها، حتى تكاد تتفوق على مضمون ومحتوى ما كتبه.[١]

مرتكزات التأصيل عند الشيخ الصفار

إن هذا المسعى التأصيلي للخطاب عند الشيخ الصفار، وعملية الربط والوصل بين

---

(١) من كتاب التنوع والتعايش. ص ٢٠١

الحاضر والماضي، بين المعاصرة والتراث، بين الدين والدنيا، يقوم على **أربعة مرتكزات** كما يشرح هو ذلك، **الأول**: يتمثل في فهم مبادئ الدين وقيمه الأساس. **والثاني**: هو الاطّلاع على مصادر الفكر والتشريع الإسلامي، وهي الكتاب والسنة ومجريات التاريخ الإسلامي، لنستشف منها النماذج والتطبيقات. **والثالث**: يتمثل في القدرة الاجتهادية على الاستنباط في ميادين الفكر والفقه. أما المرتكز **الرابع**: فهو معرفة العصر وقضاياه التي يراد التأصيل لها.(١)

إن طبيعة الحياة المعاصرة والحديثة، بالإضافة إلى حالة التخلف والجمود التي تعيشها بعض مجتمعاتنا، جعلت من القيم والمبادئ الإسلامية مشوشة وغير واضحة بما فيه الكفاية، والحديث عن شدة وضوحها فيه كلام، كما يقول الشيخ الصفار، فقد مرّت على أمتنا عهود اختلطت فيها الأوراق، واختلطت الأولويات، فأصبحت بعض القضايا الفرعية في أذهان البعض وكأنها هي المبادئ، وغابت بعض المبادئ، فليس صحيحًا أن المبادئ واضحة أمام الناس، وأيضًا قضايا العصر ليست واضحة بتلك الدرجة من الوضوح.

ويعيد الشيخ الصفار التأكيد على أنه ليس هناك وضوح، فما زالت المسألة تحتاج إلى استيضاح أكثر عند قطاع لا بأس به من المثقفين والعلماء، وتجاوز هذا الموضوع إنما يتم بإعادة قراءة الفكر الإسلامي، وإعادة قراءة الفقه الإسلامي من العارفين والمختصين بعد اطّلاعهم على تطورات العلم وقضايا العصر.(٢)

إن مشكلة التشوش والضبابية وعدم الوضوح التي يعيشها الإنسان المسلم اليوم في بعض مجتمعاتنا، لربما تعود إلى الخلفية الثقافية المتكلسة التي تكبلها وتقيدها، فتجعل من حاضرها مأسورًا لماضيها، ومقيدًا ومشدودًا للخلف، فتهرب من حاضرها لتجد في الغابر من تاريخها الدفء والحنين، حيث تاريخ الأمجاد والبطولات والانتصارات والتفوق، وأنه هو المثال والنموذج الذي يحتذى وتحلم بإعادته وتكراره، فتعلي من موروثها الثقافي

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع شبكة الرفيعة الثقافية.

(٢) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع شبكة الرفيعة الثقافية.

وتعيش فيه، وتضخمه بشكل مبالغ، لعدم قدرتها على مواجهة استحقاقات الحاضر وتحدياته وشروط العيش والتعايش معه، أو تبريرًا لعجزها عن المساهمة في إنتاج حاضر مختلف وبديل، يتجاوز ما تعانيه من تأخر وعجز واتكالية.

إن هذا العجز الذي نعانيه في حاضرنا يجعل من التاريخ والتراث ملجأً نلوذ به من قسوة الشعور بالنقص والإحساس بالقصور والدونية واحتقار الذات، مما يدفعنا إلى الاستئناس بالماضي والرجوع إلى المخزون التاريخي والموروث التراثي، بحثًا واكتشافًا عما يسدّ عورات الحاضر، أو تبريرًا للكثير من النواقص والحوادث والتجاوزات، وسعيًا إلى إسقاط حوادث التاريخ على البيئة الحاضرة والواقع المعيش والحياة المعاصرة بشكل انتقائي وتبريري مجتزأ ومنقوص.

إنه لمن الصعب إلغاء الماضي وتجاوزه، بل هو من المستحيل وغير المعقول، إلا أنه من الضروري لمن يعود للماضي وتراثه أن يمتلك المؤهلات الفكرية والثقافية والمهارات والآليات التحليلية المنطقية لتفسير وقائع الماضي وتطوراته وتحولاته وتغيراته، كما القدرة على تتبع مساراته واتجاهاته التي أوصلتنا إلى ما نحن عليه اليوم، والشيخ الصفار يجزم بأننا اليوم لدينا القدرة والاستطاعة للاستفادة من الموروث الثقافي في **مجالين اثنين**، وهما:

الأول: هو **النص الشرعي**، بعد أن نتأكد من ورود النص، وخاصة في مجال السنة، فالقرآن الكريم قطعي الصدور، لكن بالنسبة للسنة ينبغي أن نتأكد من ورود النص. أما **المجال الثاني**: فهو كيف نفهم هذا النص، فإذا استطعنا أن نستفيد من النص الشرعي، بعد أن نتحقق من وروده، وبعد أن نجتهد في فهم معناه، فيمكننا أن ننظر إلى الواقع من خلال ذلك النص.

ويضيف الشيخ الصفار إلى ذلك إمكانية العودة إلى التاريخ الإسلامي والسيرة الإسلامية، وخاصة للقيادات الدينية، وللجمهور المسلم، حيث يمكننا من خلال قراءة التاريخ، وقراءة سيرة النبي ﷺ، وقراءة سيرة الأئمة عليهم السلام، استشفاف الكثير من التطبيقات والتجسيدات للمفاهيم التي وردت في النصوص، كما أن حياة الجمهور المسلم في العهود

الماضية تمكننا من فهم بعض المصطلحات.

ويتابع الشيخ الصفار شرحه موضحًا أنه حينما يأتي في نص من النصوص، الحديث عن قضية من القضايا، ونجد أنه في ذلك الوقت الجمهور المسلم كان يتعامل بهذا الشكل، ندرك أن هذا النص كان يتحدث عن هذه الحالة بهذه الحدود وبهذه المعالم، فيمكننا أن ندرس النص وأن ندرس سياق التاريخ أو الموارد التاريخية ونأخذ منها إسقاطات على واقعنا الحاضر، لكن يحصل في بعض الأحيان أن يكون هناك تكلف، والتكلف في الإسقاط يدلّ على أن الإنسان سلفًا لديه رأي يريد أن يجعل له غطاءً أو تبريرًا شرعيًا، وهذه طريقة خاطئة، يقودنا النص ولا نقود النص، ونتعسف في تفسيره وفي تطبيقه على الآراء والأفكار التي نرغب أن نطرحها باسم النص. على أن تفسير وتأويل أي فقيه للنص ليس ملزمًا للفقهاء الآخرين، بل عليهم أن يعملوا اجتهادهم، وآراء الفقهاء السابقين ليست سقفًا للفقهاء المعاصرين، اللَّهم إلا حينما تصل إلى مستوى الإجماع الذي يكون حجة، وفي مدرسة أهل البيت عليهم السلام لا يتأتى هذا في كل مورد.[١]

وبهذا المعنى يبيِّن الشيخ الصفار أن المسلمين يعتمدون في أمور دينهم العقائدية والفقهية على مصدرين أساسيين، هما كتاب اللَّه وسنة رسوله، لكن وسيلة الفهم وأداة المعرفة من هذين المصدرين هو إعمال العقل واستخدام الفكر، وهو ما يفتح باب الاجتهاد ويفسح المجال أمام تعدد الآراء واختلاف الاستنتاجات، حيث حصل مثل هذا الاختلاف في الاستنتاج من النص الشرعي في زمن الرسول وأمام ناظريه ولم يعترض عليه، لكونه أمرًا طبيعي الحدوث.

ويضيف الشيخ الصفار إلى أنه حدث اختلاف في ضبط نصوص السنة النبوية المطهرة وقبولها على مدى التاريخ الإسلامي، وحتى بين الصحابة أنفسهم، وفي ظل وجود الرسول صلى الله عليه وآله، فقد يطّلع صحابي أو تابعي أو فقيه على حديث نبوي فيأخذ به، بينما لا يطّلع عليه الآخرون، وقد يختلف الموقف من أحد الرواة، بين من يوثقه فيعمل بحديثه، وبين من

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع شبكة الرفيعة الثقافية.

يرى عدم وثاقته، بالإضافة إلى ذلك لا يستبعد تأثير الظروف الاجتماعية والسياسية على تكوين الآراء وتبنيها وانتشارها.

لهذه الأسباب كما لغيرها من أسباب، يفسّر الشيخ الصفار أسباب وجذور حالة التنوع والتعدد في واقع الأمة، حيث تنوعت المدارس الفكرية والمذاهب الفقيه في الأمة الإسلامية، ففي مجال العقائد ظهرت المدرسة الجبرية والقدرية، ومدرسة المعتزلة والأشاعرة والمرجئة والماتريدية. أما في المجال الفقهي فقد كان هناك مدرسة أهل الحديث، ومركزها الحجاز، ومدرسة أهل الرأي، ومركزها العراق، ثم تعددت المذاهب الفقهية وتنوعت ضمن التوجهات المختلفة لعلماء الأمة، فهناك مذاهب أهل السنة، ومذاهب الشيعة، ومذاهب الخوارج.

إن بذور التعددية المذهبية قد غرست مبكرًا في أرضية الأمة، والاختلاف الفكري بدأ باكرًا في حياة المسلمين، بيد أن التنوع الفقهي والفكري لم يكن ملازمًا للخلاف والفرقة، بل كان في مراحله الأولى، وفي فترات مشرقة من حياة الأمة، ميدانًا لتلاقح الأفكار، وإثراء الفكر والفقه الإسلامي، وكان التعاطي والتعامل فيما بين الصحابة عند اختلافهم في المسائل، وفيما بين أئمة المذاهب، يتم بموضوعية وسعة صدر، فإما يخضع للرأي الآخر ويتنازل عن رأيه، حينما تتضح له الحجة والصواب، وإما أن يتمسك برأيه، مع تقدير لمخالفه واحترام رأيه، وهو الأمر الذي أدى إلى تراكم ثروة فكرية وفقهية واسعة، بسبب هذا التعدد في المدارس والتيارات الفقهية والفكرية.

خلاصة القول الذي ينتهي إليه الشيخ الصفار أن التعدد والتنوع في المدارس الفكرية والفقهية، واختلاف آراء العلماء والفقهاء، هو نتيجة طبيعية لمبدأ الاجتهاد في معرفة مفاهيم الدين وأحكامه، وإذا كان الاجتهاد مطلوبًا، بل ومفروضًا، حيث يرى أغلب علماء الأمة أنه فرض وواجب كفائي على المسلمين في كل زمان ومكان، فإن نتائجه لا بد وأن تكون مقبولة على أساس احترام التعددية والتنوع في الآراء والمذاهب.[١]

---

(١) من كتاب التنوع والتعايش. ص ١٣٦

الحاضر وأعباء صراعات الماضي

ومع ذلك فقد شهد تاريخنا الإسلامي الطويل الكثير من المعارك والنزاعات الفكرية والمذهبية، كما يلفت الشيخ الصفار، نتيجة الاختلاف في فهم النصوص ومعانيها ودلالاتها وتعدد الاجتهادات والآراء والأفكار حولها، والتعسف في تفسيرها وتأويلها، وفي طريق تطبيقها، مما أحدث شروخًا في السلم المجتمعي وأوجدت نوعًا من الاحتراب الأهلي، حيث كان العامل السياسي وراء قسم كبير منها، عندما كانت بعض القوى الداخلية والخارجية، تغذي هذه الصراعات وتدفع باتجاهها، لإشغال الأمة عن قضاياها الأساسية، ولاستنزاف قواها فيما بين أطرافها، حتى لا يتحدوا مقابل تلك القوى المهيمنة أو الراغبة في التسلط.[١]

عندما تنتشر في مجتمعاتنا الإسلامية النزاعات ويسودها الاحتراب الداخلي وتعيش في الآن ذاته حالة الركود والتجمد والتكلس، فإن ذلك بالتأكيد يؤدي إلى إنهاكها وضمور طاقاتها وإمكاناتها وضعف قدرتها على الإنتاج والإبداع، وهو الأمر الذي بدوره يؤدي إلى انحراف الوعي الديني إلى نمط من التدين البدائي الذي يقوم على الغلظة ورفض الآخر واستباحة وجوده، وكلما تكرس الجمود بفعل عامل الزمن ومرور الوقت وتباطؤ الحركة، فإن الأوضاع ستصل في نهاية المطاف إلى الجمود والركود الشامل، وتبرز في الأجواء مظاهر الإعياء والتعب، ولا تلبث مظاهر العنف الكامنة بالتحرك والانفجار، متلبسة أردية الطائفية والقبلية والمذهبية.

إلا أن الأمة اليوم، حسبما يرى الشيخ الصفار، لم تصل إلى هذه الدرجة من الجمود والتكلس، وقد تعافت وتجاوزت الكثير من جراحات وخصومات الماضي الفكرية والمذهبية، من التي أصابت كيانها في غابر التاريخ، كالصراع بين الجبرية والقدرية، وبين المرجئة ومخالفيهم، وبين الأشاعرة والمعتزلة، وما نتج عنها من نزاع حول خلق القرآن أو قدمه، وكذلك النزاعات بين المذاهب الفقهية، كالخلاف بين الأحناف والشافعية، وبين

---

(١) من كتاب السلفيون والشيعة نحو علاقة أفضل.

الحنابلة والأحناف، وبين الشافعية والحنابلة.

ويضيف الشيخ الصفار أن هذه الصراعات التي كانت حادة في قرون سابقة، قد تجاوزتها الأمة، وأصبحت مجرد حوادث وذكريات في التاريخ وآراء ومسائل في الكتب، لها بعض الآثار الفكرية والاجتماعية في الامتدادات الحاضرة لتلك المذاهب والمدارس، لكنها لا تشكل الآن فرزًا حادًّا ولا خلافًا متشنجًا. إلا أن ما يؤسف عليه، أن الخلاف السني الشيعي، بقي إلى اليوم كأوسع ثغرة في وحدة الأمة الإسلامية، تنفذ منه رياح الفتن، وتتسلل من خلاله مطامع الأعداء ومؤامراتهم.(١)

إن وجود تاريخ مليء بالثغرات التي تنفذ منها رياح الفتن، ومثقل بالمعارك والمشاحنات والنزاعات والصراعات والاحتراب الطائفي والمذهبي بين أبنائه، ومتضخم بالاختلافات والخلافات والتباينات الفكرية والعقدية فيما بين علماء وفقهاء السلف، من الذين عاشوا في تلك الفترات والحقب الماضية من الزمن، لا ينبغي أن يكون ثقله وعيوبه سيفًا مسلطًا على الحاضر، من خلال العودة إليه واستدعائه واستجلابه، واتخاذه معيارًا يتكأ عليه في تقييم الحاضر وتفسيره وتحليل تطوراته وتحولاته، فمهما كانت الظروف السياسية الصعبة والحرجة التي تعيشها الأمة في الزمن المعاصر، فإن المسؤولية تقتضي الالتزام بالقيم والمبادئ الثابتة في الدين ومواجهة التحديات الحديثة بعقلية معاصرة من دون الخضوع والاستسلام لصراعات الماضي.

مراجعة التراث وتجديده

إن مسألة التراث وحوادثه وصراعاته، وما يمكن أن تحدثه من انعكاسات على طبيعة العلاقة بين سائر أطراف الأمة وجهاتها، تستدعي المراجعة وإعادة النظر، فالموقف من الآخر ورأيه واجتهاده، قضية تستحق إعادة النظر والمراجعة، حكمًا وموضوعًا، كما تحدث الشيخ الصفار مضيفًا، إن المرجعية الثابتة هي الكتاب والسنة، أما آراء فقهاء السلف

(١) من كتاب السلفيون والشيعة نحو علاقة أفضل.

كالشيخ ابن تيمية وغيره، فهي مع الاحترام لهم، اجتهادات قابلة للأخذ والردّ، ولعل المراجعة المباشرة لنصوص الكتاب والسنة، من قبل العلماء والفضلاء السلفيين المعاصرين، تفتح أفقًا جديدًا في تغيير وتعديل هذا الموقف الصارم من الرأي الآخر.

هذا على مستوى الحكم، كما يوضح الشيخ الصفار، أما على مستوى الموضوع فيضيف شارحًا، إنه بناءً على أن الحكم على الشيء فرع تصوره، فإن أحكام العلماء السلفيين السابقين على الطوائف والاتجاهات الأخرى، ومن بينها الشيعة، جاءت نتيجة تصوراتهم وتقويماتهم لواقع تلك الطوائف، واحتمال الخلل في تلك التصورات والتقويمات أمر وارد، إما لعدم الدقة في معرفة الطوائف الأخرى، أو للالتباس في فهم آرائها، أو لأخذ بعض الآراء وتعميمها على الجميع، وقد تكون هناك آراء وتوجهات سائدة لديهم في تلك العصور، لكنها تطورت وتغيرت فيما بعد، كل هذه الاحتمالات ينبغي أن تدفع المعاصرين من السلفيين، لقراءة واقع الشيعة القائم اليوم في آرائهم وتوجهاتهم.(١)

لذلك فإن مسألة التراث ومراجعته وإعادة النظر فيه قضية مهمة وتستحق بذل الجهد والتعب، فإعادة كتابة التاريخ أمر مطلوب ولا يمكن التنازل عنه، كما يتحدث الشيخ الصفار، لكن من دون إغفال الأسلوب الذي قد تتم به هذه الإعادة، فإذا تم بطريقة تعتمد التهريج والإثارة والإساءة لهذه الفئة أو تلك، واستخدمت الكلمات الجارحة والتعبئة غير الموضوعية، فإن هذه الأمور ستتسبب في إشكاليات ومشاكل نحن في غنى عنها.

أما إذا تمت عملية المراجعة من خلال الدراسة الموضوعية الهادئة الهادفة، التي تعتمد الدليل والبرهان والمنطق، فإن مثل هذه الدراسات لن تحدث مشكلة أو تتسبب في فتنة؛ لأن الفتنة إنما تأتي عن طريق إثارة التهريج والإساءة إلى الطرف الآخر، وتوظيف إعادة كتابة التاريخ في النيل من هذه الجهة أو تلك الجهة، أما الكتابة العلمية الموضوعية، فالشيخ الصفار لا يرى فيها إشكالا أو مشكلة، بيد أنه لا ينبغي أن تكون على حساب قضايانا الواقعية والمعاصرة، بمعنى أن لا نستغرق في أمور التاريخ على حساب الواقع المعيش،

---

(١) من كتاب السلفيون والشيعة نحو علاقة أفضل.

ويجب أخذ هذه القضية بعين الاعتبار.[١]

إذا كان هناك ما هو إيجابي في تراث الأمة، الذي فيه الكثير من كنوز الخير ومنابع القوة، ويمكن للمسلمين إذا ما أخذوا به، أن يحققوا الإنجازات الطيبة لأنفسهم وللبشرية جمعاء، فإن هناك أيضًا في هذا التراث الضخم جوانب سلبية عديدة، تعبر عن أداء بشري يعكس نتيجة فهمه للنص الشرعي الثابت وتفسيره، أو نظرته لأحداث التاريخ ووقائعه، وخاصة فيما يرتبط بالموقف من الآخر المختلف دينيًّا أو مذهبيًّا أو سياسيًّا.

لقد تراكمت عند المسلمين سنة وشيعة، آراء عقدية وفقهية وتاريخية، تجاه بعضهم بعضًا، ناتجة إما من نصوص غير معلومة الصحة والثبوت، أو من فهم غير سليم ودقيق للنص، أو من وحي النزاعات والصراعات عبر أدوار التاريخ، التي تلقي بظلالها على أفكار وثقافة المتنازعين. وإذا ما أراد كل طرف محاسبة الطرف الآخر على كل ما في تراثه من طروحات وممارسات مواقف سلبية تجاهه، فسوف يطول الحساب بين الطرفين، وستحتاج القضية إلى سنوات طويلة.

ويرى الشيخ الصفار أنه من الأهمية بمكان أن يتنقل السجال والحديث بين الطرفين من سجال حول الماضي إلى حوار ضمن إطار المستقبل، وما ينبغي أن يكون، وليس حول الماضي وما كتبه ذلك العالم، أو أفتى به ذلك الفقيه، أو تحدثت عنه تلك الروايات، وكيف يجب أن تكون نظرة كل طرف إلى الآخر اليوم والآن؟ وليس ما أنتجته الفترة السابقة، من أحاديث تضمنتها كتب الفريقين، وفتاوى لعلمائهم الماضين، بالإضافة إلى الحوار عما هو المشترك الذي يجمع الطرفين الآن، من خلال رؤية واجتهاد معاصر، وليس على أساس التبعية والتقليد للسلف؟ وهل هناك مصلحة دينية ودنيوية واحدة يتلاقى الطرفان من أجل خدمتها أم لا؟[٢]

يقول الدكتور محمد فتحي عثمان في تقديمه لكتاب الشيخ الصفار «**التعددية والحرية**

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع موقع المعصومين الأربعة عشر.
(٢) من كتاب رؤية حول السجال المذهبي. ص ٣٣

في الإسلام»، إن تاريخنا وتراثنا خلفه بشر غير معصومين، ولا بد من تبيين قصور الماضي لنتجنبه في عملنا في الحاضر، وتخطيطنا للمستقبل، على أن غض البصر عن الأخطاء، والنظر إلى تاريخنا وتراثنا على أنهما غاية المراد، من شأنه إحداث التشويش والاضطراب بالنسبة لفهم الماضي والعمل في الحاضر والتخطيط للمستقبل سواء بسواء.(١)

إن كتب التراث الإسلامي، بكل ما فيها من غثّ وسمين، هي نتاج عقول الذين عاشوا تلك الفترات التاريخية من الزمن، وهي تعبر عن آراء أصحابها، وتعكس ما كان يعيشه زمانهم من حراك ديني وثقافي واجتماعي، وصراعات سياسية ومذهبية، انعكست في كتاباتهم على شكل خلافات وتشنجات مذهبي، صاحبها الكثير من التجاوزات والإساءات المتبادلة والمبتذلة، حيث شكلت انحرافًا عن تعاليم الدين وقيمه وآدابه.

والشيخ الصفار يدعو إلى أن نقرر تجاوز ذاك الجانب المظلم السلبي من تراثنا سنة وشيعة، ونركز على الجانب المضيء والإيجابي منه، الذي يساعدنا على إصلاح أمورنا، ومعالجة مشاكلنا، وتدعيم وحدتنا وألفتنا. ومقولات التجريح والطعن والسبّ والشتم، لا تقتصر على بعض كتب تراث فئة دون أخرى، بل تراها موجودة في بعض كتب تراث كل الطوائف، إلا أن السؤال الذي يثيره الشيخ الصفار بإلحاح هو لماذا نكون أسارى لكتب التراث؟ ولماذا يحاكم بعضنا بعضًا على ما ورد في كتب أسلافه؟ وهل نعيش آثار هذه المعارك الموجودة فيها؟ ونتخذ المواقف من بعضنا البعض على أساسها؟(٢)

إن التراث الإسلامي لمختلف المذاهب الإسلامية بحاجة إلى **أمرين**، كما يقول الشيخ الصفار، **الأمر الأول: التحقيق والغربلة**، ذلك لأن في عصور التخلف، وفي عصور التاريخ الماضي، حصل هناك دسّ وتشويه في هذا التراث، ولو قرأنا الروايات الواردة عن أهل البيت ﵈، كالإمام الصادق، والإمام الكاظم، والإمام الرضا، وسائر الأئمة، لرأيناهم يتحدثون كيف أن المفوضة والغلاة والمبتدعة أدخلوا في أحاديثهم أشياء كثيرة، وتقوَّلوا

---

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ٣١

(٢) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع موقع إيلاف الالكتروني.

عليهم أشياء لم يقولوها، فأصبح عندنا دسّ وتشويه وافتعال، وهذا ما حصل حتى في أحاديث رسول اللَّه ﷺ، حيث قال: **(ستكثر عليّ الكذابة)**.

أما فيما يرتبط بالتاريخ، فيؤكد الشيخ الصفار أن هناك الكثير من التحريف والتزييف في قضايا التاريخ، ويحتاج إلى دراسة وتحقيق، حتى يمكن إزالة هذا الركام، وهذا الغبار المتراكم عبر عصور التخلف، من الزيف والتحريف الذي لحق بتراثنا، ولحق بتاريخنا.

والأمر الثاني الذي يحتاجه هذا التراث، كما يرى الشيخ الصفار، هو **طريقة تقديمه،** والتجديد في صياغته، وتحديث أسلوبه بما يتلاءم وتطورات العصر، حيث يجب تقديمه لهذا الجيل المعاصر باللغة التي يفهمها ويرتاح لها، لا شك أن في مفاهيم الإسلام وتراث الإسلام أشياء عظيمة ومهمة جدًّا، البشرية يومًا بعد آخر تشتد حاجتها إلى هذه المفاهيم الصحيحة والأساسية التي تسعد الإنسان وتعالج مشاكله، لكن هذه المفاهيم يجب أن تقدم بلغة عصرية، تأخذ الإحصاءات والأرقام والحقائق العلمية بعين الاعتبار، وتستعين بالوسائل الجذابة القادرة على الاستقطاب، إن القصة والرواية والمسرحية والفلم وغيرها من وسائل جديدة ومعاصرة، يمكن أن تخدم الفكرة أكثر مما تخدمها الكتابة العادية أو الإلقاء العادي المجرد، لذلك علينا أن نقدم هذا التراث وهذه المفاهيم لهذا الجيل المعاصر بما يتناسب ولغته، وبما يتناسب مع وعيه ومع التطور العلمي والتكنولوجي الذي يعيشه إنسان هذا العصر.[١]

إننا في هذا الزمن المعاصر، الذي يشهد ثورة تقنية ومعلوماتية غير مسبوقة، وتطور هائل في مستوى الوعي الإنساني، من الصعب على أي أحد ادّعاء امتلاك الحقيقة المطلقة، ولا إطلاق التهم جزافًا وعلى عواهنها ضد الآخرين، اعتمادًا على رؤيته الأحادية، لاغيًا من يختلف عنه أو معه، ومسفّهًا رأيه، ومتهمًا من يخالفه بالإخلال بقيم الدين. فلكل رأي ما يدعمه من قراءات دينية. والدين والتدين ليس حكرًا على قوم بأعينهم، فهناك آخرون يمتلكون نفس الحق في هذا الانتماء، أو في هذا الاجتهاد، فليس من المعقول وصْم الآخرين

---

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع موقع المعصومين الأربعة عشر.

بالبعد عن الدين، والإخلال بالقيم الإسلامية، لمجرد اتباعهم قراءة مختلفة للنصوص الدينية.

ليس من العدل تنزيه الذات واتهام الآخرين بالغلو والانحراف، لمجرد أنهم لا يرون الأمور من وجهة نظرنا. إن القضية تكمن في أن المسألة هي رؤى وأفكار واجتهادات وتفسيرات وتصورات للإسلام يتبناها هؤلاء أو أولئك، ومجتمعاتنا عبر تاريخها الطويل شهدت مثل هذه الاجتهادات، ومرت بها الكثير من الرؤى التي تصل في أحيان كثيرة إلى حد الاصطدام ببعضها بعضًا. مشكلتنا أن هناك من يمارس الاستعلاء وتنزيه الذات وينتقص من الآخرين، والحقيقة هي أن الأصالة ليست حكرًا على أحد، والالتزام بالدين وتحقيق مقاصد الشريعة، ليست مقصورة على أحد محدد دون غيره من الخلق.

ثانياً:

التراث والنقد الذاتي

هل التسامح والتعايش والتقريب والوحدة وغيرها من مفاهيم وقيم هي أمر مستجد وطارئ ومستحدث، أم هي أمور متأصلة في بنية ثقافة الإنسان المسلم وحياته، أم أن القضية هي على العكس من ذلك، حيث إن هذه القيم ذات جذور عميقة وصلبة في ثقافة الإنسان المسلم، وأن أمر التشدد والغلو والتطرف وكل هذه القيم السلبية هي الأمر الطارئ والدخيل على فكر وثقافة الأجيال الجديدة، وهل يمكن القول أيضًا إن الدين يمتلك قيمًا رفيعة وخلّاقة، إلا أن المشكلة تكمن في هذا الإنسان الذي لم يستطع استيعاب وفهم هذه القيم وتربية نفسه عليها وممارستها بشكل إنساني في الواقع المعيش؟

عندما عاشت أمتنا في غابر الأزمان فترات مليئة بالصعاب والمشكلات الناتجة عن الاحتراب الداخلي والفتن بين أطيافها المتعددة، حيث سادت وهيمنت وخيّمت أجواء الظلام والتخلف وشريعة الغاب، فإنه بالتأكيد لا يخلو هذا التاريخ، وما فيه من تراث، من فترات عمّ فيها النور والضوء، وساد وانتشر فيها الضياء. على أن هذا الماضي بكل ما فيه من نور أو ظلام، يحتاج منا إلى المعرفة والدراسة والعلم والمراجعة، من أجل القيام بعمليات الفرز والتقييم، ومن ثم الإجابة عن كل الأسئلة التي يمكن أن ترد على العقل، ليمكن بعد ذلك الأخذ والترك من هذا التراث والإرث المنقول.

والحاضر هو أيضًا لا يخلو من المشكلات والعيوب، سواء كانت مستجدة تفرزها حركة الواقع المعيش، أو كانت نتيجة انتقال إرث ثقافي ورثناه من السابقين، الذين عاشوا

فترات وظروف حتّمت عليهم اجتهادات واستنتاجات تتوافق والمراحل التي عاشوا فيها، إلا أنها قد لا تتفق مع العصر والزمن الحاضر، والذي حدثت فيه الكثير من التطورات والتغيرات المادية والثقافية، ما يجعل أمر فهم الحاضر واستيعابه ضرورة ملحّة حتى يمكن القيام بعملية المواءمة بين الدين والدنيا بطريقة خلّاقة.

إن عمليات المراجعة والتقييم أمر مطلوب ليس فقط من جهات دون أخرى، وإنما هو أمر مطلوب وملحّ من الجميع دون استثناء، ولا يحسبنَّ أحد أن هذه المراجعة وعمليات محاسبة الذات تعني تدمير الذات، أو أنها تراجع، أو تنازل عن القيم والمبادئ، وإنما هي مراجعات لا تأتي إلا من موقف قوة واقتدار، لإزالة ما علق بالذات من شوائب وآثار من تلك الفترات الخاوية من تاريخ أمتنا الكبرى.

والشيخ الصفار في إطار ممارسته للنقد الذاتي يلاحظ أن الساحة الشيعية، حيث هو ينتمي إليها، «لا تخلو من اتجاهات متشددة مذهبيًّا، لقناعاتها الفكرية، أو لنهج تعصّبي، أو ردّ فعل لتطرف من الجهة الأخرى، هذه الاتجاهات الشيعية المتطرفة، تشكل ضغطًا على خط الاعتدال الشيعي العام، بدغدغتها للمشاعر الطائفية، وطرح نفسها كسور حصين للدفاع عن العقيدة وحمايتها، وهي بطروحاتها المغالية، ونيلها من رموز الطرف الآخر، انطلاقًا من فهمها لقضية التولي والتبري، تعطي المبّررات والأوراق لجهات التطرف في الجانب السني، وهكذا تستمر لعبة الفعل وردّ الفعل، بين جهتي التطرف الشيعية والسنية، على حساب مصلحة الدين والأمة، مما شكل ضغطًا على دعاة التقريب والاعتدال، ويعوق مسيرتهم.»(١)

من الممكن فهم واستيعاب ما أشار إليه الشيخ الصفار من أن التشدد والغلو والتطرف من جهة ضد أخرى، يولد ردّ فعل مقابل من الجهة المقابلة، يتسم أيضًا بالعنف والتطرف، إلا أن ما ينبغي فهمه وتوضيحه وشرحه هو، ما المقصود بالقناعات الفكرية، أو النهج التعصبي، والطروحات المغالية الناتجة عن فهم قضية التولي والتبري، الذي يولد التطرف

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٥٩

في الساحة الشيعية، فهل هذا التشدّد هو أمر طارئ ومؤقّت، أم له أسس بنيوية متوارثة صعبة التغيير؟

لقد أشار الشيخ الصفار، إلى أن هناك «انبعاثًا لتيار سلفي شيعي، يركز على قضايا الخلاف ويضخّمها، ويجدد طروحات الغلو والمبالغة، في بعض القضايا الولائية الشعائرية، مما يربك الساحة الشيعية الداخلية، ويقدم صورة منفرة عن المذهب للآخرين، ويعطي الذرائع للمتطرفين من الجهة الأخرى، ضد أتباع أهل البيت في مختلف المواقع، ويضيف الشيخ الصفار أن نمو هذا التيار سيكون على حساب أصالة مدرسة أهل البيت، ويزيد في تعقيد العلاقة مع بقية المسلمين، كما سينفّر الشرائح المثقفة الواعية من أبناء الشيعة.»[1]

ويرى الشيخ الصفار أن النيل من رموز الطرف الآخر يعقد من العلاقة بين أبناء هذه الأمة، مشيرًا إلى أنه يسبب الحرج الشديد، ويعطي الفرصة والمبرر للجهات المتطرفة لتعميق الشرخ والهوة بين الطوائف، موضحًا أنه إذا كان من حقّ الشيعة أن تكون لهم رؤيتهم وقناعاتهم، فإنه ليس من حقهم الإساءة إلى رموز ومقدسات الطرف الآخر؛ لأن ذلك يشكل انحرافًا عن تعاليم الدين وآدابه، ويؤدي إلى الفتن وتخريب وحدة الأمة. وهو أيضًا يراهن على معالجة جريئة لهذا الأمر من قبل المرجعية الدينية والجهات القيادية، وإلا فإن مسيرة التقريب تبقى متعثرة، وأرضية الفتنة ستبقى خصبة أمام الطامعين والمغرضين.

ويؤكد الشيخ الصفار على أهمية تسليط الأضواء على بواعث هذا التيار السلفي في البيئة الشيعية ودوافعه، محذرًا من تغلغله في الحوزات والمؤسسات الدينية، ومطالبًا بدعم توجهات العقلانية والاعتدال والانفتاح. وأن يكون للعلماء وكبار المرجعيات دور في ترشيد توجهات الجمهور، وتشجيع جهود التقريب والوحدة، والدعوة إلى التسامح والتقارب والتعايش، والانتصار لخط الاعتدال، وكبح جماح جهات التطرف والتشدد.

إن العمل على مراجعة التراث وتنقيته وغربلته، والتوثق من صحته، وصدوره، وإعادة النظر في فهم النص، يشكل ضرورة ملحّة لتجديده وتجاوز أثقاله، إلا أن اللافت

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٢٨

للنظر كما يلاحظ الشيخ الصفار، هو التهرب من النقد الذاتي، حيث كلٌّ يوجه نقده للآخر وتراثه، وليس لذاته، حيث لا يتحلّى الجميع بالجرأة على مراجعة تراثه وتنقيته وغربلته، وإعادة النظر فيه، في الوقت الذي يحتاج فيه كل تراثنا إلى إعادة النظر والمراجعة.

وفي كل الأحوال، ليس هناك ما هو مقطوع أو مسلّم به في كتب التراث، إلا بعد الدراسة والبحث والاجتهاد، وهو الأمر الذي يمكن أن يسهل مهمة المراجعة ومهمة إعادة النظر في بعض الروايات، سواء في صحة سندها وثبوت ورودها، أو في فهمها. والمقطوع بصحته هو كتاب اللّه سبحانه وتعالى، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ما عدا ذلك فالاحتمالات واردة، أما في صحة ورود النص، أو في فهمنا للنص.[1]

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول ـ من حوار مع صحيفة الوطن الكويتية.

ثالثاً:

تجديد الخطاب الديني

إن وصف واقع حال الأمة، والتحدث عن ظواهرها السلبية وتحديدها لهو أمر بالغ الأهمية، إلا أن الأهم من ذلك هو البحث عن الجذور التي تكمن خلف هذه الظواهر ومعرفة مصادرها، فهل مشكلة الأمة اليوم تكمن في النصوص أم هي تكمن في النفوس؟ أم أن المشكلة تكمن في فهم النصوص وتفسيرها، أم في عودتنا إلى ما ورثناه من تفسيرات للنصوص قدّمها الأسلاف والأوائل؟

إن كثيرًا من الإشكاليات والصراعات الطائفية التي تعانيها الأمة اليوم، ناتج عن الإرث الثقافي الذي خلفته النخب الدينية التي تصنع الأفكار والاجتهادات والرؤى، حيث اتسمت هذه الثقافة بطابع التعبئة والتحريض ضد الآخر، وإيغار الصدور والأحقاد، وهو ما يؤدي إلى زيادة التباعد والفرقة بين الناس، ويقف حجر عثرة أمام أي جهود للتقريب والوحدة، إلا أن هذه الإشكاليات المزمنة والراسخة في الثقافة لن تحل إلا من خلال «تجديد الخطاب الديني، بما يتناسب والمتغيرات المعاصرة، مع الفهم الواعي لأحوال العالم الخارجي، والتعاطي معه بانفتاح، ومتابعة وتفاعل».[1]

ليست إشكالية موضوع العلاقة بين الماضي والحاضر، وأثر الموروث الثقافي في حاضر الأمة، وليدة هذه اللحظة الزمنية، وإنما هي أزمة وإشكالية مستمرة على مرّ السنين الماضية، فهناك من لا يركن إلا إلى لغة الماضين وصورهم، ولا يلتفت إلى الواقع المعيش وما يفرزه

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٦٥ نص المادة الخامسة من توصيات اللقاء الوطني الثاني.

من جديد ومخترعات، مما أدى إلى التقليل من قيمة الحديث والمعاصر، لصالح التقليد للماضي، وتكرار نتاج الماضين.

هناك من يريد أو يبحث عن الجديد والتجديد، إلا أنه من الخطأ تجاوز معطيات الواقع، وعدم الأخذ في الاعتبار إمكانات الإنسان المعاصر في مجتمعاتنا، وتصويره على أنه قاصر ويحتاج إلى التوجيه والرعاية من سلطاته العليا، ومع ذلك فهناك قلة ممن استطاعوا إقامة موازنة دقيقة بين مقتضيات التحديث، ومستلزمات التعاطي مع الواقع الحياتي لظروف الناس، وهي طبعًا موازنة صعبة وغير متاحة إلا للمبدعين الأفذاذ.

إن المجتمعات البشرية في هذه الحياة تتنازعها أفكار ورؤى مختلفة، بعضها تميل للتقليد والثبات، وأخرى تميل للتجديد والتغيير، ومن خلال هذه الرؤى المتنافسة والمتصارعة تتحرك المجتمعات وتتطور، وتتخلق رؤى جديدة، ويبقى الخيار مفتوحًا أمام من يرد التمسك بالتقليد، أو من يريد الأخذ بالتجديد، والصراحة تقتضي القول إن السعي للتحديث والتغيير والتجديد، لا يمكن أن ينفصل عن الواقع الثقافي والحياتي والبيئي لحياة أصحابه، وإذا ما تجاهل هؤلاء شروط الواقع، فلن يتمكنوا من تجاوزه وخلق واقع جديد مليء بالحيوية والفاعلية والنشاط، حيث لن ينفع إذ ذاك دعاوى وأحاديث التجديد.

إن مواجهة التحديات المعاصرة يتطلب تطوير وتحديث الخطاب الديني، وهو الأمر الذي يتطلب، كما يقول الشيخ الصفار، تحديث عقليات المنتجين للخطاب الديني، وهو الأمر الذي يقودنا للحديث عن أوضاع الحوزات العلمية والجامعات، والمعاهد الشرعية التي تخرج القضاة والدعاة والمبلغين، حيث إن المناهج الدراسية في الحوزات والمعاهد الدينية تحتاج إلى الكثير من التطوير، بحيث تعيد الإسلام إلى أصالته وتتجاوز تراكمات الخلافات والصراعات المذهبية، وتتجاوز عقلية الأسر لآراء السلف والعلماء الماضين، وأيضًا أن يكون في هذه المناهج انفتاح على الفكر البشري، فليس كل ما أنتجه البشر في المجتمعات الأخرى باطل وكفر، وإنما فيه ما هو مفيد وعلينا أن نستفيد منه، وكان

الرسول ﷺ يقول (**الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أين وجدها**).[١]

والسؤال: هل تقرّ المؤسسة الدينية بوجود نقص في تكوينها وبنيتها؟ وهل تتقبل هذا الطرح وتتجاوب معه؟ وما هي ردود فعلها على ما يمكن أن يوجه لها من نقد؟

عندما يفقد أي مجتمع الثقة في نفسه نتيجة ما يعانيه من ضعف واهتراء وتكلس على مواجهة الحاضر وتحدياته، فلن يقبل نقد الآخرين له، وسيكون لمشاعر الحنين للماضي متكأً تستعين به على مواجهة التحديات ومآزق الحاضر، عندها سيصاب هذا المجتمع بمزيد من الجمود، وتتباطأ حركته، وتصل فيها الأمور إلى حدّ فقدان القدرة على الإنتاج والخلق والإبداع.

أما تلك المجتمعات التي تسعى إلى تقبل النقد وتمارسه، سعيًا منها إلى اكتشاف ذاتها، واستخراج ثروات ثقافتها، ومواكبة عصرها، من خلال إرادة الفعل، والعمل على بناء مستقبل أفضل، فلن تكون مضطرة للهروب من الحاضر إلى الماضي والجمود فيه، بل ستكون قادرة على التعامل مع الحاضر من موقع القوة، ومتجاوزة شعورها بالعجز، وإرادتها ستكون متحررة من قيود الماضي، ويمتلكها الشعور بالاستقلال والسيطرة على مصيرها، من خلال بناء الإنسان الفاعل والمتفاعل مع أبناء مجتمعه، تحت عنوان هوية جامعة، تتيح للجميع حرية الفعل والإبداع والعمل، مهما كانت انتماءاتهم وهوياتهم الفرعية والجانبية.

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٦٧

الفصل الثامن

المسألة الطائفية والإصلاح الثقافي

أولًا:

المسألة الطائفية بين التثقيف السلبي والتثقيف الإيجابي

إن تحقيق التغيير المرغوب فيه على أرض الواقع، وتجسيده عمليًّا في الحياة، وفي سلوك الناس، يحتاج إلى خطط عملية للتثقيف بعيدة المدى، بحيث يتم خلالها تحويل نمط التفكير عند الناس من حالة الرضا والقبول بالأفكار السلبية والمتشددة، إلى حالة من النبذ والرفض لها، والقبول بالأفكار والقيم الإيجابية، التي تدعو إلى التسامح والوسطية والاعتدال، وتشجع الحوار بين الشركاء، خدمة للاستقرار والسلم الأهلي والاجتماعي.

ولن يتحقق الوعي السياسي، ولن تنتشر ثقافة الاعتدال والوحدة والتقارب، إذا لم يرفد هذه الرغبة دور تثقيفي حقيقي وعلمي وعملي، ليس فقط من خلال اعتماد أسلوب الوعظ والإرشاد والتبشير بالقيم الإيجابية، وإنما أيضًا من خلال الاستفادة من كل وسائل الاتصال والمعرفة الجديدة. ففي عصر الفضائيات والسينما والمسرح والانترنت، كما يقول الشيخ الصفار، لا يمكن للإنسان أن يراهن على وسيلة واحدة فقط، باعتماد الخطاب المباشر مثلًا، عبر اللقاءات الشخصية أو المحاضرات، فالتأثير لن يكون بالمستوى المطلوب، لذلك لا بد من الاستفادة من جميع هذه الوسائل، إذا أراد المهتمون بنشر الوعي والثقافة أن يحدثوا التأثير المرغوب وتوجيه الأنظار إلى القيم.[1]

إلا أن هذا الأمر لن يمرّ بسلام وهدوء، لأن القوى المضادة والجهات المتشددة، التي

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول ـ من حوار في كتاب بعنوان (مع قادة الفكر الإسلامي).

تسعى إلى التبشير بالقيم السلبية، لن تقف مكتوفة الأيدي، وستصطاد في الماء العكر، وستعمل جاهدة على ممارسة دور التثقيف السلبي، من خلال ممارسة النشاط الإعلامي والدعائي الذي يصبّ في مصلحة ثقافة التعصب والفرقة وتمزيق الصفوف، من خلال إبراز مساحات الاختلاف وتضخيمها، وتحجيم مساحات الاتفاق والتقليل من قيمتها، والحطّ من مكانة مروجي خطاب الوحدة وتشويه سمعتهم.

لقد أخذ خطاب التثقيف السلبي في الانتشار والتوسع، بسبب التطور التقني والمعلوماتي، وعمل جاهدًا وبكل ما أوتي من قوة، على تعبئة الناس وشحنهم طائفيًّا. وحسب قول الشيخ الصفار، فإن الأمر لم يعد اليوم وفي هذا الزمن مجرد خطبة في مسجد أو حسينية، ولا مجرد كتاب مطبوع، بل الأمر أصبح إعلامًا عابرًا للقارات، عبر شاشات القنوات الفضائية، ومواقع الشبكة العنكبوتية، وخدمات الهواتف النقالة، مضيفًا أن منتجي إعلام الشحن الطائفي أخذوا يتنافسون في تأجيج المشاعر، وإثارة الضغائن والأحقاد، لكسب المساحة الأوسع من جمهور المشاهدين والمتلقين، بالتنقيب عن حوادث الصراع المذهبي في عمق التاريخ، والتفتيش عن مواقع الإساءة في كتب التراث القديم، وتضخيم ما قد يحصل من احتكاك هنا وهناك، بل واختلاق ما لم يحصل.

ففي مقابل مئات المؤسّسات والمنابر الإعلامية والثقافية المنتجة للشحن الطائفي، والمروجة لاتجاهات التعصب المذهبي، وخدمة ثقافة الفرقة والخلاف، لا تكاد تجد سوى عدد محدود من المؤسّسات المهتمة بالخطاب والشأن الوحدوي، حيث يعاني الخطاب الحامل للقيم قصورًا وتقصيرًا في إنتاج خطاب قادر على التأثير في جمهور الأمة، وإعداد مشروع قابل للاستجابة والتفاعل مع الثقافة الإيجابية والترويج لها، وكسب المزيد من الأنصار والمؤيدين. ومن بين عشرات الآلاف من علماء الدين والمنتسبين للحالة الدينية من الخطباء والدعاة، كما يشير الشيخ الصفار، قد لا نجد منهم إلا عشرات الأفراد ممن يحملون هم نشر خطاب الوحدة، ومواجهة ثقافة الخلاف والشقاق، فمؤشر إنتاج وانتشار الكتابات الطائفية المذهبية، هو الأعلى قياسًا إلى النسبة المنخفضة من الكتابات الداعية إلى

الوحدة والتآلف.[(١)]

التحصين الثقافي

السؤال المهم والمقلق مع تزايد الاتجاهات العصبوية، يدور حول قدرة المجتمع على تحصين ذاته فكريًّا وثقافيًّا، مما يمنع انتشار أفكار التشدد ومواقف التطرف، ويمنع تغلغلها في البنية الاجتماعية، ويحول دون التغرير بأبناء المجتمع نحو سلوك مواقف التزمت والتطرف، ليكون المجتمع حينها عصيًّا على الميل أو التحول إلى تبني الأفكار السلبية والمقولات الهدامة، بعد تفشي ظواهر التعصب وثقافة التشدد وأفكار التطرف، التي أصبحت وبفعل التقنية الجديدة والفضاء الإعلامي المفتوح، قادرة على الوصول إلى كل شرائح المجتمع، وخصوصًا الشباب منهم، من خلال عملية الاتصال والتواصل والاحتكاك المباشر، بهدف تغيير فكر وسلوك هؤلاء الشباب بطرق ووسائل مختلفة، وخصوصا من خلال تأثير عمليات التثقيف الفكري الديني والإرشادي المباشر، والموجه عبر الخطب اليومية أو الأسبوعية أو المحاضرات أو التجمعات المختلفة، التي ترسخ خطاب التعصب وتنشر قيم ومفاهيم التطرف والغلو، مما يؤدي مع تكرارها الدائم والمتواصل، وتواترها المستمر، ومع مرور الزمن، إلى ترسيخ الصور السلبية والأفكار السلبية، ويصبح من الصعب انتزاعها من العقول؟

إن رسوخ خطاب التعصب، وانتشار قيم ومفاهيم التطرف والغلو، وسيادة ثقافة التحريض والكراهية، والتعبئة المتبادلة بين أتباع المذاهب، يشكّل خللًا عميقًا ومرضًا خطيرًا، من خلال ما «تقوم به بعض الجهات الدينية المتشددة من الطرفين. وحتى تثبت أفضلية مذهبها، فإنها تتوسع في ذكر مثالب الطرف الآخر، وتصفه بالكفر أو الشرك أو الابتداع، وأنهم لا يستحقون الجنة، وأن مصيرهم إلى النار، في الوقت الذي نحن بحاجة ماسّة إلى نشر ثقافة التسامح بين جماهيرنا».[(٢)]

---

(١) من كتاب خطاب الوحدة نقد وتقويم.

(٢) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٢٥

وإذا استمر إنتاج هذه الثقافة التعبوية التحريضية في أوساط أتباع كل مذهب تجاه أتباع المذهب الآخر، فلن يساعد ذلك في التقريب بين المسلمين وتعزيز الوحدة بينهم «فهذه الثقافة التي تنتجها المؤسسة الدينية... ينتجها علماء الدين والخطباء... هذه ثقافة لا تساعد التقريب، وإنما توغر صدور بعض المسلمين على بعضهم، كما نلاحظ في بعض الفتاوى، وبعض خطب الجمعة وعلى المنابر، هذه الثقافة التعبوية تشكل عقبة أمام جهود التقريب والتوحيد».[١]

إن عمليات الاختراق الفكري والثقافي التي تحققها الاتجاهات المتطرفة للبنية الاجتماعية، ونجاح تغلغلها، يهدف إلى تدمير التشكيل الفكري الاجتماعي وتناسقه الوطني، حسب قول علي بن حمد الخشيبان، وذلك عبر زرع منظومة من الأتباع هدفها خلخلة البنية الفكرية المعتدلة ونشر الأفكار المضادة للمجتمع، واستغلال فئات اجتماعية ترغب في زرع التشدد والتزمت في الممارسات الفكرية، وهذه خطرها يوازي أكبر عملية إرهابية قد تطيح بعشرات القتلى، فالعملية الإرهابية تقتل عددًا محددًا، ولكن عملية اجتماعية فكرية قد تساهم في قتل مجتمع بأكمله أو نسبة كبيرة منه وهنا موقع الخطر.[٢]

لذلك فإن هذا القصور في الحصانة الذاتية، يحتاج إلى عناية خاصة، وتأسيس ما يمكن من مؤسسات تعتني بنشر قيم وثقافة الوحدة والتسامح، وتشجع الحوار، وتعمل على توحيد صفوف الأمة، وتتصدى لمواجهة النزاعات والصراعات والخصومات، وتعمّم ثقافة السلم الأهلي والسلام الاجتماعي، وكل ذلك من أجل إثبات مصداقية خطاب الوحدة بين جمهور الناس، والطامحين إلى تعميمه، والراغبين في الانضمام إليه، والساعين إلى تحقيق أهدافه، وإلا تحولت كل تلك الأهداف السامية إلى مجرد عناوين فضفاضة، وشعارات براقة، وكلام في كلام، وخطابات لا تجدي نفعًا ولا تؤكل عيشًا.

ومن أجل تعزيز الوحدة الإسلامية والوطنية، وتكريس منهج الحوار على مستوى

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٦٦ من حوار مع مجلة الوحدة.

(٢) هل القاعدة تملك صواريخ فكرية تصل إلى كل منزل في السعودية؟ علي بن حمد الخشيبان ـ جريدة الرياض، ٦/ ١٢/ ٢٠١٠م.

الأمة، يقول الشيخ الصفار أنه لا بد أن ننفض عن نفوس المواطنين وعقولهم غبار ثقافة التطرف والتشدد، ببعث حركة ثقافية وحدوية، تنطلق من محورية حقوق الإنسان، وتركز على حرمة المسلم، وتؤكد على الوحدة الوطنية، وتساوي المواطنين في الحقوق والواجبات، فالوحدة والحوار لا يتحققان عبر طرحهما كعنوان وشعار، ولا بالحديث حولهما في قاعات المؤتمرات بين العلماء والمفكرين، وإنما حين يصبحان قناعة في نفوس أبناء المجتمع، ومنهجًا في تفكيرهم، وسلوكًا في حياتهم اليومية.

ويطالب الشيخ الصفار أن نبدأ التغيير الثقافي من مناهج التعليم، ووسائل الإعلام، وخطب الجمعة، واستخدام كل قنوات التوجيه والتأثير، ليتربى الجيل الجديد على المحبة والتسامح، ولينظر كل مواطن إلى إخوانه المواطنين، بمختلف انتماءاتهم من منظار الإنسانية، فيحترم حقوقهم كبشر، وبرؤية الإسلام، فيراعي حرماتهم كمسلمين، وضمن إطار المواطنة، فيعترف بهم ويتعاون معهم كشركاء مساوين له في الحقوق والواجبات.(١)

إن من واجب النخبة المؤمنة بتلك القيم السامية، عدم التهاون والتراخي في الالتزام بدورها، والقيام بواجباتها، وكل ما هو منوط بها من مسؤوليات وأدوار تجاه مجتمعاتها، والانطلاق بكل عزيمة وإصرار في نشر الثقافة الجادة، والوعي الخلّاق، ودعوة الجماهير للالتزام بالقيم، وتثقيفها بها، والسعي إلى إخماد نيران الشرور والنزاعات والتفرقة والفتن، على أن يتركز الجهد، كما يرى الشيخ الصفار، بالتأكيد على ثقافة الوحدة وضرورتها، والقبول بالتعددية، والتذكير بالأصول الدينية الواحدة بين المسلمين، والتسامح تجاه الاختلافات الفرعية والجزئية، والاهتمام بالمصالح المشتركة لنا كمواطنين وللأمة الإسلامية التي تواجه أشد التحديات والأخطار في هذا العصر. وكل ذلك عبر الكتابة والتأليف، وإلقاء الخطابات والمحاضرات، والتواصل والتحادث المباشر مع مختلف الأوساط، وذوي الرأي والتأثير، من أجل تمتين أواصر العلاقة، ومناقشة ما يدور في الأجواء من تساؤلات،

---

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ١٧٠

وتوضيح الصورة وجلائها.(١)

ولكي يتحقق التثقيف الإيجابي المرجو بين الناس، ويعود الجميع إلى مصادر الثقافة الأصيلة ويتمسكون بها، لا بد أن يكون ذلك بجهد وعمل المصلحين ودعاة الخير، ممن لديهم القدرة، ويملكون المؤهلات، ويتحلّون بالصفات الحميدة التي تمكنهم من تحقيق التغيير والإصلاح، من خلال تهذيب ذواتهم «بالتربية السليمة القائمة على الالتزام بالقيم الإيمانية الرفيعة والتمسك بها، تربية تعلم الأجيال الحرص على وحدة البناء الاجتماعي، والبعد عن الطائفية والعنصرية والقبلية والمناطقية في أي مجال، حيث التربية في كل أبعادها هي البناء، وكل بناء يحتاج مع الزمن إلى ترميم إذا تصدع، ومن تربوا هذه التربية السليمة هم القادرون على رأب الصدع وإعادة الجمع».(٢)

إذا كان من واجب ومسؤولية النخبة نشر الوعي وتعميمه، فإن ذلك لا يلغي مسؤولية أي طرف أو جهة أخرى ترى في نفسها معنية بالقيام بهذا الواجب، ويهمّها مصلحة الوطن ومستقبل الدين والأمة، ولديها الاستعداد لتحمل أعباء هذا الدور بكل اقتدار؛ لأن أي جهد خيِّر يبذل في هذا المجال، ومن قبل أيًا كان، هو مساهمة طيبة، ورصيد يضاف لحساب ترسيخ القيم، ونشر الوعي الحضاري، وتعزيز الفهم الصحيح للدين، وتأكيد النضج السياسي والأخلاقي.

المجال السياسي وصياغة العقول

من المفيد الإشارة إلى أن الكثير من جهود العمل الوحدوي والتقريبي قد تعرضت للانتكاس والإخفاق، ليس فقط بسبب عيوب ومشكلات بنيوية، وإنما بسبب الظروف السياسية المضادة، والواقع غير السوي الذي تعيشه الأمة، وما يفرزه من أحداث سياسية

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول ـ من حوار مع جريدة المدينة السعودية ـ ملحق الرسالة.

(٢) حتى لا تذبل قيمنا.. عود الجمع ورأب الصدع. ـ محمد بن أحمد الرشيد ـ جريدة الرياض، ٧/ ١٢/ ٢٠١٠م.

واجتماعية، تخدم الفرقة والخلاف، وتكون عائق أما تطور الأمة، وتقف خلف فشلها، حيث لم تستطع هذه الأمة الصمود أمام تقلبات السياسة، كما يقول الشيخ الصفار، ولم يتوفر لها الدعم والحماية الشعبية الكافية، فتوقف نشاطها وشلت حركتها.

وإذا كان للظروف السياسية دور سلبي في إجهاض جهود الوحدة والتقريب، فإن للإرادة السياسية في الوقت ذاته دورًا أساسيًا وحاسمًا في مساندة هذه الجهود وحمايتها ورفدها بالدعم، والوقوف إلى جانبها، ومساعدتها على تخطي كل المعوقات التي تحول دون انطلاقتها، وتعبيد الطريق أمامها كي تسلك الطريق تجاه الهدف المقصود، والدفع بها للأمام مهما كانت المعوقات والصعوبات والمكائد التي تحاك من اجل إجهاضها وإحباطها.

من دون أدنى شك أن تشكيل وتعميم وترسيخ ثقافة الوحدة والحوار والتواصل والتقارب وكل القيم الإيجابية والتبشير بها والترويج لها، يجب أن تتعاون على نشرها وتعزيزها وترسيخها جهات عديدة في المجتمع، وهي تبدأ من البيت والمدرسة والجامعة، مرورًا بالمسجد والمؤسسات والوزارات الدينية، ولا تنتهي بوزارات التربية والتعليم والثقافة والإعلام والشباب والرياضة؛ لأن كل هذه الجهات لها دور أساس في صياغة العقول وتربيتها وتنشئتها وتثقيفها.

وتأكيدًا على هذه الحقيقة أقر مجلس الشورى السعودي أنه يدرس مشروعًا مقترحًا لتشريع نظام لإعداد الشباب، حيث أكد المشروع المقترح على ضرورة أن يكون لصوت الشباب صدى في سياسات الدولة، ويقتضي ذلك ـ حسب تقرير المشروع ـ أن ترتكز هذه السياسات على القيم والمبادئ التي تفرز سلوكيات إيجابية تحث الشباب على خدمة وطنهم بتعزيز مفاهيم الولاء والمواطنة، وقال العضو سليمان الزايدي صاحب المقترح، إن تحقيق هذه الغاية يتطلب تضافر جهود مختلف مؤسّسات الدولة جنبًا إلى جنب لوضع السياسات التي تعزز دور الشباب، واستثمار طاقاتهم بشكل علمي منتج، كما يجب أن تحرص السياسات العامة بشأن الشباب على احترام الميل الفطري والعام نحو التدين بين الشباب، وإعلاء شأن الأخلاقيات الدينية في السلوك الاجتماعي، وتقدير التراث الديني

وحمايته من التحديات الجسيمة التي يتعرض لها داخليًا وخارجيًا، ونشر ثقافة التسامح والتعايش مع الآخر.

وقد شدّد المشروع على أن تسعى مؤسّسات الدولة كافة لمواجهة مشكلة العنف والتطرف لدى الشباب، والوقوف على أسبابها الحقيقية، ومدى تأثرهم بمضمون المادة الدينية التي تقدم إليهم، وذلك من خلال زيادة الاهتمام بالتربية الدينية الصحيحة في المراحل الأولى من التعليم، وتطوير مضامين موادها بما يتلاءم مع متغيرات العصر، بحيث تتناول قيم التسامح والعدالة، والمساواة والحوار، والانفتاح على الآخر، واحترام التنوع وقبول الاختلاف.

ونص النظام على وضع مواد التربية الدينية، وحوار الحضارات، وحقوق الإنسان ضمن المقررات الأساس في مرحلة التعليم الإلزامي، وإعادة النظر في سياسات الوزارات والهيئات المعنية بالشؤون الدينية والأوقاف وآليات عملها بحيث تتنوع لغة الخطاب الديني لتلائم الفئات العمرية المختلفة، مما يستلزم إنشاء وحدات نوعية مسؤولة في الوزارات المعنية بالشؤون الدينية والأوقاف مثل إدارة الخطاب الديني للأطفال، وإدارة الخطاب الديني للمراهقين، وثالثة للشباب.

وحوى النظام المقترح الدعوة إلى تبنّي برامج جديدة لتطوير معاهد تخريج الدعاة القادرين على مواجهة التزمت والتطرف في فهم الدين، وتشجيع الاجتهاد في إطاره الشرعي الصحيح، وعدم قصر نشاط (المساجد) على أداء الشعائر الدينية فحسب، وتوسيع هذا النشاط بحيث تصبح مؤسسات ثقافية تغرس قيم المواطنة، والانتماء، والاعتدال، والسلام، إضافة إلى نشر مفاهيم التكامل الديني والثقافي والاجتماعي داخل الدولة والتصدي للمفاهيم المغلوطة التي ترتدي ثوب الدين.

وفيما نص النظام على الاهتمام الكافي بتكوين الأسرة المسلمة وبنيتها، باعتبارها المؤسسة الأساس في التنشئة الاجتماعية للشباب، شدد كذلك على الاهتمام الكافي بدور المؤسّسات الإعلامية في التصدي السريع والحاسم لأفكار التطرف والتزمت.

ونصت إحدى مواد مشروع نظام إعداد الشباب على المساواة في حقوق المواطنة وواجباتها، وأنها أساس لا غنى عنه لوضع استراتيجية تنمية الشباب. ودعمًا لقضايا النوع الاجتماعي، حثّ النظام الحكومة على زيادة المخصصات المالية والفنية والإدارية لجهود التدريب التي تعزز قضايا التنوع الاجتماعي، وتعزيز الممارسات التي تكفل حماية المرأة واحترام حقوقها، والتشاور مع الجمعيات النسائية لإثارة الاهتمام بقضايا المرأة الشابة، إضافة إلى إشراك المرأة بصورة فعلية وحقيقية في المجال العام، وتمثيلها في اللجان المعنية بقضايا الشباب، ومراعاة آثار أي تشريع أو سياسات أو برامج على كل من الشباب من الجنسين، وذلك في كافة المجالات، وعلى جميع المستويات بما يناسب كل جنس.

وجاء في المادة الحادية والعشرين من مشروع نظام إعداد الشباب مطالبة الحكومة بأن تعيد النظر في سياساتها التعليمية والتثقيفية، بحيث ترمي إلى تفعيل دور مؤسسات التنشئة من أجل مزيد من تمكين الشباب. وركز النظام على إفراد مادة تدعو مؤسسات الدولة المختلفة إلى وضع معايير تربوية تركز على تنمية المهارات لدى الشباب في مجال تجنب الأزمات وبناء السلام، وإشراك الرافضين منهم في برامج ترمي إلى إعادة إدماجهم في المجتمع بعيدًا عن استخدام القوة باعتبارها تهدد استقرار المجتمع وأمنه.(١)

تطوير مناهج التعليم وترقيتها

إن الدعوة إلى إعادة النظر في السياسات التعليمية والتثقيفية من أجل تفعيل مؤسّسات المجتمع التربوية والاجتماعية، لهو دليل على العلاقة القوية بين ما يدرسه الطالب في المؤسسات التعليمية من مناهج ومقررات دراسية، وبين ما يتكون لديه من قيم وأفكار ورؤى توجه سلوكه، لما لهذه المناهج من دور طليعي في غرس القيم الفاضلة والنبيلة والسامية، بما يساهم ويعزز عوامل التماسك الاجتماعي، ويعزز الهوية الوطنية الجامعة، ويرسخ مفهوم الوحدة الوطنية.

---

(١) جريدة الرياض السعودية ـ بتاريخ ١٠/ ١٢/ ٢٠١٠م.

لذلك من المهم تقويم ومراجعة المناهج الدراسية، وإعادة النظر فيها وإعدادها بما يخدم غايات المجتمع العليا، وبما يعطي الطالب والدارس جرعة معلوماتية ومفهومية قوية عن طبيعة المجتمع الذي يعيش فيه، وعن الحياة المعاصرة التي يحياها، وما يكتنفها من إشكاليات وقضايا ومشكلات، بحيث لا يكون هذا التقويم والتجديد في المناهج على حساب المعرفة الصحيحة والصادقة والأمينة، أو أن يكون هذا التجديد مبتورًا وعاجزًا عن الوفاء بترقية الفرد وتنميته، وزرع القيم الروحية الأصيلة وترسيخها في نفسه.

كم نحن بحاجة إلى الارتقاء بمستوى الوعي في ثقافتنا لتصل إلى مستوى ثقافة إنسانية عميقة الجذور، وذات صلة بالقيم العليا للدين الحنيف، التي تعلي من قيمة الإنسان ومكانته على هذه الأرض، واحترامه واحترام قناعاته وخياراته ورأيه، بعيدًا عن روح التعصب والتعالي والاستبداد والعنف، الذي لا يجلب إلا التخلف والدمار، ثقافة تعمل عل تفكيك منظومة الأفكار الهدامة، وتفكيك الظاهرة الإرهابية، وتفكك حواملها وموجباتها، وتحبط خططها ومؤامراتها الخطيرة.

إن هذا العمل يحتاج إلى جهد تثقيفي رفيع، يُولي أهمية قصوى للدور التربوي والإعلامي في مواجهة الظاهرة الإرهابية «فالمعلم والمنهج والمدرسة بكل مناشطها، كلهم يتحملون مسؤولية أساسية في مشروع تفكيك جذور الإرهاب والعنف في مجتمعنا. فالتعليم الذي يغذي عقول الطلبة بقيم الحوار والتسامح وصيانة حقوق الإنسان، سيباشر دوره في مشروع مواجهة الإرهاب من خلال هذه القيم المضادة التي يغرسها رجال التربية في الفضاء المدرسي. كما أن المعلم الذي يتواصل مع طلبته، ويعمل على إزالة الغبش عن رؤاهم، ويعزز في أوساطهم ثقافة الاعتدال والوسطية والتسامح، هو يباشر دوره في مشروع محاربة الإرهاب.

كما أن المدرسة التي تطور صلتها بطلبتها وتعمل على زيادة وتيرة التعاون بين البيت والمدرسة، وتبدع في أساليب التربية والتنشئة، هي تساهم من خلال هذه الخطوات في مشروع محاربة الإرهاب، كما أن للإعلام بكل مؤسساته ورجاله، مسؤولية أساسية في

مشروع مواجهة الإرهاب وخطر الإرهابيين.

فلتتواصل الجهود الإعلامية، التي تؤكد على قيم التسامح ونبذ التعصب والغلو وصيانة حقوق الإنسان؛ لأن في هذه الجهود رفعًا للغطاء الثقافي عن الظاهرة الإرهابية بكل عناوينها ودوائرها، وحينما تتكاتف المؤسسات التربوية مع المؤسسات الإعلامية في مواجهة الإرهاب وتفكيك حوامله، فإننا سنصل إلى نتائج مبهرة على هذا الصعيد».(١)

لقد نصَّت المادة التاسعة من مقررات اللقاء الوطني الثاني، حسبما ينقل الشيخ الصفار، على «تطوير مناهج التعليم في مختلف التخصصات على أيدي المتخصصين، بما يضمن إشاعة روح التسامح، والوسطية، وتنمية المهارات المعرفية، للإسهام في تحقيق التنمية الشاملة، مع التأكيد على ضرورة المراجعة الدورية لها»، ثم يضيف الشيخ الصفار، أن عددًا من الأعضاء المشاركين في اللقاء رأى أن تنصّ هذه المادة على ضرورة تنقية المقررات الدراسية من النيل والإساءة للفرق والمذاهب الإسلامية الأخرى.

ويشير الشيخ الصفار إلى ورقة عمل مقدمة حول هذا الموضوع من قبل الأستاذ إبراهيم السكران والدكتور عبد العزيز القاسم تحت عنوان (**المقررات الدراسية الدينية أين الخلل؟ قراءة في فقه التعامل مع الآخر والواقع والحضارة في المقررات**)، خلصت إلى «أن المقررات تعتمد حاليا على مصنفات جرى تدوينها في ظروف المجادلات الفكرية، والمعارك الدينية والسياسية، وقد أدى ذلك إلى وجود اضطراب هائل في تنظيم الأولويات، كما أدى إلى توريط الطالب في نيران معارك فكرية لا حاجة له بدراسة ظروفها وإجاباتها، لأنه ببساطة لا ينتمي إليها من جهة، ولأن حججها لا تصل إليه من جهة أخرى، كما أن المقرر لن يحول دون تلقي الطالب لإجابات وحجج أخرى حين يثير تلك المسائل».

وقد أوصت الدراسة كما يقول الشيخ الصفار بضرورة «إعادة النظر في المقررات الدراسية، بحيث يتم تنقيتها من آثار المعارك الكلامية والسياسية في تاريخ الجدل العقدي، وتنقية المقررات من النزعات التكفيرية التي يضطرب بها، والتركيز على ما دلت عليه

(١) أفكار في مواجهة الإرهاب ـ محمد محفوظ ـ جريدة الرياض، ٨/ ١٢/ ٢٠١٠م.

النصوص، واستقرّ عليه كبار فقهاء الأمة، من الكفّ عن تكفير أهل القبلة، ووجوب تقرير عصمة دمائهم وأموالهم وأعراضهم».[١]

لن تحلّ إشكالية الصراعات الطائفي والمذهبية إلا من خلال العمل على تثقيف الأجيال الناشئة بثقافة جديدة ومختلفة عما هو مقرّر وسائد، وتكوين عقليتها بعيدًا عن التسطيح الثقافي، الذي يغرقها بمعلومات جاهزة ومعلبة مقتبسة من سياق تاريخي مضى، أو أنها مستوردة ومستجلبة من سياقات حضارية مختلفة.

إننا في الحقيقة بحاجة إلى أن نتعلم ونتثقف من جديد، أن نتعلم مبادئ العلم والفلسفة والحضارة والاختلاف والتسامح الديني وحقوق الكائن الإنساني بصفته كائنًا إنسانيًّا فقط، وبغضّ النظر عن عقيدته ومذهبه. إننا مدعون لأن نفكك كل التركيبة الذهنية والفكرية التي تربينا عليها وتثقفنا منها، من أجل صياغة عقليه وذهنية جديدة تكون قابليتها واستعدادها لمسايره التطور البشري الحادث في عالم اليوم أكثر يسرًا وسهولةً وأريحيةً وبدون عقد ومشاكل.

إن المهمة الأساس للخطاب الوحدوي في هذا العصر، كما يطالب الشيخ الصفار، هي في إقناع ساحة الأمة بوقف حملات التعبئة والتشهير والإساءة إلى الرموز والمقدسات بين المذاهب العقدية، واعتماد لغة الطرح الموضوعي والحوار العلمي، فتلك هي المنهجية التي تطمئن كل الأطراف بواقعية ومصداقية الدعوة إلى الوحدة، وإنها لا تعني الإقرار على الخطأ، كما لا تعني الوصاية والفرض، ولا النزاع والصراع.[٢]

إن أطفال اليوم هم شباب المستقبل، وإذا كان أطفال اليوم يتثقفون بأفكار قاصرة ومعلومات منقوصة، ويشحنون بطريقة سلبية، بعيدًا عن لغة الطرح الموضوعي والحوار العلمي، فإن ثمار هذا التعليم القاصر والتثقيف السلبي سوف يؤتي ثماره لاحقًا في صورة تمردات اجتماعية، أو على شكل صراعات طائفية ومذهبية مليئة بالقسوة والعنف.

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٦٥

(٢) من كتاب خطاب الوحدة نقد وتقويم.

ومن المهم أن تتوجّه اهتمامات أبناء الأمة لمعركة البناء والتنمية والتطوير والتجديد، بدلًا من خوض معارك الهدم والدمار والتخريب والتفتيت، ومواجهة الأخطار والتحديات التي تحيط بالأمة من كل حدب وصوب، حيث شَغلت أبناء الأمة عن معاركها الحقيقية، فبدلًا من بناء الحاضر والتخطيط للمستقبل، أصبحنا ننشغل في اجترار المسائل التاريخية وخلافات الماضين وصراعاتهم وأحقادهم، والتنقيب في الموروث الثقافي من أجل تأجيج النفوس والمشاعر والأحقاد والضغائن.

ثانياً:

النقد والمراجعة كضرورة لتجديد البنية الثقافية

كم نحن بحاجة إلى مراجعة ذواتنا وأنفسنا، وضرورة نقدها وتقويمها، سواء كان ذلك على مستوى الذات الفردية، أو على مستوى الدوائر الأكبر والأوسع، ليس من أجل جلد ذواتنا، وإنما من أجل اكتشافها والزيادة في حسناتها وإيجابياتها، وتلافي سيئاتها وسلبياتها، وتصحيح أوضاعها وشؤونها وأخطائها. ومن المهم أن نخصص لأنفسنا أوقاتًا ومحطات محددة نتوقف فيها ونعود منها إلى الذات ومحاسبتها، من أجل عمل جردة حساب ومراجعة وتقويم شفاف وصريح، ومن أجل اكتشاف خبايا أنفسنا والتأمل في صورتنا الواقعية والحقيقية، وليس ما نتخيله عن أنفسنا أو نزينه فيها، حتى نرى ما علق بها من أوساخ وأدران، ونرى نقاط ضعفنا ومواقع القوة فيها، ومن ثم نبدأ التخطيط للمستقبل وفق برنامج جديد، واضعين في الاعتبار تلافي أخطاء الماضي، وتنمية مواقع القوة والقدرة في دواتنا وأنفسنا.

ولن يكون في مقدورنا بناء مستقبل جديد ومختلف، إذا ما ظلت العقلية الخاملة سائدة فينا ومتحكمة في رؤانا ومتسببة في تشويش الرؤية أمام عقولنا. وتطوير واقعنا ووضع الخطط والبرامج لتغييره، لن تكون ممكنة إلا بالاستعداد للمحاسبة والمراجعة والتقييم والتقويم، إلا أن المشكلة أن هناك من بيننا من يخاف من النقد ويتهيَّب من المراجعة والتقييم، لأنه يؤدي، حسبما يتصور البعض، إلى كشف عيوبنا وأخطائنا، ويفضح ثغراتنا ونقاط ضعفنا أمام الملأ. كما أن هناك آخرين من بيننا ينظر إلى النقد المخلص الموجه لنا

بصفته موقفًا عدائيًا من الآخرين أو الخصوم، يقومون به بغرض التجريح أو التشهير، أو الانتقاص والتشويه المتعمد، لأهداف مغرضة وغير أخلاقية.

إلا أن السؤال، ونحن نعيش في زمن الثورة التكنولوجية والإعلامية والمعلوماتية، وتطور وسائل الاتصال والتواصل بين البشر، إن كان يمكن إخفاء أسرارنا والتكتم على عيوبنا وأخطائنا؟ وأيهما أنسب وأفضل لأنفسنا أن نسارع إلى مصارحة ذواتنا، والقيام بعملية مراجعة ونقد ذاتي، أم ترك الأخطاء تكبر وتتفاقم ونسكت عنها إلى أن يأتي من يسبقنا في الإعلان عنها وفضحها والتحدث فيها، في ظلّ نهم وسعي وسائل الإعلام للوصول إلى أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الخصوم، والسعي إلى نشرها بقصد الإساءة إليهم، أو الإضرار بمصالحهم بشكل مقصود ومغرض، أو ربما بشكل بريء وغير مقصود؟

لم تعد كثير من الأشياء أو الأوضاع في هذا الزمن أمرًا مخفيًا ومستورًا وحبيس الدوائر الضيقة والمغلقة، حيث لم يعد هناك سرّ في هذا العالم اليوم، بسبب انتشار الوعي والمعرفة وانفتاح مجتمعاتنا على العالم، بل هي موضوعة تحت المجهر وتسلط الأضواء عليها. ومن الخطأ التوهم بإمكان حصر مشكلاتنا وقضايانا ضمن أطرنا الضيقة، وأن تظلّ المعلومة حبيسة الغرف السرية أو العقول الصامتة أو الأجهزة المغلقة، وبعيدة عن الأنظار كي لا يطّلع عليها الآخرون، وبعيدة عن فضول وتتبع ونشر وسائل الإعلام المتنوعة، إلا أن الحقيقة في عالم اليوم، أن ما يمكن أن يعرفه الآخرون من تفاصيل أوضاعنا، يمكن أن يكون أكثر مما نعرفه نحن عن أنفسنا.

وفي ظلّ هذا الواقع التقني المتطور والمتقدم يطالب الشيخ الصفار بتجاوز حالة الخوف من النقد، أو اتخاذ المواقف السلبية الرافضة تجاهه، فما دمنا لا ندّعي العصمة لأنفسنا، ونتطلّع للأفضل، ونؤمن بدور التناصح والتواصي، فعلينا أن نقبل النقد والتقويم لكل أوضاعنا وقضايانا، والذين يرفضون النقد كأنهم يدّعون العصمة، أو يفتقدون التطلّع للأفضل، ويرون أنه ليس بالإمكان أفضل مما كان من أعمالهم، أو يتعالون ويترفعون على

قبول التناصح والتواصي.[١]

النقد وتفعيل الحراك الاجتماعي

إن هذا الذي يدور ويحدث بيننا من مشكلات طارئة أو مزمنة، أو من صراعات واختلافات وتنافس، رغم اختلافنا في تقييمها وأثرها وتبعاتها، لربما تشكّل على المدى البعيد تطورًا مفيدًا وإيجابيًّا، خصوصًا إذا ما أديرت هذه الصراعات بعقلية إيجابية، تؤدي إلى خلق حراك اجتماعي وسياسي وثقافي يثري واقعنا، ويختبر ما هو موجود من رؤى وأفكار، ومدى قدرتها على المساهمة في تغيير الواقع وتطويره. والحقيقة التي يجب أن تقال، أن السجال والجدل والصراع والتنافس في أي مجتمع، هو الذي يخلق الحيوية والنشاط، بدل الخمول والبلادة والتقوقع على الذات الذي يسود المشهد في بعض المجتمعات المتخلفة، التي لم تستطع الخروج من قيود الماضي وأغلاله، وتتجاوز ذلك إلى العمل على خلق حراكها الحديث والمعاصر.

يقول الشيخ الصفار في هذا الصدد: إنه حين يتبنى الإنسان رأيًا باعتباره حقًّا وصوابًا، ويرفض رأيًا آخر باعتباره باطلًا وخطأً، فإنه غالبًا ما يندفع للانتصار للرأي الذي يؤمن به ويسعى لنشره، كما يهتم بإضعاف جبهة الرأي الآخر، وخاصة على مستوى الرأي الديني والمعتقدات الفكرية. ومن المشروع أن يجتهد الإنسان في خدمة متبنياته الفكرية، فذلك هو ما يخلق الحراك الفكري في المجتمع البشري، عبر حالة التنافس، واستثارة العقول، وكشف ثغرات الآراء، وإذا لم يهتم أصحاب الآراء بطرح أفكارهم والدفاع عنها تسود حالة الركود الفكري، والجمود المعرفي، إلا أن ما يجب لفت النظر إليه، أن هناك **نهجين** في الانتصار للرأي، **أحدهما** هو نهج العنف والقمع لأصحاب الرأي الآخر، بمحاصرتهم والتضييق عليهم، والتنكيل بهم، ليتراجعوا عن آرائهم، ولمنع انتشارها في المجتمع، أما **النهج الآخر**، فهو نهج المواجهة الفكرية، بالاجتهاد في تبيين الرأي، وإثبات صحته وأحقيته بالدليل العلمي والبرهان المنطقي، ونقد الرأي الآخر بكشف نقاط ضعفه، ومكامن الخطأ

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول ـ من حوار مع مجلة الموسم.

فيه، وإبطال حججه ومستنداته.(١)

إن تجاوز حالة الخوف من النقد، والرهبة من مفاعيله وتداعياته، يتطلب إثراء واقعنا الثقافي بإنتاج فكري واجتهاد ديني حديث، يواكب ما ينتج من أفكار خلاقة من حولنا، ويتميز بمواكبة ومجاراة الواقع المعيش وتحولاته، ومعالجة ما ينج عنه من هموم ومشكلات وتحديات، كما يمكن أن يكون لهذا النتاج الفكري والاجتهاد الديني، دور في حفر البنية الثقافية السائدة والراكدة، ونقد وتجاوز المفاهيم والرؤى البالية التي تجاوزها الزمن، وإعادة صياغة عقل الإنسان المسلم بثقافة جديدة قادرة على مواكبة الحاضر والإبداع فيه، وتتسم بالجرأة والشجاعة في طرح القضايا والمسائل بدون وجل وتهيّب وخوف.

فالإنسان الواعي يتحمّل الضغوط ويلتزم بالحق، كما يفترض الشيخ الصفار، بعيدًا عن رضا الناس أو عدمه، فعندما يقتنع بصحة الأفكار الجديدة لا يخشى من إعلان اقتناعه بها، وفي دعاء للإمام الحسين في يوم عرفة يقول فيه: «**ماذا وجد من فقدك، وماذا فقد من وجدك**»، فالإنسان الذي يصل إلى الحق والحقيقة باقتناع، لن يتنازل عنها من أجل أي شيء آخر، حيث لا شيء يوازي الحق أو يكون بديلًا عنه.

ويتابع الشيخ الصفار فكرته مستشهدًا بسيرة الرسول ﷺ عندما واجه مثل هذه الحالة في المجتمع، لكنه صبر ممتثلًا قول اللّه تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا**﴾، إذ قالوا عنه: ساحر، مجنون، كذّاب، مفتري، ولكن هذه الحالة طبيعية واجهها جميع الأنبياء والرسل والمصلحين، يقول تعالى: ﴿**مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ**﴾.

ويدعو الشيخ الصفار المصلحين إلى أن يعرفوا أن هذا هو الطريق، فعليهم أن لا يضعفوا أمام الإشاعات والدعايات والاتهامات، فهي حالة طبيعية يواجهها جميع المصلحين، وفي الآية الكريمة معنى مهم جدًّا، يقول تعالى: ﴿**وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا**﴾، فالمصلح حينما يطرح آراءه وأفكاره الإصلاحية في المجتمع، وتحصل حالة الاعتراض عليه، فهنا يتوجب

---

(١) من كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. ص ٢٣

عليه أن يهجر المجتمع، ولكن ذلك لا يعني مقاطعة المجتمع أو الهروب منه؛ لأن ذلك ما يرنو له المناوئون، ولكن ينبغي أن يكون هناك إصرار على التداخل والتعاطي والتواصل مع الناس، والهجر الذي تسميه الآية الكريمة بالهجر الجميل يعني عدم التأثر بالدعايات والإشاعات التي تُطرح، فيكون هجران المصلح للمجتمع متمثلًا في عدم الركون إلى الجوانب السلبية وعدم التأثر بها، وألا تنمو لديه مشاعر العداء والبغض والكراهة لأبناء المجتمع، بل يواصل دعوتهم برفق ومحبة وسعة صدر.(١)

وإذا كان من واجب الإنسان أن يفتش عن الحق، ويبحث عن الحقيقة، وأن لا تحجزه عنها سحب الاعتراضات والإشاعات، التي غالبًا ما تواجه دعوات الحق والأفكار الجديدة الصحيحة بالمعارضة والرفض، فإنه من الواجب أيضًا على ذوي الأفكار الجديدة، أو ما يمكن أن نطلق عليه بالمصلحين، أن يكونوا موضوعيين في توقعاتهم من مجتمعاتهم، فلا يتوهمون سرعة الإقبال والنجاح لآرائهم، فيصابون بالخيبة والإحباط، بل يتحلون بالصبر والاستقامة فذلك هو طريق الإصلاح والتغيير.

إلا أن هذا الحراك الاجتهادي والفكري الخلّاق، الذي نحن بحاجة ماسة إليه، لن يتحقق إلا في ظل أجواء الحرية والانفتاح الفكري، لتتحرك العقول، وتبدع الأفكار، حسب رأي الشيخ الصفار، أما إذا ساد الإرهاب الفكري، واتهمنا كل من يطرح فكرة جديدة، وشككنا في نيّات كل من ينتقد أو يعارض، فإننا بذلك نحرم أنفسنا من الإبداع الفكري، ونخسر الآراء الصائبة، ونشل العقول والأفكار.(٢)

لقد بات مؤكدًا أن المجتمعات التي تعيش حياة السكون والرّتابة، نتيجة خلو بيئتها من الأفكار الخلّاقة، أو نتيجة رفضها للرأي الآخر واغتياله، وقتلها لحالة التعدد والتنوع، بسبب هيمنة فكرة وحيدة، وتفردها بالفضاء المعرفي، وتسلطها على الحياة الاجتماعية، لن يكون بإمكانها إيجاد ما يمكن وصفه بالقوة الكامنة، التي تحرك وتولد وتنتج الأفكار الفعالة

---

(١) من كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. ص ٧٦

(٢) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول ـ من حوار مع مجلة الموسم.

والخلّاقة، والقادرة على تحريك أجواء السكون المسيطر والمهيمن، وتحويله إلى فعل خلّاق ومنتج، يؤدي إلى إحداث تحول نوعي في مسيرة هذه المجتمعات ومسارها، وتحويلها من الرّتابة، إلى الحركة والفاعلية، والانطلاق نحو الإبداع والتقدم.

التنافس الخلّاق بين الأفكار

يطالب الشيخ الصفار الناس في مجتمعاتنا بأن يكونوا واثقين من أنفسهم وأن لا يخافوا من الانفتاح على الآراء والأفكار الجديدة، فالمجتمعات الحية والنشطة لا تخاف من هذا الانفتاح، خصوصًا عندما يملك الناس فيها الثقة بأنفسهم وعقولهم لمناقشة وتقويم هذه الأفكار ومماحكتها، فقد منح اللَّه تعالى الإنسان عقلًا، عليه أن يُعمله بالأسلوب الصحيح، ولا يعني هذا أن يقبل الإنسان كل فكرةٍ جديدة دون دراسة وبحث، وإنما عليه البحث والتمحيص، ليحدد موقفه من أي فكرة، واللَّه تعالى يصف المؤمنين بقوله: ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾، ولفظة ﴿**يَسْتَمِعُونَ**﴾ تُفيد تقصد الاستماع لا أن يكون ذلك مجرد صدفة، و﴿**الْقَوْلَ**﴾ تعني الآراء والأفكار، ﴿**فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾ من خلال إعمال عقولهم.[1]

وعلى هذا الأساس من الضروري أن تتاح الفرصة للأفكار والرؤى والاجتهادات المختلفة بالتنافس والتسابق الشريف فيما بينها، وأن تتاح لها الفرصة ليكون لها متسع من المجال لعرض منتجاتها الفكرية، والتعبير عن مضمونها ومكنوناتها، ليراها الجميع كما هي، ويختبر الناس مدى صدقيتها، ويختاروا الأجود والأنسب والأقرب لهم من بينها، ويروا الأجدر منها على البقاء والنمو والثبات، أو الاندثار والتلاشي والانهيار. ليكون التنافس الخلّاق بين هذه الأفكار والاجتهادات المتنوعة هو الرافعة التي تدفع الجميع لتقديم الأفضل والأجود، والسعي نحو التطوير والتحسين، من أجل جذب واستقطاب جمهور الناس وكسب ودّهم ورضاهم، وبالتالي تجاوز حالة الركون والرّتابة والكسل والكساد الفكري.

---

(١) من كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. ص ٧٥

والشيخ الصفار يشدّد على ضرورة الحرص على صحة أفكارنا، وعلى صوابها، ويستشهد بكلمة جميلة للإمام الحسن عليه السلام يقول فيها «**عجبت لمن يفكر في مأكوله كيف لا يفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويدخل إلى عقله ما يرديه**»، ففي الجانب الفكري حينما أسمع فكرة يجب أن أتأكد منها. ومن منهجية التأكد أن أطّلع على الأفكار الأخرى، واطّلاعي على الفكرة الأخرى أما أن يؤكد لي صحة فكرتي، أو يكشف لي عن صحة الفكرة الأخرى، وأينما وجدت الحق يجب أن آخذه حتى ولو كان عند غيري.[١]

من الصعب علينا التأكد من صحة أفكارنا، والادّعاء بأنها الأنسب، إذا لم توجد في ساحة المنافسة أفكار أخرى مختلفة ومتنوعة معروضة أمام الملأ، حتى يمكن الاطّلاع عليها وتقييمها والبحث فيها والتأكد منها، قبل تحديد واختيار الأنسب، لأن عرض الأفكار المختلفة أمام بصر الإنسان وعقله، وانفتاحه عليها وفحصها، تتيح له الاطّلاع عليها والمقارنة بينها، وبالتالي اختيار الأفضل والأجود، وأخذ الأصح والأصلح والأفضل له منها.

في نصّ بعنوان الانفتاح الفكري بين المذاهب الإسلامية ضمن **كتاب التعددية والحرية في الإسلام** يتساءل الشيخ الصفار عن الذي يشدّ الإنسان المسلم إلى مذهب من المذاهب، أو إمام من الأئمة؟ وما الذي يدفعه إلى اعتناق هذه الفكرة، أو الالتزام بذلك المنهج؟

يفترض الشيخ الصفار أن الدافع وعنصر الانشداد هو طلب الحقيقة والوصول إلى الرأي الأصح والأصوب عقائديًّا وتشريعيًّا، لإحراز براءة الذمة ورضا اللّه سبحانه وتعالى، حيث يتفتح وعي الإنسان المسلم في هذه الحياة فيرى أمامه عدة مناهج وطرق في فهم عقائد الإسلام وتحديد جزئيات أحكامه، وعند الاختلاف فإن الحقّ لا يتعدد خلافًا لما يراه المصوبة، فإذا ما كان هناك أكثر من رأي حول قضية واحدة، فلا بد أن بعضها مصيب والآخر مخطئ، كما أن نسبة الصواب والخطأ قد تكون نسبية بين الآراء، وعلى أحسن الفروض فإن هناك صحيحًا وأصح وصائب وأصوب، مع قطع النظر عن

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول ـ من حوار مع صحيفة الوطن الكويتية.

معذورية المخطئ، بل وثوابه ما دام مجتهدًا قد بذل غاية وسعه، فإن المجتهد إذا أصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر واحد.

وهنا يفترض في المسلم أن يدرس ويتأمل المذاهب والمناهج المطروحة في الساحة الإسلامية، ويعتمد على عقله وتفكيره وعوامل الاستدلال والاطمئنان المتوافرة لديه، لكي يختار أحد تلك المناهج والمذاهب، وهو الأمر الذي يعني **أمرين اثنين**، كما يعتقد الشيخ الصفار:

الأول: إتاحة الفرصة وتوفر المجال للاطّلاع على مختلف الآراء والمذاهب، بأن تسود أجواء المجتمع حرية فكرية ثقافية، يتمكن الإنسان عبرها من تعرّف جميع الطروحات والآراء، وهذا ما كان متداولًا ومعروفًا في العصور الإسلامية الأولى، حيث كانت تتعدد حلقات الإفتاء والتدريس في المساجد العامة، وفقًا لتعدد المذاهب واختلاف الأئمة، كما كانت تنعقد جلسات المناظرة والحوار، وتتداول كتب العقائد والحديث والفقه على رأي مختلف المذاهب والمدارس.

ومن المهم هنا التأكيد بأن حرية الفكر والثقافة حقّ طبيعي للإنسان، ومبدأ أساس من مبادئ الإسلام، وإذا ما انعدمت هذه الحرية الفكرية، واستبدّ بالساحة مذهب واحد ورأي فكري واحد، مع حظر باقي المذاهب وقمع سائر المدارس، فإنه لا يمكن للمسلم أن يطمئن إلى صحة اختياره وانتخابه للمذهب المفروض عليه بشكل غير مباشر.

أما **الأمر الثاني**: فهو ضرورة **اهتمام المسلم بالبحث الموضوعي وتجرده عن دواعي التعصب والمصلحة**، ذلك أن الكثيرين لا يجدون دافعًا للبحث والاهتمام، مكتفين بما يجدون عليه عوائلهم وأهاليهم، وما يسود في مجتمعهم وبيئتهم. وإذا ما تجاوزنا المسألة الذاتية ومسؤولية الإنسان تجاه نفسه، بالبحث عن الحقّ لاعتناقه والتزامه، فإن هناك قضية أخرى ترتبط بموقف الإنسان تجاه الآخرين وإصداره الأحكام على معتقداتهم ومذاهبهم، حيث لا يصح له الانطلاق من الجهل والتسرع دون معرفة واطّلاع للحكم على الآخرين، لقوله تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ

مَسْؤُولًا ﴾[سورة الاسراء، الآية:٣٦].

وبناءً على ذلك يلفت الشيخ الصفار إلى أن من أهم عوامل الصراع وسوء التفاهم بين أتباع المذاهب الإسلامية، هو الجهل المتبادل، وعدم الانفتاح الفكري فيما بينهم، حتى على مستوى العلماء والقيادات، حيث يحتفظ كل طرف لنفسه بانطباع وموقف سلبي تجاه الطرف الآخر، دون أن يكلف نفسه عناء البحث والتأكد من صحة انطباعه وموقفه، ودون أن يدرك ما يمكن أن ينتجه هذا الموقف الجاهلي من أخطار وتبعات على وحدة الأمة وتماسك صفوفها.[١]

حرية التنافس بين الأفكار

إن نشاط وحيوية وفاعلية وحركية أي مجتمع، يعتمد على ما هو موجود فيه من أفكار متعددة ومتنوعة العناوين، تتلاقى وتتدافع وتتصارع وتتنافس بشكل خلّاق على كسب ونيل ثقة الناس. فازدهار المجتمع يعتمد على مدى القدرة في إفساح المجال لحرية نمو الأفكار المتنوعة، وفتح الأبواب لها كي تخوض تجربة التدافع والتنافس الخلّاق. ففي مثل هذه المناخات والأجواء تتسع وترتفع فرص الانفتاح والتلاقح على كل المستويات.

والتنافس بين الأفكار والاجتهادات هو أمر مطلوب من أجل إثراء مجتمعاتنا في هذه الحياة، والإبداع فيها وإنمائها، وتزويد إنسانها بكل ما هو جديد ومتطور يساهم في الارتفاع والارتقاء بمستواه وكرامته. أما عندما يتحول أو يفهم هذا التنافس على أنه حرب واحتراب، وما يجري خلالهما من خداع وغش وتآمر وأحقاد، فإن ذلك يكشف عن ضيق النظرة وضيق الصدر من فكرة وفكر الآخر، والأنانية والخوف المرضي، أو التضخم الذاتي والغرور، الذي لا ترى فيه النفس إلا ذاتها المتضخمة والمتعالية.

وشرط نجاح التنافس بين الأفكار هو ضمان حرية التنافس، بعيدًا عن الأفعال التي تنتهك هذه الحرية وتقوضها، كما يتطلب احترام الآخر، وترويض الذات على القبول

---

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ٢٧٧

به، وبكلّ الأفكار والاتجاهات المغايرة والمنافسة، وضمان حرية التنوع من دون المراهنة والاتكاء على عمليات الغش والتزوير والرشوة، أو المراهنة على دعم ومساعدة مصادر خفية غير نزيهة ومشكوك في مصداقيتها، ولا يهمها غير استنزاف قوانا وطاقاتنا وثرواتنا من أجل مصالحها الذاتية الضيقة.

إن التنافس بين الأفكار والتسابق بينها على كسب قلوب الناس وعقولها، يجب أن يتم بالطرق السليمة والأساليب الشريفة، بعيدًا عن الأساليب غير اللائقة والمواجهات العنيفة والغاضبة والصاخبة وسوء المعاملة والانزعاج والتشكيك، وإنما يتم ذلك بالأخلاق الرفيعة وعبر فتح القلوب وانشراحها، وشرح الأفكار والرؤى بالحوار الواضح الصريح، فالفكر لا يواجه إلا بالفكر، والرأي لا يواجه إلا بالرأي، من خلال الحوار العلمي العقلاني وبالمنطق والدليل المقنع، وحينما تكون النفس مشحونة بالغضب والرغبة في الانتقام، أو ردّ الاعتبار، أو غير ذلك من الشحنات والمشاعر السلبية، التي تدخل إلى العقل فتزيده حيرة وصعوبة في اتخاذ القرار الصحيح، عندها ستخرج القضية عن أن تكون حوارًا علميًّا ومنطقيًّا.

لذلك فإن مواجهة الفكر الذي نعتقد ونرى أنه منحرف وخاطئ لا يتم إلا من خلال منهج الحوار. وطرح الآراء وإن كانت مخالفة للمألوف، كما يشير الشيخ الصفار، أمر لا يمكن منعه والوقوف أمامه، فنحن لا نستطيع أن نمنع الرأي الآخر المخالف لما نرى ونعتقد، واللّه سبحانه وتعالى لم يعطنا الرخصة أيضًا في قمع الأفكار والآراء، فالقرآن يقول: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾[سورة البقرة، الآية:٢٥٦] .. ويقول أيضا جل جلاله: ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾[سورة الزمر، الآية:١٨] .. ويقول: ﴿**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**﴾[سورة سبأ، الآية:٢٤].[١]

حقّ الاختلاف وشرعية الاجتهاد

إنه لمن الطبيعي أن تتعدد وتختلف الرؤى والأفكار والمواقف في أي مجتمع تجاه أي

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول ـ من حوار مع صحيفة الوطن الكويتية.

قضية عامة أو مشكلة تواجهه، وذلك تبعًا لاختلاف الاجتهادات الفكرية أو الانتماءات العقائدية لكل طرف. ومن حقّ كل تيار أو جهة أو أي فرد كان، أن يطرح رأيه وتصوره ومشروعه والطرق المناسبة لتحقيقه، أو تصور الحلول للخروج من المآزق التي يعاني منها المجتمع. كما أن من حق الجميع أن يبشر بأفكاره وتصوراته والمشاريع التي يؤمن بها، وأن يستقطب لها الأنصار والمؤيدين والمريدين. كما أنه من حقّ كل طرف نقد تصورات الآخرين من المختلفين والمنافسين لهم، ونقد سلوكهم وممارساتهم، وأن يبشروا بالبدائل التي يقترحونها، شرط أن لا يكون الأسلوب المتبع في الطرح هو التشويه والتزييف والتجريح، مع أهمية الابتعاد على أساليب الإلغاء والإقصاء والاغتيال المادي والمعنوي.

إن تكرار التطرق والحديث عن التعددية والتأكيد على أهميتها في العديد من مواقع هذا الكتاب، يأتي بسبب ما تتشكل منه وتحتوي عليه مجتمعاتنا ودولنا من اختلاف وتعدد وتنوع وتباين في الانتماءات والأفكار والرؤى والأمزجة السياسية والأيديولوجية والمرجعيات الفكرية والدينية والمذهبية والطائفية، يمكن لها أن تكون عامل إثراء ومصدر قوة، ومنطلقًا للتدافع والتسابق على طريق الخير والتقدم والإصلاح والتغيير في ميادينه المتنوعة والمتشعبة. والتعددية هذه ظاهرة طبيعية في المجتمعات متعددة الفئات والتوجهات والطبقات، ومتعددة والانتماءات المرجعيات والأيديولوجيات، حيث يتوزع التكوين الاجتماعي فيها على مراتب وطبقات متباينة، وتختلف فيها المصالح والمقدّرات، مما يؤسِّس للاختلاف بينها في النظر إلى تلك المصالح، وسبيل الدفاع عنها وتعظيمها وإدارتها.

ففي عصر العلم والمعرفة، وازدياد حالة الفضول لدى الإنسان للاطّلاع على خبايا الكون والحياة، وتعرّف أوضاع الشعوب والقبائل النائية والبعيدة، لا يصح لنا أن نجهل بعضنا بعضًا، كما يقول الشيخ الصفار، أو ينغلق كل منّا على مذهبه ومعتقداته دون أن يوسّع أفق معلوماته، بدراسة سائر الآراء والمذاهب والاطّلاع على مختلف التيارات والمدارس الإسلامية، مضيفًا أنه إذا كان ينبغي لكل قادر واعٍ أن يسعى للمعرفة والاطّلاع، فإن من المهم أيضًا على أتباع المذاهب أن يعملوا على التعريف بمذاهبهم وتبيين وجهات نظرهم دفعًا للتهم والشبهات، فالناس أعداء ما جهلوا.

إن ساحتنا الفكرية تعاني من الجمود والتقوقع والإرهاب، ولن يكون هناك أمل في تجاوز هذه الحالة، كما يشرح الشيخ الصفار، إلا من خلال نهضة ثقافية فكرية، نرتفع بها إلى مستوى الانفتاح العلمي، والتحرر الفكري، والتنافس المعرفي الهادف، حتى تتفجر الطاقات والمواهب وتتبلور الأفكار والآراء، ونستفيد من إيجابيات كل المذاهب الإسلامية لتقديم صورة مشرقة عن الإسلام العظيم للعالم، ولبناء أسس حضارة إسلامية جديدة ترتقبها كل جماهير أمتنا بشوق ورجاء، فنحن اليوم بأمسّ الحاجة إلى مؤسسات علمية فكرية تدرس قضايا الدين والحياة على ضوء مختلف المذاهب الإسلامية، وإلى معاهد ومؤتمرات وندوات تخصصية لمناقشة موارد الاتفاق والاختلاف بين طوائف المسلمين بروح موضوعية أخوية.(١)

إن ما نشاهده من تعدّد وتنوع في ساحة الأمة هو أمر طبيعي، كما يقول الشيخ الصفار، وليس أمرًا طارئًا وحديثًا، فالمذاهب والمدارس الإسلامية والاختلاف فيما بينها هو حقيقة قائمة ومسألة تاريخية، ولم تكن الأمة في أي يوم من الأيام، أو من أيام تاريخنا المديد، تنصبغ بصبغة محددة ولون واحد في الفكر والسلوك، أو في المعتقدات والخصوصيات.

والحقيقة التي يؤكد عليها الشيخ الصفار، انه لا يمكن التنكر لوجود اختلافات رئيسة في قضايا عقدية وفقهية بين المدارس الإسلامية، مع الاتفاق على أصول الإيمان وأركان الإسلام. وهذا الاختلاف ليس جرمًا ولا عيبًا، بل هو نتاج طبيعي لإعمال حقّ الاجتهاد والنظر في النصوص الشرعية، التي قد تحتمل أكثر من وجه وتفسير، وهو متفرع في معظمه عن اختلاف رجال العهد الإسلامي الأول، من سلف الأمة، الذين تنسب إليهم هذه المذاهب، حيث نجد في سيرتهم تنوع الآراء والاجتهادات العقدية والفقهية، وهو الأمر الذي يعدّ ظاهرة قديمة عريقة في تاريخ الأمة، حيث كان الأئمة والفقهاء يديرون خلافاتهم في ساحة البحث والنقاش عبر آليات البرهنة والاستدلال.

ويضيف الشيخ الصفار أنه من المعلوم أن اختلاف الاجتهادات قد أنتج ثراءً في معارف

---

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ٢٨٧

الأمة، وعزّز حرية الرأي والفكر، وأفسح المجال لتعدد الخيارات في معالجة بعض المشاكل الفكرية والحياتية التي تواجه الأمة. لكن ما عانت منه الأمة هو سوء التعامل والتعاطي مع الرأي الآخر، بين الأطراف المختلفة، بدءًا من رفض حقّه في الوجود، وانتهاء بإلغاء حياة من يقول به، أو تعطيل دوره وتهميشه، وتضييق الخناق عليه.

ويتوقف الشيخ الصفار عند أهم ذرائع ومبررات هذا الاستبداد الفكري في تاريخ الأمة، مشيرًا إلى دعوى الحفاظ على وحدة الصف واجتماع الكلمة، انطلاقًا من أن وجود الرأي الآخر يعني الفرقة والانشقاق، إلا أن هذا الفهم لمفهوم الوحدة كما يوضح الشيخ الصفار، خطأ مرفوض، فالوحدة لا تستلزم إلغاء حرية الفكر، وشرعية الاجتهاد، ولا تعني فرض الرأي قسرًا على الناس؛ لأن ذلك مخالف لطبيعة البشر القائمة على الاختلاف، ولطبيعة النص الديني، كأيّ نص منقول، يقبل النقاش حول صحة نقله، فيما عدا النص القرآني القطعي الصدور، أو فهم المراد منه، مما يشمل النص القرآني ونصوص السنة الشريفة، وأقوال الأئمة والفقهاء. بالإضافة إلى ذلك فإن فرض الرأي منافٍ لظواهر النصوص الدينية، التي تؤكد على كرامة الإنسان، واحترام حقّه في التفكير والاختيار، والتعبير عن الرأي.

ويستنتج الشيخ الصفار أنه عندما تتجاوز إدارة الاختلافات بالتي هي أحسن، وتخرج عن إطار البحث والنقاش عبر آليات البرهنة والاستدلال، إلى فرض الرأي، ومنع وسلب حقّ التفكير والاختيار، ومنع حرية التعبير عن الرأي، فإن ذلك لا يتم في الغالب إلا بفعل العامل السياسي والدوافع المصلحية، إلا أن ما يمكن الإشارة إليه هنا أن سيرة الإمام علي، كما يرى الشيخ الصفار، مثّلت خير نموذج ومثال على حرية الاعتقاد والرأي التي سادت فترة خلافته، حيث لم يواجه الإمام آراء مخالفيه العقدية والسياسية بالعنف والقمع السياسي، ولم يمارس الإرهاب الفكري تجاههم أيضًا، فلم يكفّرهم أو يشكّك في دينهم، كما أنه لم يصادر شيئًا من حقوقهم المدنية بسبب كل ذلك، بل أعلن ضمانها لهم، ما لم يتجاوزوا حدود الرأي إلى إشهار السلاح وإثارة الفتنة.[١]

(١) من كتاب خطاب الوحدة نقد وتقويم.

الاعتراف بوجود آخر والانفتاح على أفكاره

يبقى القول في الأخير أن التعددية، التي هي أمر طبيعي في كل مناحي الحياة، هي للأسف أمر مرفوض وغير مقبول نفسيًّا من قبل الكثير من التيارات والفئات المختلفة، كما هو عند الكثير من الناس، نتيجة تراكمات تاريخية وأسباب تربوية، على الرغم من عدم حداثة هذا الشعار والدعوة إليه بيننا، وإذا لم يتحول هذا الشعار إلى حقيقة واقعة، ونهج عمل، وأعمال تطبيقية على أرض الواقع، فسيظلّ هذا الشعار وغيره من الشعارات والمفاهيم والقيم، مجرد دعوات لفظية، وأوهامًا تزيد في دغدغة المشاعر وتخدّر العقول.

علينا الاعتراف والإقرار بوجود أفكار ومدارس ومذاهب أخرى، غير تلك التي نؤمن بها، وهو الأمر الذي سيخفف من غلواء وحده التنازع والخصام والتشنج في مجتمعاتنا، ويشكّل مدخلًا إلى التنافس الفكري الخلّاق. وتنظيم هذا التنوع والاختلاف والتنافس الحرّ بينها بشكل إيجابي وخلّاق، سيؤدي إلى تطوير وتحسين كل الأفكار والمدارس وتطويرها، وينعكس إيجابيًّا على المريدين والأتباع وكل إنسان يؤمن بها، بعيدًا عن هوس التعصب والتصادم والإلغاء والتشنج والتزمت بكل أشكاله.

إن الإنسان الذي ينفتح على الأفكار الأخرى المختلفة، ويتحاور معها ويستفيد منها، يساهم في تطوير ذاته وإمكاناته، وينقلها من مستويات متدنية في الوعي إلى مستويات متقدمة من الوعي بالذات وبالواقع والحياة والمجتمع وما يجري فيه ومن حوله من أحداث وتطورات، أما العيش في زوايا منعزلة ومغلقة الأبواب والنوافذ، لا يدخل النور والضوء إليها، فإن ذلك لن يزيد هذا الإنسان إلا انحدارًا وقوقعة على الذات، وانعزالًا عن مجريات الحياة وتطوراتها المختلفة.

لذلك كانت المجتمعات البشرية على مرّ التاريخ في حاجة دائمة إلى التجديد والإصلاح، في أفكارها وآرائها وأنماط حياتها، كما يلفت الشيخ الصفار؛ لأن البقاء على وضع وحالة معينة ليس شيئًا سليمًا، فطبيعة الحياة فيها تغير وتطور، ولذلك نرى تعدد الأنبياء، فمع تغير الزمان والمجتمعات ينزِّل اللّه تعالى شرائع جديدة، وكذلك الحال في

تعاليم الإسلام نجد أن باب الاجتهاد مفتوح، لتغير وتطور طبيعة الحياة، مما يستدعي حدوث تغير وتطور في بعض الآراء والأفكار. ففي حياتنا وأوضاعنا الدينية كانت هناك آراء سائدة، وعندما طُرحت آراء جديدة رُفضت في البداية، ولكن بعد مدة من الزمن تلاشى الرأي السابق، وأصبح الرأي الجديد الذي كان مرفوضًا هو السائد والمقبول.[1]

هناك من الناس من يكتفون بما لديهم من مخزون ثقافي متوارث، ولا يرضون عنه بديلًا مهما كان الزمن الذي يعيشون فيه، فيعيشون الرضا والاقتناع والإشباع بما لديهم من أفكار وقناعات بشكلٍ لا يشعرون معها بالحاجة إلى الجديد، وكأنهم يتمثلون مقولة: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ**﴾، إلا أن هذا الأمر ليس دائمًا محقًّا وصحيحًا، فقد يكون ما هو سائد صحيحًا في زمن أو ظرفٍ معين، لكن ليس من الصحيح أن يكون صحيحًا في كل الأوقات والأزمنة، فالأزمنة والظروف تتغير، فتحتاج الأفكار والقناعات إلى تجديد وتغيير وإصلاح.

---

(١) من كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. ص ٧٤

ثالثاً:

التنمية الإنسانية كأساس للنهضة الثقافية

مما لا شك فيه أن عملية النقد والمراجعة لتاريخ وتراث وثقافة هذه الأمة جزء أساس ومبدئي لأيّ مشروع نهضوي جديد نسعى إليه. لكن الأمور عندما تجري وتسير على غير هدى هذا الطريق، فإن ذلك سيؤدي إلى تعثّر مشروع النهضة المرجوة وخلخلة أسسه وبنيانه. وبناء أعمدة راسخة وقوية لهذه النهضة، وتمتين بنيانها المعرفي، يحتاج إلى عقل ناهض وحديث، غير مأسور للماضي ومحبوس فيه، أو مقيّد بأغلال تراث وثقافة انتهى زمنها، إننا بحاجة إلى عقل يمارس عملية النقد والمراجعة والتقويم، ويفحص آلياته ومفاهيمه وتصوراته؛ لأن النهضة التي نريدها يجب أن تبدأ من العقل، ومن دونه لا شيء يمكن أن يتم أو يتحقق.

إن هذا العقل هو ما يميز الإنسان عن غيره، فهو وحده يملك العقل، وبه يتمكن من التطوير والتجديد في حياته، أما سائر الحيوانات والكائنات، فتسيّرها غرائزها وطبيعتها التي خلقها اللَّه تعالى عليها، ولا قدرة لها على التفكير والتغيير، لذا تبقى طريقتها في الحياة ثابتة رتيبة، بينما تستمر التطورات والتحولات في حياة الإنسان. وكلما اتجه الإنسان لعقله، واستخدم فكره، وارتقى بعلمه ومعرفته، زادت وتيرة التجديد والتغيير في حياته، وبذلك يرتفع إلى مستوى تميزه كانسان، أما إذا ما تجاهل قدراته العقلية، وجمّد تفكيره، ولم يُنَمِّ علومه ومعارفه، فسوف يعيش حياة الركود والجمود، ليقترب من حضيض عالم الحيوانات الرتيب.

إن هذه الحياة، كما يقول الشيخ الصفار، هي ميدان سباق، يتفوق فيه رواد التطوير والتجديد، فالمجتمع الأكثر تجديدًا، والأسرع تطورًا، يحرز التقدم ويفرض نفوذه وهيمنته، بينما المجتمع الراكد البطيء الحركة تتأسّن أوضاعه، ويصيبه الهرم، ويصبح متخلفًا، يخضع لهيمنة المتقدمين، وخاصة في هذا العصر، حيث انعدمت المسافات، وسقطت الحدود والحواجز، ولم يعد هناك مجال للتوقف والجمود، فإما أن تكون منتجًا لحركة التطوير والتجديد، أو متهيئًا لاستقبالها واستيعابها بدرجة ثانية، حتى لا تصطدم مع ثوابتك ومبادئك، وإلا فستعصف بك حركتها الجارفة، دون خيار منك، لتصبح تابعًا مستهلكًا لما ينتجه الآخرون، من سلع وأفكار وبرامج وسلوكيات.[١]

إذا لم يحسم موضوع المراجعة والنقد والتشريح ستبقى عملية النهضة معلقة بدون فاعلية، ولن يكون مجديًا الاكتفاء بالتألم والتحسر والصراخ على ما أصاب الأمة من نوازل وإخفاقات وضعف عام وتخلف شامل واعتداءات ومؤامرات، أو الاكتفاء بلعن الأعداء الخارجيين ومؤامراتهم وتسلطهم، بل لا بد من التوجه إلى التنمية والبناء، كما يشدّد على ذلك الشيخ الصفار، مطالبًا بدفع أبناء الأمة نحو كسب العلم والمعرفة، واقتحام ميادين التقدم التقني والتكنولوجي، وتفجير قدرات الإبداع والتطوير، وتعبئة الأمة باتجاه التنمية السياسية، بحيث يتحمل كل مواطن مسؤوليته تجاه وطنه، بتحقيق المشاركة السياسية، والتمتع بالحقوق المشروعة، وإرساء مفاهيم السلم الاجتماعي بقبول التعددية واحترام الرأي الآخر، ورفع مستوى الفاعلية والإنتاج.

ويشير الشيخ الصفار إلى أن في بلاد المسلمين خيرات وثروات وموارد اقتصادية هائلة وفرص للعمل والنمو، لكن الإنسان محدود الفاعلية قليل الإنتاجية في الغالب، وتكبّله كثير من العادات والقوانين المعوقة المثبطة، حيث يطالب الشيخ الصفار الخطاب الإسلامي بالتوجه إلى الإنسان المسلم لدفعه نحو فاعلية أكثر، وبالتوجه إلى داخل الأمة لدفعها نحو مناهج التنمية وبرامج البناء، وليس فقط التحريض ضد الأعداء والتحفز

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ٩٠

لمواجهتهم، واجترار حالة الغبن والظلامة.[١]

الاهتمام بتنمية طاقات وثقافة الأجيال الشابة

إن الاهتمام بموضوع الشباب من القضايا الأساس التي دائمًا ما ترد وتتكرر في خطاب الشيخ الصفار الإصلاحي، من خلال تحفيزهم ودعوتهم ليكونوا عنصرًا خيّرًا وفاعلًا لأنفسهم وأهلهم، وفي المجتمعات التي ينتمون إليها وتحتضنهم، فالشباب كما يصفهم الشيخ الصفار يختزنون طاقات وكفاءات كبيرة، وبالتالي هذه الطاقات والكفاءات ينبغي أن تفجر، وينبغي أن توجه من أجل بناء واقع أفضل للأمة، ومن أجل مستقبل أفضل لهذه المجتمعات.

إلا أن وجود أوقات واسعة من الفراغ عند الشباب، يدلّ على وجود خللٍ كبيرٍ في مناهج التعليم، والمناهج التثقيفية، والمناهج الاجتماعية، لذلك ينبغي معالجة هذا الأمر بوضع صيغ توجه الشباب إلى استثمار هذه المرحلة الهامة من أعمارهم، بتفجير طاقاتهم وتنمية كفاءاتهم، خاصة وأن أمتنا في حاجة إلى النهوض العلمي، وفي حاجة إلى التقدم الحضاري، نحن في حاجة إلى التفكير في وضعنا الحالي، وإلى التطوير في واقعنا السياسي والاقتصادي، والشباب هم الأمل الذين يجب أن نتوقع منهم، وأن نتطلع إلى دورهم لإنقاذ هذه الأمة وتغيير واقعها.

والشيخ الصفار في سياق حديثه عن موضوع الشباب يسلط الضوء على أهم البرامج التي يراها مناسبة في مرحلة الشباب، ويمكن لها أن تحقق الاستثمار المجدي، مشيرًا إلى إمكانية بلورة هذه البرامج من خلال الأطر التالية:

الإطار الأول: يتحدّد من خلال **إتاحة الفرصة لهؤلاء الشباب ليشتركوا في الواقع السياسي لهذه الأمة**، ويعبروا عن آرائهم ويشاركوا فيما يرتبط بالشأن السياسي، وهذا يتم عن طريق فتح المجال لوجود مدارس وأحزاب وحركات سياسية، والكلام هنا على

---

(١) الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع جريدة الشرق الأوسط.

مستوى العالم الإسلامي ككل، التنظيمات والحركات والأحزاب السياسية تستقطب هؤلاء الشباب وتستوعبهم، وبالتالي تساعدهم على تفجير طاقاتهم وتربيهم على الاهتمام بشؤون أمتهم ومجتمعهم، بالطبع الأوضاع السياسية في البلدان تختلف حول موضوع وجود التجمعات والحركات والتنظيمات، في بعض البلدان تفسح المجال لقيام التنظيمات والأحزاب، وبعض البلدان لا تزال تحضر قيام أحزاب وتنظيمات، وكلامنا الآن هو على المستوى النظري، أعتقد على المستوى النظري أنه من المناسب جدًّا ومن أجل استقطاب هؤلاء الشباب أن يفتح أمامهم المجال لكي يهتموا بالشأن السياسي عبر الأحزاب والحركات والتنظيمات.

التنظيمات التي ألفتها الساحة الإسلامية كتنظيمات سرّية، وتنظيمات تعتمد العنف، وتعتمد العمل التخريبي، هذا أمر حصل في بعض الساحات، وهو أمر خاطئ، نحن لا ندعو إلى تنظيمات وإلى أحزاب من هذا القبيل، نحن ندعو إلى وجود تنظيمات تعتمد الفكر والمنطق، وتربي على الاهتمام بالشأن السياسي، وتنمي التوجهات الاجتماعية والسياسية عن الشباب، دون أن تدفعهم إلى العنف، ودون أن تدفعهم إلى التخريب، ودون أن تكون لديها مشاريع للفتنة والاحتراب الداخلي.

أما **الإطار الثاني** الذي يشدد على أهميته الشيخ الصفار، فيتبلور من خلال **إيجاد مجال للعمل الفكري والمعرفي**، ليس فقط على الصعيد الديني والنظري، وإنما على الصعيد العملي، من خلال وجود ورش عمل في مجالات الصناعة، وفي مجالات التكنولوجيا، ودفع الشباب لهذا الاتجاه هذا أمر مطلوب، لماذا نجد هناك نابغين، ومبتكرين ومكتشفين في المجتمعات الغربية، بينما لا نجد هذه الحالة بارزة في مجتمعاتنا؟ هل أن أدمغة شبابنا عقيمة، هل أن أبناءنا أقل مستوى وكفاءة من أبناء المجتمعات؟ وفي تلك الشعوب تتاح للشباب فرص التعلم والتطور الفكري، وتتاح أمامهم مجالات تنمية قدراتهم وتجاربهم على هذا الصعيد.

وأما **الإطار الثالث** فهو الإطار الاجتماعي، حيث يتحدث الشيخ الصفار إلى حاجتنا

لوجود **منظمات وأطر اجتماعية تستوعب هؤلاء الشباب**، وتوجههم للتطوع في خدمة مجتمعاتهم وأممهم، بل والإنسانية جمعاء، نحن نجد في الغرب منظمات تهتم بالعالم وعلى مستوى البشرية جمعاء، نجد أن هناك مؤسسات للإغاثة الدولية، ونجد هناك مؤسسات للدفاع عن الحريات كما في منظمة العفو، ونجد هناك منظمة أطباء بلا حدود، وما شابه ذلك من المنظمات العامة، التي تعمل على مستوى العالم، بينما نحن ما زالت حاجات كثيرة في مجتمعاتنا ليس هناك من يتصدى لمعالجتها وحلها، والشباب هم الجهة التي يجب أن تُوجَّه لتَبنِّي مشاكل مجتمعاتهم عن طريق منظمات ولجان وهيئات اجتماعية.[1]

لا يكتفي الشيخ الصفار بالحديث عن استثمار طاقات الشباب وتنمية كفاءاتهم من خلال النهوض العلمي وتطوير مستوى العلم والتعليم، بل هو يشدد على أهمية الوعي الثقافي عند الأجيال الشابة، وتشجيعهم على التزود بالمعارف المختلفة، وتكريس ثقافة الاطّلاع، والقراءة الجادة، والانفتاح على الثقافات المختلفة، لما لكل ذلك من أثر وتأثير في تشكيل نظام معرفي جديد مغاير ومختلف عما هو سائد اليوم، ويتجاوز سلطته القائمة على بنى ومفاهيم ومقولات وطرق تفكير لا تتناسب مع تطور الحياة في الزمن الحديث والمعاصر.

ويطالب الشيخ الصفار الشباب بالتطور المعرفي الدائم، وألا يكتفي الشاب ببضع كتيبات يقرأها، وألا يكتفي فقط بمتابعة الوسائل الإعلامية، بل على كل شاب واعٍ أن يكون أكثر عمقًا في الجانب المعرفي، عن طريق قراءة البحوث العلمية والمعرفية المعمقة، والاستفادة من الدورات والمعاهد والجامعات والكليات، حيث الآن أصبحت متوفرة ويمكن للشاب أن يدرس إلى أي مستوى من المستويات عن طريق الانتساب، إذا كان في مستوى البكالوريوس فعليه أن يفكر في تحقيق الماجستير، وإذا تجاوزها عليه أن يفكر في الدكتوراه وما أشبه، ويؤكد الشيخ الصفار على دعوة الشباب إلى أن يرفعوا مستوى عمقهم ومعارفهم في الجانب العلمي والديني.

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع موقع المعصومين الأربعة عشر.

ويطالب الشيخ الصفار الشباب بالهمة، ويدعوهم إلى زيادة الفاعلية والنشاط، فهذا المستوى من النشاط الموجود عند الشباب الذين لهم أدوار وأنشطة في الساحة الثقافية والاجتماعية عمل يشكرون عليه، ولكن المطلوب منهم المزيد لأنهم ينطوون على قدرات وإمكانات وكفاءات كبيرة جدًا، وأن الفاعلية التي لديهم إنما هي بنسبة محدودة من طاقاتهم وإمكاناتهم. ويحثّ الشيخ الصفار الشباب أيضًا على التوجه لمأسسة هذه الفعاليات والأنشطة، وللعمل الجمعي، قائلًا: إنه ينبغي أن تكون أنشطتنا أنشطة مؤسّساتية، وأن نعمل بروح الفريق، وعمل جمعي، وفي مختلف المجالات، ونستفيد من خبرات وتجارب بعضنا بعضًا.(١)

المجتمعات المتماسكة تستطيع أن تطور واقعها السياسي والثقافي من خلال الاستثمار الأمثل لطاقات الأجيال الشابة، أما المجتمعات التي يسودها التمزق والضعف الداخلي، نتيجة ما يسود فيها من تمييز وإقصاء وتهميش، فإن ذلك يؤدي إلى الإضرار بثروات الوطن وخيراته التي يزخر بها، وخصوصًا الثروة البشرية التي لا تقدر بثمن، من خلال وأد الكفاءات، وشلّ الطاقات، كما يقول الشيخ الصفار؛ لأن الفئة التي يقع عليها التمييز والتهميش سوف لا تجد المجال مفتوحًا أمام كفاءاتها وطاقاتها لكي تبدع وتشارك، وتوصد أمامها الأبواب، ولا يفتح لها المجال، ولهذا السبب فإن حالة التمييز تسبب وأد الطاقات والكفاءات، والخاسر دائمًا هو الوطن.

أهمية دور المرأة في التنمية والحراك الاجتماعي

إن الخطاب الإصلاحي عند الشيخ الصفار لا يقتصر توجيهه على فئة أو شريحة محددة، بل هو موجه إلى المجتمع بكافة ألوانه وأطيافه؛ لأن الجميع هم نتاج ثقافة المجتمع الأبوية التقليدية، كما هم اليوم عرضة لتأثيرات وتداعيات التحولات العالمية، وحركة العولمة والاقتصاد العالمي، وحالة الاستهلاك المرتفعة الوتيرة، وخاصة الاستهلاك الثقافي الناتج عن الضخ الإعلامي الموجه.

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع شبكة الرفيعة الثقافية.

لذلك فإن موضوع المرأة عند الشيخ الصفار يحتلّ مرتبة مهمة في خطابه الإصلاحي، لكونها طرفًا يتأثر بهذا الضخ الإعلامي، كما أنها عنصر ذو تأثير بالغ الأهمية في الحياة الاجتماعية، فكلما كان منسوب مستوى وعي المرأة وثقافتها مرتفعا، سيكون لذلك الأمر مردودًا إيجابيًّا وحسنًا على المجتمع وأجياله الصاعدة، وكلما كان مستوى وعي المرأة متدنيًا وسلبيًّا، فإن ذلك يشكل البيئة المناسبة لترويج الثقافة الاستهلاكية الوافدة. ومما يضاعف من تأثير تلك الثقافة السلبية الوافدة، الأجواء الثقافية والبيئة الاجتماعية التي تعيشها المرأة، والتي تدفعها إلى الانزواء والعزلة، وتحاصرها بفهم خاطئ وممارسات سطحية لقيم الدين وشرائعه، مما يجعل المرأة طعمًا سائغًا ومشروعًا ناجحًا لترويج الثقافة التسطيحية الوافدة.

إنه لما لا شك فيه، كما يقول الشيخ الصفار، أن الثقافة السائدة في المجتمع والأعراف والتقاليد، وفي بعض الأحيان حتى القوانين الرسمية، معوق لبروز طاقات المرأة وكفاءاتها في مجتمعنا. ومن أجل مواجهة هذه الحالة، نحن نحتاج إلى مبادرات واعية من الوسط النسائي حتى تفرض المرأة وجودها، كما نحن بحاجة إلى ثقافة سليمة تعطي للمرأة دورها وتعيد لها قيمتها في المجتمع، المطلوب أن تكون هناك مبادرات نسائية واعية تثبت نفسها وتثبت دورها وكفاءتها، ومتى ما حصلت مثل هذه المبادرات، فإنها ستكون معالجة عملية للواقع الموجود، نحن رأينا أنه في بعض البلدان الإسلامية استطاعت امرأة أن تصل إلى مستوى رئاسة الوزراء.

فكيف استطاعت هذه المرأة، وهي في وسط مسلم، وفي بلاد إسلامية، أن تصل إلى هذا المستوى؟ إن ذلك لم يتحقق، كما يشير الشيخ الصفار، إلا بعد أن أثبتت هذه المرأة جدارة وكفاءة بعملها وتحركها وشخصيتها، إضافة إلى العوامل الأخرى التي ساعدت على ذلك، فوصلت إلى هذه الموقعية، ونحن في مجتمعنا في حاجة إلى مبادرات من قبل المجتمع النسائي نفسه، حتى يمكن أن تخرج عندنا المرأة الفقيهة والمرأة الأديبة والمرأة المفكرة والمرأة الناشطة اجتماعيًا، فتفرض المرأة نفسها من خلالها تفجيرها لكفاءتها وطاقتها.

إن رقي مستوى المرأة وتطوره، لن يتحقق إلا بجهد المرأة ذاتها، حيث يدعوها الشيخ

الصفار إلى أن تأخذ هي زمام الأمور في تحقيق مطالبها وطموحاتها، وأن لا تنتظر أو تطلب من الرجل، الذي تشكو من فرض وصايته عليها، أن يبادر إلى مساعدتها في حركة انطلاقتها، متسائلًا: «لماذا تريد من الرجل أن يحررها، لماذا هي لا تسعى لتحرير نفسها عن طريق إبراز كفاءتها وإبراز طاقتها، لو خرجت عندنا مثلًا في المجتمع امرأة كانت متطورة ومتقدمة ومبدعة في الجانب الروائي، بحيث تكتب رواية وتبرز نفسها من خلال هذه الرواية، أو تكتب كتابًا معرفيًا تفرض نفسها، سيكون هذا معالجة عملية لتغليب المرأة في المجتمع.»[١]

هل تستطيع المرأة فعلًا تفكيك القيود المفروضة عليها، وتنطلق لتحقق طموحاتها، وإبراز كفاءاتها، وممارس دورها، من دون أن يتخلص أو يُحدث المجتمع الذي تنتمي إليه قطيعة معرفية مع النسق الثقافي المتوارث، لكي تتحول إلى كائن له قيمته واحترامه ومكانته في مجتمعها بصفتها إنسانًا، بعيدًا عن كل ممارسات العنف والقهر والتسلط والإذلال الذي تعرضت له، والتخلص من الكثير من التراكمات الثقافية المتتالية على مدار التاريخ، التي انتقصت من قيمة المرأة ومكانتها عبر الزمن؟

إن مفهوم «المرأة الإنسان» كما يقول الكاتب عبد اللّٰه المطيري يعني أن تمارس دورها في الحياة، السياسي والاجتماعي والاقتصادي والفني دون تمييز بسبب جنسها، أي ألا تمنع من أي نشاط بسبب أنها امرأة. قد تمنع، كما الرجل، من أعمال معينة بسبب نقص في التأهيل والكفاءة المكتسبة، لا بسبب جنسها. كلّ هذا انطلاقًا من كونها إنسانًا، وبالتالي، فإنه لا يمكن بأيّ حالٍ من الأحوال حرمانها من حقوق الإنسان. تبدو حقوق الإنسان هذه، التي هي معروفة دوليًّا ووقعت عليها أغلب دول العالم بما فيها الدول العربية، تمثل خطًّا أحمر لا يمكن تخطيه والتعدّي عليه، بل ينبغي أن يكون هذا التخطّي والاعتداء، كفيلًا بإثارة أكبر مشكلة حقوقية. إنه الإنسان ولا شيء أغلى منه. إن بناء ثقافة ومقولات وتشريعات تنطلق من هذا المفهوم، مفهوم المرأة الإنسان، هو ما يعني إحداث قطيعة مع

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الثاني ـ من حوار مع شبكة الرفيعة الثقافية.

السياق السابق، وما يعني أيضًا بداية السير في الطريق للتخلص من اختناق الحياة، بسبب تعطيل الطرف الأهمّ فيها، وتحطيم قدراته، وإهانته باستمرار، والحطّ من قيمته.(١)

الارتقاء بالإنسان هو الغاية

من المهم، ونحن نتحدث في هذا الكتاب عن المشكلة الطائفية وتحدياتها وسبل تجاوزها، أن تكون غاية أي مشروع تنموي نهضوي ثقافي حقيقي هو الارتقاء بالإنسان وقيمته، ومساعدته على تهذيب نفسه، وتحريره من أغلال ثقافة التعبئة والتحريض والكراهية والتمييز والتشدد والتنافر الطائفي التي تكبل حريته، ليكون عنصرًا فاعلًا في بناء مجتمعه وتطويره، والتخلص من أصفاد الطائفية والمذهبية وقيودهما، متجرئًا على استخدام عقله، ومتجاوزًا عقلية الوصاية، وذهنية احتكار الحقيقة والانفراد بها دون الآخرين.

ولن يكون ممكنًا مواجهة هذه المشاكل والتحديات، إلا بالتجديد في الأفكار والتطوير في البرامج، والتحديث في الوسائل والأساليب، على حدّ قول الشيخ الصفار، فمسيرة الحياة تتطلب مثل هذه المواجهة، وإذا ما تلكأ المجتمع في حركة التغيير، وتشبث بما تعوّد عليه وألِفه، فستهزمه التحديات، وتعرقل مسيرته المشاكل والأزمات. فتحديات الطبيعة، ومشاكل الحياة، هي التي دفعت الإنسان للاكتشاف والاختراع، فابتدع الأساليب والوسائل في مختلف المجالات، حيث تمكن من تجاوز تلك التحديات والمشاكل إلى حدٍّ كبير، وهو الأمر الذي يمكن أن يتكرر على المستوى الاجتماعي، إذ لا بد من إبداع وتطوير، يمكّن المجتمع من مقاومة سلبيات الواقع، والتغلب على إفرازات الظروف والأوضاع.

ويتوقف الشيخ الصفار عند تجارب رسالات السماء، حين واجهت حالة الجمود في مجتمعاتها، والتشبّث بما ورثوه من أسلافهم، وألفوه في حياتهم، حيث دعت المجتمعات إلى التحرر من أسر الماضي وأغلال الحاضر، والأخذ بالحقّ والصواب، لكن منطق الرجعيين أمام أنبيائهم كان: ﴿**بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ**﴾، فما سار

(١) نموذج للقطيعة المعرفية: من المرأة العورة إلى المرأة الإنسان. عبد اللّه المطيري. جريدة الوطن السعودية، ١٠/ ١/ ٢٠٠٧م.

عليه الآباء، وما اعتاد عليه المجتمع يجب أن يبقى ويستمر، وأي طرح جديد، يواجه بتحفظ ورفض تحت شعار: ﴿**مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ**﴾.

والإسلام كرسالة خاتمة للرسالات السماوية، يدعو البشرية للانفكاك من القيود التي تعيق وتمنع حركتها نحو الحق والتقدم، حيث يقول تعالى عن نبيه محمد ﷺ ﴿**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾، ويهيب بالإنسان أن ينفتح على الآراء والأفكار المختلفة، ليكتشف الأفضل منها ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾، ويذمّ عقلية الركود وحالة الجمود؛ لأنها تنتهي بالإنسان إلى التخلف عن ركب الحياة، وتجعله في عداد الأموات، وقد ورد في رواية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: **(من اعتدل يوماه فهو مغبون، ومن كان في غده شرًا من يومه فهو مفتون، ومن لم يتفقّد النقصان في نفسه دام نقصه، ومن دام نقصه فالموت خير له)**.[1]

(١) من كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. ص ٩١

الفصل التاسع

المسألة الطائفية ومسؤولية النخبة

أولًا:

في دور النخبة الإيجابي

تمرّ على أمتنا الكثير من المشاكل والأزمات المتنوعة، وتعاني من الخلافات والنزاعات المختلفة العناوين والمبررات والأسباب، فتارة تحدث هذه النزاعات تحت عنوان اختلاف العرق والقومية، أو اختلاف الجذور القبلية والأسرية، وتارة أخرى تحت عنوان اختلاف الدين والمذهب، وثالثة تحت عنوان اختلاف التوجه الفكري والسياسي، وإلى ما هنالك من حروب ومشكلات أخرى مختلفة تحدث تحت عناوين وأسماء متعددة.

وفي ظلّ تجذر هذه المشكلات، وانسداد الآفاق أمام مجتمعات الأمة وعجزها عن مواجهة هذه المصاعب والتحدّيات، وصعوبة تجاوز ما تعانيه من فتن، فإنه من الطبيعي في ظل هذه الظروف الصعبة والعصيبة أن تتوجه أنظار أبناء الأمة إلى نخبتها، التي بدورها إما أن تمارس دورًا إيجابيًّا في التصدي لهذه المشكلات وبحثها واتخاذ الموقف الصحيح منها، وإما أن تمارس هذه النخبة دورًا سلبيًّا من خلال إثارة الفتن وتمزيق وحدة الأمة وبعثرة صفوفها.

والشيخ الصفار دائمًا ما يهتم ويشير في خطابه ويتطرق إلى دور النخبة في مسألة الطائفية، وحساسية وخطورة هذا الدور وأهميته في وقف تصاعد نبرة الخطاب المذهبي المتطرف والتصدّي له، حيث يؤكد على أن من «واجب العلماء والدعاة المخلصين أن ينذروا قومهم، من هذا الخطر الزاحف، وأن يذكّروا الأمة بنداءات القرآن العظيم الداعية إلى الوحدة، والاعتصام بحبل اللّه والتعارف، والتعاون على البر والتقوى، وعدم التفرق

والتنازع، والجهر بكلمة الحق في الدعوة إلى الوحدة والتقارب والتآلف ومجابهة باطل التفرقة والتمزق والانقسام، والمساهمة في نشر الوعي، والتبشير بثقافة الوحدة والتقارب بين أبناء الأمة والوطن».[١]

إن الخلل في العلاقة بين أبناء الأمة أنتج ثقافة من التعبئة المتبادلة، والتحريض على الكراهية، وتأجيج مشاعر العداء والبغض والجفاء، وتهيئة الأجواء القابلة للاشتعال بنار الفتنة من خلال إصدار أحكام التكفير والتفسيق والتبديع والاتهام بالشرك والضلال لمذاهب وجماعات كبيرة من المسلمين، حيث انشغلت الأمة كثيرًا بخلافاتها المذهبية على حساب وحدتها وتماسكها في مواجهة التحديات الداخلية والخارجية.

لذلك «يجب على الواعين المخلصين داخل كل مذهب، وضع حدٍّ لهذه التعبئة المذهبية، وتوجيه أنظار أبناء الأمة لهموم الحاضر وتحدياته، وليتحرك الناس للبناء والتنمية الشاملة في أوطانهم، ولمواجهة الأخطار المحدقة بهم»، بالإضافة إلى أهمية دور «نشر ثقافة التسامح، وقبول التعددية، واحترام الرأي الآخر، وحسن الظن في الآخرين».[٢]

وعندما تنمو مشاعر العداء والكراهية، وتسود حالة القطيعة والانفصال والجفاء وانقطاع الود بين أبناء الأمة، فإن من واجب النخبة الحريصة على وحدة الأمة، مواجهة هذا الواقع السلبي بمزيد من الجهد والعمل، من أجل سدّ الثغرات التي ينفذ منها المغرضون والأعداء لإثارة الفتن الطائفية، التي تتسبب في إحلال الخراب والدمار في ديار المسلمين، وإسالة دمائهم هدرًا، وتؤدي إلى توقف مسيرة التنمية وضياع الثروات والقدرات، وهو الأمر الذي يتسبب في زيادة حدّة مشاعر الألم والغضب والإحباط واليأس بين الناس.

وإذا ما تصاعدت هذه المشاعر في نفوس الناس، فإن ذلك سوف يكون له انعكاسات سلبية على الواقع المعيش، «قد تدفع باتجاهات تدميرية انتقامية تضرّ بالذات، أكثر مما تضرّ الأعداء، وتضاعف المآسي بدل معالجتها، كما نرى ذلك في الممارسات الطائشة للإرهاب

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٨

(٢) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٨

والعنف الداخلي والخارجي، الذي شوّه صورة الإسلام في العالم، وأساء للأمة إساءة بالغة»، وعند ذاك يكون من «واجب العلماء والمفكرين وقيادات الأمة، أن توجه هذه المشاعر بالاتجاه الصحيح، لتكون هذه الأحداث المؤلمة صدمة توقظ الأمة، وتدفعها نحو استعادة تضامنها الإسلامي».(١)

إن دور النخب الواعية في الظروف الصعبة التي تمرّ بها الأمة أساسيًّا ومركزيًّا، من أجل تجاوز حالة القطيعة والجفاء والفرقة والتشتت بين أطياف الأمة، من خلال كبح جماح جهات التطرف والتشدد المتطرفة، ولجم نزعة التأجيج وإثارة النفوس والتعبئة، وإثارة الضغائن والأحقاد، وترشيد هذه المشاعر السلبية عند جمهور الناس، وتوجيهها الوجهة الصحيحة، وتشجيع جهود التقارب والتقريب والوحدة، والانتصار لخط الاعتدال والوسطية بإبداع وخلق «مبادرات جريئة، وثقافة واعية، لتجاوز هذه الحواجز المصطنعة، وتطبيع العلاقة بين أبناء مجتمعات الأمة على اختلاف مذاهبهم، ضمن التواصل الاجتماعي، والتداخل الأسري، والاندماج المؤسّساتي، والتعاون في المجال الديني، والانفتاح على المستوى الثقافي، ووصولا إلى المشاركة السياسية».(٢)

إن الخطر الأكبر على وحدة الأمة اليوم، حسب رأي الشيخ الصفار، يتمثل في الخلافات المذهبية الطائفية؛ لأنها تنطلق من أرضية دينية وفق فهم أصحابها للدين، ولأن لها جذورًا نفسية وتاريخية عميقة. وهنا يأتي دور الخطاب الديني، فإما أن يقوم بدور توحيد الصفوف، ورأب الصدع، وتقريب أبناء الأمة إلى بعضهم على اختلاف مذاهبهم، من أجل مواجهة التحديات المشتركة، والأخطار المحدقة بالدين والأمة، وتذكير المسلمين بالأصول الجامعة، والمبادئ الأساس التي ينطلقون منها، وذلك إذا كان هذا الخطاب صادرًا من جهة واعية مدركة لأهداف الدين ومصالح الأمة.

وإما أن يؤدي هذا الخطاب الديني دورًا سيئًا بالتركيز على قضايا الخلاف، وإشغال

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٤٢

(٢) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٢٠

الأمة عن واقعها بقضايا جانبية، وأحداث تاريخية، وتعبئة جمهورها ضد الآخر المختلف مذهبيًا، بإصدار فتاوى التكفير، وبيانات التبديع والتفسيق، وتصنيف المسلمين على أساس طائفي بغيض، والتمييز بين أبناء الوطن الواحد من منطلق الخلاف المذهبي، فقد عانت الساحة الإسلامية كثيرًا من تطرف وتشنج بعض الخطابات الدينية، التي خلقت جيلًا من المتعصبين المتطرفين، الذين أساؤوا لسمعة الإسلام، وأحدثوا الفتن والاضطرابات في مجتمعاتهم.[١]

إن استمرار هبوب عواصف الفتن الهوجاء التي تهدّد بتمزيق مجتمعات الأمة، وبتقويض أمنها واستقرارها، يحتّم على علماء الأمة أخذ زمام المبادرة والتحرك سريعًا لمحاصرة الحرائق المشتعلة، كما يقول الشيخ الصفار، حتى لا يمتد لهبها إلى بقية المناطق، فالعلماء يتحملون مسؤولية التحذير والتنبيه وتذكير الأمة بمبادئ دينها، وتوعيتها بأخطار التحديات المحدقة بها، وتبصيرها في مواجهة الفتن والشبهات، مشيرًا إلى «أن الجهاد الأكبر لفقهاء الأمة وعلماء المسلمين، يتمثل اليوم في التأكيد على مبدأ الوحدة، وتحريم وتجريم أي قول أو فعل يضرّ بوحدة الأمة، وكذلك التأكيد على أصول الإسلام، التي تمثل الجامع المشترك بين المسلمين بمختلف مذاهبهم، والتقليل من شأن الاختلافات الفرعية في المعتقدات والأحكام، باعتبارها نتاجًا طبيعيًّا لاختلاف الآراء والاجتهادات».[٢]

إن ما يحدث في بعض أوطاننا من فتن بغيضة يجب أن يكون دافعًا لتكثيف الجهود من أجل جمع الشمل ولم الشتات ومحاصرة الفتنة وتطويقها، والتأكيد على ضرورة الوحدة وأهمية الحوار والتقارب، «ويتحمل علماء الأمة القسط الأكبر من المسؤولية، لمواجهة أخطار هذه الفتنة الداهمة، إذ إن عليهم القيام بواجب التذكير بمبدأ الوحدة، والدعوة إلى الاعتصام بحبل اللّٰه، وعدم التفرق والنزاع، وأن يبشروا بثقافة التسامح، واحترام تعددية المذاهب، وشرعية الاجتهاد وحرية الرأي».[٣]

---

(١) من كتاب رؤية حول السجال المذهبي. ص ٦٠

(٢) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٤٦

(٣) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٤٤

إن التبشير بثقافة التسامح وبكل القيم الخلّاقة والنبيلة يتطلب من النخبة الواعية أن تأخذ على عاتقها مهمة العمل الميداني بين الناس، وليس من خلال الانعزال في الأبراج العاجية، فالتواصل مع الناس والانخراط في صفوفها هو ما يساهم في تطوير قيم وثقافة التسامح، ويروج لفضائلها، ويحولها إلى مكاسب يمكن تلمسها والشعور بها وبمردوداتها الإيجابية بين الناس.

أما إذا ما انكفأ دعاة التسامح والوحدة على أنفسهم، وتسمّروا في أبراجهم المنعزلة، وتركوا جمهور الأمة فريسة لدعاة التطرف، ولم يصدعوا ويجهروا بدعوة الحق، فإن دعوات الحوار والتعايش والوحدة والعيش المشترك والتعايش السلمي، سوف تذهب هباءً منثورًا، بل سيكون الأمر على العكس من ذلك فرصة لدعاة التشدد والتطرف، لأخذ زمام الأمور وتعميم ثقافة القطيعة والتنافر والغلو والتشدد، وطمس كل ما يمتّ إلى ثقافة التسامح بصلة.

إن وحدة الأمة والحوار والتقارب بين فئاتها على اختلاف مذاهبهم وتوجهاتهم، يجب أن يكون غاية نبيلة وهدفًا مقدسًا، ونهجًا ثابتًا في وعي وثقافة وممارسات وسلوك النخبة الواعية والمسؤولة من أبناء هذه الأمة، وليس مجرد وسيلة لتحقيق مصالح محدودة وفئوية، بل يجب أن يصبح استراتيجية دائمة، لا مجرد تكتيك مرحلي، وهو الأمر الذي يتطلب من النخب التواصل واللقاء لما لذلك من دور مهم في تنقية الأجواء فيما بينها، وخلق حالة من الودّ والتعاطف، ويفتح المجال لخلق حوارات معمقة وجادة تتمخّض عنها توصيات وتوجهات وقيم يمكن التبشير بها في أوساط تيارات كل فئة.

كم نحن اليوم بحاجة وأكثر من أي وقت مضى إلى تفعيل دور النخبة بشكل فعّال قولًا وعملًا في أوساط مجتمعاتها، وأن ينذروا أبناء مجتمعاتهم من خطر الطائفية الزاحف، والسعي إلى وضع حدٍّ للتعبئة المذهبية، والعمل على عدم ترك الساحة للمتشددين والجاهلين من الذين يثيرون المشاكل والفتن، والعمل على توجيه أنظار أبناء الأمة لهموم الحاضر، والاهتمام بعملية البناء والتنمية الشاملة في أوطانهم. كما أن من واجبهم تحمل

مسؤولية التذكير بمبادئ الدين وقيمه المتعالية، وتوعية مجتمعاتها بالأخطار والتحديات المحدقة بها، وتبصيرها لمواجهة الفتن والشبهات.

ثانياً:

في دور النخبة السلبي

إذا كان هناك دور إيجابي تمارسه النخبة المسؤولة في البيئة الاجتماعية التي تنتمي إليها، فإن الواقع المعيش لا يخلو من وجود بعض النخب، ممن هم في موقع التأثير والمسؤولية، لا همّ لهم ولا عمل إلا الاشتغال على الترويج لثقافة الكراهية وإثارة الشحناء والبغضاء، والتحريض على العنف والعدوان والاحتراب الطائفي.

وإذا كان هناك فئة من الناس تدعو إلى الوحدة والتقارب والوئام بين أبناء الأمة بكل أطيافها وطوائفها، فإن هناك أيضًا ممن لا تروقه هذه الدعوات، ويتبنى الموقف المناوئ لدعوة الوحدة والتقارب، ويثير الإشكالات والشبهات تجاهها، ويروج للقطيعة والتخندق المذهبي بين الناس بكل حماسة، لمنع جماهير الأمة من التفاعل مع دعوات التغيير والإصلاح، والقطيعة مع دعاتها.

ويشير الشيخ الصفار إلى «أن دعاة الوحدة والانفتاح والتقارب بين أتباع المذاهب، تلاحقهم علامات الاستفهام، وتثار أمام حركتهم الإشكالات، وكأنهم يدعون إلى منكر، أو يرفعون شعارات تشكّل خطرًا على مصلحة المذهب وصدق الاعتقاد، وكأن عناوين الوحدة والانفتاح أصبحت شعارات براقة، ينخدع بها الحالمون، وضعاف العقيدة في مذهبهم، واللاهثون خلف المصالح السياسية».[1]

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٢٢

إن من واجب العلماء والدعاة والمثقفين القيام بوظيفة ومهمة الدعوة إلى الوحدة والتقارب والتقريب بين أبناء الأمة، وأي واحد من هؤلاء لا يمارس وظيفته، ولا يقوم بما هو واجب عليه، ويتقاعس عن القيام بواجباته، ولا يجد نفسه معنيًا بهذا الأمر، فإن على الناس أن يحاكموه على هذا التقصير والتقاعس، خصوصًا في الأوقات التي يحدث فيها بعض الأحداث، أو المواقف الطائفية، وتعيش فيها الأمة والأوطان والطوائف حالات من الحصار، وأخطار الفتن الطائفية، وهنا يكون على عموم الناس أن يسألوا، وأن يحاكموا هؤلاء المتقاعسين من النخبة، لماذا لم يتحملوا مسؤوليتهم في الدفاع عن أصل من أصول الدين، والتزام دعوة من الدعوات القرآنية الأساس، وهي أصل الوحدة بين المسلمين.[١]

لا ينبغي النظر إلى مسألة الدعوة إلى الإصلاح والتغيير في واقع هذه الأمة، وترسيخ ثقافة الوحدة والانفتاح والتقارب بين أبناء المذاهب بازدراء واستخفاف واحتقار وكأنه أمر ممقوت، أو أنه مجرد عمل تكتيكي ومرحلي وعفوي ومؤقت وطارئ، ووسيلة لتحقيق مصالح سياسية محدودة، وطموحات شخصية وفئوية، بل من المهم النظر إليه على أساس أنه عمل استراتيجي بعيد المدى، غير خاضع للأهواء والأمزجة.

إلا أن المشكلة أن هناك من لا يهوى إلا الوقوف في صفّ الاعتراض، وعدم الرضا بما يحدث، مهما كانت النتائج إيجابية، لذلك، وكما يقول الشيخ الصفار، إنه «حينما لا يجد المتحفظون إشكالًا منطقيًا يثيرونه في وجه دعاة الوحدة والتقريب، فإنهم يلجؤون إلى التشكيك في الغايات واتهام النيّات، والقول بأن دعاة الوحدة يسعون لتحقيق مصالح سياسية، وأنهم يعملون ضمن برامج سياسية؟

والغريب كما يضيف الشيخ الصفار، أن هؤلاء المتحفظين، وهم غالبًا ما يتظاهرون بالقداسة والورع، والتزام الاحتياط، كيف يسمح لهم ورعهم بالحكم على النيّات والمقاصد التي لا يعلمها إلا اللَّه تعالى؟ وكيف لا يحتاطون في التعرض لحرمات الآخرين؟

وإذا كان المقصود بالمصالح السياسية التي يستهدفها دعاة الوحدة هو حفظ الأمن

(١) من كتاب الانفتاح بين المصالح والهواجس. ص ١٤

والاستقرار والنظام في الوطن، وحماية وحدة الأمة، ورصّ صفوفها لمواجهة العدوان الأجنبي، فهي مصالح مشروعة بل فرائض واجبة، على المتحفظين أن يعيدوا النظر في مواقفهم تجاهها، وأن يتقوا اللّه في مصالح الدين والأمة، حتى لا تكون ضحية تشددهم وتطرفهم المذهبي.

أما إذا كان المقصود اتهام دعاة الوحدة والتقريب بأن لهم مصالح شخصية مادية، كالمناصب والمواقع والزعامة والظهور، فإن واقع الساحة يثبت أن دعاة الوحدة يدفعون ثمنًا باهظًا من سمعتهم وراحتهم، لأن إظهار الولاء والتشدد المذهبي هو السلعة الرائجة على المستوى الشعبي، وهو لغة اللعبة السياسية في المنطقة حاليًا.

فمن يريد الكسب والمصلحة الذاتية عليه أن يدغدغ مشاعر الجمهور المذهبي، وأن يرفع لواء الدفاع عن الطائفة، وحراسة المذهب، وذلك هو نهج المتحفظين، فهم الأولى بهذا الاتهام لو كنا نقبل أسلوبهم في اتهام النيّات، إلا إن دعاة الوحدة والتقريب يسيرون بعكس تيار العواطف والمشاعر، ويواجهون اللعبة السياسية القذرة التي تريد تفتيت الأمة، وتمزيق وحدة أوطانها.

ويتساءل الشيخ الصفار أخيرًا، هل يدرك المتحفظون والمتشددون مذهبيًا أنهم يخدمون المصالح السياسية المعادية للإسلام والأمة؟ مجيبًا عن ذلك بقوله: إنه من المؤسف أن أكثر هؤلاء يخدم مصالح الأعداء في الخارج والداخل دون وعي وقصد».[١]

وعلى الرغم مما تمرّ به الأمة من تحديات داخلية وخارجة، تتطلب الوقوف موحدين أمامها من أجل وقف حالة الانهيار التي نمر به، فإن هناك من لا يتورع عن إثارة الإشكالات والشبهات تجاه فكرة ومبادرات الوحدة والتقريب، لمنع جماهير الأمة من التفاعل معها، حيث «يبدو أن هذه الأوساط المذهبية المتحفظة على دعوات الوحدة والتقريب، تريد بإثارة الشكوك والاتهامات تجاه دعاة الوحدة، التبرير لتقاعسها، وتخليها عن مبدأ من أهم مبادئ الإسلام، أو أن لها مصالح في هذا الواقع الفاسد، أو أنها لا تجيد غير لغة التعبئة الطائفية،

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٣٠

وإثارة العواطف، ودغدغة المشاعر المذهبية».[١]

إن التحريض على الفرقة والنزاع باسم الدين، وإلغاء الآخرين وإثارة الشكوك والاتهامات ضد دعاة الوحدة والتقريب، لهو دليل على حالة العجز التي تعيشها بعض النخب لتبرير تقاعسها وكسلها وانكفائها، أو لاستفادتها واستغلالها الواقع السيئ والفاسد والسلبي الذي تمرّ به الأمة، من أجل تمرير أغراضها وتنفيذ مآربها، فهي لا تجيد غير لغة التعبئة الطائفية والتحريض المذهبي، وإنتاج خطابات تعبوية مغرضة، وإثارة المشاعر ودغدغة العواطف المذهبية، حيث ترى أن إصدار الفتاوى التكفيرية، وإثارة الكراهية تكليفًا شرعيًّا، مما يؤدي إلى تأجيج المشاعر وتعبئتها، وإثارة الضغائن والأحقاد، وفتح ملفات الماضي السحيق وخلافاته العقدية والفقهية، وتجميع أوراق السقطات والأخطاء، وكل هذا يؤدي في نهاية الأمر إلى خلق وإيجاد مناخات تبعث على الفرقة وتعمق الخلافات، وتدفع باتجاه التصادم بين أبناء الأمة، والانزلاق إلى أوحال الفتنة ومتاهاتها السوداوية الكالحة.

إن هذا الواقع المرير ودور النخبة السلبي فيه، يصيب الشيخ الصفار بالألم والحسرة، ويشعره بالأسف الشديد «لانزلاق بعض العلماء واستدراجهم إلى أوحال الفتنة، ومشاركتهم بوعي أو غفلة في تأجيج ضرامها، عبر التعبئة وإثارة الضغائن والأحقاد، وفتح ملفات الخلافات العقدية والفقهية، وتجميع أوراق السقطات والأخطاء».[٢]

إن مناخات التوتر والتأزم والفرقة والخلافات، وأجواء الفتنة والإساءات المتبادلة، هي البيئة المناسبة التي تبرر لأصحاب النيّات والمواقف السلبية وتدفعهم للتحفظ على دعوات الانفتاح والتقريب والوحدة، وإصلاح الخلل في العلاقة بين أتباع المذاهب، فهؤلاء المتحفظون حسب قول الشيخ الصفار، «يوظفون حصول هذه الإساءات لتعزيز الشكوك في مصداقية الدعوة إلى الانفتاح والتقريب، فكلما وقع حدث طائفي، أو حصلت

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٢٣

(٢) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٥٠

إساءة مذهبية، استغلها المتشددون لتعزيز مواقعهم، وتبرير مواقفهم المتطرفة، ورفع المتحفظون عقيرتهم تجاه دعاة الوحدة والتقريب، ليضعوهم في موقع المساءلة والمحاكمة، كيف تدعون إلى الوحدة مع هذا الطرف وقد فعل هكذا؟ وكيف تريدون التقارب مع تلك الجهة وقد قال أحدهم كذا؟

ويعتبر الشيخ الصفار هذا التوظيف مغالطة فاضحة، وتضليل لوعي الناس، فاتجاهات التشدد، والمتحفظون على دعوة الوحدة والتقريب، هم الذين يتحملون مسؤولية استمرار التشنج الطائفي، والخلافات المذهبية. إنهم ينتجون هذه الإفرازات، ويوفرون الأجواء المساعدة على نموها، ثم يوظفونها لإغراق المجتمع في المزيد من التعصب والتشدد، ونهايته المتوقعة هو الاحتراب والفتنة، التي تسفك فيها الدماء، وتنتهك الأعراض، وتمزق الأوطان.

إن دعاة الوحدة والتقريب هم آخر من يحاسب على حصول هذه الإساءات الطائفية، كما يقول الشيخ الصفار؛ لأنهم يرفضونها، ويدعون إلى السير في طريق الخلاص والسلامة منها، وإذا كان هناك من إساءات متبادلة بين بعض أطراف الأمة، قد تتفاوت في حجمها من مكان لآخر، إلا أن المشكلة أن كل طرف يغض الطرف عن الإساءات التي تحصل من جماعته تجاه الآخر، كما أنه من الخطأ الكبير تعميم المسؤولية، فلا يصح أن نحمل كل السنة مسؤولية ما يقوله ويمارسه المتطرفون منهم، كما لا يصح أن نحمّل كل الشيعة مسؤولية ما يقوله ويمارسه المتطرفون منهم.

إن هدف المتطرفين في الجانبين إذكاء الصراع وإشعال الفتنة، وعلى الواعين أن لا يقعوا في الفخ، وأن لا يتركوا الساحة للمتشددين والجاهلين. ويشير الشيخ الصفار إلى أنه لا نجاة للأمة من هذا النفق المظلم، إلا بالسير في طريق الانفتاح والتقريب، لتجتمع الأمة على أصول دينها، ولتتحد في خدمة مصالحها المشتركة، مع الاعتراف بالتعددية المذهبية، والاحترام المتبادل بين الطوائف، وإقرار حقوق المواطنة والإخوة الإسلامية، وذلك هو

جوهر دعوة التقريب والوحدة».[١]

وينبه الشيخ الصفار إلى أن هناك من يريد توظيف الأحداث السيئة التي حصلت في العراق، لخدمة مشروع الفتنة والاحتراب الطائفي، ولنقل شرره إلى المناطق الأخرى، حيث يَعُدُّون ما حدث دليلًا على عدم جدوى شعارات الوحدة والتقارب، وعلى عقم محاولات الحوار والتفاهم، وتسعى هذه الجهات من خلال الترويج لهذه الفكرة، إلى إثارة المزيد من الشكوك والهواجس المتبادلة عند كل طرف تجاه الآخر، في مختلف المناطق، بينما المطلوب من الواعين من علماء الأمة وأبنائها، كما يشدد الشيخ الصفار، أن يجعلوا مما حدث في العراق دافعًا للإصرار على نهج الحوار والتقارب، وأن يأخذ الجميع العبرة والدرس، من أجل تحصين ساحاتهم ووقايتها من الانزلاق في طريق الفتنة، والوقوع في فخاخها، حيث اتضح للجميع أن ما يحصل في العراق ليس حربًا مذهبية، بل هو صراع سياسي تستخدم فيه الطائفية، وقد أضر بكل الشعب العراقي، ولم ينتصر ولن ينتصر فيه أحد، وقد ورد عن الإمام علي أنه قال: **(مَا ظَفِرَ مَنْ ظَفِرَ الإِثْمُ بِهِ، والْغَالِبُ بِالشَّرِّ مَغْلُوبٌ)**.[٢]

لا يمكن في ظلّ هذه المفاصل الحسّاسة والحرجة من تاريخ امتنا المعاصر، إغفال الدور السلبي الذي يقوم به ويمارسه بعض النخب من كتاب وتيارات واتجاهات دينية في خلق وإيجاد مناخات تبعث على الفرقة وتعمق الخلافات وتدفع باتجاه التصادم، من خلال استخدام «لغة الإساءة للآخر وإثارة النعرات المذهبية، والاتهام بالخيانة، وما شابه من عبارات فظة وقاسية. وكل ذلك لا يليق بمسلم مطّلع على آداب الإسلام وأخلاقه، ولا بمواطن يدرك خطورة الظروف والأوضاع»،[٣] التي يمكن مشاهدة تفاعلاتها وتداعياتها هنا وهناك على امتداد رقعة ومساحة عالمنا الإسلامي.

والشيخ الصفار يحذّر من خطورة مواجهة الخطأ بخطأ أكبر، من خلال توظيف الخطأ

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٣٢
(٢) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٧٤
(٣) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٧١

في التعبئة المذهبية الطائفية، فالنقد والرفض والاعتراض على الأخطاء يجب أن يتوجه إلى الممارسة وإلى الجهة السياسية فيها، لا أن يصبح مبررًا لحملة شعواء على الآخر تنال أصوله ومعتقداته وتاريخه ورموزه، أو تنال بالطعن والتجريح كل المنتمين إليه والمنتسبين له.[١]

إن السؤال بعد هذا العرض والوصف حول أدوار النخبة الإيجابي والسلبي في التعاطي مع مشكلة الطائفية في مجتمعاتنا، هو: كيف يمكن التصدي لدعاة الفرقة والفتنة، وتعرية أمرهم وفضحهم، والتحجيم من دورهم، في مقابل تنمية وزيادة عدد أفراد النخبة المسؤولة والجادة وتعضيد أمرها؟ وما هي طرق وأساليب تطوير قدراتها وتنميتها والرقي بممارساتها وأدوارها؟

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٨٦

ثالثاً:

في ازدواجية خطاب النخبة

كم هو مقدار التناقض الذي تعيشه الكثير من النخب، والازدواجية التي تمارسها في سلوكها وممارساتها وأقوالها، وكم هم هؤلاء الذين يقولون أشياء في العلن، إلا أنهم لا يلتزمون بها في ممارساتهم، أو يمارسون أشياء تتناقض مع ما يدعون إليه من قيم وفضائل، أو تراهم يقولون أشياء لك وأمامك، لكنهم من خلفك يقولون ما يخالفه. إن هذا السلوك عمل ممقوت من أي أحد، إلا أنه أكبر مقتًا عندما يصدر من النخب التي تدعي توجيه الناس وإصلاحهم، وتدعو في العلن، أو في الغرف المقلقة إلى الالتزام بقيم التقارب والتعايش والتسامح والتآخي والتآزر، إلا أنها عمليًّا لا تلتزم بأقوالها، وهو الأمر الذي يفقد هؤلاء المصداقية عند عامة الناس، وتجعلهم يشكّكون في أقوالها وخطابها، أو في أعمالها وسلوكها.

إن هذه الحالة من الازدواجية في الخطاب والتناقض في السلوك والممارسات من القضايا التي يثيرها الشيخ الصفار في بعض خطابه، مشيرًا أنه «ليس مقبولًا أن يتحدث البعض منا في جلسات الحوار بلغة الوحدة الدينية والوطنية، وأن يظهر الاحترام للرأي الآخر، ويدعو إلى مواجهة الأخطار المحدقة بالدين والوطن، فإذا ما عاد إلى وسط جمهوره وتياره، خضع للأجواء السائدة، من تجاهل الآخر، والدعوة إلى إلغائه، واستخدام لغة التشدد والتزمت، مضيفًا إن تياراتنا تعيش آثار ثقافة التعبئة ضدّ الآخر، وعلينا أن نواجهها بنشر ثقافة التسامح، والتزام العدل والإنصاف، وأن نتحلى بالجرأة للارتقاء بمستوى تياراتنا إلى

آفاق أخلاق الإسلام، لا أن نسفّ مع التوجهات الهابطة ونخضع لضغوطها».[١]

إن تجاوز مشكلات الخلافات الدينية والمذهبية، والسعي إلى حلها وتجاوزها، من خلال الالتقاء والتحاور، سيكون أمرًا صعبًا على تلك النخب التي نهلت من ثقافة التحريض على الكراهية والتعبئة والتجييش ضد الآخر والمختلف، الذين سعوا إلى تربيه الأتباع وتثقيفهم على هذه الثقافة سنين طويلة، حيث يصعب عليهم الإعلان عن آرائهم بشكل علني وجريء وصريح؛ لأن هذا الأمر سيؤدي إلى إثارة الأتباع وغضبهم ونفورهم، بسبب كونه، من وجهة نظرهم، خروجًا عن الدين والثوابت والمعتقد، أو لكون هذه النخبة مارست الخداع والتضليل معهم.

إن اضطرار بعض النخب لمراعاة ضغوط تياراتهم التي لا تقبل الانفتاح على الآخر ولا الاعتراف بإسلاميته، لا يصحّ أن يستمر على حساب مصلحة الإسلام والأمة، كما يقول الشيخ الصفار، الذي يرى «ضرورة أن يتحلى العالم بقوة الشخصية، والجرأة في إعلان ما يخدم مصلحة الدين والوطن، وعليه أن يرتقي بمستوى جمهوره لا أن يسفّ معهم، فهو الذي يقود الجمهور، لا أن ينقاد إليه».[٢]

الانسجام مع الذات والصدق معها يتطلب الجرأة على إعلان الحقيقة والتمسك بها، على الرغم من الثمن الذي يمكن أن يدفعه الإنسان من رصيده وسمعته وحجمه ومكانته، فعندما يكون الإنسان أو العالم واثقًا من نفسه، ومن الاستنتاجات التي وصل إليها، بعد البحث والمراجعة والتدقيق، فلن يكون من النزاهة إخفاء الحقيقة وحجبها، حتى وان كان هناك الكثير ممن يختلفون مع هذه الاستنتاجات الجديدة، لأنه بالتأكيد لن يعدم الأمر ممن يمكن أن يسمعوا القول الجديد ويحاوروه ويناقشوه، وإذا اقتنعوا به أخذوه، إلا أن المهم سواء قبل الناس هذا الرأي أو رفضوه، أن لا يتم ذلك إلا بالحوار والجدل بالتي هي أحسن، بعيدًا عن لغة العنف، وعنف الكلمة؛ لأن القناعة التي تأتي بالقصر والإكراه، لا

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٧٠

(٢) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٨٣

تلبث أن تتلاشى بعد حين.

إذا كان أمر إعلان الحقيقة والإعلاء من قيمتها شيء يحتاج إلى جرأة وتضحيات صعبة، إلا أن خوف النخبة من فقدان الشعبية وتشتت المريدين من حولها، من الأسباب التي تحول دون هذه الجرأة، والشيخ الصفار لكونه رجل دين وصاحب خبرة وتجربة في هذا المجال يكشف «أن الساحة الدينية لا تخلو من حالات المنافسة الداخلية بين الاتجاهات والشخصيات الدينية، حيث يخشى العلماء الراغبون في الانفتاح على الآخر، استغلال منافسيهم للأمر في ساحتهم الداخلية، للتشكيك في صلابتهم المذهبية، ويشرح ذلك بقوله أنه التقى شخصيًّا عددًا من علماء السنة والشيعة، ووجد لديهم رؤية طيبة في هذا الاتجاه، لكنهم يعتذرون عن عدم إعلان رأيهم، أو إظهار علاقتهم وتواصلهم مع علماء من المذهب الآخر، مراعاة لمشاعر جمهورهم، وخوفًا من استغلال منافسيهم»[(١)].

لعلّ ما يحول بين المرء والتصريح بالحقيقة والجهر بها، هو ضعف الثقة بالذات، أو لعدم امتلاكه ما يكفي من الخلفية الثقافية والعلمية التي تسند قناعاته، أو ضعف المنطق الذي يتكئ عليه في تناوله للقضايا المطروحة، أو لهشاشة اللغة والأسلوب والتجربة الحوارية، التي لا يمتلك من عدتها وأدواتها ما يؤهله لقابليه النجاح والتفوق في التعاطي مع الحوار بكل جدارة واقتدار.

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٨٢

رابعاً:

النخبة ومشكلة التواصل فيما بينها

ليست مشكلة الازدواجية في خطاب النخبة هي الإشكالية الوحيدة في سلوكها وممارساتها، بل تشمل إشكاليات النخبة أيضًا فكرة التواصل مع الآخر والجلوس والتحاور معه والتعرف إليه، حيث لا تحظى هذه القيمة بمكانة في أدبيات الكثير من النخب، وتسود بينها حالة القطيعة والجفاء والانزواء على الذات المذهبية، مما يخلق حالة من التباعد والانعزال والتقوقع على الذات، في زمن يشهد تحولات كبرى في عملية الاتصال والتواصل، بسبب الثورة المعلوماتية والتطور الهائل في تقنية تكنولوجيا الاتصال.

لربما يكون للخلفية الثقافية أو التكوين الثقافي لأي فئة أو مجموعة بشرية تأثير على نظرتها للفئات الاجتماعية الأخرى، وطبيعة سلوكها تجاهها، ومواقفها منها، ومستوى معرفتها بها. فأي جماعة مذهبية على سبيل المثال منطوية على ذاتها، وتكونت لديها نظرة سلبية عن الآخر، وتنظر إليه بحذر وتوجس، وتشعر أنه يمارس الظلم والإجحاف تجاهها، وتحسّ أن مواقفه وسلوكه غير منصفة وغير عادلة، فإن هذا الأمر بالتأكيد يضعف الرغبة والقابلية للاتصال بالآخر والتعرف إليه وعلى ثقافته من خلال الاتصال واللقاء والتواصل المباشر لمعرفة رأيه، نتيجة ما ينخلق من حواجز نفسية، أو نتيجة الانطباعات والمواقف السلبية المسبقة.

والشيخ الصفار يطرح في خطابه إشكالية العلاقة والتواصل بين النخب، ويناقشها من ضمن ما يناقش من إشكاليات تعاني منها الذات النخبوية، حيث ينتقد ضعف الاهتمام

بهذه القيمة، ومشيرًا إلى أن هناك إشكالية في التواصل والانفتاح بين علماء ومثقفي المذاهب الإسلامية، وأنها ضيقة وفي حدودها الدنيا، حيث لا تتناسب مع تطلّعات وحدة الأمة، في ظلّ الانتكاسات الصعبة والانكسارات المؤلمة التي تمرّ بها، «ولو أردنا تقدير عدد المهتمين بقضية التقريب والوحدة عمليًّا في الوسط الشيعي، مثلًا، من الذين يحضرون المؤتمرات ويقومون بالزيارات، وينشئون العلاقات والصداقات مع نظرائهم في الضفة الأخرى، لوجدناه عددًا قليلًا جدًّا، لا يتناسب وأهمية القضية وخطورة التحدي، ولا العدد الضخم من العلماء والطلبة الذي تعجّ بهم حوزاتنا العلمية وساحاتنا الدينية»، حيث تنكفئ النخبة على ذاتها، وفي داخل أطرها الضيقة، «وتستهلك جهودهم، ويستغرقون في القضايا والشؤون الداخلية لمجتمعاتهم، أما الاهتمام بالعلاقة مع الآخر المذهبي، والسعي للتواصل معه، فلا يتجه له أحد منهم إلا نادرًا، ويتذرعون بمختلف الأسباب والمبررات الفكرية والنفسية والاجتماعية للعزوف عن هذا الاهتمام»،[1] والانخراط في هذا المجال المهم والحيوي.

إن النظرات السلبية تجاه بعضنا بعضًا تجعلنا غير قادرين على النظر للآخر بحيادية وإنصاف، حيث نظلّ دائمًا مقيدين ضمن النظرة النمطية المتبلورة مسبقا، وتجعلنا نفكر ونتحرك في إطارها الضيق، مهما تغير الزمن وتحولت الظروف. والبقاء أسرى هذه النظرة المسبقة تجاه الآخر، وعدم كسر قيود هذه الثقافة النمطية، ومحاولة التعرف إلى الآخر وثقافته وفكره وسلوكه، يمنع بلا أدنى شك فرص إقامة علاقات سوية وإنسانية بين المجموعات البشرية في هذه الدنيا، ويؤدي إلى الانطواء على الذات والعزلة وانكفاء عليها، والعزوف عن التواصل مع الآخرين.

والشيخ الصفار يدعو إلى التفكير مليًّا في مسألة العزوف عن التواصل مع الآخر، ومعالجة هذه الحالة الشاذة من خلال برامج الحوزات والجامعات والمراكز الدينية، وأن يكون مجال التقريب والتواصل بين علماء ومثقفي المذاهب الإسلامية جزءًا من برامج

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٢٧

ودروس وتوجيه المرجعية الدينية، ورعاية الجهات المتصدية لإدارة شؤون هذه الجامعات والمجمعات الدينية.

إذا كان العزوف عن التواصل أمرًا مستهجنًا من عامة الناس، فإنه يكون أكثر استهجانًا من النخبة العالمة والعارفة، التي من المفترض أن تكون القدوة والنموذج والمثال في تجسيد القيم العليا للدين وتطبيقها عمليًّا على أرض الواقع، وهي التي يعول عليها تجسير الهوة بين فئات الناس المختلفة من خلال الدعوة إلى ما يصلح شؤونها ويعزز علاقات الودّ والترابط والمودة بينها. فبقاء الحواجز النفسية والمواقف السلبية تجاه الآخر المختلف عنّا، ستبقينا في جهل وعدم دراية به، وهو الأمر الذي لن يزول إلا من خلال فتح قنوات التواصل معه والتعرف إليه وقراءته بشكل مباشر، وليس عن طريق وسائل أخرى، قد لا تكون محايدة أو نزيهة، فبدون التواصل القائم على إزالة كافة الصور النمطية المسبقة، والاعتراف بالاختلاف مع هذا الآخر، لن نفهم لا الآخر ولا حتى أنفسنا.

إن عناوين الانفتاح والتقارب والوحدة بين أبناء الأمة الواحدة هي من العناوين الإسلامية الأصيلة، التي لا تحتاج إلى دليل وبرهان لإثبات أصالتها في الفكر والثقافة الإسلامية، إلا أن الواقع المعيش جعلت وكأن الأصل هو الانغلاق والخصومة والتفرقة المذهبية، وأن من يدعو إلى الانفتاح أو إلى التقارب عليه أن يأتي بالدليل والبرهان لإثبات صحة دعوته. والشيخ الصفار يشير ضمن هذا السياق إلى أن النصوص الشرعية من آيات وأحاديث وروايات تؤكد أن الانفتاح هو الأصل في العلاقات بين بني الإنسان مهما اختلفت الأديان، فضلًا عن المذهب والمدارس والآراء.

ويضيف الشيخ الصفار أن اهتمام الإنسان بدينه وإخلاصه له، يوجب عليه، في الحدّ الأدنى، أن يفكر في فرص نشر هذه العقيدة وتقديمها بصورة حسنة للآخرين، وهذا لا يتم بالانطواء والانغلاق، ولا يتم في ظروف النزاع والخصومة، ولكن يمكن للإنسان أن يقدم دينه ومذهبه وعقيدته في ظروف التعارف والوئام، ولهذا فإن القرآن الكريم يعد التعارف

قيمة إنسانية، حيث يقول سبحانه وتعالى ﴿**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾.[١]

إلا أن السؤال: لماذا تفضل النخبة، المعوّل عليها ممارسة دور التواصل والتقريب، حالة الانكفاء على الذات، وما هي أسبابها ومبرراتها في عدم الاهتمام والعزوف عن العلاقة مع الآخر، وإقامة العلاقات والصداقات وتبادل الزيارات؟ وما هي جدوى الانفتاح والتواصل مع الآخرين، وما هي آثار ذلك الآن ومستقبلًا؟

إذا كان هناك من أهمية وضرورة للعلاقة مع الآخر والتواصل معه، لانعكاسات هذا الأمر الإيجابية على أوضاع الناس الحياتية والأمنية، فلماذا هذا العزوف عن الانخراط في ممارسة هذا الدور، هل هو نتيجة النقص في ثقافة التواصل والتقريب، أو بسبب الانطباعات السلبية عن مؤتمرات ومحافل التقريب، أم أن هناك نقصًا في الكوادر المؤهلة لممارسة هذا العمل، وكيف يمكن العمل على تأهيل وتطوير الكفاءات المناسبة للقيام بهذا الدور؟

وإذا كان هناك عزوف وانكفاء وعدم رغبة أو حماسة عند الكثير من النخب للمشاركة في جهود التقريب ونشر ثقافة التسامح، بالإضافة إلى النقص في الكفاءات المؤهلة، أو قلّة عددها، فهل يعني ذلك أن حلم التقارب والتقريب والتسامح والعيش في سِلم وحبّ ووئام، هي مجرد أحلام طوباوية لن تتحقق مهما عمل العاملون وسعى الساعون، وأن الجهات الأكثر تطرفًا وتعصّبًا هي التي سوف تملأ الساحة بحركتها وفعلها وصوتها؟

(١) من كتاب الانفتاح بين المصالح والهواجس. ص ١٣

خامساً:

من الأقوال إلى الأفعال

دائمًا ما يعاب علينا أننا ظاهرة صوتية، نكثر من الكلام والصراخ بعيدًا عن الفعل والإنجاز، نتيجة عجزنا وكسلنا، وعدم بذل الجهد في تحويل ما نقوله إلى أفعال. والشيخ الصفار يقول إننا دائمًا ما ننشغل كثيرًا بالكلام عن الوحدة، كمفهوم وفكرة عامة، وكعنوان وشعار عريض، إلا أننا لا نقترب من الحديث عن آليات وأدوات الحالة الوحدوية، فإذا لم نجتهد في وضع خارطة طريق توصلنا إلى الوحدة والتقارب، ولا نبحث في الخطوات العملية التي يجب اتخاذها لإنجاز الهدف المطلوب، فإن المسألة ستبقى مجرد حبرٍ على ورق دون أن يتحقق شيء على أرض الواقع.

والشيخ الصفار يؤكد أنه دون الانتقال إلى البرامج العملية، والخطوات التنفيذية، لتفعيل مكاسب اللقاءات والحوارات، وتطبيق توصياتها، وبلورة إرادة التقارب والوحدة، بالمناقشة الصريحة، والحوار الموضوعي، وإلا فإنها ستصبح مجرد كلام في كلام، وعملية رتيبة مكررة في تبادل كلمات الإطراء والمجاملة، حيث تفقد هذه الاجتماعات بعد ذلك وهجها، وتضعف مصداقيتها أمام كل المتطلّعين للإصلاح والتغيير والتطوير.

لذلك فالسؤال الذي يفرض نفسه، بعد كل لقاء وطني حواري، هو: وماذا بعد؟ كما يشدّد على ذلك الشيخ الصفار، لافتًا إلى أنه دائمًا ما تحصل حوارات رائعة، وتصدر عن هذه المؤتمرات والحوارات أيضًا توصيات رائعة، إلا أن السؤال يظلّ دائمًا وماذا بعد؟ ويرى الشيخ الصفار أنه لا بد من الانتقال إلى البرامج العملية، والخطوات التنفيذية،

لتفعيل مكاسب أي لقاء، وتطبيق توصياته، وإلا فستصبح اللقاءات حالة رتيبة مكررة، تفقد وهجها، وتضعف مصداقيتها أمام المواطنين المتطلعين للإصلاح والتغيير. خاصة وقد استقر في أذهان مجتمعاتنا العربية انطباع سلبي عن اللقاءات والمؤتمرات، التي تتكرر بشكل رتيب بين الزعماء والوزراء والعلماء والمثقفين، ثم تقف عند حدود إصدار البيانات، وتبقى حبرًا على ورق دون أن تحقق شيئًا من آمال الناس وتطلّعاتهم.

من هنا يأمل الشيخ الصفار أن تتجاوز اللقاءات الوطني هذه السلبية، وأن تثبت مصداقية توجهاتها، من خلال تفعيل مكاسبها وتوصياتها، وتلك مسؤولية مشتركة لا تختص بالحكومة فقط، بل تعم نخبة الحوار، وجمهور المواطنين، على أمل أن تتخذ الخطوات العملية التي تساعد في تحقيق هذه التوجهات والتطلعات الوطنية، ولعلّ من أوائل ما يتوقع تنفيذه، كما يتطلع الشيخ الصفار هو تجاوز سلبيات الأحادية والإقصاء، من مناهج التعليم والخطاب الديني والإعلامي، وإتاحة الفرص المتكافئة أمام جميع المواطنين على اختلاف انتماءاتهم ومذاهبهم، ليبذلوا طاقاتهم ويجندوا قدراتهم في خدمة الدين والوطن.(١)

لعلّ من الأمور الملحّة التي تحتاج إلى أن تتحول من مجرد أقوال إلى أفعال، أو من مجرد كونها كلام نظري إلى فعل تطبيقي، هي قضية اللقاء والحوار بين أطياف هذه الأمة وتكويناتها، والسعي إلى إزالة ما بينها من خصام وتباعد، خصوصًا ونحن في زمن يدرك فيه الجميع خطورة الفتنة الطائفية، كما يلمّح الشيخ الصفار، مشيرًا إلى أن تصريحات المسؤولين والحكام في المنطقة، والقيادات السياسية، وعلماء الدين، والمثقفين والكُتاب، كلها تحذر من الفتنة، وتدين الأحداث الطائفية التي تقع هنا وهناك، لكن مجرد التحذير والإدانة هو موقف سلبي لا يعالج المشكلة، ولا يقف أمام تصاعدها وتفاقمها، خاصة مع وجود مصلحة للقوى المعادية للأمة، في تأجيج الفتن لتمزيق الأمة، وإضعاف مقاومتها، وإرباك ساحتها، واستنزاف طاقاتها وجهودها في الاحتراب الداخلي، ومع وجود قوى

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٦٩

متطرفة داخل مختلف المذاهب من السنة والشيعة، تتحرك بقصد أو دون قصد ضمن مخطط الفتنة الطائفية. ويهيب الشيخ الصفار بقيادات الأمة الواعية، وبالعلماء والدعاة الحريصين على مصلحة الإسلام، أن يتجاوبوا مع دعوات الحوار، وأن يسعى الجميع لترجمتها وتحويلها إلى مشروع فعلي.(١)

وفي إطار تشديد الشيخ الصفار على فكرة تحويل الأفكار من مجرد كونها مفاهيم ومصطلحات مجردة، إلى كونها أفكارًا يمكن تطبيقها وممارستها بشكل عملي، يشير إلى أهمية الالتفات إلى قضية آليات الوحدة والتقريب ووسائل تحقيقها، باعتبارها قضية مهمّة لم تنل حظها من البحث والتركيز، موضحًا إنه لا يوجد أمة تتحدث عن الوحدة في أدبياتها وعلى ألسنة قادتها الدينيين والسياسيين أكثر من الأمة الإسلامية، وفي الوقت نفسه ليس هناك أمة تعاني من التمزق والخصام مقدار ما تعاني الأمة الإسلامية. فبينما استكملت معظم الأمم بناء وحدتها الداخلية، وتجاوزتها منطلقة لإنشاء أحلاف وتكتلات إقليمية ودولية، كالاتحاد الأوربي وحلف الأطلسي، يعجز أبناء الأمة الإسلامية عن تحقيق الحدّ الأدنى من الوحدة والتفاهم داخل أوطانهم، وضمن المذهب الواحد.

ويتساءل الشيخ الصفار قائلًا: ترى، ما هي أسباب هذه المفارقة؟ مجيبًا عن هذا السؤال بقوله: إننا ننشغل كثيرًا بالكلام عن الوحدة كمفهوم وفكرة عامة، وكعنوان وشعار عريض، ولا نقترب من الحديث عن آليات وأدوات الحالة الوحدوية. إننا لا نجتهد في وضع خارطة طريق توصلنا إلى الوحدة والتقارب، ولا نبحث في الخطوات العملية التي يجب اتخاذها لإنجاز الهدف المطلوب، لذلك تبقى الوحدة حلمًا نتطلع إليه، وأملًا ننشده، دون أن نصل إلى تحقيقه أو نقترب منه.

ويرى الشيخ الصفار أن افتقاد الآليات وخارطة السير، أبقى الساحة شاغرة أمام من يعلّقون الوحدة والتقارب على حلول تعجيزية، حيث يطرح بعضهم أن وحدة الأمة لا تتحقق إلا بعودة دولة الخلافة الإسلامية، التي تلغي الحدود السياسية، وتسقط

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ٧٣

كيانات الأنظمة الحاكمة، وتقيم سلطة مركزية على رأسها خليفة، يعيد للعالم عصر الخلافة الأموية والعباسية والعثمانية، وفي الوقت ذاته هناك من يربط الوحدة بظهور إمام أو قائد واحد تجمع عليه الأمة، بمختلف بلدانها ومذاهبها، بينما يرى البعض أن أخذ جميع المسلمين بمذهبه، والتزامهم بمنهجه هو الطريق الوحيد لاجتماع الأمة ووحدتها. والخلاصة التي يصل إليها الشيخ الصفار أن أمثال ذلك من الطروحات التعجيزية، لا يمكن تحقيقها حسب معادلات الواقع، كما أن تجارب الشعوب والأمم الأخرى تكشف عن طرق وبرامج أكثر واقعية وأقرب للتحقيق، فأمم الأرض وشعوب العالم المعاصر لم تحقق وحدتها بمثل هذه الطروحات.[1]

إن تحقيق الآمل والطموحات في شأن موضوع الوحدة والتقارب بين أبناء الأمة لن يتحقق بمجرد عقد المؤتمرات وإقامتها، على الرغم من أهمية هذا الأمر وضرورته؛ لأن قيمه هذه المؤتمرات، وما يرد فيها من مفاهيم ومصطلحات، يتمثل في القدرة عل تمثل هذه المقولات قولًا وعملًا، فالوحدة والتقارب هي فكر وفعل، هي سلوك وممارسة، هي عملية تكاملية بين النظرية والتطبيق، وإلا فإن الأمر لن يتجاوز إلا أن تكون أفكارًا مجردة خالية من الفعل.

والمؤتمرات إذا اقتصرت على إلقاء الخطابات وتكرار الشعارات والأمنيات، فإنها لن تحقق أي انجاز على طريق الوحدة، كما يقول الشيخ الصفار، إلا إذا تحولت إلى مبادرات عملية على أرض الواقع، موضحًا أن أي إنجاز في هذا المجال يتطلب اتخاذ الخطوات التالية:

أولًا: بلورة إرادة التقارب والوحدة، بالمناقشة الصريحة، والحوار الموضوعي، وليس تبادل كلمات المجاملة فقط. **وثانيًا**: وضع خطط وبرامج عملية لتجاوز حالات الخلاف والتباعد، وتفعيل إرادة الوحدة والتقارب، مع إقرار آليات للتنفيذ والتطبيق. أما الخطوة **الثالثة**: فهي العزم على متابعة التواصل بين العلماء والشخصيات والجهات المشاركة

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١١٢

في المؤتمر، وألا تقتصر العلاقة بينهم على أيام المؤتمر، بل تؤسِّس لعلاقة تواصل فكري وعملي مستمر. بهذه الخطوات يمكن للمؤتمرات أن تكون منطلقًا لخير كثير وإنجاز نافع في خدمة وحدة الأمة.[١]

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٣٩

سادساً:

النخبة وتحمل مسؤولية التغيير

العمل على تغيير الواقع والسعي إلى إصلاحه وتطويره هي بالتأكيد مسؤولية الجميع من أبناء الوطن بدون استثناء، وعلى الجميع الانخراط في هذا العمل كل بالطريقة التي يراها مناسبة، وأيضًا من خلال تعاون الجميع وتوزيع الأدوار فيما بينهم، بحيث تتكامل هذه الأدوار ولا تتعارض، وتؤتي ثمارها في النهاية، ويأكل الجميع من ثمار العمل والجهد الجمعي المتكامل.

لقد آن الوقت الذي يكون فيه الجميع على مستوى المسؤولية، ويفسحوا المجال لعقولهم ويطلقوا قيودها، من أجل خدمة مجتمعهم وبلادهم، ويفتحوا الآفاق للتفكير من خلال تقييم الواقع واكتشافه ودراسته، وتقديم الدراسات الجادة والموضوعية حوله، وأن يكون هذا الواقع مدار بحث ونقاش جاد، وضمن لجان أو ورش، أو مؤتمرات بحثية هادفة، أو حوارات علنية وشفافة من خلال المنابر الثقافية والإعلامية المتنوعة.

إن التلاقي والتواصل بين أبناء الأمة عن طريق عقد اللقاءات وإقامة المنتديات وتنظيم المؤتمرات، هو أسلوب مفيد ونشاط فعال لمناقشة ومعالجة القضايا التي تهمّ أي قطاع أو جماعات أو فئات يجمعها هم واحد وقضايا مشتركة، حيث يتحدث الشيخ الصفار عن أهمية تنظيم المؤتمرات، لكونها من الأنشطة المعمول بها في كل التجمعات الإنسانية، فأغلب بلدان العالم تقيم مؤتمرات متنوعة، بحيث لا يكاد يمر يوم، إلا ونسمع عن تنظيم مؤتمرات في مختلف المجالات والتخصصات، فهناك مؤتمرات اقتصادية وعلمية وسياسية، ورياضية

كذلك، وحتى للهواة في مختلف التوجهات، وحتى ذوو الأنشطة المنحرفة والشاذة لديهم ملتقياتهم ومؤتمراتهم، لمناقشة القضايا والمسائل التي تهم مجال نشاطهم.

لذلك على المهتمين بقضايا الأمة والمهمومين برفعتها ومستقبلها، أن يحرصوا على مثل هذه المؤتمرات المنظمة التي تتيح لهم التفكير المنظم والعميق والاستراتيجي في شؤون وشجون الأمة، وسبل الخروج من مآزقها، وأن يستفيدوا من هذه الأنشطة والإمكانات التي تتيحها، إلا أن الشيخ الصفار يشعر بالأسف لتخلفنا عن هذا الركب وعن هذه المسيرة، وعدم انتهاجنا هذا الأسلوب الناجع في علاج عدد من القضايا والمسائل، والانفتاح على بعضنا بعضًا من خلال مثل هذه الأنشطة، من مؤتمرات ولقاءات.[١]

إن تحديات الواقع كبيرة، ومعالجة المعوقات وإزالة العقبات تفرض على الأمة أن تكون في مستوى هذه التحديات، ولن تستطيع مجتمعاتنا الاستجابة لهذه التحديات، إلا إذا كانت على مستوى التحدي، وتمتلك من القدرات والطاقات والمعرفة والعلم، بالإضافة إلى قدرة أبناء هذه الأمة على التوحد والتضامن والتآخي لمواجهة هذه التحديات.

إن تحديات الواقع تفرض على أطياف وتيارات وفئات هذه الأمة التلاقي والتحاور والتشاور فيما بينها، وهذا العمل يحتم الوعي بقيمة اللقاء وأهمية التشاور، صحيح أن هذا العمل لن يتحقق بين يوم ليلة، بل يحتاج إلى وقت وزمن تتكثف فيها الجهود من اجل بلورة الرؤى وتهيئة الظروف وتوطئة الأرضية التي تساعد على الالتقاء والخروج بلقاءات مثمرة ومجدية، إلا أن المهم البدء بتهيئة الظروف المناسبة من خلال التوعية والتثقيف بأهمية هذا الإجراء وهذا العمل، من خلال الدور الذي يمكن أن تلعبه الخطابات والندوات والكتابات والنقاشات في هذا الصدد، إلى أن تسود قناعة بأهمية ذلك بين أوساط العامة والرأي العام، وبين النخب وقيادات الأمة.

التلاقي بين أبناء الأمة الواحدة والحوار فيما بينهم، وعقد اللقاءات والمؤتمرات

---

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول ـ من حوار في كتاب بعنوان (مع قادة الفكر الإسلامي).

والمنتديات ليس فقط من أجل النقاش في ما يتفقون عليه، وما هو من المسلمات والبديهيات، وإنما الحوار والنقاش أيضًا في تلك الأمور والقضايا والمسائل المختلف فيها وعليها، فالاختلاف في الرؤى والرأي بين أبناء المجتمع الواحد أمر طبيعي، إلا أن المهم أن يتم هذا الاختلاف بأسلوب رفيع وحضاري، وليس بإسلوب التراشق الكلامي ولغة التشنج والإثارات الإعلامية وخطابات التحريض.

لذلك ينبغي تشكيل الأطر المناسبة التي تضم الجميع بدون استثناء، والتي تحقق التواصل العلمي والاجتماعي والسياسي بين الجهات والشخصيات المهمومة بقضايا الأمة، والعمل على بلورتها عمليًّا على أرض الواقع، بعيدًا عن الشعارات والدعوات الإعلامية الصاخبة التي تهتم بالدعاية والشكليات دون الاهتمام بالمضمون، أو دون العمل الجاد لبلورتها وتجسيدها عمليًّا. على أن المهم هو أن تكون هذه الأطر ملتقى دائم ومتواصل بدون انقطاع للتعاون والتشاور وتبادل الرأي، حول المواضيع التي تشغل المجتمع، وبلورة الأفكار والمشاريع التي تخدم قضايا التنمية ومواجهة التحديات، وتحصين الأمة من تفشي اتجاهات التعصب والتطرف والشقاق، بعيدًا عن الاستئثار بالرأي واحتكاره، وتهميش الآراء الأخرى وعدم الأخذ بها أو إهمالها، إلى أن تتحول هذه المنتديات والملتقيات إلى حالة طبيعية ومألوفة ومتعارف عليها بين أبناء المجتمع.

إن تفعيل حالة التلاقي والتعاون والتفاهم فيما بين الجميع، يتطلب التخلص من سلبيات الواقع والعناصر الموبوءة فيه، وتجاوز المعوقات الذاتية النفسية التي تعيق حالة التعايش والتآخي، والعمل على الإعلاء من قيم الدين السمحة والرفيعة والمتعالية والخلاقة، والتخلق بها، بالسعي إلى تطبيقها وتجسيدها عمليًّا، وليس فقط من خلال ترديدها لغويًّا وكلاميًّا.

سابعاً:

النخبة وعدم اليأس من نتائج العمل

إن عملية التغيير الاجتماعي، ونشر ثقافة التعدد والتسامح والتعايش، وقبول الآخر واحترام رأيه، ونقل مستوى الوعي إلى مستوى الحصانة الفكرية والثقافية، التي تمنع الانجرار إلى حالة التخاصم والتباعد والجفاء والإقصاء والإلغاء وممارسة التطرف والعنف والإرهاب، هي ليست أمور يمكن تحقيقها بين عشية وضحاها، وإنما القضية تحتاج إلى زمن ووقت حتى تبدأ عمليات التحول والتغيير، وفي خطاب الشيخ الصفار يمكن ملاحظة هذه الرؤية من خلال إشارته الدائمة إلى أنه ليس من المتوقع «إنهاء آثار ومضاعفات فترة طويلة من سوء الفهم والجفاء بين عشية وضحاها، فهناك من تربوا على منهج التعصب، وارتباط مصالحهم بالأحادية والغلو».[1]

ومع إدراك الشيخ الصفار إلى هذه الحقيقة، وصعوبة تحقيق التغيير المرتجى، واحتمال أن يستغرق فترات طويلة من الزمن، إلا أنه وفي خطابه يصرّ ويؤكد ويحث على العمل والكفاح والنضال في سبيل تحقيق هذا الهدف مهما كان تواضع النتائج، ومهما عظمت المشكلات وكبرت المصاعب. وتتحلّى نبرة خطاب الشيخ الصفار في هذا الإطار دائمًا بالتفاؤل وعدم الإحباط، والمهم كما يقول أن لا نسمح للانتكاسات التي تحدث بين فترة وأخرى أن تتحول إلى حالة إحباط ويأس في النفوس، أو أن تؤدي إلى التراجع في العزيمة، أو الخفوت في مستوى التطلّعات التي يؤمن بها شريحة من أبناء هذه الأمة.

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٤٢

إنه لما لا شك فيه كما يشير الشيخ الصفار «أن مسيرة التقريب بين المذاهب الإسلامية ووحدة الأمة تمر هذه الأيام بانتكاسة مؤلمة، يعرف كلّ الواعين أسبابها، والقوى المعادية التي تقف خلفها من خارج الأمة وداخلها. لكن المهم أن لا نسمح لهذه الانتكاسة بأن تتحول إلى حالة إحباط ويأس في نفوس الوحدويين، وأن تؤدي إلى تراجع في عزيمة الإصلاحيين وتطلعاتهم نحو الوحدة والتقريب.، فذلك هو ما تسعى إليه قوى الاستكبار الخارجي والتطرف والتعصب الداخلي.

بل يجب أن تدفعنا هذه الانتكاسة إلى وقفة تأمل ومراجعة، لتلافي الثغرات ونقاط الضعف التي استفاد منها العدو، ولوضع الخطط والبرامج لتجاوز هذه المحنة، والانطلاق بهمة أعلى وأقوى، وللتقويم الموضوعي للإنجازات الكبيرة لهذه المسيرة المباركة، التي دفعت الأعداء لتوجيه ضرباتهم لها، فلو لم تكن لمسيرة التقريب آثار ونتائج عظيمة في واقع الأمة لما اهتم الحاقدون بالتصدي لمواجهتها».[(١)]

إنه لمن المؤكد أن الأهداف والرؤى والمشاريع لا تتحقق إلا من خلال وجود برامج وخطط، مع تحديد الوسائل والطرق لتحقيقها، كما وجود كوادر مؤهلة للقيام بتنفيذ المشروع. ومع الأخذ بعين الاعتبار إمكان حدوث مشكلات ومصاعب ذاتية وموضوعية تؤدي إلى تعطيل أو تأخير التنفيذ، أو حتى إلقائه، إلا أن السؤال هو: ماذا سيكون عليه الأمر والوضع في حال لم يكن هناك، لا مشاريع ولا خطط ولا كفاءات ولا هم يحزنون؟

---

(١) من كتاب الطائفية بين السياسة والدين. ص ١٢٦

ثامناً:

دور النخبة في التعبير عن هموم وتطلعات الأمة

كيف يمكن تطبيق التعددية السياسية في الحياة العامة، وذلك في البلدان الإسلامية، بعيدًا عن الاستئثار بالسلطة، أو ممارسة العنف والقمع ضد المنادين بتطبيق هذه التعددية وممارستها؟

لا يمكن الرقي بالحياة العامة في مجتمعاتنا وتطويرها نحو الأفضل في ظلّ ضعف حالة الوعي والقصور فيه بين الكثيرين من أبناء مجتمعاتنا، حيث يتخذ هذا القصور أشكالًا متعددة، فمن القصور في وعي الحياة من حولنا، إلى القصور في فهم طبيعة الإنسان وطبيعة المجتمع وما يدور ويحدث حولهما من أحداث وتطورات، ففي الوقت الذي يعيش فيه العالم تحولات وانقلابات سريعة ومذهلة، ما زال الكثير منا يعيش ضمن عقلية ماضوية، ويتقوقع ضمن أفكار مقولبة تجاوزها الزمن.

وفي ظلّ ما نعيشه من حالة قصور وتخلف في مجتمعاتنا، يتحدث الشيخ الصفار عن أهمية انتشار الوعي السياسي بين المواطنين، ليعرفوا ويطلّعوا على رؤية الإسلام، ليس فقط في المجال السياسي، ولكن في جميع المجالات الحياتية، بالإضافة إلى الوعي العام بالظروف والواقع الاجتماعي والسياسي الذي يعيشون فيه، والاستفادة من التطور والتقدم الذي تعرفه البشرية.

ويشدد الشيخ الصفار على ضرورة تحمل المسؤولية من طرف الطليعة الواعية في كل مجتمع، حيث يتحمل هؤلاء مسؤولية نشر الوعي بين الناس، والعمل على تطبيق المفاهيم

والمبادئ، فمستوى الوعي لدى الناس آخذ في التطور، بسبب انتشار وسائل الإعلام، وتدفق المعلومات من بقاع العالم المختلفة، بحيث يمكن للإنسان اليوم الاطّلاع على تجارب الآخرين، ومعرفة الحقائق العلمية، والاجتماعية والسياسية، وهو الأمر الذي يرفع من مستوى وعي الناس ونضج مواقفها، ومن ثم يمكن أن تجد مبادئ التعددية طريقها نحو التطبيق والممارسة.

إلا أن حالة الاستبداد والقمع السائدة في بعض بلداننا هي المسؤولة عن لجوء الكثيرين إلى سلوك طريق العنف كرد فعل للعنف الذي يمارس ضدهم، كما يقول الشيخ الصفار، ومع ذلك فالإنسان المؤمن والواعي يجب أن يكون ردّ فعله تجاه هذه الحالة منطقيًّا ومنسجمًا مع مبادئ دينه وعقله، على الرغم من أن الكثير من الناس قد لا يصل إلى هذا المستوى من الإدراك والفهم للدين، ولا يمتلك الرؤية السليمة والحكيمة لكيفية التعامل مع الواقع، حيث تظهر بسبب ذلك وتنتشر ظاهرة العنف.[١]

إن هذه الأوضاع السلبية تزداد سوءًا عندما تمارس النخبة دورًا سلبيًّا في توتير الأوضاع، حيث تلجأ بعض النخب المتشددة إلى تحريك عواطف الناس ومشاعرها بمختلف العناوين النابذة لحالة الوحدة والتقارب وتغذي الواقع بأفكار التطرف وبثها بين الناس ونشرها، مما يؤدي إلى زيادة الجفاء بين الناس والبعد والقطيعة فيما بينهم، ويمنع أو يقطع الطريق على حالة الاندماج والتعايش والتعاون.

وكم هو مخجل كما يقول الشيخ الصفار أن يأخذ العلماء والمفكرون والواعون من أبناء الأمة موقف المتفرج من أحداث العنف الدموي التي تقع بين فترة وأخرى في العالم الإسلامي، أو الاكتفاء بالإدانة على المستوى الفردي، دون أن تتأسّس مؤسسة أهلية واحدة تدعو للتعايش بين القوميات الإسلامية، واحترام حقوق وخصوصيات أبنائها في إطار الإسلام، وضمن قيم العدل والمساواة.[٢]

---

(١) كتاب الإصلاح الديني والسياسي ـ الجزء الأول ـ من حوار في كتاب بعنوان (مع قادة الفكر الإسلامي).

(٢) من كتاب خطاب الوحدة نقد وتقويم.

وعلى الرغم من انتشار أفكار التطرف، والظروف السياسية التي تغذيها وتساهم في انتشارها، فإنه من الضروري وجود نخبة واعية ومسؤولة، تمتلك الإرادة والرغبة في التصدي لهذا الواقع، وتعمل بجد وإخلاص وبلا هوادة على تغيير هذا الواقع السيئ، والتخفيف من غلواء حالات الغلو والتطرف المنتشرة بيننا، من خلال العمل على بثّ ونشر ثقافة الاعتدال والوحدة والتقارب، من أجل وضع حدٍّ لانتشار وتغلغل هذه الأفكار السلبية.

إن جمهور الأمة اليوم كما يشير الشيخ الصفار «مهيأ أكثر من أي وقت مضى، للاستجابة لدعوات الوحدة، والالتفاف حول المصلحين الواعين، شريطة صمودهم واستقامتهم أمام الضغوط، وبذلهم الجهود الكافية لبثّ الوعي السليم والثقافة الصحيحة.»[١]

والحوار بين هذه النخب، أو بينهم وبين عموم الناس، سيكون أحد وسائل نشر الوعي الايجابي ومحاصرة الأفكار الضالة والمنحرفة، وتحجيم مستوى الإثارات والتوترات والنعرات الناجمة عنها، لئلا يؤدي تضخيمها إلى مزيد من التبعثر والفرقة بين الناس، ولكي لا يُفسح المجال للمغرضين بتشتيت صفوف الأمة وتفريقها، فمن خلال الحوار يمكن إنتاج ونشر ثقافة الاعتدال والوحدة والتقارب والتعايش، وإشاعة أجواء الهدوء والاطمئنان والثقة بين أبناء الأمة، وتوثيق أواصر المحبة والمودة بينهم، بعيدًا عن المشاحنات والمهاترات التي لا تمتّ إلى أخلاق الدين وتعاليمه بصلة.

وعلى النخبة أن تتجاوز بهمومها وتطلعاتها القضايا الصغيرة والهامشية، التي تهدد بتمزيق مجتمعات الأمة وإضعاف جبهتها الداخلية، وتقوض أمنها واستقرارها، وارباك ساحتها بالنزاعات والخلافات البينية، على أن تتوجه الأنظار نحو تلك القضايا والمفاهيم الأوسع والأعمق والأكبر، التي تمتد على مساحة أوسع من الاهتمامات، من خلال توجيه الجهود نحو التنمية والبناء، ومواجهة تحديات الاستبداد الداخلي والاحتلال الأجنبي، والهيمنة الخارجية، والتخلف الحضاري.

(١) من كتاب السلفيون والشيعة نحو علاقة أفضل. ص ١٢

فلا ينبغي للنخبة المسؤولة والواعية، والمعوّل عليها وعلى سعيها وجهودها نشر الوعي والثقافة والمعرفة، أن تكون بعيدة عن تبني قضايا الأمة الكبرى والأساس، وأن تكون جزءًا من اهتماماتها وانشغالاتها، بل يجب أن تكون في عمقها، وأن تظل تعبر عن هموم الإنسان، وأن لا تفصلها حواجز أو انكفاءات هويات الذات الصغيرة، وأن لا يحول دون انهماكها فيها حسابات ضيقة، أو ضيق الانتماءات المحلية والمذهبية.

إلا أن المشكلة، كما يشير الشيخ الصفار، عندما يمتد تأثير الخطاب المذهبي ويتسلّل إلى نفوس البعض من رواد خطاب الوحدة وقادة الوسطية والاعتدال في الأمة، تحت مبرر الاعتراض وردّ الفعل لمواقف طائفية من الطرف الآخر، هذا فضلًا عن الدور السلبي لبعض النخب في حال الصراعات المذهبية الطائفية، التي يبرع فيها السياسيون في إثارتها واستغلالها، حيث تتجاوب معهم العقليات الساذجة من الزعامات المذهبية، فتتبرع في إصدار فتاوى التكفير، وكتب التحريض على الكراهية، حيث لا تقف الأمور عند هذا الحدّ، بل تتطور إلى تكوين ميليشيات طائفية للتصفيات المتبادلة، والاعتداء على المساجد والأماكن المقدسة والتجمعات الدينية.(١)

لا ينبغي للمواطنين إلى أي فئة انتموا، أن يحاصرهم همّهم الخاص، فيصبح الهمّ الخاص غالبًا على الهمّ العام، بل ينبغي لهم التسامي على الاهتمامات الخاصة والخروج من حالة الانكفاء على الذات والتقوقع عليها، ويحملوا قضيتهم ضمن إطارها الطبيعي، وأن لا يضعف في نفوسهم وتفكيرهم وعملهم الهمّ الوطني، خاصة وأن مشكلتهم هي جزء من وضع عام موجود على مستوى الوطن، ولا يمكن حلّ هذه المشكلة كلّها، إلا إذا كان هناك إصلاح شامل وتطوير شامل على المستوى الوطني العام.

والسياق التاريخي وما نشاهده ونراه في الواقع المعيش، كما يقول الشيخ الصفار، يثبت أن الإنسان/ المثقف الذي يرتقي بطرحه، ويحمل قضية أكبر، يصبح في موقع متقدم، وتكون قدرته على حمل قضيته الخاصة أكبر وأسمى، ويستطيع خدمة همّه الخاص بشكل

(١) من كتاب خطاب الوحدة نقد وتقويم.

أفضل، وذلك من خلال تعزيز دور فئته على المستوى الوطني، والعمل على الرقي بأدوار أبناء مجتمعه الثقافية والإعلامية والاقتصادية والعلمية والاجتماعية، وأن تكون لهم المبادرة تجاه مختلف القضايا الوطنية، وعلى مختلف الصّعد؛ لأنهم بذلك يقدمون أفضل خدمة لأنفسهم ولقضيتهم من خلال تبني الدور الوطني العام.[1]

---

(١) من كتاب المشكل الطائفي والمسؤولية الوطنية. ص ٣٢

خاتمة

الحديث عن المشكلة الطائفية في بعض مجتمعاتنا، وسبل علاجها والتخلص منها، هدف يستحق النضال من أجله، والسعي إلى تحقيقه، مهما طال الزمن. ولا يظننّ أحد أن هذا الهدف يمكن تحقيقه بين يوم وليلة، وفي زمن قصير، إذ هو عمل يحتاج إلى وقت وزمن، وكلما تحقق أو أنجز شيء من الهدف على الطريق، فإن ذلك لا يعني انتهاء الأمر، والاكتفاء به، بل يجب الاستمرار في الكفاح ومواصلة المسير، حيث إنه عمل طويل الأجل، ينطوي على كفاح مستمر ودائم لا يتوقف، والتوقف عن المسير يعني النكوص والعجز عن مواصلة الطريق.

إن العمل على التخلص من المشكلة الطائفية والرقي والنهوض والتقدم بمجتمعاتنا في هذه الحياة، يتطلب مشاركة جميع أبناء المجتمع بكل فئاتهم وتكويناتهم المختلفة، ولا يمكن لأي مجتمع يريد سلوك هذا الدرب، أن يسعى إلى إلغاء أي مكوّن من مكوناته الاجتماعية، مهما كان حجمه، ومهما كانت طبيعته وخلفياته، لكون هذا الأمر يعدّ عملًا منافيًا لمنطق التطور وشرط التقدم، الذي لن يتحقق إلا من خلال الاستجابة للتحديات المعاصرة، ونبذ العنف، وإرساء السلم الاجتماعي، وحماية الحقوق والحريات، وفتح الميدان للتنافس الإيجابي الخلّاق، بين المكونات الاجتماعية والسياسية والدينية التي تكون هذا المجتمع أو ذاك، وعندما تفكر فئة في إلغاء أخرى وإقصائها عن المشاركة، فلن تكون النتيجة إلا وبالًا على الجميع، ومساهمة في إنتاج ظواهر التشدد والتطرف والتعصب والعنف والإرهاب

المنفلت، مما يؤدي في الأخير إلى تقسيم المجتمع وتفتيت مكوناته.

إن مواجهة ثقافة الطائفية التي تنتشر في إرجاء مجتمعاتنا، وبناء مشروع حضاري جديد، لن يكون ممكنًا من خلال إهمال أي مكون من مكونات المجتمع المختلفة، أو من خلال سياسات التهميش والإقصاء والإلغاء ومصادرة الحقوق، فالمكونات الاجتماعية والثقافية الراسخة التي تشعر بالإهمال والتهميش، تنتفض وتنتعش عندما تشعر أن وجودها يتعرض للخطر، فتسعى للدفاع عن وجودها المادي والمعنوي بمختلف الطرق والأساليب. على أن مواجهة هذه الثقافة السلبية، والسعي إلى تغييرها وبناء ثقافة جديدة ومختلفة، تختلف عن نهج الإقصاء ومصادرة الحقوق، لن يتحقق إلا من خلال تحديث وتطوير المجال الثقافي والمعرفي والعقلي في مجتمعاتنا، من أجل تجاوز ما هو متغلغل من بنى فكرية وثقافية مترهلة وبالية.

إن ما نشاهده من حرائق مشتعلة، وانتفاضات مدوية، تمرّ بها بعض مجتمعاتنا، سعيًا إلى تجديد اجتماعها السياسي، وإصلاح أوضاعها الداخلية، وتغيير حالها إلى ما هو أفضل وأحسن حال، يجب أن يكون محفزًا لباقي مجتمعاتنا الأخرى للتفكر مليًّا في حمل نفس الهموم والمشاغل من أجل إصلاح ذاتها، واغتنام الفرصة لتصحيح مسارها، وتجديد حياتها، وتنمية قيم التعدد والتنوع والوحدة والتقريب والتسامح فيها، بعد الذي عاشته من صدأ وتكلس طائفيين، إذ لا يمكن لأي مجتمع يدّعي تبنّي مشروع للتغيير الحضاري، أن يهمل وينتقص من مساهمات باقي المكونات الاجتماعي الأخرى، إذ لا سبيل لقيام مشروع حضاري حديث، بعيدًا عن قاعدة المساواة وضمان الحرية للجميع.

إن مواجهة مشاريع التفتيت والتمزيق، والعمل على توثيق الروابط بين أبناء المجتمع الواحد وأطيافه، والأمة الواحدة وفئاتها، يحتاج إلى صبر، وطول نفس، وعمل طويل المدى، حيث كانت للشيخ الصفار مساهماته في هذا المجال من خلال موقعه الديني والرسالي والوطني الذي انفتح فيه على كل الفئات والمكونات والأقطاب، على الرغم من الصعوبات وحجم التحديات الكامنة على الطريق، فعمل جاهدًا على تحدّي الصعاب،

ومواجهة مكاره الطريق، وعمل على خط التقارب والتقريب والتلاقي والتآلف والوحدة، ولم يسمح لليأس بأن يثبط من عزيمته، ويأخذ طريقه إلى نفسه وقلبه.

لقد أدرك الشيخ الصفار حجم الثمن والضريبة التي يمكن أن يدفعها الغيارى من أبناء هذه الأمة، نتيجة وقوفهم ضد مشاريع الفتنة الطائفية، التي تمزق وتُنهك مجتمعاتنا من الداخل، والسباحة عكس تيار المد الطائفي، من خلال الجهر بكلمة الحق في الدعوة إلى الوحدة والتقارب والتآلف، ومجابهة باطل التفرقة والتمزق والانقسام، والتصدي بالموقف الحاسم لكلّ محاولات شقّ الصّفّ، ومواجهة ثقافة الكراهية والبغضاء والشحناء والعدوانية، وغيرها من القيم الرديئة، والعاهات الأخلاقية البغيضة، والمساهمة في نشر الوعي، والتبشير بثقافة الوحدة والتقارب بين أبناء هذه الأمة.

وإلى ذلك فقد لمسنا من خلال تتبع وقراءة خطاب الشيخ الصفار، مواقفه البارزة والواضحة حيال التدخلات الأجنبية والاحتلالات الخارجية، واعتداءات المحتلين الغاصبين لأرض فلسطين، ليس انطلاقًا من موقف آني ومؤقت، وإنما انطلاقًا من موقف قيمي مبدأي رائد في مواجهة كل أشكال التدخلات والاحتلالات، حيث انطلق في مواقفه من رؤية الإسلاميّة بعيدة المدى، كما أشرنا إلى ذلك في سياق هذا الكتاب، حيث كان همّه وشغله الشاغل الحفاظ على تماسك الأمة ومكوناتها، من خلال العمل على نشر الوعي، والتثقيف بثقافة الوحدة والتقارب.

وفي تأكيده على مبدئية قضية الوحدة، وأنها تشكل حجر الزاوية في إعادة بناء هذه الأمة، يورد الشيخ الصفار حشدًا هائلًا من النصوص الدينية التي تؤكد أهمية الوحدة والتعاون، وأنها من أساسيات المبادئ الإسلامية، وتنهى عن التفرقة والمعاداة، حيث يقول «إن قضية الوحدة والتعاون بين المؤمنين تحتل موقعًا هامًّا في ثقافة الإسلام وتعاليمه، والمؤمن ليس مخيرًا بين السلوك الوحدوي والأخلاقية التعاونية وبين التفرقة والخصام، بل إنه ملزم من قبل اللَّه تعالى بوحدة الصّف ولم الشمل، ومكلف بالابتعاد عن التفرقة والبغضاء، فالوحدة والتعاون واجب شرعيّ وتكليف إلهيّ على كل مسلم مراعاته وتطبيقه، والتفرقة

والعداوة بين المؤمنين عمل محرم وجريمة نكراء يحرم اقترافها وممارستها».[١]

إن التنبه إلى أهمية التصدي للتدخلات الخارجية، وتعكير مياه مجتمعاتنا الداخلية، يبقى منقوصًا ما لم يقترن بأولية تنقية هذه المياه وتصفيتها من الداخل، من خلال رفع مستوى الحصانة المجتمعية المبنية على عقد المواطنة، والانخراط الجاد في تطوير عقد اجتماعي يؤدي إلى ولادة استقرار على مستوى الهوية الوطنية الجامعة؛ لأن الهوية الجامعة هي من أهمّ العوازل في مواجهة المؤامرات الخارجية والتصدي لها.

والصراحة تقتضي القول، إن قدرة الخارج على التمدد إلى وسط مجتمعاتنا، واللعب بمكوناتها، ما كان ممكنًا أن يحدث، لولا التأجيل المزمن لمعالجة أسئلة الإصلاح الملحّة والمحقّة. فليست أجندة الإصلاح هي التي استدعت الآخرين إلى مكوناتنا المجتمعية، بل النكوص المريع عن معالجة هذه المطالب، ولن يكون مجديًا بعد اليوم تأجيل استحقاق الإصلاح، أو المماطلة في تحقيقه، أو تخوين من ينادي به كونه مطلبًا خارجيًّا، فالمدخل إلى استقرار مجتمعاتنا وسلامتها هو فتح الباب، من دون تردد، أمام مشروع إصلاحي وطني، يزواج بشكل خلّاق بين موجبات الاستقرار واستقرار الهوية.

لقد اجتهد الشيخ الصفار في العمل على اكتشاف جوهر الدين، وما يختزنه من خصائص وسمات وقيم وفضائل، تدعو إلى التسامح واحترام الآخر والانفتاح عليه، وترسخ السلم، وتنبذ العنف بكافة أشكاله، وترتقي بأخلاقيات الحوار، والفهم المتبادل، والتعامل الخلّاق والنبيل بين الناس، مهما كانت انتماءاتهم، ونبذ ثقافة الكراهية والعدوان، وتجاوز القيم الرديئة والسلبية، التي تدعو إلى الانكفاء والانغلاق.

وفي تقديمه لكتاب الشيخ الصفار **التعددية والحرية في الإسلام** ينوّه الشيخ محمد مهدي شمس الدين بالكتاب، ويعتبره أحد الكتب الجديرة بالعناية والرعاية والانتفاع، فالكتاب كما يعتقد الشيخ شمس الدين، يلبّي حاجة ماسّة ومتنامية في مجتمعاتنا الإسلامية، التي تعصف بها خلافات مذهبية وطائفية، وخلافات بين المسلمين الملتزمين وبين المسلمين

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام ـ ص ١٥٤

الذين يعملون في الحقل السياسي على خلفيات من داخل أطر تنظيمية غير إسلامية ذات طابع قومي أو غير قومي، وكذلك بعض المجتمعات تعصف بها الخلافات الدينية بين المسلمين وغيرهم، وهذا الكتاب كما يقول الشيخ شمس الدين، من الأبحاث التي تشرح وجهة نظر الإسلام الرحبة والمنفتحة في التعايش مع الأغيار، ويلبي حاجة ماسة في مجتمعاتنا، حيث يعالج ويبحث موضوع التنوع، ويشق طريقًا في مجال غير مطروق في الأبحاث الفقهية والفكرية الإسلامية.

وزيادة على ذلك ينوه الشيخ شمس الدين بالشيخ الصفار، لكونه وفِّق توفيقًا كبيرًا في إثارة الأسئلة الصعبة في هذا الحقل، ووفِّق إلى حدٍّ كبير في تقديم الإجابات الملائمة عن هذه الأسئلة، التي أظهر فيها أن الموقف الإسلامي فكرًا وفقهًا من التنوع والتعدد هو موقف إيجابي وليس سلبيًا، فالإسلام يعطي شرعية الوجود في العقائد والمذاهب والاتجاهات الفكرية المخالفة له، ولا يفرض على أصحابها الإذعان له من دون قناعات، ولا يكره على اعتناقه أحدًا.(١)

لقد سعى الشيخ الصفار قدر ما يستطيع من جهد، ومن خلال تبني وإعلاء المفاهيم الدينية الأصيلة والترويج لها، إعادة توجيه البوصلة نحو موقع التحدّي الصّحيح، وأن يخاطب عقل الكثير من العلماء والفقهاء والنخب لكي يتوازنوا في مواقفهم، وليكونوا أكثر دقّةً في الحكم على بعضهم بعضًا، فمجتمعاتنا اليوم أحوج ما تكون إلى بلورة كتلة وحدوية تاريخية، تحفظ للأمة مكانتها وموقعها بين الشعوب والأمم، إلا أن المأساة تبدو كبيرةً، وفي هذه المرحلة بالذّات، حيث إن من يتبنى خطاب الوحدة يبدون قلة وفئة قليلة من الناس، في هذا الزمن الصعب الذي تدور فيه الدّوائر على الكثيرين، فيشهرون سلاح المذهبيّة والعصبيّة قبل أن يتبيّنوا ويتثبّتوا، ومن دون أن يدقّقوا في حجم الهجمة الكبرى الّتي تستهدف الأمّة.

ويتهم الشيخ الصفار بعض الكتاب والمفكرين بأنهم لعبوا دورًا مثيرًا في تكريس

---

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ١٢

حالة الجهل والتضليل الإعلامي لدى كل مذهب تجاه سائر المذاهب، حيث يقدم أولئك الكتاب صورة خاطئة تنطوي على الجهل والمغالطات عن هذا المذهب أو تلك الطائفة، أما لغرض في نفس الكاتب، أو لاعتماده على المصادر المعادية والمناوئة للجهة التي يكتب عنها، أو لتقصيره في البحث والمرجعة.(١)

لقد كان للنخبة دورٌ سلبيٌّ في مجتمعنا، كما يؤكد الناشط محمد سعيد طيب في تقديمه لكتاب الشيخ الصفار **المذهب والوطن**، نتيجة القطيعة الثقافية، وغياب فضيلة الحوار الفكري، وثقافة التسامح، ولجوء بعض رموز النخب الثقافية وبانتهازية صارخة إلى أساليب القمع والإقصاء وتأليب السلطة، مما انعكس سلبًا على تطور الفكر في الوطن، وأضرت بالمسار الثقافي وبمصداقيته وقدرته على الإقناع، وتأهله لممارسة دوره الفاعل في إشاعة الوعي وترقية الحياة.

ويلفت الطيب إلى أهمية أن تمارس النخب الفكرية والثقافية بمختلف توجهاتها، دورها في تفعيل ثقافة الحوار بروح وطنية ومسؤولية واعية، بعيدًا عن الاستبداد والإقصاء والوصاية وتبني الآراء المسبقة، والتصورات النمطية، وادّعاء امتلاك الحقيقة، حيث أصبح ذلك اليوم ضرورة وطنية، لصياغة جبهة وطنية متماسكة، تأمينًا للوحدة الوطنية والتصدي للتحديات الخارجية والداخلية على حدٍّ سواء.(٢)

ويشير الشيخ الصفار إلى أن التسامي على عوامل الخلاف والتمزق والقطيعة والتنافر، وتحقيق الوحدة الإسلامية والوطنية لكل مجتمع في بلاد المسلمين، والارتقاء بها إلى مستوى التعايش الحضاري، تملي على رجال الدين القيام بأهم دور في الدعوة إلى الوحدة والوئام، وتحذير الناس من النعرات القومية والفتن الطائفية، حيث لا يجوز أن يمارس عالم الدين دور إذكاء روح التعصب المذهبي بمبررات واهية زائفة، كما أن على رجال الفكر والإعلام مسؤولية توجيه أقلامهم وجهودهم، لإشاعة روح التسامح والتقارب، ومحاربة توجهات

(١) من كتاب التعددية والحرية في الإسلام. ص ٢٨٤
(٢) من كتاب المذهب والوطن. ص ١٢

التشدد والتطرف، التي يغذيها الأعداء، وينميها الجهل والغباء.[١]

لقد أخذ الشيخ الصفار على عاتقه المساهمة في مواجهة خطاب التطرف والتحريض والتعبئة ضد الآخر والمدّ الطائفي البغيض، والتحذير من خطورة الحوادث والنزاعات الطائفية، والتنبيه من منزلقات حالات الصراع المذهبي لأغراض سياسية، وتعرية سياسات التمييز الطائفي بين المواطنين، إحساسًا منه بالواجب وبعظيم المسؤولية في هذه الظروف العصيبة، حيث أخذ، كما يقول، يجاهر بكلمة الحقّ في الدعوة إلى الوحدة والتقارب والتآلف، ومجابهة حالات التفرقة والتمزق والانقسام، متفاعلًا مع ما مرّت به المنطقة من أحداث عاصفة ودامية، وتدخلات واحتلالات أجنبية، مساهمًا في نشر الوعي والتبشير بثقافة الوحدة والتقارب بين أبناء الأمة والوطن، على الرغم مما اكتنف هذا العمل من صعوبات بالغة ومريرة، وما تكلفته من أثمان باهظة، دافعًا من الغالي والرّخيص من أجل صون وحدة الأمّة الّتي لا تزال تتداعى الأمم عليها، كما تتداعى الأكلة على قصعتها.

وأخيرًا، لا ينبغي لهذا العمل أن يحسب بأنه عملٌ ترفيٌّ، أو أن يظل مجرّد جهد تنويري فقط، أو مسألة أفكار ورؤى تختمر وتُقترح في الذهن، أو مجرد آمال وأشواق ورغبات يُتجادل حولها، بل من الضروري والملحّ أن يتحول إلى مشروع أكبر وأوسع وأشمل من أجل التغيير، يتحول إلى فعل بناء على أرض الواقع اليوم وليس غدًا، وعمل استراتيجي بعيد المدى، وفي صلب الخطط والتصورات التي تستهدف خلق وبناء قيم ملزمة ومسؤولة تتربى عليها الأجيال منذ الصغر، للتحول بعد ذلك إلى جزء من النسيج العقلي والفكري الذي ينعكس على السلوك والممارسات في الحياة طواعية واختيارًا، من خلال القدرة على الاندماج في العصر، والقابلية على استيعاب المفاهيم والتحولات المعاصرة، فالرهان على تحديث البنية الثقافية، والتأسيس لقيم بديلة، ونقل المجتمع من نسق ثقافي مهترئ، إلى نسق ثقافي آخر حديث ومتطور، لا يجب أن يكون عملًا شكليًّا وجاهيًا، يتمظهر في أشكال وأعمال دعائية وإعلامية دون الولوج إلى عمق الفعل التغييري وجوهره.

---

(١) من كتاب التنوع والتعايش. ص ١٥٨

إن حلم التغيير لا يمكن أن يتحقق بمجرد التفكير فيه وتخيله، ولا بالممارسات العفوية والعشوائية، وإنما هو حلم يحتاج إلى أن يتبلور في صورة برنامج تفصيلي يحقق الآمال والطموحات، ويتواءم مع المتغيرات العصرية، ويقدم إجابات مقنعة عن كل الأسئلة التي تفرضها الحياة المعاصرة، ومتطلبات تسيير المجتمعات الحديثة وطموحاتها، من خلال تفعيل دور الاجتهاد وفهم النصوص في ضوء المتغيرات والمستجدات، على الرغم من الصعوبات الكثيرة التي تواجهها مجتمعاتنا، الناتج أساسًا من صعوبة المواءمة بين الاعتماد على النقل، دون إعطاء مساحة واسعة من عمل العقل.

من المؤكد والطبيعي أن تأسيس بُنى تحتية لهذه الثقافة البديلة، ينطلق من خلال بلورة خطط واستراتيجيات تعيد صياغة الأسس التي تقوم عليها أسس التربية والتعليم والتثقيف، وتتطلب سياسات وبرامج تشارك فيها كافة مؤسسات المجتمع، ابتداءً من الدولة وأجهزتها المختلفة إعلامية وتربوية، إلى المدارس والجامعات ودور العبادة والأندية، وانتهاءً بمؤسسات المجتمع المدني المختلفة، أو أي أطر أخرى لها إسهام في تشكيل ثقافة الفرد، على اعتبار أن المدخل الصحيح إلى تجديد وتنمية البنية الثقافية هو الفرد نفسه، ولا يمكن أن تبلغ هذه التنمية أهدافها إلا إذا قامت على دعامتي التعليم والثقافة.

سيهات

الخميس ١١ صفر ١٤٣٣هـ

الموافق ٥ يناير ٢٠١٢م

مصادر كتب الشيخ حسن الصفار

١. كتاب المذهب والوطن. الطبعة الثانية ٢٠٠٨، أطياف للنشر والتوزيع، القطيف، المملكة العربية السعودية.

٢. كتاب الطائفية بين السياسة والدين. الطبعة الأولى ٢٠٠٩، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

٣. كتاب الحوار والانفتاح على الآخر. الطبعة الأولى ٢٠٠٤ – دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٤. كتاب الإصلاح الديني والسياسي / الجزء الأول. الطبعة الأولى ٢٠٠٩، أطياف للتوزيع والنشر، القطيف، بالاشتراك مع دار الصفوة، بيروت.

٥. كتاب الإصلاح الديني والسياسي / الجزء الثاني. الطبعة الأولى ٢٠٠٩، أطياف للتوزيع والنشر، القطيف، بالاشتراك مع دار الصفوة، بيروت.

٦. كتاب الأحادية الفكرية في الساحة الدينية. الطبعة الأولى ٢٠٠٨، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت.

٧. كتاب رؤية حول السجال المذهبي. الطبعة الثانية ٢٠٠٥، مؤسسة

العارف للمطبوعات، بيروت.

٨. كتاب التعددية والحرية في الإسلام. الطبعة الثانية ١٩٩٦، دار المنهل، بيروت.

٩. كتاب التنوع والتعايش. الطبعة الثالثة ٢٠٠٤، دار التآخي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.

١٠. كتاب السياسة النبوية ودولة اللاعنف. الطبعة الثانية ٢٠٠٦، مؤسسة العارف للمطبوعات، بيروت.

١١. كتاب السلفيون والشيعة نحو علاقة أفضل. الطبعة الثانية ٢٠٠٧، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت - لبنان.

١٢. كتاب الانفتاح بين المصالح والهواجس. الطبعة الثانية ٢٠٠٩، أطياف للنشر والتوزيع، القطيف - المملكة العربية السعودية.

١٣. كتاب الوحدة نقد وتقييم. الطبعة الأولى ٢٠١٠، مكتب الشيخ الصفار، القطيف - المملكة العربية السعودية.

١٤. كتاب موقعية حقوق الإنسان في الفقه الإسلامي. الطبعة الأولى ٢٠١٠، مكتب الشيخ حسن الصفار، القطيف - المملكة العربية السعودية.

١٥. كتاب المشكل الطائفي والمسؤولية الوطنية. الطبعة الثانية ٢٠٠٩، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت - لبنان.

١٦. كتاب الوطن والمواطن الحقوق والواجبات. الطبعة الأولى ١٩٩٦، دار الصفوة، بيروت - لبنان.

المحتويات

مدخل: الطائفية شرٌّ مطلق ٥
طريق الخلاص ٦
التغيير بالحوار ٨
جرأة نقدية وسبق زمني ١١

الفصل الأول: مقدمات أولية ١٥

أولا: ملامح من سيرة الشيخ الصفار ومسيرته ١٧
بين مرحلتين ١٩
حضور ثقافي دائم ومتجدد ٢١
تثقيف ذاتي مستمر ومتواصل ٢٣
تجسير الفجوة بين القول والعمل ٤٢

ثانياً: في أولوية معرفة الواقع وتشخيصه ٢٧

ثالثاً: إشكالية العقلية الأحادية وإلغاء الآخر ٣١

رابعاً: في أهمية نقد الذات ومراجعتها ٣٣
بين نقد الذات ونقد الآخرين ٣٥

خامساً: حول ظروف انبثاق خطاب الشيخ الصفار ٣٩
الاختلافات المعاصرة وجذورها التاريخية ٤٠
الإعلام المذهبي وإثارة روح التعصب والكراهية ٢٤
الاستثمار الخارجي في الخلاف الداخلي ٤٤

التهديد الخارجي يطرق الأبواب ٤٦
التطبيق المشوّه للدين ٤٩

الفصل الثاني: المسألة الطائفية وضرورة الإصلاح السياسي........ ٥٥

أولا: المسألة الطائفية والتداخل بين ما هو سياسي وما هو ديني ٥٧
الطائفية والتوظيف السياسي ٥٨
لماذا نعجز ويتقدم غيرنا؟ ٦٠
التأثيرات السلبية للعوامل السياسية والدينية ٦٢
عندما يكون الفقهاء في خدمة أجندة السلطان ٦٣
في سبل تفكيك غلواء الطائفية ٦٦

ثانياً: في مظاهر المشكلة الطائفية ٦٩
انتهاك الخصوصيات........................ ٧٢
بذور المشكلة ونذر الفتنة ٧٣
المواجهة وتحدي الصعاب ٧٥

ثالثاً: بحثًا عن جذور أمراض الطائفية ٧٧
شوائب التراث وتنقيته ٧٨
الخلاف حول الخلافة ٧٩
الماضي بين أن يكون للعبرة أو يكون للإثارة ٨١
نقد التراث ومراجعته........................ ٨٣

رابعاً: المناعة ضد الطائفية بين الماضي والحاضر ٨٥
أزمة ثقة وضعف في الأطر الجامعة ٨٧

خامساً: منهج اللاعنف والتسامح كأساس في بناء الدولة الحديثة ٨٩
عنف وحشي ومنفلت........................ ٩٠
أخلاقيات الدين في التعامل مع المختلفين ٩٢

سادساً: من أجل تنمية حالة التفاعل والتجانس والتآلف بين شركاء الوطن ... ٩٧
صراع الهويات ٧٩

بناء الهوية الجامعة ١٠١
الشراكة في بناء الوطن وتعميره.................................. ١٠٢
مسؤولية شركاء الوطن في تجاوز المشكلة الطائفية............ ١٠٥
من أجل بناء مجتمع قويّ ومحصّن................................ ١٠٧
سابعاً: مسؤولية الحكومات في تشجيع حالة الحوار بين أطياف الوطن........ ١١١
عقلنة المجال الديني ١١٣

الفصل الثالث: حول مسألة التقريب في خطاب الشيخ الصفار..... ١١٧

أولا: أنشطة التقريب بين النجاح والفشل.................................. ١١٩
القطيعة وسبل تجاوزها ١٢٠
التقريب ومكامن الإخفاق والفشل ٣٢١
التواصل والحوار العلمي والمعرفي................................ ١٢٥
ثانياً: الثابت والمتحوّل في العلاقة بين المذاهب الإسلامية ١٢٩
التقريب وهواجس التنازلات...................................... ١٢٩
الأولويات وتشخيصها... ١٣٣
التقريب من أجل التعايش ١٣٤
ممارسة التقريب قولا وعملا ٧٣١
ثالثاً: الصراعات الطائفية وتمهيد ظروف معالجتها ١٣٩
التقارب عمل استراتيجي ١٤١
سياسة رأب الصدع ١٤٣
رابعاً: في ضرورة نشر ثقافة التقارب والتواصل.............................. ١٤٥
التواصل لتنمية روح التآلف ٦٤١
كسر حواجز القطيعة ١٤٩
من أجل حوارات منتجة.. ١٥١
خامساً: قيم التعددية والاختلاف والتنوع كمصدر قوة وإثراء ١٥٥
التنوع الخلاق أو الخراب ٧٥١

إدارة التنوع والاختلاف ١٦٠

الفصل الرابع: إشكاليات التعصب والاستبداد والحرية ٥٦١

أولاً: العصبية القاتلة ١٦٧

الموقف من التنوع ٨٦١

احتكار الحقيقة ١٦٩

ثانياً: تاريخية الاستبداد والتعصب ١٧١

لا إكراه في الدين ١٧٢

التاريخ بين الواقع والمثال ١٧٥

صور الماضي في تفكير النخبة ٦٧١

الفجوة بين تاريخ المسلمين وجوهر الدين ١٧٧

نقد الاجتهاد الديني ١٨٠

في نقد تاريخ الاستبداد ١٨١

مراجعة تاريخنا ونقده ١٨٣

ثالثاً: الإرهاب الفكري والوصاية على العقول ١٨٥

حق الاجتهاد وحرية الفكر والمعرفة ٦٨١

صراع الاتجاهات وحقّ الاختلاف والتعدد ١٨٨

الخوف المرضي من الرأي الآخر ١٩٠

لا للإرهاب الفكري ١٩٢

رابعاً: الحرية في الإسلام ١٩٧

ضمور قيمة الحرية ١٩٩

مفهوم الحرية ٢٠١

موقف الإسلام الصريح من حرية الاعتقاد ٢٠٣

بين الواقع والمثال ٢٠٥

خامساً: أثر الأخلاق الفاضلة والآداب الحسنة في نيل المطالب ٢١١

كيف تنتشر الأفكار؟ ٢١٢

ضرورة التأسيس لمنظومة مبادئ وضوابط أخلاقية جديدة ٢١٣

غرس القيم في الأجيال الناشئة ٧١٢
معوقات التغيير ٢٢٢
سادساً: بين أخلاقيات التعصب وأخلاقيات التسامح ٢٢٥
القبول بتفاوت درجات الإيمان ومستوى التدين ٢٢٦
التمتع بحصانة الإسلام ٢٢٨
التخلق بأخلاق الدين ومعاييره ٢٣١
التغيير الجذري ٢٣٣
من المسؤول عن مكافحة ثقافة التكفير والتعصب؟ ٢٣٦
الفصل الخامس: من أجل تأسيس مفاهيم جديدة وخلق وعي ٢٣٩
أولا: من أين يبدأ التغيير ٢٤١
الإصلاح السياسي أولا ٢٤٢
ثانياً: حول أصالة المفاهيم الحديثة ٢٤٥
لماذا تَغيب أو تُغيب المفاهيم والقيم الأصيلة؟ ٢٤٦
ثالثاً: من أجل قراءة معاصرة لمفاهيم الدين وقيمه ٢٤٩
نحو قراءة جديدة لمفاهيم الدين وقيمه ٠٥٢
التوظيف المعاصر لتعاليم الدين الفاضلة ٣٥٢
رابعاً: قيم الحوار والحاجة إلى تفعيلها وتجسيدها ٢٥٧
القبول بالرأي الآخر واحترامه ٢٥٨
الحوار كوسيلة للتعارف ٢٦١
الحوار بين أبناء الوطن الواحد ٢٦٤
خامساً: في ضرورة إحياء مفاهيم الوحدة والأخوة والتقارب وتجديدها ٢٦٧
وحدة الأمة ضرورة استراتيجية دائمًا وليس عملا مرحليًّا مؤقتًا ٩٦٢
الوحدة كالتزام ديني ٢٧٣
الوحدة كقيمة حضارية ٢٧٧
سادساً: تحقيق مفهوم المواطنة ٢٨١

تجسيد مفهوم المواطنة ٢٨٢
الدولة وضرورة الإعلاء من قيمة مفهوم المواطنة ٢٨٥
مفهوم المواطنة في أبحاث الفقهاء ٢٨٨
سابعاً: تبني قضية حقوق الإنسان وتعميم ثقافتها ٢٩١
حقوق الإنسان بين القرآن والفقه ٢٩٣
مشكلة سياسات التميز الطائفي ٢٩٥
ثامناً: ثقافة التعبئة المذهبية والتحريض على الكراهية ٢٩٩
ضرورة تجريم ثقافة الكراهية والتحريض عليها ٣٠٠
تاسعاً: التواصل الاجتماعي وكسر حواجز القطيعة ٣٠٥
التعدد المذهبي ليس حائلا أمام الاندماج والترابط الاجتماعي ٣٠٧
الاختلاف المذهبي لم يكن حائلا أمام حالات التزاوج ٣٠٨
عاشرًا: التعايش من أجل البناء والتعمير ٣١١
التعايش طريق إلى التنمية والتقدم ٣١٣
أحد عشر: إقرار التعددية الفكرية والسياسية والدينية ٣١٩
موقف الإسلام من حالات التنوع والتعدد ٣٢٠
التعدد وخيار التعايش ٣٢٢
التنوع والتعدد حقيقة دينية ٣٢٥
التنوع من أجل التعارف والتواصل الإنساني ٦٢٣
التنوع الإنساني والتنافس الإيجابي ٣٢٧
التنوع الثقافي الخلّاق ٣٢٨
اثنا عشر: التعرف إلى الآخر والتحاور معه ٣٣١
القطيعة المعرفية ٣٣٢
العلاج المعرفي ٣٣٤
دكتاتورية الرأي الأوحد ٣٣٥
البحث عن حقيقة الرأي الآخر بالحوار معه ٧٣٣
شروط الحوار وآدابه ٣٣٨

ضرورة التواصل والتلاقي وكسر حالة القطيعة ٣٤٠

الفصل السادس: المسألة الطائفية والتدخلات الخارجية......... ٣٤٥

أولا: الاستثمار الخارجي في الضعف الداخلي ٣٤٧

لماذا تنجح المؤامرات الخارجية؟ ٨٤٣

تصليب الوحدة الداخلية ورص الصفوف ٣٥١

ثانيا: الإصلاح والتغيير بين الإرادة الذاتية والتوسل بالخارج ٣٥٥

الإصلاح الذاتي.......................... ٣٥٧

قطع طريق التدخلات الخارجية وتفويت الفرصة عليها ٩٥٣

الفصل السابع: المسألة الطائفية والإصلاح الديني................. ٣٦٣

أولا: نقد التراث وإعادة كتابة التاريخ من جديد ٣٦٥

مرتكزات التأصيل عند الشيخ الصفار ٣٦٦

الحاضر وأعباء صراعات الماضي.......................... ٣٧١

مراجعة التراث وتجديده ٢٧٣

ثانياً: التراث والنقد الذاتي.......................... ٣٧٩

ثالثاً: تجديد الخطاب الديني.......................... ٣٨٣

الفصل الثامن: المسألة الطائفية والإصلاح الثقافي ٣٨٧

أولا: المسألة الطائفية بين التثقيف السلبي والتثقيف الإيجابي.......... ٣٨٩

التحصين الثقافي.......................... ٣٩١

المجال السياسي وصياغة العقول ٣٩٤

تطوير مناهج التعليم وترقيتها.......................... ٣٩٧

ثانياً: النقد والمراجعة كضرورة لتجديد البنية الثقافية ٤٠٣

النقد وتفعيل الحراك الاجتماعي ٥٠٤

التنافس الخلّاق بين الأفكار.......................... ٤٠٨

حرية التنافس بين الأفكار ٤١١

حقّ الاختلاف وشرعية الاجتهاد.......................... ٤١٢

الاعتراف بوجود آخر والانفتاح على أفكاره ٤١٦
ثالثاً: التنمية الإنسانية كأساس للنهضة الثقافية ٤١٩
الاهتمام بتنمية طاقات وثقافة الأجيال الشابة ٤٢١
أهمية دور المرأة في التنمية والحراك الاجتماعي ٤٢٤
الارتقاء بالإنسان هو الغاية ٤٢٧

الفصل التاسع: المسألة الطائفية ومسؤولية النخبة ٤٢٩

أولا: في دور النخبة الإيجابي ٤٣١
ثانياً: في دور النخبة السلبي ٤٣٧
ثالثاً: في ازدواجية خطاب النخبة ٤٤٥
رابعاً: النخبة ومشكلة التواصل فيما بينها ٤٤٩
خامساً: من الأقوال إلى الأفعال ٤٥٣
سادساً: النخبة وتحمل مسؤولية التغيير ٤٥٩
سابعاً: النخبة وعدم اليأس من نتائج العمل ٤٦٣
ثامناً: دور النخبة في التعبير عن هموم وتطلعات الأمة ٤٦٥
خاتمة ٤٧١
مصادر كتب الشيخ حسن الصفار ٤٧٩